إعادة اكتشاف
تاريخ النوبة القديم

جيوفاني فانتيني

إعادة اكتشاف تاريخ النوبة القديم

تأليف

الأب الدكتور جيوفاني فانتيني

تعريب وتحقيق ومراجعة وتنقيح

الأب الدكتور فيلوثاوس فرج والأب جورج نارانخو

والعقيد محمود عبده محمود والدكتور أحمد الصادق أحمد

إصدار



كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا

الخرطوم ٢٠١٣

"سلسلة كمبوني التربوية العدد ٢"

First published in Italy, 1981 as: *Christianity in the Sudan*, by EMI, Bologna

Secondly published as a completely revised, enlarged and reset edition in 2009 as: *Rediscovering Christian Nubia*, by Edizioni Nigrizia, Verona (Italy)

أصدرت كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا هذه النشرة العربية. ويُطلب هذا الكتاب من:

كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا، شارع القصر، الخرطوم.

ت: 891 87 07 12 249+

E-mail: combonieducationseries@hotmail.com

فهرسة المكتبة الوطنية – السودان

962.4 جيوفاني فانتيني، 1923–

ج. إ

أ. العنوان. إعادة إكتشاف تاريخ النوبة القديم/ جيوفاني فانتيني

.– الخرطوم: مطبعة الحياة الجديدة، 2010

220 ص ؛ 24 سم.

ردمك : 978-99942-955-1-7

1.السودان – تاريخ-مملكة النوبة المسيحية.

2.السودان – آثار.

رقم الإيداع: 2010/130

المحتويات

الفصل الثامن عشر: الاتصالات بين النوبة والصليبيين

الفصل التاسع عشر: النوبة في عهد بني كنز

الفصل العشرون: أفول نجم المسيحية في بلاد النوبة

الفصل الحادي والعشرون: تراث النوبة المسيحية

الفصل الثاني والعشرون أحدث الاكتشافات في دنقلة العجوز

الفصل الثالث والعشرون: أماكن أخرى تمت فيها اكتشافات مُتنوعة

الفصل الرابع والعشرون: أماكن اشتهرت إثْرَ اكتشافات في النوبة المسيحية

تقديم

مدير الهيئة العامة للآثار والمتاحف

الدكتور حسن حسين إدريس

نالت أرض النوبة السودانية اهتماما كبيرا من علماء الآثار والتاريخ لما تمتاز به من موقع متميز في القارة الأفريقية جعل لها حضارة عريقة منذ فترة ما قبل التاريخ مرورا بممالك كرمة، نبتا، مروي والممالك المسيحية، نوباتيا، المقرة[1] وعلوة والحضارة الإسلامية.

وبينما اهتم بعض العلماء بفترات ما قبل التاريخ والممالك النوبية كان اهتمام العالم والمؤرخ والأخ الصديق جيوفاني فانتيني بالفترة المسيحية في السودان.

ويستعرض المؤلف في هذا الكتاب الكثير عن الديانة والثقافة المسيحية بمنطقة النوبة بوادي النيل بعد أن استعرض ما سبق ذلك من حضارة شهدت آثار الدفوفة بمملكة كرمة وجبل البركل وأهرام نوري والبركل وآثار مملكة مروي والبجراوية والنقعة والمصورات الصفراء. ثم يصف للقارئ بصورة علمية مبسطة دخول المسيحية للسودان وآثار من منطقة النوبة التي تأثرت بقيام السد العالي والحملة العالمية لإنقاذ تلك الآثار، ثم يتناول التطور خلال فترة حكم النوبيين للفترة (٥٠٠م- ١٥٠٠م) وما شهدت من تطور معماري من كنائس وأديرة بدنقلا العجوز وفرص ومباني إدارية وغيرها في شمال وأواسط السودان.

لقد كان الأستاذ فانتيني محبا للآثار وكان يزور متحف السودان القومي مرافقا للزوار والطلاب وقد عرفني به البروفسير نجم الدين محمد شريف المدير الأسبق للهيئة العامة للآثار والمتاحف نهاية السبعينات من القرن الماضي ومن ثم تواصلت العلاقة كما التقينا به في مؤتمرات عالمية.

كان مهتما ومحبا لحضارة السودان بصورة عامة وحضارة النوبيين بصورة خاصة ويقضي كل وقته مع أصدقائه وخلافه بقاعة الفترة المسيحية بمتحف السودان القومي. ويسرني أن أدعو الجميع إلى دراسة هذا الكتاب وبصورة خاصة طلاب الدراسات العليا حتى تجد الفترة حظها من البحث العلمي لأهميتها في تاريخ السودان والإقليم والعالم.

الخرطوم، يناير ٢٠١٠

[1] ملاحظة المحقق: ونجد الكتابة الآتية لهذه المملكة أيضا في بعض النصوص العربية: المُقُرّة.

مقدمة

الأب الدكتور القمص فيلوثاوس فرج

أستاذ الدراسات السودانية

كنيسة النوبة وكنيسة الإسكندرية

لؤلؤة أفريقية

إن كنيسة الإسكندرية وهي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، تُعد لؤلؤة إفريقية، من كل جنب في جنباتها ترى جمالا نادرا يتلألأ، ولقد سال من جانبها الأيمن دم وماء انطلاقاً مما حدث للسيد المسيح على الصليب، وصار جنبها الأيمن ملكوتا مفتوحا لكل بلاد العالم، ملكوتا روحيا فتح الجنب المفتوح على ملكوت السموات، وملكوت الرهبنة والتي على غرارها كانت الرهبنة في كل بلدان العالم، وملكوت اللاهوت حيث قدمت كنيسة الإسكندرية أرقي الصيغ اللاهوتية، وصارت قضايا اللاهوت لا تجد الحلول سوى في أبناء كنيسة الإسكندرية حيث وضعوا قانون الإيمان الذي تحفظه وترعاه كل كنائس العالم والذي سمي باسم أحد أبنائها وهو أثناسيوس أو القانون الأثناسيوسي، واحتضنت كنيسة الإسكندرية قضايا الأبدية والحياة الأخرى، وصار أبناؤها وبناتها لديهم استعداد أن يتنازلوا عن أملاكهم وثرواتهم ولا يفقدوا أبديتهم، وانطلقت كنيسة الاسكندرية إلى كل بلدان العالم يحملها الجنود الأشاوس مثلما الكتيبة الطيبية، ويحملها البنات الفضليات مثل القافلة الصحية التي كانت مع الكتيبة الطيبية، وعندما رفض أبناء الإسكندرية السجود لآلهة الملك رووا بدمائهم شوارع أوربا، وسمي شارع باسم القائد الحربي موريس، وبنيت كنيسة باسم فيرونيا ممرضة الكتيبة الطيبية، وهكذا كانت رسالة التجار الاتقياء في تقديم المسيحية.

وكان لكنيسة الإسكندرية بنات جميلات هادئات مؤمنات تائبات، والكنيسة تلد كنيسة، وقد كانت كنيسة الاسكندرية أمًّا حنونًا لكنيسة ليبيا الفتية، وأمًّا تمتلئ حبا لكنيسة أكسوم، وأمًّا تتلألأ أمجاد الكنيسة وأديرة دارفور.

وتعد كنيسة الإسكندرية أمًّا رؤوما لكنيسة النوبة التي نحن الآن بصددها، ويسعدني أن أقدم كتاب الأب الدكتور جيوفاني فانتيني عن كنيسة النوبة، التي كان الراهب الوقور يزيد حباً فيها، وعشقاً لها، وكان حتى أواخر حياته يذهب إلى متحف السودان القومي ويجول في القسم المسيحي فيه، كما كان يذهب إلى وارسو كي يتمتع بآثار النوبة المسيحية التي حتى الآن تملأ متاحفها الجميلة، كما كان يسافر إلى وادي حلفا، وإلى دنقلا مع بعثات

استكشاف آثار السودان، وأسجل هنا أعجابي بلجنة الخرطوم عاصمة الثقافة ٢٠٠٥م، وكنت عضوًا فيها واقترحت أن تعاد طباعة كتاب الدكتور جيوفاني لكي يكون موكب الخرطوم عاصمة الثقافة، ووافق المجتمعون، ولكن المؤلف رفض لأنه كان يعد للسودان هذا الكتاب الذي أقدمه الآن.

وأعترف هنا بادئاً ذي بدء أنني استفدت جدا بكتاب الأب فانتيني، وتتلمذت على كتابه الموسوم: "تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث"، وأعتقد أن الراهب الوقور هو من أوائل من طبعوا كتابهم في السودان وكان قادرا من خلال مؤسساته الدينية أن يطبعه في موقع آخر أكثر تطورا، لقد طبعه في مطبعة التمدن سنة ١٩٧٨م، وكنت أحياناً ألقاه وهو مشغول بمراجعة مسودَّات الكتاب في صبر وطول أناة.

ومن فرط أعجابي بهذا الكتاب كنت أشتري النسخ العديدة منه، وأقدمه هدايا لكبار الضيوف، وأذكر أنني ذات مرة أردت أن أقدم هدية نادرة للبروفسور السير مجدي يعقوب، وكان ضيفاً كريما على رجل كريم، رجل نوبي، شامخ كنخيل حلفا، مبدع وكأنه مزروع على نهر الإبداع، إنه البروفسور أحمد عبد العزيز، فأشار علي بكتاب الاب فانتيني، وذهبت إلى مقر سكن الراهب العالم وأعطاني كتابه باللغة الإنجليزية، وكان مجدي يعقوب سعيدا جدا به، فقد اكتشفت أنه من عشاق تاريخ النوبة المجيد.

ويسعدني أن أقدم اليوم لقارئ الكتاب بحثاً عن علاقات كنيسة النوبة المجيدة وتاريخها المشرف مع كنيسة الإسكندرية، وكل هذا من مرجعه الشيق، ومن محاضراته الثرة.

الكنيسة النوبية هي من أمجاد الكنيسة القبطية

تُعد الكنيسة النوبية وهي كنيسة السودان واحدة من أمجاد الكنيسة القبطية وذات صلة وثيقة بها فهي ابنة محبوبة للكنيسة القبطية، ولقد بدأ التبشير بالمسيحية بواسطة راهب قبطي هو يوليانوس أوفدته ملكة قبطية هي ثيودورا زوجة الإمبراطور جوستينيانوس، وبعد هذا رسم بطريرك الأقباط أسقفاً لبلاد النوبة هو الأسقف لونجينوس، وعندما وصل الراهب يوليانوس إلى بلاد النوبة كان ذلك في عام ٥٤٢[٢] وتقابل مع ملك النوبة السفلى سلكو ونجح في مهمته، وقد تمكن من إقناع الحكام والمحكومين بالإيمان المسيحي لكي يحقق النقلة الروحية من الوثنية إلى المسيحية.

وكان يشرح مبادئ الديانة الجديدة يومياً ولمدة طويلة وكان طول النهار يتحدث من التاسعة صباحاً حتى الرابعة ظهراً[٣]. والطريف حول تبشير النوبة إن الإمبراطور جوستينيانوس قصد أن يبشر بالمسيحية وسط الأساود وهى جمع أسُود(black) وليس أسد، وقرر أن يرسل إليهم مبشرين من مذهبه الملكاني والذي ينسب إلى الملك وينتسب إليه الملك، وكانت المسيحية قد انقسمت منذ مجمع خلقيدونية إلى كنيستين ملكانية وأرثوذكسية وتسمى يعقوبية.

[٢] شوقى الجمل، تاريخ سودان وادي النيل حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور للوقت الحاضر، ١٩٥٢، الجزء الأول، ص ٢٠٦.
[٣] جيوفاني فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم ١٩٧٨، ص ٤٩.

وعندما فكر الإمبراطور في أمر التبشير سارعت زوجته في إرسال بعثة برئاسة راهب قبطي يعقوبي وبهذا سبقت مبادرة زوجها وكتبت خطاباً إلى حاكم صعيد مصر تطلب منه تسهيل مهمة الراهب المبشر وتهدده بأشد العقاب وهو ضرب العنق، وتطلب منه أن يضع العراقيل أمام موفي الإمبراطور ليحول دون دخولهم نوباطيا[٤] . واعتقد أن مسألة ضرب العنق مبالغ فيها لأن الإمبراطورة كانت قبطية أرثوذكسية، وتعرف ما قاله السيد المسيح لبطرس عندما أراد أن يدافع عنه بالسيف: "يا بطرس الذي يأخذ بالسيف بالسيف يؤخذ".

وقد كان فلقد قوبل الوفد القبطي بحفاوة وذهب قبل وفد الإمبراطور وتم قبول المسيحية على يديه وعندما وصل وفد الإمبراطور رفض ملك النوبة مذهب الوفد رغم إنه رحب به ترحيباً حاراً، وإنزوى الوفد الملكاني في منطقة محددة هي بلدة " تافة" وبعد هذا أرسل ملك علوة إلى ملك نوباطيا لكي يعلمه وشعبه الدين الجديد ووصل إليه لونجينوس بعد عناء شديد، وهكذا صارت المسيحية على حسب عقيدة الإمبراطور لها موقع صغير وضعيف، وعلى مذهب زوجة الإمبراطور القبطية وصل كثيرين حتى جاء وقت توقفت فيه الكنيسة الغربية عن إرسال خدام، وصارت النوبة بممالكها الثلاث تدين بالمسيحية على الإيمان القبطي الأرثوذكسي اليعقوبي.

وصار بطريرك الإسكندرية يرسم أساقفة أقباط ويرسلهم إلى بلاد النوبة والتي كانت ثلاث ممالك هي: مملكة نوباطيا ما بين الشلال الأول بأسوان حتى آخر الشلال الثانى المعروف ببطن الحجر وهي التى يعرفها بعض الكتاب العرب باسم المريس وعاصمتها فرص. ومملكة المقرة الواقعة ما بين الشلال الثاني والشلال الخامس بقرب مدينة بربر وعاصمتها دنقلا. أما المملكة الثالثة فهي مملكة علوة الواقعة ما بين الشلال الخامس إلى ملتقى النيلين، وجزء من الجزيرة وعاصمتها مدينة سوبا.

وقد اندمجت مملكة نوباطيا مع مملكة المقرة خلال عهد الملك مرقوريوس (٦٩٧-٧٤٤) وصارت العاصمة هي دنقلا العجوز وإن كنت لا أوافق على لقب عجوز إنما يمكن أن تسمى دنقلا القديمة أو العتيقة مثل مصر العتيقة أو القديمة. وإذا كان الملك مرقوريوس هو الذي ضمّ المملكتان معاً في أوائل القرن الثامن، فإن هذا الملك كان تابعاً لعقيدة بطريرك الأقباط، وهنا يرى بعض العلماء إنه في أيامه انتقلت كل الكراسي الأسقفية بالنوبة إلى رئاسة بطريرك الإسكندرية القبطي الأرثوذكسي، وهذا ما كتبه سعيد بن البطريق المتوفي سنة ٩٣٩ إنه منذ الوقت الذي هرب فيه جرجس البطريرك الرومي إلى القسطنطينية في السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٦م حتى السنة السابقة من خلافة هشام بن عبد الملك ٧٣١ كان كرسي الإسكندرية بغير بطريرك ملكي مدة سبعة وتسعين سنة، فتغلب اليعقوبية الأقباط على جميع الكنائس بمصر والإسكندرية.

واحتاجت النوبة إلى أساقفة فرسم لها بطريرك اليعقوبية أساقفة من طائفته فصارت النوبة منذ ذلك الحين تابعة

---

[٤] فانتيني، المرجع السابق، ص ٤٦، ٤٧.

للكنيسة اليعقوبية[٥]. وبهذا أصبحت الكنيسة القبطية صاحبة النفوذ الوحيد فى بلاد النوبة ويبدو إن مقرة عندما زال نفوذ الملكانيين في مصر وانقطع إرشادهم الروحي تحولوا إلى المذهب اليعقوبي حيث اتصلوا بالكنيسة القبطية صاحبة السيطرة على الدين المسيحي[٦] وهذا يعني إن كل بلاد النوبة طولاً وعرضاً كانت تحت مظلة الكنيسة القبطية، ولا شك إن هذا كان سبباً في مجئ أقباط من مصر ليعيشوا في السودان، ويصبحون من أقباط السودان، ويستقرون ويتكاثرون، وهؤلاء منهم رجال دين وقساوسة، وكان الأسقف قبطياً يعينه البابا ويرأس إيبارشية هي مساحة محدودة.

وكان يحضر مع الأسقف رهبان وكان يأتي إلى النوبة رسامين وفنانينو خزافين وبنائين وحدادين ونجارين، وكانوا يعملون في تشييد الكنائس التي وصلت إلى عدد كبير، ويعمرون أديرة الرهبان، وكان هناك مترجمين كانت تحفتهم ترجمة الكتاب المقدس من اليونانية إلى اللغة النوبية هذا ونذكر هنا أن اللغة النوبية كتبت بحروف قبطية بينما اللغة القبطية تحتوي على ٢٥ حرفا يونانيا ولهذا يحدث الخلط عند الباحثين بين القبطية واليونانية وهكذا صارت كنيسة النوبة على غرار الكنيسة القبطية مبني وإدارة. كنائس تبني نحو الشرق وتزين بصور القديسين في حامل الأيقونات والذي يشترط فيه وضع الصور بطريقة معينة مثل الإثني عشر تلميذاً، ووضع صورة السيد المسيح على اليمين والعذراء على يمين السيد المسيح، جلست الملكة عن يمين الملك[٧]. وبدأت الرهبنة القبطية في داخل أديرة ممالك النوبة المسيحية، فقد كان بجوار كاتدرائية فرص دير يعود بناؤه إلى سنة ٧٠٠م، ودير آخر في جزيرة مرقس (على اسم كاروز الكنيسة القبطية) في دابور، ودير كبير في وادي أبو دوم المعروف بالغزالي في مركز مروي، وعدد كبير من الأديرة نذكر منه دير أبو نفر السائح[٨].

ويقول المؤرخ العربي المسعودي: "أما النوبة فافترقت فرقتين فرقة في شرق النيل وفرقة في غربه، وأناخت على شاطئيه فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد في بلاد أسوان، واتسعت مساكن النوبة التي على شاطئ النيل حتى لحقوا بأعاليه وبنوا دار مملكة عظيمة أسموها سوبا"[٩].

وعثر في كنيسة فرص على وثيقة هامة جداً بها قائمة أسماء لسبعة وعشرين مطراناً لأساقفة فرص، وكل أسقف أمامه تاريخ رسامته وتاريخ نياحته، منتقلا إلى العالم الآخر، وهذه القائمة محفوظة في متحف السودان القومي، والأسماء للأساقفة أسماء قبطية، وأغلبهم من أديرة مصر[١٠]. ورغم إن إيبارشيات النوبة لم نعرف عددها ولكن ذكر القس منسى يوحنا: "إنه كان بالنوبة سبعة عشر أبروشية أيام أن كان أهلها يدينون بالمسيحية"[١١]. وفي إعتقادي: إن

---

[٥] فانتيني، المرجع السابق، ص ٧٥، ٧٦.

[٦] مكي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ص ٢٦.

[٧] القمص تادرس يعقوب، الكنيسة بيت الله، إسكندرية.

[٨] القمص فيلوثاوس فرج، أطروحات سودانية، خرطوم بحري ٢٠٠٦م، من صفحة ٢٢٧،٢٠٨.

[٩] صلاح محيي الدين، وقفات في تاريخ السودان، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م، ص ١٢.

[١٠] فانتيني، المرجع السابق، ص ٥٨، ٥٩.

[١١] القس منسى يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة المحبة، ص ٤٩٨.

كماً هائلا من المعلومات موجود في أضابير متاحف الخارج، وهذا يحتاج إلى إهتمام المؤسسات التاريخية والتي تعنى بتاريخ السودان في الجامعات والمؤسسات الثقافية. والاهتمام يأتي بحثاً ودعماً للبحث حتى نعرف ما ينبغي أن نعرف عن تاريخ السودان وعلى الأخص في العصر المسيحي والذي يمتد إلى ألف عام، بدءاً بالقرن السادس الميلادي حتى دخول الفونج فى القرن السادس عشر.

بداية المسيحية في السودان

على إننا نعلم إن المسيحية لم تبدأ في القرن االسادس بالتحديد وأيضا لم تنته في القرن السادس عشر. إن المسيحية في بلاد النوبة وهي ترتبط ارتباطاً شديداً بالكنيسة القبطية ترجع بدايتها إلى عام ٣٧م ويُعد خصى الملكة كنداكة المذكور في الأصحاح الثامن من سفر أعمال الرسل هو أول نوبي مسيحي أو أول سوداني آمن بالمسيحية. وكان هذا الخصى وزيراً، والملكة كنداكة هي الملكة المروية ملكة كبوشية، ولقد ذهب إلى أورشليم وهناك التقى بالمبشر فيلبس الذي تحدث معه عن الإيمان المسيحي، وكان السوداني يقرأ في الكتاب المقدس سفر أشعياء تأكيداً بأن المواطن السوداني مريض بحب القراءة منذ أيام سحيقة. ولكن يبدو إن هذا الوزير لم يبذل مجهوداً فى نشر المسيحية بعد عودته إلى بلاده، ربما ابتلعته مشاغل كرسي الوزارة، وزارة المالية، وربما بدأ المسيحية في وسط أسرته في مروي[12].

ويقول سنكسار الكنيسة القبطية: إن القديس متى تلميذ المسيح كاتب إنجيل متى بشر في بلاد الحبشة، وإن فيلبس تلميذ المسيح وهو غير فيلبس المبشر قد أتى إلى بلادنا مبشراً بالمسيحية وهناك عوامل أخرى جعلت دخول المسيحية إلى النوبة قبل الدخول الرسمي من بينها النشاط التجاري الذي كان يعمل به الأقباط مع غيرهم، وهروب بعض الناس من الإضطهاد الذي شنه أباطرة الرومان، وهروب بعض الرهبان إلى السودان عندما فرضت عليهم الجزية والضريبة حتى إن كثيرون يرون بأن جبل الأولياء كان مقراً للعدد الكبير من الرهبان الذين هاجروا إلى السودان فراراً من قسوة الإضطهاد، وإنهم إعتكفوا فى كهوف صغيرة، وقطاطي متواضعة، وكانت لهم علاقة طيبة مع أهل السودان، كانوا عوناً لهم بالصلاة أمام ضيقات الحياة، واعتبرهم أهل السودان من أولياء الله الصالحين، ولذلك أسموا المنطقة التي يسكنون فيها "جبل الأولياء".

هذا عدا النُساك الذين بدون اضطهاد يرغبون في حياة الإختلاء في الأماكن المقفرة، ووجدوا في الصحارى المقفرة ملاذهم وفيها مارسوا النُسك والتقشف. وتذكر أسوان وهي كلمة تعني السوق وكانت مقراً للتبادل التجاري بين مصر والسودان. وكان في أسوان عدد كبير من اليهود الذين يعملون بالتحارة، وتقول دائرة المعارف الكتابية:

---

[12] فانتيني، ص ٤٠، ٤١.

إنهم جالية مكونة من مليونين، ويقول فانتيني: "إنهم يبلغون مليون نسمة"[13]. ولا شك إن بعضاً من هؤلاء كان يذهب إلى أورشليم للحج هناك وبعضهم بكل تأكيد حضر يوم حلول الروح القدس على التلاميذ وسمع عظة بطرس والتي كان الإعجاز فيها إن بطرس يتكلم بلغته هو وكل مستمع يسمع كلام بطرس باللغة التي يتكلم بها[14]. وهذا اليوم هو يوم مولد الكنيسة المسيحية والتي ضمت ثلاثة آلاف نفس كبداية، وعند عودتهم إلى بلادهم قاموا بتأسيس كنائس فيها، وكان اليهود والأقباط يعملون بالتحارة ولابد إن بعضاً منهم سكنوا بلاد النوبة أو أقاموا فيها إقامة مؤقتة لإنعاش تجارتهم، وهكذا نرى إن أسباباً كثيرة تؤيد وجود المسيحية فى بلاد النوبة قبل القرن السادس والذي جاء فيه مبشر من الكنيسة القبطية واستقر في النوبة وبدأت أول كنيسة في قصر الملك النوبي.

المسيحية لم تتوقف في القرن السادس عشر

وعلى نفس المنوال نقول: إن المسيحية لم تتوقف في القرن السادس عشر، لقد تغير الأمر عندما ملك أول ملك نوبي مسلم عرش بلاد النوبة في يوم ٢٩ مايو ١٣١٧م واسم الملك برشمبو وقد أقام مسجداً في قصره[15] وهناك ما يدل على إن المسيحية ظلت باقية ونذكر هذه الأدلة:

١. في حفريات قصر إبريم وجبل أدة ظهرت مملكة صغيرة أو إمارة تسمى "دوتاو" باللغة النوبية ومعناها منطقة ألدو السفلى، وكانت تقع بين الشلال الأول والشلال الثاني ومركزها بين إبريم وجبل أدة وهناك أكتشفت وثائق أثرية تذكر أسماء ثمانية ملوك وأساقفة وبعض من رجال الكنيسة الذين كانوا يلعبون دوراً أساسياً فى إدارة المملكة، وهذه شعبة من ملوك دنقلا وظلت باقية حتى سنة ١٤٨٤ على الأقل[16].

٢. في إبريم اكتشفت سنة ١٩٦٥م وثيقة تنصيب المطران تيموثاوس مطران إبريم وفرص المؤرخة في سنة ١٠٨٨ للشهداء الموافق ١٣٧٢م وهي مكتوبة باللغتين القبطية والعربية وفيها توقيع البطريرك جبرائيل[17] وبالرجوع إلى قائمة البطاركة وجد اسم هذا البابا غبريال الرابع (١٣٧٠-١٣٧٨) وهو البابا رقم ٨٦[18].

٣. تشير الآثار إلى قيام إمارات أخرى غير مملكة دوتاو حيث تثبت وثيقة قبطية اسم الملك باسليوس ملك العمري، وهذا يدل على وجود إمارة أخرى بهذا الاسم[19].

٤. في منطقة بطن الحجر وهي ذات جبال متعددة وجزر ومساقط مياه وهي بقعة حصينة تعني إن المنطقة بعد

---

[13] المرجع السابق، ص ٤١.
[14] أعمال الرسل، ٢.
[15] فانتيني، ص ١٩٩.
[16] فانتيني، ص ١٩٠. راجع: وليم آدمز، النوبة رواق أفريقيا، ٢٠٠٥م، ص ٤٧٠-٤٧٢.
[17] فانتيني، ص ١٩٠.
[18] المرجع السابق، ص ١٩٠.
[19] المرجع السابق، ص ١٩١.

انتهاء مملكة دنقلا ظلت على المسيحية وفي "كوكب" اكتشفت كنيسة ذات آثار وصور تعود إلى عهد قريب وهي الآن موجودة في المتحف القومي بالخرطوم[20]، وكنائس هذه المنطقة كانوا يحجون إليها حتى بعد أن غمرتها الرمال الصحراوية، وقد اكتشفت كميات كبيرة من المباخر المتنوعة حول أسوار الكنائس.

٥. في سنة ١٧٤٢ أي في القرن الثامن عشر وفي جزيرة تنقاسي تجاه دنقلا كان هناك عدد من أهل النوبة قد بقوا على مسيحيتهم وزار بعضهم القاهرة واهتموا بشراء بعض الصلبان لذويهم في بلادهم وقالوا: إنهم ما زالوا على الاعتقاد المسيحي وذكروا أيضا إن بعض الاحتفالات المسيحية، ودفن الموتى تتم في بلادهم حسب الطقوس المسيحية[21].

٦. في سنة ١٥٢٠م دخل السودان الرحالة البرتغالي فرنسيسكو الفارز وكان سفيراً مفوضاً لدى النجاشي ملك أثيوبيا وكتب البرتغالي في تقريره: إن في بلاد النوبة مائة وخمسون كنيسة، وإنهم يبنون الكنائس داخل القصور، وقد أتى وفد من النوبة إلى النجاشي يطلب رجال دين من الحبشة ورفض النجاشي هذا لأنه هو نفسه يطلب رجال دين من مصر بلاد المسلمين[22].

٧. في رحلة دافيد روبيني عبر مملكة الفونج عام ١٥٢٢م زار روبيني مدينة سوبا، وفي تقريره أمام البابا وملك أسبانيا طالب بتوحيد قوات المسيحية الغربية لتوجيه حملة حربية على الأتراك الذين يهددون مملكة في شبه الجزيرة العربية. ويرى فانتيني إن هذه مملكة وهمية وبحسب إدعاء روبيني يملك على عرشها ملك اسمه يوسف وهو شقيق روبيني.

جاء في بعض روايات الرحالة إن بعض الأقباط السودانيين كانوا مقيمون في وطنهم السودان ويعملون كتاباً لدى ملوك سنار والمكوك أو يعملون تجاراً أو وكلاء للملوك لإستيراد البضائع من مصر[23]، وعندما دخل محمد على السودان ١٨٢٠م كان لا يزال بها ألوف من الأقباط، وعاد الذين تظاهروا بإنكار الديانة المسيحية إلى الاعتراف بها وطلبوا أن يرسم لهم أساقفة فرسم البابا بطرس الجاولي (١٨٠٩-١٨٥٢) لهم أسقفين على التعاقب وأرسلهما مع فيئة من الرعاة برضاء الهيئة الحاكمة[24] كما قالت البريطانية لويزا بوتشر في كتابها "تاريخ الكنيشة المصرية": "إن محمد علي عند دخوله للسودان وجد أسقفاً قبطياً وثمانية كنائس قبطية".

٨. حتى الآن توجد المسيحية عند أهل النوبة في عادات وتقاليد مثل ما يحدث في أربعين الولادة وغسل الطفل في ماء النيل معمداً معمودية يحيي أو يوحنا وتطهير المرأة الوالدة بماء النيل وطقس المارية الذي فيه يحملون الطفل بعد ميلاده بثلاثة أيام إلى نهر النيل للاغتسال وما يحدث عندما يلامسون المولود صبياً حسن الأخلاق ليلمس

[20] المرجع السابق، ص ١٩١.
[21] المرجع السابق، ص ١٩١.
[22] المرجع السابق، ص ١٩٤.
[23] المرجع السابق، ص ١٩٧.
[24] القس منسى يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٤٩٨.

الصبي شفتي المولود حتى تنتقل إليه الأخلاق الحسنة. وعند تعذر الولادة يجتمع النساء ويدعون بالصلوات العذراء مريم لكي تساعد الأم في الولادة، وما يحدث حتى الآن من رشم الصليب ووضعه في مدخل الأبواب وقاية من الحسد، وذكر إد السيد إبراهيم أحمد إبراهيم لفت نظر المراقبين إلى إن أهالي حلفا يصنعون الأطباق على شكل صليب قصداً منهم إبعاد العين الشريرة وما تلحق به الناس من ضرر[25].

وعندما يمرض أحد بمرض خطير يرسم بذبل البقر على صدرة بإشارة الصليب وعندما تذهب أم بطفلها إلى مكان لم يزره من قبل ترسم الأم إشارة الصليب على جبينها ثم على جبين الطفل. وعندما زار أحد الزوار الأجانب منطقة يمين فرح بدارفور وكان معه إنه أجرى لابنه طقس رشم الصليب على قميصه وعندما سأل الزائر ماذا تفعلون إذا لم يكن له قميص كان الرد يرشم الصليب على صدرة ويسمى هذا "برشام" بمعنى إغلاق أي طريق أمام الشيطان والعين الشريرة حتى لا تؤذي الطفل[26].

وفي دارفور نفسها وحتى الآن هناك طقوس تتم بمناسبة الزفاف حيث يتوجه العروسان مع زعيم القرية إلى الصخرة المقدسة وهي على رأس تل وهناك يذبحون خروفاً ويأخذ الزعيم من الدم ويضع راسماً إشارة صليب على الصخرة ثم على جبهة العروسين وكتفيهما من الأمام ومن الخلف وصرتيهما وركبتيهما ويربط برزمة من الأعشاب عنقيهما ومعصميهما وقدميهما، وهكذا يتم الاحتفال، وهذا شبيه بطقس قبطي قديم يسمى الحريرة، حيث يربط الزوجان معاً برباط من حرير ثم يجري احتفال لفك الحريرة.

وهذه الرشومات أيضا قد تكون راسباً لسر الميرون والذي فيه يمسح الطفل بعد المعمودية ويرشم ٣٦ رشماً على كل أجزاء جسمه. وفي اليوم السابع من الولادة يرسم الصليب على جبهة الطفل بالكحل والذي يعتقد إنه مفيد للعين. وفي جبال ميدوب وحتى الآن يتم تنصيب الملك الجديد بذبح خروف ويأخذ الكاهن من دم الخروف ويرشم الصليب على جبهة الملك وعلى الصخرة.

وفي موسم الأمطار يصعد الملك إلى تل عال مع وفد من الأهالي ويذبحون عنزة في قريتهم الكبرى التي تدعى "تورتي" وبعد تنظيف القربة يملأونها ماء من عين اسمها "أنويرو" ويحملون قربة الماء إلى الملك الذي يحمل جزءاً من الماء في موكب إلى كوخ هو قطية تحفظ فيه النقارة المقدسة ويبدأ الدعاء: ليمنحنا الله المطر، يا رب جد علينا بأمطار غزيرة، وعندما يصل الملك إلى الكوخ يدور حوله ويرشه بالماء، ويخرج النقارة ويرشها بالماء ويعيدها مكانها.

ويرش الملك جميع الحاضرين بالماء وكلهم متجهون نحو الشرق وهو الجهة التي تعتز بها الكنيسة القبطية منتظرة المجئ الثاني للسيد المسيح، فيدفن الميت وجهه نحو الشرق وتبني الكنائس نحو الشرق ويصلي المؤمنون نحو جهة الشرق. ويوزع الماء بركة على البيوت وهم يؤمنون إن هذه الصلوات على قمة التلال تنزل الأمطار، ومازال كل غرب

[25] مجلة السودان، في رسائل ومدونات، ١٩٣٨.
[26] فانتيني، ص ٢٠٣.

السودان يترنم منشداً أيام الأمطار: كيل كيل يا ميكائيل بالمد الكبير.

١٠. عند قبيلتَي "برتي" و"برقد" بدار فور نفس طقوس الدم والماء التي عند أهل ميدوب، ويعتقد أعضاء القبيلتين إن موطنهم الأصلي كان في وادي النيل بضواحي دنقلا ويثبت هذا الشبه بين لغتيهما واللغات النوبية بوادي النيل.

١١. قبيلة همج بالروصيروص على النيل الأزرق وهم أحفاد الهمج المسيحيين الذين سكنوا سوبا لديهم قسم يحترمونه يقولون فيه: "أحلف بسوبا دار الجد والجبوبة، اللي يطفح الحجر، ويغطس الكركعوبة". وهم يكرمون حتى الآن ذكرى سوبا، وعندما يحلفون يقف الحالف على كوم من النفايات ربما هذا رمز لدمار سوبا، ويقدم له قليل من الملح والرماد والدقيق من الذرة يذوقها ثم يلتقط من الأرض قطعة صغيرة من الخشب فوق رأسه ثم يؤدى القسم. وفي مناطق قبائل الأنقسنة توجد بعض القرى تسمى سوبا.

١٢. وعند قبائل البجا وقد قبلت المسيحية من الكنيسة القبطية أثناء المد الروحي في بلاد النوبة، ولكن ليس بنفس المستوى وقد اكتشف العالم "ولنكسون" سنة ١٨٢٨ آثار كنيسة في موضع يدعى أبو درج، وآثار أخرى في موضع خور نوبت بقرب بورتسودان تعود إلى عصر النوبة المسيحي ويستدل على ذلك من استعمال الطوب الأحمر والذي يُعد ميزة الإنشاء المعماري النوبي المسيحي، وهذا يؤكد وجود بعض الأديرة في الصحراء النوبية غرب النيل وهي أديرة على غرار أديرة الكنيسة القبطية وعلى نفس نظامها بل وبأسماء قديسيها مثل: دير أبو نفر السائح القبطي. وأعتقد إن الحفريات في حلفا قدمت الكثير وحفريات مروي سوف تقدم أكثر، وإننا لا نعلم سوى اليسير من تاريخ وطننا العظيم الذي تُعد المرحلة المسيحية جزءاً هاماً فيه.

١٣. أما أبو صالح الأرمني وهو من علماء القرن الثاني عشر وهو من الأرمن الذين وفدوا إلى مصر، وله كتاب اسمه "تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني" فإنه يتحدث بإعجاب شديد عن ممالك النوبة المسيحية والأديرة الجميلة فيها ويتحدث عن مدينة علوة التي هي سوبا وبها جيش ومملكة عظيمة جداً، وأربعمائة كنيسة، وهي شرقي الجزيرة الكبيرة بين البحرين الأبيض والأخضر، وجميع من بها من نصارى يعاقبة أي أقباط أرثوذكس، وحولها ديارات متباعدة من البحر، ومنها ما هو على البحر، وبها كنيسة عظيمة جداً متسعة محكمة الوضع والبناء أكثر من جميع الكنائس التي بها[27].

وفي ختام هذا الفصل أرجو أن أذكر القارئ بأن هناك تفصيلات أكثر وأجمل وأعمق عن كنيسة النوبة أفردت لها مقالات على صفحات الجرائد، جمعت في كتب متعددة تحت عناوين منها: النوبة وطن الذهب، النيل والسودان الأصيل، النيل أبونا والجنس سوداني، النوبة ملوكاً وشعباً، أنا سوداني، أطروحات سودانية، ولاية حلفا العتيقة، سوداننا زين، القادرون يحبون.

٢٧ مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية، مطبوعات جامعة القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٣٨.

تسميات السودان

وكان ينبغي في المقدمة أن نتحدث عن النوبة والتسميات التي سمي بها شعب السودان لأن اسم السودان هو اسم حديث أطلق من الأتراك على كل المنطقة التي يسكن فيها سود البشرة أو سمر البشرة، ولم يعرف الأتراك سوى السودان، وهو بوابة أفريقيا، ولكن أحداً لم يدخل هذه البوابة سوى الرحالة وهم قليلون. ولقد كان يطلق على أبناء النوبة إنهم أبناء كوش أو الكوشيون كما يطلق عليهم النيليون لأنهم يسكنون على ضفاف النيل...

وعندما تحدث الكتاب المقدس[28] عن أول مسيحي سوداني بأنه وزير الملكة كنداكة ملكة الحبشة كان المقصود هنا بالحبشة إنها السودان لأن كنداكة هذه هي الملكة " أماني تيري" ملكة كبوشية. كما أطلق على السودان اسم أثيوبيا هكذا كتب نعوم شقير كتابه "عن جغرافية وتاريخ السودان" في الباب الأول في تاريخ أثيوبيا وهو تاريخ البلاد منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ قبل الميلاد إلى دخول النصرانية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥م[29].

وقد كتب بروفسور سيد أحمد العقيد كتاباً عنوانه "أثيوبيا ومشروع التكامل بين دول وادي النيل" وتحدث عن معنى المصطلح فالحبش جنس من السودان وأحبشت المرأة بولدها إذا جاءت به حبشي اللون أي شديد السواد، أما أثيوبيا فهي كلمة أطلقها قدماء الإغريق على البلاد المتاخمة لحدود مصر مما يلي الشلال الأول[30]. في مملكة كوش وكانت ذات موقع كبير لا حدود لها، وكلمة أثيوبيا تعني ذوي الوجوه المحروقة أي سمر البشرة. وتأتي كلمة "يشنيا" بنفس المعنى. وجاءت فترة كان يطلق فيها على الحبشة الحالية أثيوبيا أو الحبشة فيما تخصص النوبة للسودان.

وعلى هذا عند دخول المسيحية إلى ممالك النوبة كانت للنوبة ثلاث ممالك، وللحبشة مملكة واحدة عاصمتها أكسوم، ويصر بروفسور عبد الله الطيب على إن الملك الذي لا يظلم الناس عنده هو ملك نوبي، ويجاريه في الإصرار بروفسور حسن غريب الله، ويقولون: إن المسلمين هاجروا مرتين إلى الملك النوبي في وطننا.

عمق إيمان الملوك والشعب

وعندما قبلت ممالك النوبة المسيحية ازدهرت المسيحية ازدهاراً كبيراً لمدة طويلة من الزمان وبعد هذا دخلت من الازدهار إلى الانحسار الذي فيه اختفت ممالك النوبة ولم يصبح الملوك من المسيحيين بل أتى إلى العرش أول ملك نوبي مسلم وبعدها توالي الانهيار والانحسار. وخلال العصر الذهبي للمسيحية كانت النوبة عميقة في الإيمان قوية في الإرادة المقدسة، فظهر بين أهل النوبة ملوكاً وشعباً أدباً مسيحياً رفيعاً. فالملوك أوقفوا بناء الأهرامات لأنهم قبل المسيحية كانوا يفهمون معنى الخلود بصورة تشوبها أفكار مادية، ولكنهم بعد المسيحية عرفوا إن الخلود لا يقتضي

٢٨ سفر أعمال الرسل، الأصحاح الثامن.

٢٩ نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، دار عزة للنشر، ٢٠٠٧م، ص ٢٩٥.

٣٠ سيد أحمد العقيد، مشروع التكامل بين دول وادي النيل، جامعة النيلين، ٢٠٠٥م، الفصل الأول، ص ٤-١٢.

بناء أهرامات وتخزين مأكولات إنما هو حالة انتظار أرواح حتى تأتي القيامة المجيدة التي هي نهار أبدي كامل فيها لا يجوعون ولا يعطشون ولا يظلمون ولا يظلمون بل يكونوا مع الرب في كل حين.

ودخلت المسيحية ديناً إلى أعماق الناس جعلت الملك متضعاً والمحكومين ملتزمين بالقيم الروحية فهي ديناً بمفردها عرضت قطعاً كاملا عن الماضي وقدمت إلهاً جديداً وغسلت رمزياً بماء التعميد التقاليد المتراكمة عبر ثلاث آلاف سنة ووهبت للفقير فرصة ليهرب من نوء الماضي ومنحت الغنى سانحة لبعيد ضم قوته ومكانته على أساس جديد أوسع شمولا، وصارت المسيحية أمل الإنسان النوبي ورغبته في اللحاق بالعالم المتحضر كان المدفن الصخري هرماً للملوك هو المعبّر عن حضارة النوبة، ولكن بعد المسيحية تأتي معرفة الملوك من خلال الوثائق المكتوبة وليس المدافن الهرمية صخراً أو طوباً طينياً أو محروقاً.

ولم يعد الحاكم إلهاً وإن كان حكمه يحاط بشيء من هيبة القداسة[31] فالملوك ليسوا أصحاب الإدارة الإلهية والحكم المطلق، وكان الفصل بين الدين والدولة قد حرر الحكم من تقييدات التزمت الديني وحرر الدين بالمثل من ربقة التلوث بالتكالب المتهافت على خدمة حكام دنيويين يسعون للتمتع بملذاتهم وشهواتهم الخاصة وبدأ مع نمو الكنيسة والدولة جانباً عن بعضهما بعضاً شبت الكنيسة ومجتمع العبّاد في قرب معاً، فبينما كانت معابد العصر الأسرى موضوعة في بعض الأحيان بعيدة عن مراكز السكان موضع بلوغ في أي حال لنخبة من الصفوة ليس إلا كان موضع الكنائس مبسوطاً في أو إلى جانب كل قرية مهمة.

وتم توسيع الكنائس لتسع كل الناس وظهرت بنايات جديدة ليس لتمجيد ملوك أو أساقفة إنما لتسكين تجمعات دينية نامية وحاصل هذا إن العدد الإجمالي لكنائس نوبية لا تزال باقية أكثر من ١٢٠ كنيسة في النوبة السفلى وبطن الحجر وحدهما، وهذا أكبر من ضعف عدد الهياكل الدينية في كل الأزمان الأولى مجتمعة[32]. لقد تغيرت العادات الجنائزية مثلاً، وصار الميت يدفن وجهه نحو الشرق في انتظار المجئ الثاني وكان الميت وخلال ثلاثة آلاف سنة لا يذهب إلى الدار الآخرة غير مصطحب بأفضل ما عنده من ذهب وفضة ومأكل ومشرب، ولكن تغير الأمر.

وكانت المقابر للملوك أهرامات، وللشعب شبه أهرامات وأقبية، ولكن فهم أهل النوبة بعد المسيحية إن هذه مظاهر لا تؤثر في الآخرة وإن الآخرة الصالحة لا تطلب كنوز الأرض، إنما كنوز السماء التي تأتي في صيغة عطاء ومشاركة وتكامل اجتماعي، وبدأ أهل النوبة يبنون الكنائس الجميلة على خط النيل وتجذر الإيمان المسيحي وسط بسطاء الناس وما أكثرهم في المجتمع النوبي. وبدأ الملوك أنفسهم يسلكون سلوكاً روحياً نسكياً، وترك بعض الملوك من النوبة عرش الملك لكي يعيشوا لله ويعتكفوا في الأديرة من أجل خلاص أنفسهم والأبدية السعيدة، ويبدأ هؤلاء

[31] وليم آدمز، النوبة رواق أفريقيا، ص ٣٩١-٣٩٣.

[32] المرجع السابق، ص ٣٩٤.

الملوك بالملك زكريا أبُ الملوك الذى تفرغ للعباد، ولكنه كان يعين الملوك.

وتأتي شهرة الملك سلمون الناسك أي سليمان والذي تخلى عن الملك ليكرس نفسه للحياة الرهبانية وذهب إلى دير أبو نفر عام ١٠٧٩م قرب فرص وهو دير نوبي، ولما بلغ الخبر أمير الجيوش أرسل من يعتقل سلمون ويأتي به إليه، ولكن الأمير تعجب من وداعة هذا الملك ووضع له كرسياً بجواره وخصص له قصراً للعبادة، ولكنه رفض مباهج الدنيا وبعد سنة ذهب إلى دير الخندق الذي باسم مار جرجس ووجد في منزله كتاب الإنجيل ورسالة مكتوبة باللغة النوبية بخط الملك نفسه[33]، ويشار دوماً إلى سلمون الناسك بأنه رجل لاهوت مقتدر وإنه كان خطاطاً يكتب بخطه في القضايا اللاهوتية.

وهناك ملك آخر من ملوك النوبة هو الملك جورج الرابع هذا من مواليد النوبة ١١٠٥ وصار ملكاً سنة ١١٣١ وتخلى عن الملك سعياً إلى أبدية مجيدة وقصد وادي النطرون وترهب هناك. وإذا كان الملوك قد صاروا رهباناً فإن الرهبنة قد انتشرت أيضا وسط شباب النوبة وكانوا يقصدون أديرة النوبة وبعضهم يقصدون أديرة الكنيسة القبطية في مصر، وكان الدير هنا أو هناك فيه خليط مبارك من الأقباط ومن النوبيين، شباباً تركوا مباهج الدنيا وعاشوا لله. وكان الملوك متواضعين يعيشون حياة عادية متواضعة بل كانوا أيضا يرسمون كهنة، فالملك كان كاهناً. وكما يقول أبو صالح الأرمني عن ملوك النوبة جميعهم كهنة[34].

وكان الملوك الكبار ثلاثة، ثم اتحدت مملكتان فصارا ملكان وثالثهما الأبرخص نائب الملك، ويقول ساويرس أسقف الأشمونين: إن الملك قرياقص كان يسيطر على ثلاثة عشر ملكاً، لذا أطلق عليه الملك الكبير، وبما إن الملك كان كاهناً فإن موكب الملك دوماً يتقدمه الصليب يحمله الكهنة، وكانت للملك شارات منها: السرير الذي يصنع في الغالب من خشب الأبنوس، والتاج مرصع بالأحجار الكريمة يعلوه صليب، والمظلة التي ترفع على رأس الملك في المواكب نسبة لما كان يحدث في عيد المظال في العهد القديم.

ولقول بطرس عندما تجلى السيد المسيح مع موسى وإيليا على جبل التجلى : لنصنع ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة، وجيد أن نكون ها هنا[35]. وكانت هناك شروط عندما يشارك الملك كاهناً في صلوات القداس أهمها أن لا يكون في زمن حرب، وأن لا يكون متخاصماً مع أحد. وكان أولاد الملك نفسه مثل سائر الناس حتى أنهم يخضعون للتفتيش مثل غيرهم في نقطة مراقبة المقس ومن بين الملوك يتألق عظمة حاكم مريس وهو أعظم الملوك وأكثرهم خطراً، وقد اتخذ مدينة فرص أو نجراش عاصمة له، وعنده شارات خاصة وهي العمامة ذات القرنين والسوار الذهبي، وقد عثر على صورتين تمثل صاحب الجبل في زيه وشارته الأولى في كنيسة عبد القادر، والثانية في فرص وتمثل الصورة الأولى صاحب الجبل لابساً على رأسه عمامة يبرز منها قرنان، والعمامة مزينة في

[33] فانتيني، ص ١٤٥-١٤٦.

[34] مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص ٨٥.

[35] إنجيل متى ١٧: ١-١٣.

واجهتها الأمامية بمثلثين متعاشقين وهما رمز سليمان وفوقهما هلال صغير وتمثل الصورة الأخرى صاحب الجبل لابساً سواراً في كلا ذراعيه لا تختلف كثيراً عن الأولى ما عدا بعض زخارف على شكل قلب.

وهذا مظهر من مظاهر السلطة مأخوذ عن ملوك مروي كما نراهم في نقوش أهرام مروي[36]، وهكذا جمع الملوك بين السلطتين الدينية والسياسية، ومما يحكي عن تواضع ملوك النوبة ذلك الحوار الذي تم بين الملك وابني مروان عندما هربا من بني أمية إلى النوبة بقصد تأسيس مملكة هناك، وقد ذكر عبد الله بن مروان في حديث له أمام الخليفة قصة ذلك الحوار وقال: قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي فافترشت بها وأقمت ثلاثة فأتاني ملك النوبة وقد خبر أمرنا فدخل عليّ رجل أقني طوال حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب فقلت: ما يمنعك إن تقعد على ثيابنا؟ فقال: لأني ملك وحق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله إن رفق. ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محّرمة عليكم؟ قلت: أجزأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا لأن الملك زال عنا. قال: فلم تطؤون الزروع بدوابكم والفساد محّرم عليكم في كتاكم؟ قلت: يفعل هذا عبيدنا وأتباعنا بجهلهم. فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة، وذلك محّرم عليكم؟ فقلت: ذهب الملك منا وقلّ أنصارنا فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا. قال: فلأطرق ملياً وجعل يقلب يديه وينكث في الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا دخلوا في ديننا وزال الملك عنا.

وردد هذا مراراً ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم الله ما حرّم عليكم وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيك نقمة لم تبلغ بعد غايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فيصيبني منكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام فتزودوا لما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي[37].

وكان أهل النوبة مثل المسيحيين في العالم يذهبون إلى القدس في زيارة سنوية أفواجاً وظلوا يترددون على هذه المدينة المقدسة ومن كثرة ترددهم عرف أحد الأماكن المقدسة باسمهم، وظل يحمل هذا الاسم حتى القرن الخامس عشر الميلادي ليشاركوا في حملة البناء ولينقلوا فن المعمار إلى بلادهم، وهم كانوا متقدمين في هذا المضمار[38].

وكانت أخلاق أهل النوبة ملوكاً وشعباً أخلاقاً مسيحية، وكان الشخص يعتذر للآخر عن طريق عمل المطانية، والمطانية هي انحناء وسجود للآخر بقصد طلب العفو، وهذا ما يحدث حتى الآن في الكنيسة القبطية في تعامل الرهبان والناس معاً، حتى إن الشعب كله في آخر القداس الإلهي يقول لكاهن الكنيسة: ها مطانية أغفر لنا. وكان أحد ملوك النوبة قد تشتت أتباعه في إحدى الحروب مع العرب وعندما أراد أن يجمع قادته كان يذهب إلى بيت كل قائد ويعمل له مطانية على باب البيت فيخرج معه.

[36] مصطفى مسعد، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦. راجع: عمر بشير، تاريخ الحركة الوطنية في السودان، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧م، ص ٩.

[37] فانتيني، ص ٨٢.

[38] مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، ص ١٤٥-١٤٦.

وكان ملوك النوبة ولأنهم كهنة ولأنهم تابعون للكنيسة القبطية يحترمون بابا الأقباط احتراماً شديداً وكانوا على أتم الاستعداد لحماية البطريرك من ظلم بعض الحكام العرب. وهنا نذكر قصة الملك النوبي قرياقوص(٧٤٨-٧٦٨) وما ذكره عنه الشماس يوحنا المؤرخ: بأنه قاد مسيرة حملة إلى مصر وذلك لأن أمير مصر كان قد قبض على البابا وأودعه السجن، والأمير هو عبد الملك الأموي. ولم يتسرع ملك النوبة في الذهاب إنما بطريقة دبلوماسية أرسل النائب الأول ويسمى الأبرخص يطلب إطلاق البطريرك ولكن أمير مصر أودع نائب الأول في السجن مع البطريرك الذي كان الحاكم قد وضع في رجله خشبة عظيمة ووضع طوق حديد ثقيل في رقبته، وكان معه بعض الأساقفة وسجن في خزانة مظلمة لا تدخلها الشمس.

وكان الملك النوبي المسيحي قرياقوص يسمى عند الأقباط "قسطنطين الجديد" هذا أتى إلى مصر على رأس عشرة ألف فارس وعشرة ألف جمل وعشرة ألف حصان، كلهم قدموا لإنقاذ البابا خائيل، البابا السادس والأربعون (٧٤٣-٧٦٧). ويقول المؤرخ: إنه قد شاهد بعينه من أخبرنا إن الخيل التي تحتهم كانت تقاتل بأرجلها وأيديها في الحرب وكانوا خيل قصار مثل الحمير، ونزلوا في موقع سمي باسمهم حتى الآن وهو"بركة الحبش".

ولم يكن الأمير العربي قادراً على صد هذه القوة فأطلق الأبرخص نائب الملك وأفرج عن البابا وكاتب البابا ملك النوبة أن يعود إلى بلاده سالماً ولم يكن هذا الملك يسمع أو ينفذ أمراً مثل أمر البابا[39]. وعاش أهل النوبة حياة القداسة وكان بينهم قديسون ونُسّاك ورهبان وعبّاد. وتشهد الآثار على هذا، فلقد اكتشفت البعثة البولندية في مروي جسداً محنطاً تحنيطاً طبيعياً منذ العصر المسيحي في مقابر المسيحيين، وأيضا جسد آخر على نفس المستوى لكاهن نوبي، وهذا يُعد علامة كرامات وعربون لما يحدث في الأبدية.

ويذكر أهل حلفا البعثة الإسكندنافية لعلماء آثار من السويد والدنمارك والنرويج وفنلنده تحت قيادة عالم الآثار "سييف سودر بيرج" والتي عثرت على المئات من القطع الآثرية، وكانت أكبر مكتشفات هذه البعثة إثارة للإهتمام جثمان إمرأة يرجع تاريخه للقرن الرابع الميلادي، وقد عثر على جثمانها في أحد مقابر "سرة شرق" بحالة جيدة للغاية ، كانت ترتدي تنورة جلدية (رحط) تشد إلى بعضها بحزام جلدي، وكان هناك قماش خشن حول ردفيها وصدرها، ومن الاكتشافات المهمة جداً مجموعة سلال في منزل أثرى بالقرب من ديرة مصنوعة من سعف النخيل.

وبقيت حادثة جديرة بالاهتمام فعلى مقربة من قرية "الصحابة"كان هناك ضريح يعتقد إنه لولى مسلم مشهور هو عويس القرني الذي اعتاد النوبيين زيارته في أوقات معينة طلباً للبركة، وكانوا يقدمون له القرابين والذبائح وكان قبره يزين على الدوام بالرايات والإعلام، وفي مطلع عام ١٩٦٤م وجدت البعثة الإسكندنافية ضريحاً عتيقاً تحت مزار الشيخ القرني وكان رئيس البعثة خائفاً من الحفر في ذلك المكان إحتراماً لمشاعر المسلمين وطلب من حسن دفع الله المدير الإداري في حلفا السعي للاستئذان منهم حتى لا يثير ثائرتهم وعلى الأخص إن الضريح بجملته ستغمره المياه

[39] مصطفى مسعد، المكتبة السودانية العربية، ص ٨١-٨٣.

آجلا أو عاجلا.

وتمكن المدير الإداري من إقناع الناس وقام أعضاء البعثة ومعهم عمالهم ووجهاء المنطقة بالحفر في قبر هذا ال المسلم وكانت الدهشة شديدة عندما اكتشفوا إن صاحب القبر كان أسقفاً مسيحياً يتدلي الصليب من عنقه، و هذا الدهشة والضحك بين أهل حلفا الذين كانوا يجلون أسقفاً معتقدين إنه شيخهم، ولم يكن هذا الأسقف المسيحي يبخل على المواطنين بصلواته[٤٠].

وكان الهرم الكنسي هو نفس الهرم في الكنيسة القبطية، فرئيس كنيسة النوبة هو البطريرك القبطي ويقال: إن ال إنيانوس أول بطريرك بعد مرقس كان يسمى بطريرك الإسكندرية والنوبة وأثيوبيا والخمس مدن الغربية. وكان البطريرك يرسم أسقفاً لبلاد النوبة أحياناً يرقي هو نفسه إلى مطران ويقوم الأسقف برسامة القساوسة والشمامسة، وربما كان هناك أسقف لكل مملكة من الممالك النوبية الثلاث والتي اختصرت إلى إثنين.

وهناك إشارة إلى أن المطران النوبي كان يرسم أساقفة من الرعايا المحلين[٤١]. وهناك ما يدل على إن عدد الأساقفة والأسقفيات كان كبيراً، وتوجد وثائق تؤكد إن مملكة نوباطيا كان بها أربعة كراسي أسقفية، ومملكة المقرة أربعة كراسي أسقفية، وكانت مدينة سوبا مقراً لأحد الأساقفة[٤٢]. وكانت النوبة قوية جداً وكان جنود النوبة هم رماة الحدق، قسيّهم لا تنكسر ويصيبون الهدف حتى ولو كان حدقة العين، وكان جنود النوبة هم قوة الجيوش ليس في النوبة فقط، إنما في مصر، ووصلوا حديثاً حتى المكسيك مساعدة لنابليون.

وأبناء النوبة وطن الذهب هم نسل كوش أكبر أبناء حام، وشقيق مصرايم أبُ المصريين[٤٣]. وذكر أشعياء أرض النوبة بأنها أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش المرسلة رسلا في البحر وفي قوارب من البردي على وجه المياه. اذهبوا أيها الرسل السريعون إلى أمة طويلة وجرداء إلى شعب مخوف منذ كان فصاعداً أمة قوة وشدة ودوس قد خرقت الأنهار أرضها[٤٤]. ويذكر سفر التكوين أن أحد أنهار الجنة الأربعة هو: فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة، واسم النهر الثاني جيحون هو المحيط بجميع أرض كوش[٤٥].

ولم يكن لجنود النوبة سلاحاً سوى القوس وكانوا يجيدون النيشان تشبهاً بالملك داوُد الذي قتل جليات الجبار عندما كان داوُد صغيراً يافعاً. وعلى مستوى التاريخ تراجع الإمبراطور دقلديانوس أمام النوبة إلى أسوان سنة ٢٨٤م وعندما أتت الحملات العربية إلى النوبة لم تتمكن من الدخول بسبب رماة الحدق وقال: وجاء على لسان شيخ من حمير قال: شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب(٦٣٤-٦٤٤) فلم أر قوماً أشد بأساً منهم، ولقد سمعت

---

[٤٠] حسن دفع الله، هجرة النوبيين قصة تهجير أهالي حلفا، ٢٠٠٣م ، دار مصحف أفريقيا، ص ٤٨٤-٤٨٦.
[٤١] فانتيني، ص ٨٠.
[٤٢] سفر التكوين، الإصحاح العاشر.
[٤٣] فانتيني، ص ٥٣.
[٤٤] سفر أشعياء، إصحاح ١٨.
[٤٥] سفر التكوين، إصحاح ٢.

أحداً يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منا. فقال: في مكان حدقة العين، وقال شاعر المسلمين: لم تر عيني مثل يوم زنقلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة.

كذا فلا يخطئه كانوا يكثرون الرمي بالنبل مما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء فخرجوا إلينا ذات يوم فصادفونا ونحن نريد أن نجرى حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم، ورمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مائة وخمسين عيناً مفقوءة، فقلنا ما لها ولاء خير من الصلح وإن سلبهم لقليل ونكايتهم شديدة. وحاول عمرو بن العاص أن يستمر ولكن عندما تولى بعده عبد الله بن أبي السّرح عقد معاهدة البقط. وهي الاتفاقية بين العرب والنوبة، ويرى البعض إنها اتفاقية تجارية حيث يقدم النوبة ٣٦٠ عبداً وبعض من منتجات النوبة من: ريش النعام وسن الفيل وفي المقابل يقدم العرب ثياباً للملوك هي من نسيج القباطي الذي يصنعه الأقباط مع غلال من قمح وشعير وخمر وثياب. وقد جاءت وثيقة البقط تذكر ما يأخذه العرب من النوبة، ولا تذكر ما يأخذه النوبة من العرب.

وفي أول مرة أرسل إلى عمر بن الخطاب أربعون عبداً فوق العدد المتفق عليه ولكنه رفض وردها إلى مصر. وكان تبادل البقط يتم في أسوان وهي منطقة السوق التجاري بين مصر والنوبة[٤٦]. ولم تستمر الحال على منوال طلبه العرب، فكان حكام النوبة لا يواظبون على رسال البقط مما تسبب في كثير من المشاكل، ولكن دبلوماسية الملك زكريا عالجت القضية عندما أرسل ابنه جورجي ليلتقي بأمير المؤمنين في بغداد، وكان عمره عشرون عاماً. ولكنه كان داهية سياسية وموضع احترام لكل من رآه.

وذهب إلى مصر وفي يده صليب فخم ضخم كعادة الملوك النوبيين والذين كانوا كهنة والتقى في مصر بقداسة البابا القبطي الذي اعتذر له عن التأخير في الكتابة فقال الملك للبابا: مبارك الرب لأنه لم يفعل معنا مثل خطايانا لكن خطيئتنا منعتك إلى الآن وقد جعلني الله اليوم مستحقاً أن أقبل يديك المقدستين أيها السراج المضئ لكل المسكونة. وهذا الأسلوب المهذب في الحديث مع البابا يضاف لصالح ملوك النوبة وحكمتهم وكيف مارسوا المسيحية وترجموا الإيمان إلى سلوك عملي مشكور.

وبعد هذا تابع الملك النوبي الرحلة إلى بغداد وكان فيها البطريرك الأنطاكي الذي فرح بملك النوبة وزوده بصالح الدعوات. واستقبل أمير المؤمنين ملك النوبة ضيفاً عليه ورحب به ونجح ملك النوبة في المفاوضات وحصل على إعفاء متأخرات من البقط مدتها أربعة عشر سنة، وتغير الأمر في البقط أن يكون كل ثلاث سنوات يدفع ما كان يدفع كل عام. وعاد ملك النوبة إلى مصر حيث استقبل في قصر الأمير العربي ثم خصص له قصر خاص، وشيّد الأمير له كنيسة في القصر كان يصلي فيها مع الوفد الذي كان معه من أساقفة النوبة، وكان الناقوس يدق فوق سطح القصر كما يحدث في الكنائس.

---

[٤٦] فانتيني، ص ٦٦.

وقد تم حل كل المشاكل العالقة بين النوبة والعرب، سوى مشكلة الأراضي التي اشتراها بعض المسلمين داخل مملكة النوبة[47]. ويكتب بروفسور زاهر رياض: إن ملوك علوة لم يكونوا يرغمون غير المسيحيين على المسيحية فقد عاش المسلمون يتمتعون بحريتهم الدينية كما عاش البدائيون في الجنوب يؤلهون الشمس والقمر والنجوم، كما ألهوا النار والأشجار والحيوانات وليس أدل على هذه الحرية من أن ابن سليم شاهد المسلمين وهم يحتفلون بعيد الأضحى بإقامة الاحتفالات والمهرجانات، كما ألفوا موكباً دينياً سار في المدينة بين عزف الطبول وأصوات الأبواق. ويذكر أيضا إن المقربين من الملك حاولوا منع هذه المواكب إلا أن الملك نهرهم وزجرهم على هذا التعصب الذميم[48]. كانت كنائس النوبة تبني مثل الكنائس القبطية شبه سفينة تمخر بحر هذا العالم وهي متجهة نحو الشرق، وفي الكنيسة كرسي الأسقف ويقف بجانبه القساوسة بجلباب مضموم لأنهم مثل الملاحين وربانية السفينة[49] وأشد الكنائس المسيحية أخذا للإنطباع وهي أجمل كنائس النوبة الكاتدرائيات الأسقفية في قصر إبريم وفرص ودنقلا وبناية، وربما كانت كذلك كاتدرائية في جبل عدا هذه الهياكل احتوت معظم الخصائص المعمارية للكنائس النوبية الصغرى، لكنها كانت بارزة لحجمها وفوق كل شيء لحقيقة إن القاعة الكبرى صحن الكنيسة كانت مردوفة على كل جانب بشقين جانبيين بدلا عن الشق المعتاد[50].

وقد وجد على جدران كاتدرائية فرص رسوم ملونة تبلغ ١٦٩ رسماً لأيقونات جميلة رُسمت على الحوائط، وتجلّى فيها إبداع الفنان النوبي الذي كان له صفاته المميزة مع الإلتزام بالوضع الكنسي الموجود في الكنيسة القبطية، بوضع كل صورة في مكان محدد لها، وفي فرص عثر على لوحات الأربعة عشر أسقفاً ولوحات الملوك ومئات من المخطوطات والرسوم التصويرية شاملة لقائمة من سبعة وعشرون أسقفاً شغلوا كرسي فرص.

ويكتب وليم آدمز إنه وجد فى النوبة السفلى بقايا لبنايتين تبدوان في شبه شديد للغاية لمنازل عادية جرى تكيفها للإستعمال الكنسي بإضافة تعديلات معمارية بسيطة، ويرى آدمز إنه لا يمكن تأريخ أيا منهما بدقة، لكنهما يتتميان بلاشك إلى القرن الأول والثاني من الفترة المسيحية[51]. وقد بنيت بعض الكنائس بلا سقف صفوف من الحجارة الصغيرة موضوعة على الأرض فى شكل سور، ومكان الأبواب يدل عليه لوحة حجرية مثل عتبة الأبواب، وقد إكتشف نموذج لهذه الكنائس فى قرية جنس شمال عبري.

أسباب الانحسار

وبعد الحديث عن الازدهار في ممالك النوبة والذي شمل كل شيء، وعن الارتباط القوي بالكنيسة القبطية

---

[47] فانتيني، ص ٨٧-٩٢.
[48] زاهر رياض، كنيسة الإسكندرية في أفريقيا، مطبعة الجيش ١٩٦٢م، ص ١٧٠.
[49] وليم آدمز، المرجع السابق، ص ٤٢٣.
[50] المرجع السابق، ص ٤٢٣.
[51] المرجع السابق، ص ٤٢٢.

والإيمان بطقوسها وعقائدها وتقاليدها ولاهوتها وعن النمو الروحي عمقاً في قلوب الحكام والمحكومين نأتي إلى الحديث عن الانحسار ونبحث معاً عن الأسباب، فلقد تغيرت الأحوال وضعفت الممالك وتغير الناس من المسيحية إلى الإسلام، وانحسرت المسيحية وانتهى عصر الملوك المسيحيين، وأهم أسباب هذا الانحسار والضعف وأفول نجم ممالك النوبة المسيحية تنحصر في الآتي:

١. الكنيسة القبطية: كانت الكنيسة القبطية وراء هذا العمل الناجح في الكنيسة النوبية، لقد بدأ التبشير بدعم من إمرأة قبطية هي ثيودورة وبحماس من راهب تقي هو يوليانوس ثم أسقف نشط هو لونجينوس الذي سجن ثلاث سنوات لكي لا يذهب إلى موقعه، ولكنه هرب من السجن وذهب إلى النوبة، كان هؤلاء يحملون في جوانحهم قلوب تلتهب حباً للخدمة والتبشير، ولكن يبدو إن هذا الحماس لم يوجد بنفس القدر عند من خدموا بعدهم، لقد كان أسقف فيلة أو الألفنتين داعماً لهم بسيرته ورعايته الساهرة لكنيسة النوبة التي يعد هو أحد مؤسسيها في الأيام الأولى عندما كانت تأتي إليه وفود تطلب الصلوات للمرضى الذين كانوا ينالون الشفاء بصلواته وكان هو نفسه قدوة صالحة، وتمر الأيام ويزداد بناء الكنائس، وتكثر العمائر، وتتعدد الأديرة، ولم تتمكن الكنيسة إدارة من رعاية مؤسساتها وضعف المد الروحي خارج الكنيسة، واستمرت في مملكة النوبة المسيحية عادات وثنية لم يقلع المبشرون جذورها بل ظلت بعض الطقوس الدينية الوثنية تمارس إلى جانب الطقوس المسيحية، ويرى بروفسور زاهر رياض: إن الكنيسة القطية ظلت تعامل الكنيسة النوبية كطفل صغير رغم إنها كبرت، وإن كبر ابنك أجعله لك أخاً. ظلت الكنيسة القبطية ترسم لهم الأسقف أو المطران وتعين رجال الدين من غير أهل النوبة، ولا حتى يتعلمون اللغة النوبية قبل وصولهم لمقر خدمتهم. وصار المطران رئيساً لا يتجاوب مع الشعب ولا يفهم لغتهم ويحتاج إلى مترجم، وبهذا ظلت الكنيسة القبطية تمثل عنصراً أجنبياً لاسيما وإن أغلب الطقوس تؤدي باللغة النوبية، ولكن ظل الكتاب المقدس غير مترجم إلى النوبية وهو المصدر الأول للعقيدة ولم يترجم منه سوى شذرات بواسطة سلمون الناسك الملك الذي صار راهباً متعبداً[52].

ولم تقم الكنيسة القبطية لكنيسة النوبة أي معهد ديني لتخريج القسوس، وبهذا لم تنجب كنيسة النوبة علماء في اللاهوت وصار القساوسة وهم خُدام الكنائس كثيرون يتسلمون الطقوس الكنسية شفاهياً وتتم الصلوات تقليدياً دون تعمق في فهم الأمور اللاهوتية. لقد كانت الإكليريكية في مصر ولم تزل هي معهد تخريج رجال الدين المسيحي، وهي تتطور بتطور الزمن وتحافظ على الأسس اللاهوتية الأصيلة ولكن لم تفكر الكنيسة القبطية في إنشاء مدرسة إكليريكية في بلاد النوبة التي وصلت فيها أعداد الكنائس أكثر من أعداد كنائس مصر.

٢. وعندما نضع اللوم على أعتاق الكنيسة القبطية أرجو أن نتذكر إنها كنيسة سارت رحلتها رحلة أليمة مع الحكام الذين إضطهدوا البطاركة وفرضوا عليهم الأتاوات ومنعوهم من التواصل مع كنيسة النوبة خشية أن يكونا معاً

---

[52] زاهر رياض، المرجع السابق.

قوة ضاربة للدولة التي يحكمها حكام من غير الوطنيين، إنما أجانب يأتون من الخارج، وقد ورد في سيرة البطريرك إسحق(٦٨٦-٦٨٩) إنه بعث برسالة إلى ملكَيْ نوباطيا والمقرة يدعوهما للتصالح معاً، لأن ملك نوباطيا كان يمنع مبعوثي البطريرك إلى ملك المقرة من المرور بأراضيه وبلغ هذا الخبر إلى الخليفة في دمشق فكتب لأميره بمصر لكي يشدد الرقابة على المكاتبة بين البطريرك وملوك النوبة، ولفت نظره إلى خطورة هذه الاتصالات وفي رأيه إنه إذا تم الاتفاق بين ملوك النوبة والبطريرك ربما يتم التحالف بينهما ليحاربوا المسلمين[٥٣] وقد أصدر الحاكم بأمر الله أمراً: ا[illegible] لا تخرج رسالة من البابا إلى ملك النوبة دون أن تمر بواسطة مراقبة، وربما حذفاً أو إلغاءً.

٣. وكانت الكنيسة القبطية نفسها تؤثر فيها كثيراً الحوادث الداخلية مثل الحروب وتبعاتها والنزاعات حول السلطة بين حكام متعددين والمشاكل الداخلية في داخل الكنيسة بين الإكليروس والشعب، وأحياناً يبقي الكرسي البابوي شاغراً ولا يقدر أحداً أن يأخذ قراراً، ويقع الخلاف أحياناً بين البطريرك والحكومة، وهذا يؤدي إلى توقف البطاركة عن إرسال مبعوثيهم إلى النوبة وتخلو الوظائف أحياناً لمدة كبيرة ويمتنع الناس خلالها عن ممارسة طقوسهم ويمارسوا الزواج خارج الكنيسة أو توقفوا عن تعميد أطفالهم أو دفنوا موتاهم دون صلاة دون أن يشعروا بأنهم فقدوا شيئاً يستحق الذكر[٥٤]. بل إنهم كثيراً ما كانت مملكة تلجأ إلى مملكة أخرى تطلب رجال دين لفتح الكنائس ولا تجد سوى الاعتذار، وكانت ممالك النوبة أحياناً تقصد إمبراطور الحبشة والذي كان يعتذر بأنه هو نفسه يجلب رجال الدين من مصر.

٥. كانت الكنيسة النوبية تعتمد على قوة العرش الملكي، وعندما ضعفت البلاد وتفتت المملكة إلى دويلات وزالت قوة العرش تأثرت الكنيسة ضعفاً وانسحاباً وانحساراً ، بل إن الخلافات التي نشأت داخل الأسرة المالكة بدنقلا أدت إلى ظهور شيّع وثورات وانقلابات، والتجأ الملك إلى السلطان المصري الذي وجد مجالا للتدخل والسيطرة وبوجه خصوصي كانت الاضطرابات الداخلية فى النوبة فيما بين ١٢٧٥-١٣٢٠ أدت إلى نشوب حرب بين النوبة وجيوش المماليك، وبالتالي إلى انهزام النوبة وتدخل المماليك في الشئون الداخلية للنوبة، حيث فرضوا الجزية وعينوا الأبواب السلطانية لملك دنقلا، وظل الإعفاء من الجزية يتطلب تغيير الدين وفعل هذا كثيرون تحت عبء الاقتصاد المنهار.

٦. يذكر ابن خلدون إن من بين عوامل الانهيار في النوبة دخول الرحّالة العرب والتزاوج بين العرب وبنات أكابر النوبة، مما جعل العرب يتملكون جميع الحقوق التي كانت لدى النوبة ويتوارثونها عن طريق الأم، هذا عدا هجرة القبائل العربية إلى النوبة والإقامة فيها بجوار مناجم الذهب، وبعدها أتت المصاهرة والمشاركة في الحقوق.

٧. ولأن النوبة هي امتداد لمصر، فلقد كانت ملاذاً لكل هارب من مصر، هرب إليها الرهبان ولكن لم يتدخلوا

[٥٣] فانتيني، ص ٧٤.

[٥٤] زاهر رياض، المرجع السابق، ص ١٦٠.

في سياستها وهرب إليها الحكام وكانوا يودون الاستقرار فيها، ولأن النوبة وطن الذهب كانت دوماً مطمعاً للحكام العرب، فالخليفة يطالب دوماً بمميزات اتفاقية البقط.

٨. ولأن النوبة وطن الرجال ولأن فيها شباب أشداء أقوياء خفيفي الحركة فإن البلاد الأخرى كانت تطمع في تغذية جيشها بهذا الشباب النادر وكانت تجلبهم إليها عن طريق الحروب والغارات وليس عن طريق التفاهم والتعاقد.

٩. لقد ظلت حكومات النوبة لا تستعمل جيوشها سوى القوس والنبلة، وكانوا بارعين في هذا، فهُم رماة الحدق ولكن هذا السلاح لم يقو أمام الأسلحة الحديثة مثل البنادق والرشاشات والمنجنيز الذي خرّب به العرب عواصم النوبة[٥٥].

وهناك ميزة انفردت بها الكنيسة النوبية وهي إنما نشأت وازدهرت في جو من الاستقلال السياسي الكامل، لقد أصبحت النوبة بالكامل أيضا بلاداً مسيحية منذ القرن السادس الميلادي حكاماً وشعباً، ولم تفقد الممالك النوبية المسيحية استقلالها السياسي، وكانت قلعة منيعة لم يقدر أحد على اختراقها، وكان سلاحها هو القوس، وتكنولوجيا الحرب فيها تعتمد على دقة التنشين والنيشان يصل إلى حدقات العيون.

ولم تفقد كنيسة النوبة استقلالها إلا في القرن الثالث عشر، إثر غزوات المماليك المتكررة لها، وعلى النقيض من معظم البلاد المشرقية، استمرت المسيحية في النوبة كديانة غالبية السكان حتى القرن الرابع عشر، وبالرغم من استقلال ممالك النوبة المسيحية إلا إن تراث الكنيسة النوبية تأثر بصورة بالغة بالتراث القبطي[٥٦] وكانت النوبة مُرحبة به، ساعية إليه حتى إن ملك علوة سوبا أرسل إلى ملك نوباطيا طالباً مجئ الأسقف لونجينوس ليعلم الشعب المبادئ المسيحية.

وجاء لونجينوس في رحلة مضنية، وعندما وصل إلى هناك كتب إلى ملك نوباطيا يحيي حماسه المسيحي ويعرب عن خالص شكره ويعلمه فيها بأنه وجد في سوبا فئة من المسيحيين الأكسوميين الذين يعرفون بالخياليين لأنهم اعتقدوا إن جسد المسيح مُنزه عن الأوجاع، رأيهم خيالي وكأنهم يعتقدون أن السيد المسيح أخذ جسد خيال[٥٧].

وقال الأسقف: إنه حارب هذه البدعة ومعروف إن الأكسوميين هم الأحباش الذين يتافحون موقع السودان والذين وصلت إليهم المسيحية رسمياً في زمان البابا أثناسيوس (٣٢٨-٣٧٣) قبل أن تصل إلى بلاد النوبة، والمسافة الزمنية تصل إلى قرنين من الزمان.

وإذا كنا نتحدث عن الاستقلال السياسي فإن دخول المسيحية لم يؤثر في الاستقلال السياسي ولا حتى حاول أن يغير ثقافة وتقاليد وطقوس البلاد، والهدف كان أن تقبل النوبة المسيح فادياً ومخلصاً، والمسيحية طريقاً وحقاً

[٥٥] مجلس كنائس الشرق الأوسط، المسيحية عبر تاريخها في المشرق، ٢٠٠٢م، ص ٣٣١.

[٥٦] فانتيني، ص ٥٠-٥١.

[٥٧] فانتيني، ص ٤٨.

وحياة، ولم تحمل المسيحية لغة يجبر عليها الناس، أو تراثاً يفرض عليهم.

ولقد طلب أهل النوبة أن يذوقوا الله وأن ينظروا ما أطيب الرب، وقامت الكنيسة القبطية تؤدي رسالتها دو تضغط على لغتها وفنها وثقافتها. ولقد حاولت الكنيسة البيزنطية التابعة للإمبراطور أن تدلي بدلوها وتبشر ب النوبة، وهنا دخلت الكنيسة البيزنطية إلى بلاد النوبة لتفعل شيئاً.

وطبعاً صار لها تأثير على النوبة، ويحكي الأب فانتيني: إن أهل النوبة قصد البعض منهم مدينة القسطنط طلباً لتعاليم المسيح حيث جاء وفد من قبائل القرعان وطلبوا من الإمبراطور عقد معاهدة روحية يتعلمون بشروط مبادئ الإيمان المسيحي حسب معتقدات الإمبراطور، وكانت قبائل القرعان تقطن الصحراء بادية غرب دنق وتخضع لمملكة المقرة.

ولكن مع مرور الزمن تناقص الحماس عند الأباطرة، وتم اتحاد مملكتي نوباطيا والمقرة وأصبحت الكنيسة القبط وحدها دون غيرها مسئولة روحياً عن بلاد النوبة بكل ممالكها. ولقد غابت الكنيسة النوبية من التاريخ ولكنها تزل باقية في كيان كل سوداني وعندما يولد يحمل في رأسه حضارة الف سنة هي حضارة النوبة المسيحية، ونحن نسينا فلن ننسي جهد عالم الآثار الأب فانتيني، واليوم وكأنه يمر بواسطة هذا الكتاب يذكرنا بتاريخنا المجيد، ولق أسعدني اهتمام رهبان كومبوني وكلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا بترجمة هذا الكتاب ليقدم للقارئ العربي، ونحن مرحلة نحي فيها جهود المسيحين العرب في الحضارة العربية، ولكم التحايا واتركم مع الكتاب المرجع.

تمهيد المؤلف

كانت النوبة أول بلد أفريقي احتضن المسيحية في بدايات العصور الوسطى، وقد سادت الديانة المسيحية وثقافتها آنذاك وتغلغلت وسط الثقافات الأفريقية. وهكذا، وفي خلال بضعة قرون، طور النوبيون "ثقافة مسيحية" في وادي النيل جنوبي مصر الرومانية في ذلك الوقت. من جانب آخر فإننا نعرف القليل جدا عن تطورها خاصة من خلال ألف عام حينما لم يكن فيها النوبيون سادة وادي النيل فقط، بل كانوا فيه مسيحيين، بمعنى "مجتمع وكيان" ربطته أواصر مع آخرين اعتنقوا المسيحية في أجزاء أخرى من هذا العالم.

يتوق النوبيون الآن لمعرفة المزيد عن حياة أسلافهم والأحداث التاريخية التي مرت بها بلادهم لبضعة قرون، هذا وقد اتفق المؤرخون على أن مقر بلاد النوبة كان إلى داخل أفريقيا فقد بدأ النوبيون هجرتهم، حوالي ١٠٠٠ ق.م، إبان عهد فراعنة مصر إلى جهة النيل حيث توغلوا جنوبا و اختلطوا بالسكان المحليين الذين شكلوا إمبراطوريات وقوى عظمى آنذاك، وأولئك هم بناة الأهرامات والصروح التي ظلت تجذب إليها الملايين من السياح الذين ذهلوا لمهاراتهم و إبداعاتهم خاصة و أنهم لم يمتلكوا تقنية، يومئذ، مثل التي تحققت للإنسان في العصور الأخيرة.

كان أهالي تلك الإمبراطوريات (مصر، كرمة، كوش ومروي)، قد استطاعوا استخراج الذهب من الصحارى وجبال البحر الأحمر، وبذات القدر اختفوا في لحظة ما من تاريخ تلك المناطق .استقر النوبيون في وادي النيل، بعد انهيار إمبراطورية مروي (حوالي ٣٥٠ م)، التي تشربت بالثقافة الهيلنية وثقافات متوسطية (البحر الأبيض المتوسط) أخرى، ورويدا رويدا شكلوا غالبية وسط السكان وامتلكوا أراض وصاروا من ضمن الذاكرة المروية منخرطين فيها. وأقاموا ممالكهم على أنقاض مملكة مروي، حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وظلوا محافظين على تراثهم الثقافي والقبلي.

في عصر الإمبراطور البيزنطي يوستينينوس (٥٢٥ – ٥٦٧ م)، استقر في فكرهم أن تلك الدويلات أو الممالك الإفريقية في إقليم وادي النيل الأوسط، يمكن لها أن تلعب دورا في حماية حدود إمبراطوريته من البرابرة أو قل من هجماتهم. وقد نجح في أن يضمهم إلى صفه. ولقد ظن يوستينينوس أن الديانة المسيحية ربما تخدم أغراضه والتي أولها التحالف السياسي للنوبيين. أرسل رجال الدين، بهدايا، وسفراء له لدى ملوك النوبة. وهكذا تلقوا المسيحية بصدر رحب وسرعان ما تبع الرعية ملوكهم و حذوهم في اعتناق المسيحية. من جانب آخر، فإن الأفارقة اعتبروا ما حدث بمثابة تجل للثقافة المتوسطية في أفريقيا، على الرغم من تمسكهم بتراثهم وثقافتهم القومية، بل وأكثر من ذلك فإن دخول المسيحية وتغلغلها لم يعن تركهم لمعتقداتهم وطقوسهم وشعائرهم التي كانت سائدة من قبل. ونجد أن

المسيحية، من جانب آخر، قد شكلت مجتمعا جديدا وفيه كل واحد عضو في نفس الجسد الذي رأسه المسيح[58] الذي عيّن فردا واحدا ليمثله في الأرض بمقدرات تختلف عن سلطة الملوك والحكام. وهذا المجتمع هو "الكنيسة" والتي لم ترتبط مطلقا بأي حكومة أو ثقافة أو أنظمة الحكم طالما أن رعاياها، مهما كانت مكانتهم المدنية يقومون بواجباتهم أمام ربهم والسلطة الدنيوية تحترم حريتهم.

وحينما لا تتفق الكنيسة مع الدولة أو تكونان على خلاف، تتطور العلاقة في هدوء على الرغم من الخلافات التي تأتي عادة كنتيجة لعلمانية الدولة أو اتجاهها العلماني. إلا أن الإمبراطورية تثور ثائرتها حينما تقف الكنيسة في وجه قراراتها. يصدق ما يقع على الإمبراطورية على الكنيسة ويؤثر عليها بعنف، وهذا ما حدث في دولة النوبة حيث ترتب على انهيار الملك فيها انهيار في الكنيسة وتدهور لها.

من جانب آخر فإن تدهور الكنيسة عند النوبة، لم يأت صدفة كما يبدو في ظاهره، فإن وثائق تم اكتشافها مؤخرا تؤكد على الرغم مما حدث من كوارث لعروش ملوك النوبة على بقاء المسيحية لعقود عدة، وذلك يعزي لم تمسكوا بعقيدتهم في أماكن عديدة في منطقة النوبة.

لا نعرف سوى القليل جدا، إن لم يكن لا شيء على الإطلاق، عمّا حدث للكنيسة النوبية بل وحتى عروش ملوك النوبة، أضاءت لنا المكتشفات الأثرية حقائق كثيرة والتي ربما ناقضت في كثير من الأحيان ما جاء في الكتب والآثار.

سعت حكومة السودان والبعثات الأثرية والآثاريون، لكشف النقاب عن حقيقة تاريخ هذه الجغرافية، وقد ظهر إلى السطح كثير عن تاريخ السودان من على ضفاف النيل، وأكثر من ذلك نتوقع أن يطفو إلى السطح أيضا الذي ربما يكشف جوانب أخرى حول تاريخ السودان وما حدث لأجيال متعاقبة في هذا المكان.

وهذا الكتاب، هو مجرد محاولة لكشف بعض أوجه تلك الحقيقة الغائبة عن تاريخ وتطور المسيحية إبان فترة حكم النوبيين (حوالي ٥٠٠ – ١٥٠٠م).

جيوفاني فانتيني. الخرطوم فبراير ٢٠٠٩م"[59]

---

[58] ملاحظة المحقق: انظر الكتاب المقدس (رسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٢: ٢٧؛ الرسالة إلى أهل أفسس ١: ٢٢-٢٣).

[59] ملاحظة المحقق: كتب المؤلف هذه المقدمة لكتابه (Rediscovering Christian Nubia).

كلمة الشكر

يسرنا تقديم كتابنا هذا للقراء السودانيين تحقيقا لرغبة مؤلفه الدكتور جيوفاني فانتيني. ويمثّل هذا الكتاب خلاصةً لميراثه الذي يهبه لأحفاده السودانيين وثمرة عِلمه وحياته التي قضاها في السودان في البحث والاهتمام بتاريخ النوبة.

قام الأب فانتيني في عام ١٩٧٨ بإصدار كتابه (تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث). وبعده واصل الأب فانتيني جهوده في جمع المعلومات والمشاركة مع البعثات الأثرية واستنادا عليها بالإضافة إلى ترجمة (Michael Fitzgerald) لكتابه المذكور إلى الإنجليزية، قام بإصدار (Rediscovering Christian Nubia) في عام ٢٠٠٩. ولم يتوقف فانتيني عن عَمَله بإصداره لذلك الكتاب الثمين بل خصّص كل جهوده حتى وفاته في عام ٢٠١٠ لإصدار كتاب جديد بالعربية يجمع فيه أحدث الاكتشافات المسجّلة في كتابه بالإنجليزية بالإضافة إلى تلك التي حدثت بعد طبعته.

وقد قام الأب فانتيني بكتابة بعض الإضافات للنص الإنجليزي باللغة العربية، وعليه أصبح من الضروري ترجمة كل كتابه الأصلي إلى اللغة العربية.

وعملية الترجمة هذه التي قمتُ بتنسيقها، أصبحت فرصة للتعاون بين الأديان حيث عملنا مع الأستاذ محمود عبده محمود –وهو صديق عزيز للأب فانتيني ومشجّع عظيم للمشروع العِلمي هذا- والدكتور أحمد الصادق أحمد –وهو دكتور في اللغة الإنجليزية–، والدكتور الأب فيلوثاوس فرج –وهو قمّص قبطي وأستاذ الدراسات السودانية– وشخصي –قسّيس كاثوليكي– في التعريب والتحقيق والتنقيح والمراجعة والتعليق على النصوص بملاحظات إضافية إلى ما كتبه الأب فانتيني. وقد استغرقتْ عمليةُ استعادة النصوص الأصلية باللغة العربية الكثيرَ من الجهد والوقت معا حيث أردنا نقلَها –أي النصوص– حرفيا كما كتبها مؤلفوها الأصليون في العصور الوسطى. وقمنا بإضافة بعض الكلمات بين القوسَين المعقوفَين كلما استدعى الأمر للتوضيح أو تطبيق القواعد النحوية الحديثة. وقد ساعدتنا "المكتبة العربية السودانية" للدكتور مصطفى محمد مسعد في الحصول على النصوص المذكورة في النص الإنجليزي. وقمنا بعمل الترجمة الضرورية للنص الموجود في "المصادر الشرقية" (Oriental Sources) من اللغة الإنجليزية إلى العربية أينما كتب المؤلف الأصلي بلغة مختلفة من العربية.

وأخيرا نود أن نتقدم بجزيل شكرنا وامتناننا للأستاذة نجوى زرقاء من القاهرة التي راجعت النص وصححته لغويًا كما نتقدم بالشكر للدكتور الأب ريتشارد كيانكاقا ورانيا سمير والأخت ميراندا من راهبات كمبوني الذين شاركوا في العمل بطرق مختلفة.

الأب جورج نارانخو
كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا

الاختصارات المستخدمة في هذا الكتاب

- FHN = Fontes Historiae Nubiourum, vol. III, University of Bergen, 1998.
- JARCE= Journal of the American Research Center in Egypt.
- JEA= Journal of Egyptian Archaeology, Londres
- OS= Oriental Sources Concerning Nubia, collected and translatd by Fr. G. Vantini, Heidelberg and Warsaw 1975.
- PAM = Polish Archaeology in the Mediterranean.
- PO = Patrologia Orientalis.
- SNC = MONNERET DE VILLARD, *Storia della Nubia Cristiana*, Orientalia Christiana Analecta 118, Rome 1938.
- SNR = Magazine: Sudan Notes and Records founded in 1918, Khartoum

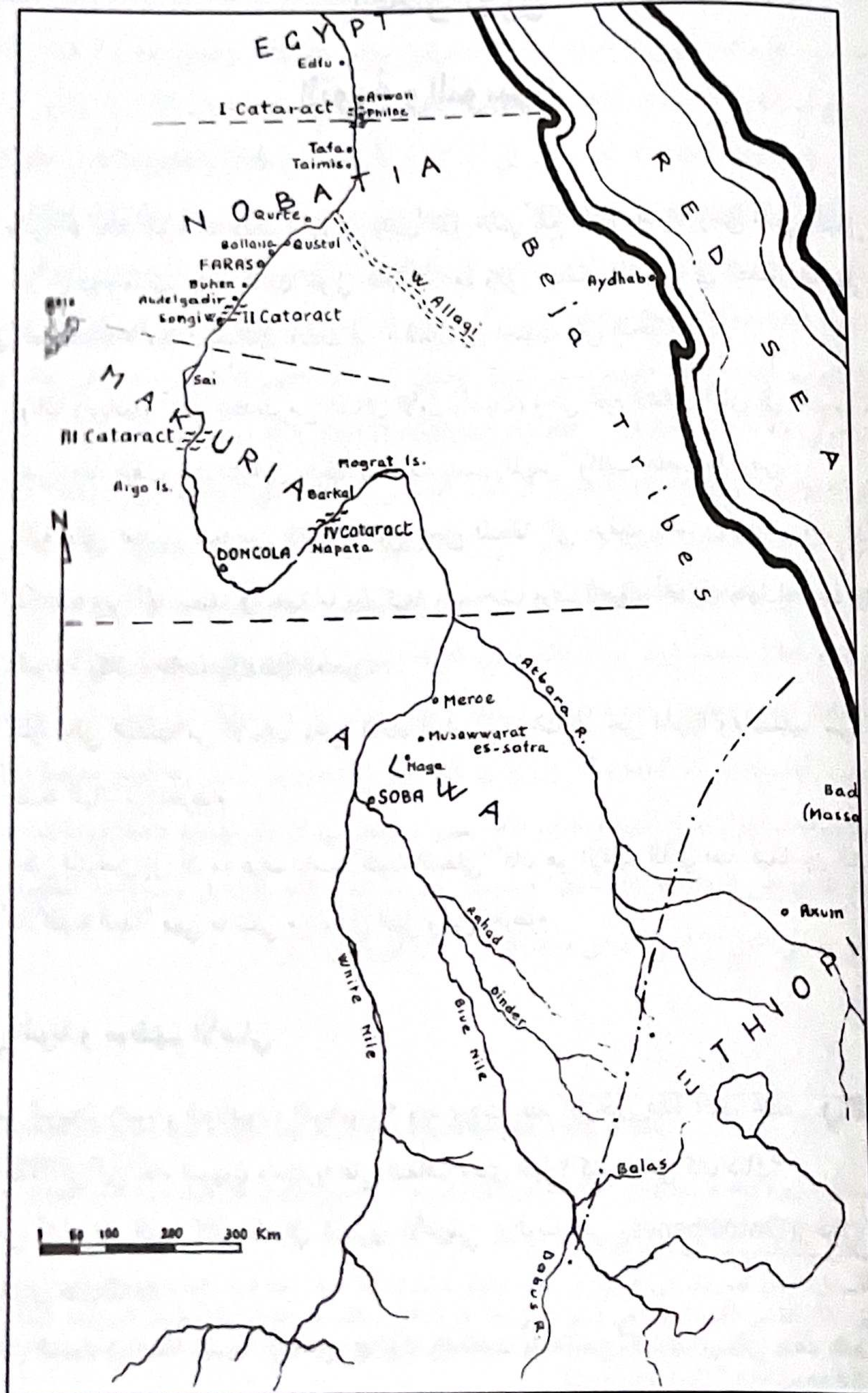
ك= كذا

مسعد= مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية.

[]= زاد المؤلف أو المحقق الكلمات في داخلها على النص الأصلي للتوضيح.

ملاحظة المحقق:

أينما كتب المؤلف المذكور بلغة مختلفة من العربية، ترجم المترجم النص الموجود في "المصادر الشرقية" (OS) من اللغة الإنجليزية إلى العربية. أما النصوص المكتوبة بالعربية أصليا، فأخذنا معظمها من: مصطفى محمد مسعد (المحقق)، المكتبة السودانية العربية بمجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، جامعة القاهرة بالخرطوم، القاهرة ١٩٧٢. ونلمّح إلى هذا المصدر ب "مسعد".



(خريطة الممالك النوبية في بداية العصور الوسطى (فيما بين القرن السادس والتاسع بعد المسيح)

الفصل الأول

النوبة والنوبيون

نعني بالنوبة أو بلاد النوبة هنا ذلكم الجزء من وادي النيل الذي يقع ما بين أسوان وحتى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق. هنا حيث وجدت ثلاث ممالك حوالي عام ٥٠٠م، والتي اعتنقت المسيحية في العصور الوسطى (انظر الخريطة في الصفحة ٣٤) تلك الممالك امتدت من الشمال إلى الجنوب على النحو الآتي:

١. نوباتيا (نوباديا)[٦٠] التي امتدت من الشلال الأول (أسوان) وحتى تخوم الشلال الثاني إلى الجنوب من وادي النيل، وقد عرفت عند المؤرخين والكتاب العرب باسم "المريس" وكانت عاصمتها فرس.
٢. المقرة والتي امتدت فيما بين الشلال الثاني وحتى المنطقة التي عرفت باسم الأبواب، وقد أشار بعض الكتاب على أنها منطقة في جهة ما بين كريمة وأبو حمد، وزعم آخرون أنها إلى جهة الجنوب بالقرب من كبوشية وكانت عاصمتها دنقلا العجوز.
٣. علوة والتي امتدت من الأبواب وحتى التقاء النيلين وربما امتدت حتى الجزيرة وعاصمتها سوبا التي تبعد بضعة أميال من الخرطوم.

أشار بعض المؤرخين إلى أن ما عرف باسم "النوبة السفلى" كان هو الإقليم الذي امتد فيما بين الشلال الأول والثالث، أما "النوبة العليا" فهي ما تبقي من وادي النيل وحتى الخرطوم.

أهالي النوبة و موطنهم الأصلي

من هم النوبيون (النوبة، النوباديون، النوباتيون)؟ وقد وردت عند المؤرخين عدة أسماء تختلف في لفظها ولكن دلالتها واحدة. من أين جاء النوبيون واستقروا على ضفاف وادي النيل؟ كيف ومتى كان ذلك؟

أول من أشار إلى النوبة كان الجغرافي المصري الأغريقي إيراتوستينيس (Eratosthenes)(حوالي عام ٢٠٠ ق.م.)، والذي كتب قائلا:

"عاش النوبيون في الضفة اليسرى من النيل، في ليبيا، وقد كانت واحدة من أكبر القبائل والتي بدأت هجرتها من مروي

٦٠ ملاحظة المحقق: نجد الكتابات التالية لهذه المملكة أيضا: نوباطيا، نوباضيا. ويناقش المؤرخون عن العلاقات بين النوباديين والنوباتيين وأهل نبتا. هل هم شعب واحد؟ سنحترم هنا اختيار المؤلف.

ووصلت حتى منحنى النيل، لم يكونوا رعايا لأثيوبيا إلا أنهم تفرقوا إلى ممالك عديدة منفصلة عن بعضها البعض[٦١]".

إلا أنه لم يشر إلى موطنهم الأصلي، و يتضح لنا أنهم كانوا من البدو الرحل وقد انتظموا في ممالك منفصلة[٦٢].

من جانب آخر، فإن المؤرخ والجغرافي الروماني الأغريقي سترابو (Strabo)(حوالي عام ٢٠ ق.م.) الذي زار فيلة[٦٣]، وزعم أن النوبيين قد احتلوا المنطقة الواقعة فيما بين مروي (كبوشية) والشلال الأول (أسوان). أما الكاتب الروماني بليني (Pliny)(٧٠ ق.م.)، فقد ذهب إلى أن "النوبة الأثيوبيين" (*Aithiopians Nubei*) احتلوا ضفتي نهر النيل وأن مركزهم كان في تينوبسس (Tenupsis) على ضفة النيل في منطقة نوبس (Pnubs)(أرقو حاليا).

كان قدامى المصريين على علم بمناجم الذهب في المنطقة وقد ارتبطت المنطقة الممتدة من أسوان وحتى بلاد النوبة بالذهب (ناب بلغة الفراعنة)، وعرفوا باسم "أنوبة" (أو أنوباديس) لدى الأقباط –كل من كان يقطن جنوبي أسوان – والعرب أيضا أطلقوا عليهم اسم "النوبة" والذي يبدو أنه اسمهم الأصلي. وقد حفر حاج نوبي اسمه بالإغريقية حوالي ٥٥٧ م في معبد فيلة: "Ego,Theodosios,Nouba" ("أنا تيودوسيوس، نوبة").

زعم بروكوبيوس (Procopius) القيصري في القرن السادس أن الإمبراطور ديوكلتيانوس[٦٤] (٢٨٤-٣٠٥م) قد أمر النوباتيين بمغادرة الواحات الغربية في مصر على أن يستقروا في منطقة احتلها البليميون[٦٥] بالقرب من أسوان. وقد اختلف المؤرخون المعاصرون حول ذلك[٦٦]، فقد ذهب بعضهم إلى أن النوبيين في وادي النيل قد انتقلوا إلى تلك المنطقة تدريجيا، خلال بضعة قرون من منطقة جبال النوبة، جنوب كردفان. وقد استندوا على بعض أوجه الشبه فيما بين اللغات النوبية (نوبيين) النيلية (بالمحس ودنقلا) والتي تنتشر في كل مكان من جبال النوبة وبعض مناطق دارفور. وذهب آخرون إلى أن النوبيين أتوا إلى وادي النيل عبر الصحراء من ليبيا. ربما لعدم معرفتنا وقلة المصادر والبيانات والمعلومات حول أصل النوبة ووطنهم الأم، يصير من الصعب أن نأتي بإجابة قاطعة وبيانات جامعة حول ذلك التاريخ الذي ظل لقرون عديدة غامضا وملتبسا، وكل ما يمكن قوله نختزله في وجه واحد للحقيقة، أنهم قد استوطنوا على ضفتي النيل – أسوان وحتى مقرن النيلين – أو قل وادي النيل.

61 Cf. Fontes Historiae Nubiorum, vol. III, University of Bergen, 1998, p. 250.

62 Cf. Ibidem, p. 810.

٦٣ ملاحظة المحقق: جزيرة فيلة، هي جزيرة في منتصف نهر النيل و هي إحدى الحصون الأقوى على طول حدود مصر الجنوبية، وتفصل النيل إلى قناتين معاكستين في أسوان.

٦٤ ملاحظة المحقق: دقلديانوس في النصوص القبطية.

٦٥ ملاحظة المحقق: "ومن المعروف في التاريخ أن سكان مناطق البجة الحالية عرفوا عند قدماء المصريين واليونانيين والرومان بأسماء متعددة، سنتناول ثلاثة فقط من تلك الأسماء التي اشتهرت في تلك الفترة والتي أطلقت على المجموعة المعروفة اليوم باسم البجة وهذه الأسماء هي: المِجباري والتُرجُلدايت والبليميين. والبليميون هو الاسم الذي أطلقته الآثار الفرعونية والكوشية والمصادر اليونانية والرومانية على سكان منطقة النيل الواقعة جنوبي أسوان" (أحمد الياس حسين).

٦٦ توجد مقالات قيمة عن أصل النوبيين في:
SNR XIII(1931), p. 137-148; XX(1937), p. 47-62; XXI, I, 1938, p. 222-224; L.P. Kirwan, Comments on the Origins and History of the Nobatae of Procopius, KUSH, VI(1956), p. 69-73.

الحياة اليومية عند النوبيين

لا تختلف حياة النوبيين اليومية، كما وصفها سترابو (Strabo)(حوالي عام ٢٠ ق.م.) عن تلك التي فيما بـ القرن الخامس والسادس الميلاديين حينما تحولت الممالك النوبية إلى المسيحية حيث إن معظمهم كانوا مزارعـ عاشوا على طول امتداد النيل. انخرط النوبيون في حياة المرويين وسرعان ما تماهوا معها للحد الذي يمكن أن نقو إنهم "نوبيون تحولوا إلى مرويين" وذلك حوالي القرن الرابع بعد ميلاد المسيح، أو "مرويون تحولوا إلى نوبيين"[٦٧] وكانت ثروة الرحل تتكون من قطيع الجمال والماشية والأغنام، وقد اعتمدت حياتهم في النوبة العليا على الأمطا والمرعى وذلك إلى الجنوب من ذلك الإقليم. ارتبط السكان حول النيل بالزراعة، أما الآخرون إلى جهة الصحرا فقد كانوا رحلا رعوا الماشية، وقد ازدهرت الزراعة بظهور تقنية جديدة هي الساقية التي ترتب عليها وجود الر وبالتالي زيادة في الإنتاج. وقد اعتاد الناس على ري الأراضي مرتين في العام للأراضي المنتجة للمحاصيل، وقد شا آنذاك أن ضفتي النيل قد تميزتا، بشكل إستثنائي، بالخصوبة العالية وقد كتب المسعودي قائلا:

"ولهم النخل، والكرم، والذرة والموز والحنطة وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن. وللنوبة اترج[٦٨] كأكبر ما يكون بأرض الإسلام[٦٩]".

أما الأنشطة الأخرى للنوبيين فقد تركزت حول صيد أسماك النيل والصيد عموما، بالإضافة إلى ريش النعا والعاج والأبنوس وعود الصندل والذهب ومعادن أخرى من صحراء العتمور. وصيد الحيوانات البرية مثل النمو والأسود والزرافة والقردة والوشق والسلاحف وقد اصطيدت من أجل تصديرها. وكذلك عرف عن النوبيين تعدينهـ للحديد، وقد اشتهرت مملكة مروي بتعدينها للحديد والاشتغال به.

اعتاد النوبيون الهجرة إلى مصر بغرض العمل ومن ثم يعودون بعد جمع ثروة، وهكذا كانت العلاقات التجارية وعلاقات التبادل التي بدأت منذ أزمنة سحيقة فيما بين الإقليمين. وقد عرف النوبة بصناعة دَرَق من جلد فرس النهر كما عرفوا بأنهم "رماة الحدق" وذلك لبراعتهم في صناعة القوس والسهم كما تكشف لنا الكتابات في أهرامات البجراوية وقد ذكر سترابو (Strabo):

"استخدم الأثيوبيون[أي النوبيون] القوس، الذي بلغ طوله أربعة أذرع والذي صنع من فروع الأشجار التي استخدمت فيها لهـ النار حتى تصير أكثر صلابة، وقد تسلحت حتى نساء النوبة واللائي عرفن بزمام من البرونز في شفاههن[٧٠]".

[67] F.H.GEDENKVORTRAG, in FHN, vol. III, University of Bergen, 1998, p. 1098.

[٦٨] ملاحظة المحقق: "الاترج" هو نوع من الفاكهة التي تُشبه الليمون.

[٦٩] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، في: مسعد، المكتبة السودانية العربية، جامعة القاهرة بالخرطوم- القاهرة ١٩٧٢، ص ٥٠. (cf. OS, p. 127)

[70] FHN, vol. III, University of Bergen, 1998, p. 816.

معتقدات النوبة

ذكر سترابو أيضا أن النوبيين "اعتقدوا في إله خالد، الذي زعموا أنه محرّك لكل عالم الأشياء، وفي إله آخر فاني ولم يكن له اسم أو حتى هوية. ومن ناحية أخرى نجد أن النوبيين قد اتخذوا من ملوكهم وسادتهم آلهة، ومن أولئك تميز الملوك كمنقذين وحراس للجميع، أما الآخرون، فقد اتخذ كل فرد على حدة وارتبط بواحد من ولاة أولئك الآلهة في علاقة مباشرة في كون عدالة ما تحققت على يديه. أما المجموعات الأخرى إلى جهة المناطق الحارة فقد اعتبروا ملحدين ولا دين أو عقيدة لهم"[٧١]. كان النوبيون، مثلهم ومثل غيرهم ممَّن قطنوا ضفاف وادي النيل إبان الفترة المروية، قد اعتقدوا في تعدد الآلهة والإلهات الذين واللائي ربما كان لهم أو لهن التأثير في حيوات الناس بخير أو شر.

شيد ملوك الفراعنة معابد فخمة للإلهة إيزيس على جزيرة فيلة حتى صارت الجزيرة مركزا لعبادتها ومزارا للحجيج. وفي موسم الفيضان يحمل الناس تمثالا لإيزيس ويطوفوا به القرى المجاورة لضفتي النيل وقد كان إيمانهم قاطعا بأن درب الإلهة سوف يضمن الخصوبة لنسائهم. وكذلك مما ملكوا من إنعام وضمان ازدهار موسم الحصاد. ولم يتردد البليميون، مع قبائل الرحل في الحج إلى فيلة ومعبد فيلة هذا كان من أعظم مراكز العبادة في النوبة السفلى حتى القرن السابع الميلادي.

استقر النوبيون على طول وادي النيل واختلطوا بالسكان المحليين وكان أن انخرطوا مع معتقدات المرويين وعبادة آلهتهم مثل آمون (Amon) وإيزيس (Isis) وأبادماك (Apedemak) وحورس (Horus) وأرنسنوفس (Arensnuphis)...

أما في النوبة السفلى فإن إله الشمس مندولس (Mandulis) قد عبد بتوقير واحترام فائقين، وقد بنوا له معبدا في كلابشة، وقد أعاد بناءه الإمبراطور الروماني أغسطس (Augustus) لاحقا في القرن الأول لميلاد المسيح وذلك بعد أن جاء إلى الإقليم غازيا وانتصر على أهله حوالي عام ٢٧ ق.م.، والصرح الذي أعاد بناءه بشكل فخم، يعد الأكبر (٣٣x٧٤ مترا) من نوعه في النوبة السفلى وذلك سعيا وراء رضا أهالي المنطقة.

آمن النوبيون بالحياة ما بعد الموت ويقف شاهدا على ذلك أضرحتهم ومدافنهم مما يدلل على اهتمامهم بالآخرة. وقادهم ذلك إلى الاعتقاد بالحياة ما بعد الموت هي عودة الروح إلى الجسد في القبر، وذلك لإيمانهم بأن كل ما تمتعت به الروح قبل الموت واحتاجت إليه مثلوه في مدافنهم، فقد كانوا يصلون قنوات الماء إلى حيث الجسد المسجى (جثة الميت) واللبن والطعام وأشياء من مثل المرايا والسكاكين والأسلحة والحجارة ...الخ، وهذا ما نشهد تجلياته اليوم في الحياة اليومية للنوبيين مثل الحرص على نظافة مدافن الموتى ورش القبور بالماء والسعي لزينة المكان باستخدام جريد النخل يومَي عيد الفطر وعيد الأضحى.

[71] FHN, vol. III, p. 816.

غزا الرومان مصر حوالي عام ٣٠ ق.م. ووصلوا حتى أسوان (سينه، Syene، باللاتينية)، والسؤال هو م
شارك النوبيون في تلك الحرب؟ بما أنهم من سكان الإقليم، فإن مشاركتهم كانت واجبة ولا مناص منها. بدأ
الأحداث في طيبة كردة فعل للضرائب الباهظة، وما حدث أن المتمردين هاجموا الحاميات الرومانية في أسوا
(Syene) حينما انتقل عدد غفير من الجنود إلى اليمن، وانتهى الأمر بالمتمردين إلى هدم تمثال الإمبراطور أغسطس
قيصر وأخذ العديدين كأسرى في ذلك الهجوم.

ومن ثم، تحركت قوات مروية بقيادة الملك والملكة كنداكة[72] باتجاه أسوان لمساعدة الثوار والمتمردين. إلا أن الجنرال الروماني بترونيوس (Petronius) لاحق المتمردين وألحق بهم هزيمة في منطقة داكّا (Pselchis)، وعر عليهم سلاما وإيقاف الحرب شريطة أن يعيدوا الأسرى والتماثيل التي هدمت، إلا أنهم رفضوا شروطه تلك وما كان من الجنرال إلاّ أن توغل جنوبا وألحق بهم مرة أخرى شر هزيمة؛ وسيطر على المنطقة الواقعة فيما بين الشلال الأول والثالث (Triakontaschoinos) (حوالي ٣٢٠ كلم) حتى وصل إلى نباتا وسقطت في أيديهم ودمرت عن آخرها وهنا أعاد المرويون النظر في شروط السلم التي قدمت لهم وقبلوا بها هذه المرة وسلموا الأسرى وأعادوا التماثيل والقطع الأثرية عدا قطعة واحدة (هل يا ترى كان هنالك سببا وراء ذلك أم كان ذلك محض صدفة؟) كانت القطعة تمثالا نصفيا لأحد أباطرة الرومان والذي أعاده المرويون إلى ديارهم[73] لاحقا. ومن ثم وقّع الإمبراطور الروماني وكنداكة اتفاقية سلام أوقفت تلك الحرب في ساموس – اليونان (١٨ ق.م.). وبدوره قام الإمبراطور بالعا الضرائب التي فرضها الغزاة وأعاد للمرويين بعض ما أخذ منهم من بقاع ومدن الإقليم "Triakontaschoinos" وترك أماكن أخرى تحت أمرته (أي الإقليم المسمّى ب Dodekaschoinos"[74]=١٢٠ كلم) وإدارته بل وترك كثا لحراستها ورعاية شؤونها التي تركت للنخبة من السكان المحليين، وهؤلاء كانوا ممن انحدروا من سلالة الملوك والأسر الحاكمة من أهالي كوش.

وهنا كانت لحظة تقاطع الأخيرين مع النوبيين (السكان المحليين في المنطقة). وبذلك انتهت الحرب ووضعت أوزارها فيما بين أهالي مروي والرومان أو قل النوبيين في داخل الإمبراطورية، على الأقل لم يشر أحد من المؤرخين لأية واحدة منها حتى عام ٢٨٣م عدا بعض غارات القبائل التي سعت إلى الاستقرار في وادي النيل والتي أخلت بالأمن في الإقليم بعض الأحيان.

[72] ملاحظة المحقق: واسم الملكة أمانيريناس (Amanirenas) (٤٠ ق.م. - ١٠ ق.م.).
[73] دفنت في أحد المعابد واكتشفت في عام ١٩١٣، والآن توجد معروضة في متحف السودان القومي.
[74] ملاحظة المحقق: بمعنى المنطقة ما بين أسوان والمحرقة التي تقع على بعد ١٢٠ كلوم من أسوان.

هجمات إمبراطورية أكسوم ونهاية مملكة مروي

استعد المرويون حوالي القرن الثالث الميلادي لصد هجمات الأكسوميين المحتملة. وبالفعل قام ملكهم عيزانا حوالي ٣٣٧ – ٣٤٠م بحملاته على شرق السودان والذي استطاع دحر وهزيمة بعض القبائل وهو الذي عرف باسم "ملك الملوك" و "ابن الإله آريس لا يُغلب" و"ملك الأكسوميين والحميريين والإثيوبيين والبحاويين والكاسو". استطاع عيزانا لاحقا، حوالي ٣٥٠م، توجيه الضربة القاضية لفلول المرويين وآخر ملوكهم وقد سجل ذلك النصر المبين في نُصب تذكاري في أكسوم يقول "بفضل الإيمان بالله وبفضل قوة الآب والابن والروح القدس، الذي أنقذ ملكي بفضل إيماني بابنه يسوع المسيح"[75]. وهذا مما يدلل على أن عيزانا قد اعتنق المسيحية فيما بين ٣٣٧م – ٣٥٠م وأكثر من ذلك، فقد جعلها الديانة الرسمية لمملكة أكسوم وكان ذلك على أواخر أيام انهيار مملكة مروي.

في حوالي ٢٧٢ – ٢٩٧م، قام البليميون، وهم أحد بطون البجا، بمحاربة النوبيين الذين استقروا في وادي النيل وواصلوا غاراتهم على جهات مصر العليا. من جانب آخر، فإن الإمبراطور الروماني ديوكلتيانوس (٢٨٤– ٣٠٥م)، الذي عجز عن تحقيق سلام في إقليم "Dodekaschoinos"، تخلي عن حدود إمبراطوريته القديمة وانسحب حتى تخوم أسوان (Syene)، حتى يتمكن البليميون من الاستقرار. وكذلك دعا أهالي نبتا من الواحات الغربية (أي منطقة خرجة؟) إلى الاستقرار في وادي النيل، حتى يتمكن من فصل البليميين عن مصر، وهكذا فقد كانت نبتا بمثابة درع لحماية الإمبراطورية الرومانية ناحية مصر.

وقد وافق الإمبراطور كذلك على دفع مبالغ من المال إلى كل من أهالي نبتا والبليميين في مقابل تحقيقهم للأمن والسلام والاستقرار في أراضيهم في وادي النيل، وكان على أهالي نبتا حماية الحدود المصرية وقد ظل هذا الوضع في النوبة السفلى على ذلك الحال حتى عام ٣٥٠ م.

بحلول عام ٣٦٠م فقدت مروي كل أهميتها كعاصمة للإمبراطورية، وتفرق أحفاد حكام مروي/كوش وتسربوا إلى جهات وبقاع مختلفة. آنذاك لم يدفن أحد في البجراوية (Bagrawiya) حيث لم يبن أي هرم جديد بل تم الدفن في أماكن أخرى بجبّانات ضخمة تحيطها الرمال وتغطي كل جوانب المدافن وتبدو من بعيد وكأنها تلال رملية. آخرون من صغار الحكام في النوبة السفلى تزاوجوا مع بعض النوبيين والسكان المحليين، وعلى خلاف أولئك فقد أقاموا مدافن فخمة جمعت فيما بين الموروث وطرائق البناء والتشييد التي أتى بها الأجانب. ونجد داخل تلك المدافن – مثل قُسْطُل (٣٧٠ – ٤١٠ م) وبَلاّنا (٤١٠ – ٥٠٠م) – بعض القرابين من الحيوانات والخدم للملك المرحوم الذي يحمل التاج على رأسه وبجوهراته وبعض الرموز التي تدلل على مسيحيتهم.

من المحتمل أن خارامادويا (Kharamadoye) كان أخر ملوك مروي الذي عثر على مقبرته في قسطل (أواخر

[75] FHN, vol. III, p. 1094-1103.

القرن الرابع الميلادي أو بدايات القرن الخامس)، فقد خلّف كتابة باللغة المروية في كلابشة. ولعله أيضا قد حار
البليميون في سياق المحاولات لضم أراضي واسعة من النوبة السفلى وذلك منذ ٣٩٥م وحتى اضطروا للتراجع بواسط
الملك النوبي سِلكو ملك نوباديا.

سِلكو ملك نوباديا

من المهم جدا أن نشير إلى أن النوبيين، بعد انهيار إمبراطورية مروي وبكل مجدها السياسي والثقافي، لم يرتلو إلى معتقداتهم الوثنية بل أبدوا اهتماما خاصا بالمسيحية القادمة من مصر.

كان النوباديون[76] القبيلة السائدة على وادي النيل وقد حارب ملكهم سلكو البليميين (حوالي ٤٥٠م) وقام بطردهم من النوبة السفلى بل قد وقف في وجه آخرين ممن أبدوا أطماعهم في بلاد النوبة. وهنالك كتابة في معبد فيلة حفظت لنا رواية معاركه:

"أنا سلكو ملك (*basiliskos*) النوباديين والأثيوبيين، قد وصلت إلى تلمس (كلابشة) وتافِس (تافه). حاربتُ لمرتين البليميين وبفضل الله انتصرتُ. في المرة الثالثة انتصرتُ وسيطرتُ على مدنهم ودخلتها مع قواتي. حينما انتصرت عليهم في المرة الأولى وطالبوا باتفاق مشروط. وحققنا سلاما مشتركا أقسموا من بعده وبحق آلهتهم (*eidolon*) وقد قبلت بذلك طالما أن قناعتي أنهم كانوا أهل ثقة ويمكن لي أن آتمنهم وآمنهم وفي الحال تراجعت باتجاه النوبة العليا.

فلما صرتُ ملكا (*basiliskos*)، لم أسر وراء الملوك(*basileus*) الآخرين، بل تقدّمتُهم جميعا والذين ينازعونني لم أسمح لهم أن يقيموا في بلادهم إلا بعد أن يتوسّلوا إليّ ويبتهلوا إليّ. وذلك لأنني كنت أسدا في الأقاليم السفلى ودبا في العليا منها حاربتُ البليميين من Primis (إبريم) وحتى Telèlis (شِلّال) في ذات الوقت الذي قمت فيه ببعض الهجمات على بلاد أخرى في المناطق أعلى بلاد النوباديين لأنهم نازعوني. أما أرباب الشعوب الأخرى الذين ناوشوني أيضا، فقد رفضت بقاءهم في الظل وحرصت على بقائهم في ضوء الشمس ولم يكن مسموحا لهم حتى شرب الماء في بيوتهم لأنني سطوت على نسائهم وأطفالهم"[77].

وبعد، هل كان سلكو مسيحيا؟ من الواضح أننا لا نستطيع إجابة قاطعة إلا أن الكاتب الذي نحت أخبار معاركه أعلاه لربما كان مسيحيا.

حوالي عام ٤٥٢م تحركت جيوش الرومان من مصر لتأديب البليميين والنوباديين لهجماتهم وغاراتهم على الأراضي المصرية. وبالفعل بدأ الإمبراطور الروماني مَكسيمينوس(Maximinus) بالهجوم عليهم حتى أضطرهم لتوقيع اتفاق بموجبه تتوقف الحرب (هدنة) لمدة مائة عام. ومن ضمن بنود ذلك الاتفاق(الهدنة)، كان يمكن للبليميين

[76] "ويرى كروان (L.P.KIRWAN, The Oxford Excavations in Nubia, JEA, XXI, p. 197) أن النوباديين الذين" هاجموا كنائس أسوات "والنباطيين الذين عقد معهم مكسيمينوس صلحا، ونوبادي سلكو، هم جميعا النوبيون الذين أغاروا على مروي في القرن الرابع الميلادي".(مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الخرطوم ٢٠١١، ص ١٩)

[77] FHN, III, p. 1150-1151.

دخول الأراضي المصرية للحج لمعبد إيزيس (Isis) بفيلة ومن بعد حمل تماثيل الإلهة في طابور طويل حول المنطقة. وظلت الاتفاقية فاعلة وملزمة للأطراف جميعا حتى موت مكسيمينوس. وقبل أن يكتمل قرن على الاتفاق، عاود البليميون والنوباديون القتال من جديد.



صورة بنت نوبية رسمها Prisse D'Avenne حوالي ١٨٥٠

الفصل الثاني

طلائع المسيحيين

مِن طلائع وأوائل مَن اعتنقوا المسيحية في بلاد النوبة، ويا للمفارقة، لم يكن نوبيا. فقد كان موظفا عاليا مرويا في البلاط الملكي، أي على نحو أدق خازن كنداكة/ملكة مروي[78]. وقد جاء في الكتاب المقدس ذكره كما يلي:

«وكلّم ملاك الرب فيلبُّس فقال له: "قم واذهب نحو الجنوب، في الطريق المنحَدِرَة من أورشليم إلى غزة وهي مُقفرة". فقام فيلبُّس ومضى. وفي الطريق صادف رجلا من أثيوبيا٧٩، وزيرا من خصيان كنداكة ملكة الحبش، وخازن جميع أموالها. وهو جاء إلى أورشليم للعبادة، وكان راجعا وهو جالس في مركبته يقرأ النبي إشعيا. فقال الروح لفيلبس: "تقدَّمْ حتى تلحق هذه المركبة". فأسرع إليها فيليبس وسمع الرجل يقرأ النبي إشعيا. فقال له: "أتفهم ما تقرأ؟" فأجاب: "كيف أفهم ولا أحد يشرح لي؟" ورجا من فيلبُّس أن يصعد ويجلس معه. وكانت الفقرة التي يقرأها من الكتاب هي هذه:

"كنعجة سيق إلى الذبح،

كحمل صامت بين يدَي من يجزه

هكذا لا يفتح فمه.

أذلوه وسلبوه حقه.

حياته زالت عن الأرض،

فمن يخبر عن ذُرِّيته؟"

فقال الرجل لفيلبُّس: "أخبِرني مَن يعني النبي بهذا الكلام؟ أيعني نفسه أم شخصا آخر؟" فبدأ فيلبُّس من هذه الفقرة في الكتاب يُبشره بيسوع. و بينما هما في الطريق وصلا إلى مكان فيه ماء، فقال الرجل لفيلبُّس: "هنا ماء، فما يمنع أن أتعمد؟" فأجابه فيلبُّس: "يمكنك أن تتعمد إن كنت تؤمن من كل قلبك". فقال الرجل: أؤمن بأن يسوع المسيح ابن الله". ثم أمر بأن تقف المركبة، ونزل هو وفيلبُّس إلى الماء، فعمّده فيلبُّس. ولما خرجا من الماء خطف روح الرب فيليبسَ، فغاب عن نظر الرجل، فمضى في طريقه فرحا (أعمال الرسل ٨: ٢٦- ٣٩)[80] ».

مَن هو ذلك الرجل؟ زعم بعض الأثيوبيين أنه أحد رجالهم وينحدر من سلالة يهودية جاءت إلى أرض الحبشة في فترة سحيقة من تاريخ المنطقة، وكل ما استطعنا معرفته هو أن الرجل خدم لفترة في البلاط الملكي المرويّ، على الرغم من عدم استطاعتنا تجنب تلك الفرضية أو استبعادها، إلا أن شكوكا تظل قائمة في نسبته إلى أثيوبيا، فقد كان الرجل مثقفا، غير كثيرين من أبناء جيله، ومطلعا وعارفا باللغة الإغريقية وله معرفة بشؤون المال والأعمال حتى إنه عُين كمشرف على نساء البلاط وانتهى كما ذكر بأمين أمانة خزانة الملكة.

من المعروف أن أعدادا كبيرة من اليهود، بلغت نصف مليون يهوديا، قطنت مصر آنذاك وقد عمل معظمهم، إن لم يكونوا كلهم بالتجارة، ومن المعروف أيضا أن في جزيرة ألفنتين، أي الجزيرة أمام سينه (أسوان)، قد سكنت جماعات من اليهود – مستعمرة لليهود إن شئت – في زمن مضي. وهكذا يمكن لنا أن نزعم بأن "رجل الأعمال" ذاك ربما ارتبط بتلك المجموعة في سياق نشاط وتبادل تجاريين، ولربما أن ذلك التواصل طال نقاشات دينية فيما بينه وبين تلك الجماعة اليهودية. وعندما نقارن فيما بين عقيدة اليهود التوحيدية – إله واحد خالق الكون – وعقيدة المرويين من جانب آخر، التي آمنت ببضعة آلهة (ذكور وإناث) متصوّرة كحيوانات مما كان يُزعج قلبه، أي تلك المقارنة بين ديانته المروية وعقيدة التوحيد اليهودية. وكانت ردة فعله أن يتبني عقيدة اليهود التوحيدية بدلاً من تعدد الآلهة المروية. وفي الحال قرر الذهاب إلى القدس لزيارة الهيكل، مكان عبادة الله سبحانه وتعالى. وحول ذلك المعبد كانت هنالك مكتبات حيث اقتنى نسخة من كتاب النبي أشعياء، وما حدث بعد ذلك فقد ورد في النص المذكور من الكتاب المقدس والذي لا يحتاج منا لتفسير وإيضاح أكثر، وذلك النص انتهى بالعبارة "[...] فمضى في طريقه فرحا".

لربما يسأل المرء ما الذي حدث بعد ذلك؟ هل سعى أول مسيحي في منطقة النوبة لهداية الآخرين؟ على الأقل لم يشر الكتاب المقدس إلى ذلك ولن نجرؤ على إضافة حكايات متخيلة لا تسمن أو تغنٍ ولا تقف دليلاً دافعاً يسند تلك الافتراضات التي ذهبنا إليها، بل نسعى لإضافة سؤال آخر نزعم أنه يستحق إجابة ناجعة. بما أن هنالك تبادلات قد تمت بين مصر وجنوبي مصر منذ زمن سحيق, ابتداء من الشلال الأول وكما هو معروف أن في نهايات القرن الثالث ومنتصف الرابع الميلادي مصر قد تحولت بكاملها إلى الديانة المسيحية، وعليه وبما أنها صارت بلدا يدين بالمسيحية، فمن البديهي أن من ضمن المسافرين بين البلدين (مصر ومروي) كان هناك أفراد قد اعتنقوا المسيحية حتى ولو لم توجد كنائس منظمة أو جماعات مسيحية ثابتة بعدُ.

في إحدى الأنصاب التذكارية التي اكتشفت في جبل البركل عام ١٩١٣، كُتِب: "بمشيئة الله وبإرادته، خالق كل شئ، الذي أحال الفوضى إلى نظام، توفيت إليزابيث (Elizabeth) في شهر *"حواك"*. وارقدها الله في رحابه بسلام" (ترجم A.Łaitar هذه الكتابة إلى اللغة الإنجيلزية). من الواضح أن ذلك النُصب التذكاري أثرا من آثار المسيحية، ويرجح بعض الباحثين أن تاريخها يعود إلى ما بين ٣٠٠م و٥٠٠م.

أيضا هنالك قصة عيزانا ملك أكسوم الذي صار مسيحيا فيما قبل ٣٥٠م والذي قاد حملات انتهت بسقوط مروي. وبعد أن صارت المسيحية ديانة رسمية للملك، يمكن أن نزعم بثقة أن في غارته الثانية على المرويين كان في

[78] ملاحظة المحقق: نذكر هنا أن الكلمة "كنداكة" تعني "السيدة" زوجة الملك المروي، وتستعمل ايضا للمرأة القوية والمهمة.
[79] ملاحظة المؤلف: "أثيوبيا" هي كلمة يونانية أصلا ومعناها "بلاد السود" وكانت وقتئذ تشير إلى جميع الأراضي الأفريقية الواقعة جنوب خط أسوان من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي جملة بما في ذلك أرض المملكة المروية وهي السودان اليوم وجبال مملكة أكسوم آنذاك وهي إثيوبيا اليوم.
[80] الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط لبنان ١٩٩٣، ص ١٩٣.

صحبته عدد من زعماء الكنيسة.

من المعروف أيضا أن الإمبراطور ديوكلتيانوس ومن عام ٢٩٧ م قد بدأ اضطهاد المسيحيين في مصر وكان نتاج ذلك أن هرب الكثيرون باتجاه الجنوب أي إلى النوبة السفلى، وكذلك ينبغي أن نضع في الاعتبار أن بعض الرهبان المصريين قد قاموا بأنشطة تبشيرية فيما وراء الحدود على الرغم من عدم معرفتنا بتفاصيل حول الزمان أو المكان.

نشاط الرهبان المصريين

وبين سنة ٢٠٠م وسنة ٣٠٠م أمر قياصرة روما (ديوكلتيانوس عام ٢٩٧م) باضطهادات متعددة وشاملة تستهدف المسيحيين في الإمبراطورية كلها بما في ذلك القطر المصري فكان كثير من المسيحيين المصريين في المدن المجاورة للإسكندرية (الدلتا) يهربون من المدن العامرة إلى الصحارى المقفرة غرب النيل وشرقه وحتى الصعيد الأعلى وهكذا نشأ في مصر نظام النساك. وكان بعض الرهبان والنساك القاطنين في ضواحي أسوان يتصلون بالنوبة والبلاميين عبر الحدود. وتشهد على ذلك كثير من الحوادث المسجلة في سير كبار الرهبان. ونتيجة لهذه الاتصالات دخل بعض البليميين والنوبة الديانة المسيحية، والدليل القاطع على نفوذ المسيحية المصرية - إلى حد ما - في أرض النوبة هو اكتشاف بعض الأثاث والصلبان المسيحية في مقابر ملوك بلانا وقسطل تعود إلى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٥٠٠م. ونذكر أن بعض الأساقفة قد أقاموا بجزيرة "فيلة" منذ عصر القديس أثاناسيوس مطران الإسكندرية من سنة ٣٢٧ إلى سنة ٣٧٢م. وورد في بعض الوثائق من (سير المطارنة) أن أساقفة فيلة قد حولوا بعض المعابد الفرعونية الوثنية - إلى معابد مسيحية ومن بينها معبد القديس اسطفانوس الذي كرّسه ودشنه ككنيسة الأسقف تيودورس في سنة ٥٢٧م كما يثبت من كتابة التدشين التذكارية.

وكان "ماكيدونيوس" أحدَ المواطنين في جزيرة فيلة وهو مسيحي وصاحب مَنْصِبٍ إداري في الجزيرة. وفي يوم ما عندما شاهد ابن كاهن الإله "هُورُوس" يرعَى الطَّير المَعْبُود من والدِهِ ومن سائر سُكَّان المِنْطَقة فقَتَلَ الطير (الصَقْر) -الذي على صورة الإله هُورُوس.

ثم اختَفَى ماكيدونيوس لِكَيلا يُواجِه غَضَبَ السُكَّان وذهب إلى الإسكندرية حيث قابل المطران أثاناسيوس فأَخْبَرَهُ بما حَدَثَ في الجَزِيرة، فشَجَّعهُ أثاناسيوس ورسمه أُسْقُفًا فأَرْسَلَهُ إلى جزيرة فيلة لِيُبَشِّر السُّكَّان بالمسيحية. فذَهَب ماكيدونيوس إلى فيلة وبدأ التبشير والتنصير فنجح نجاحًا سريعًا. وكان ذلك حوالي سنة ٣٥٠م.

وبعض الوثائق التي اكتشفت في إبريم، تذكر أسماء مسيحية وسط مواكب بعض الملوك النوبيين حوالي ٤٥٠م وهذا يعني تاريخ يعود إلى ما قبل أن تتبنى الممالك النوبية الثلاث المسيحية كديانة رسمية بحوالي مائة عام.

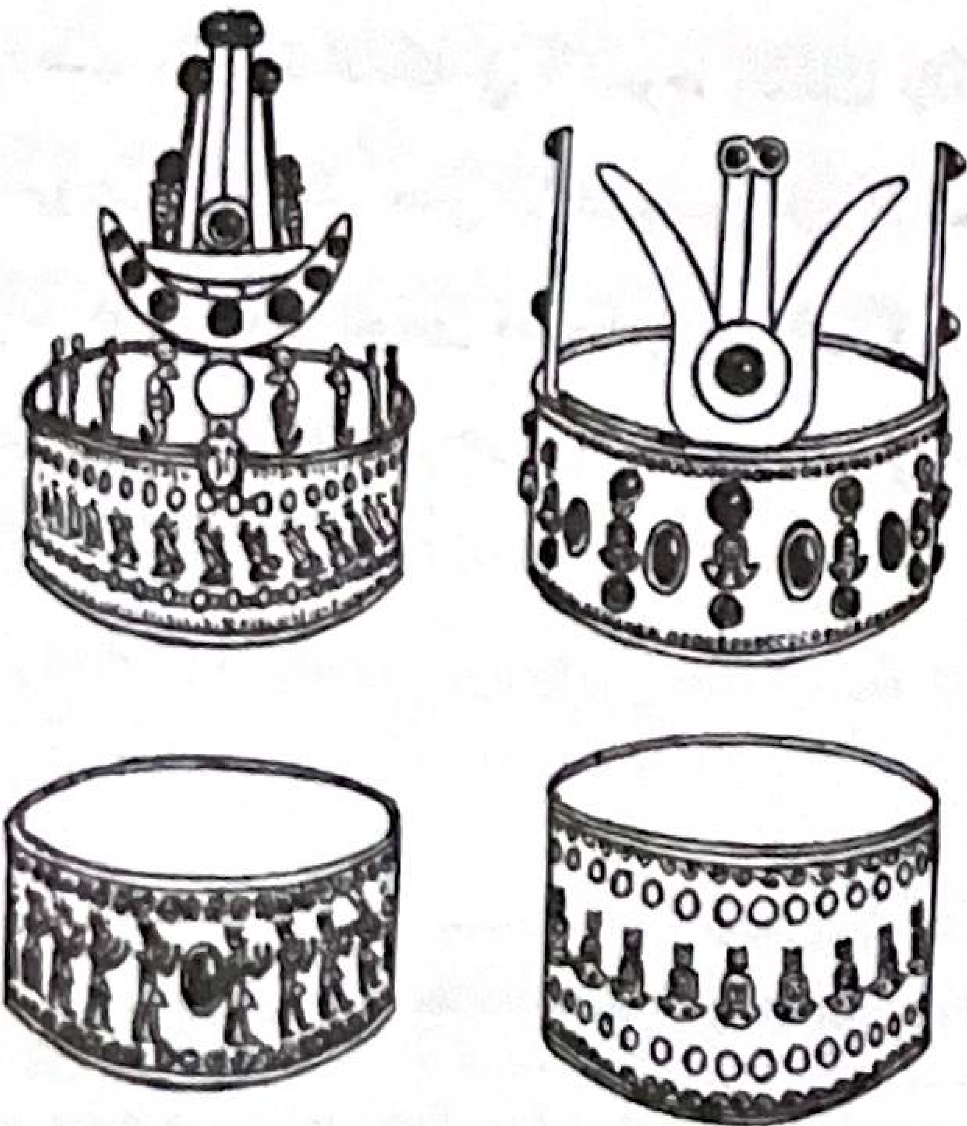
يبدو من غير المعقول أن نقول إن جنوب الوادي قد كان عليه أن ينتظر حوالي ٥٠٠ عاما (ذلك يعني زمن وصول البيزنطيين) حتى يعتنق النوبيون المسيحية. من جانب آخر، لربما اعتنق بعض المرويين المسيحية أو قل كانوا

على معرفة بها وببعض المسيحيين وذلك قبل فترة ليست بالقصيرة حتى قبل أن تتقبل مروي العقيدة الجديدة رسميا وتقوم بتبنيها.

هل متّى الرسول بشّر بالإنجيل في مروي؟

هنالك أسطورة مسيحية قديمة وردت أولا في كتاب "هوريجنوس" العلامة الإسكندري الكبير (حوالي سنة ٢٥٠م) وحفظها لنا يوسابيوس (Eusebius)[٨١]، قد أكدت أن القديس متّى الحواري بشّر بالإنجيل بعض يهود فلسطين في الأول و"شعوبا أخرى" لاحقا. والسؤال مَن هذه "الشعوب"؟ لا يمكن لنا أن نقول وبشكل جازم حتى المحاولة للإجابة على ذلك السؤال، إلا أن بعض مؤرخي الكنيسة (٤٠٠-٥٠٠ م) قد ذهبوا بدون ذكر أدلة أو شواهد، إلى أن متى قد استطاع تنصير "أثيوبيا"، وزعم آخرون أنه قد وصل إلى تخوم بلاد الفرس وسوريا و مقدونيا. أضيفت حكايات أخرى مدهشة حوالي القرنين السابع والثامن الميلاديين، فمثلا إحداها تقول بوصول متّى إلى مدينة ملك "أثيوبيا"، وكذلك تحول الملك إيجيبُس (Aegyppius) وزوجته يوفينسا (Euphenissa) وابنته أفيجينيا (Ephigenia)، خلافا لما ورد عند بعض السحرة والمشعوذين إلى اعتناق المسيحية على يديه؛ وكذلك بناء الكاتدرائية وتعيين خصي أسقفا وبطريركا لكل أثيوبيا، والتي تحولت أيضا من "النيل وحتى البحر الأحمر" إلى أرض مسيحية، وقد تم ذلك بمساعدة سبعين من حوارييه؛ واستشهاد متّى في الكاتدرائية بالقرب من مذبح الكنيسة...

من جانب آخر، فإنه ليس ثمة دليل واحد على وجود جماعة مسيحية في مملكة مروي في القرن الأول للميلاد، وإن كان هناك ثمة وجود لذلك جنوبي مصر فيما قبل سنة ٢٠٠م، فإن المؤرخين المصريين فيما بين القرنين الثاني والثالث الميلاديين أشاروا لذلك في كتاباتهم، إلا أنه على العكس من ذلك، فقد ظلت المعتقدات المروية والنوبية فيما وراء أسوان على ما هي عليها حتى القرن الرابع الميلادي. أما تحول خصي كنداكة إلى المسيحية، ربما ظلت واقعة معزولة دون أن تترك أثرا خارج حاشيته.



في الصورة تيجان الملك المكتشفة في مقبرتي ملكي بَلّانا و قُسطُل(حوالي ٤٠٠-٥٠٠م).

من: Emery, p. 80

الفصل الثالث

أهالي علوة والمقرة

لا شك أنه فيما بعد الملك سِلْكو (النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي)، استقر النوباتيون في وادي النيل جنوبي إبريم، وتوغلوا أكثر إلى جهة الجنوب حتى فركة حيث مركزهم الرئيسي في فرص. من الجانب الآخر فإن المعلومات عَمّن سكنوا فيما وراء الشلال الثالث غير متوفرة خاصة فيما وراء ملتقى النيلين. لربما سكنت قبائل متفرقة ومختلفة ومتناحرة فيما بينها تماما مثلما هي قبائل الشمال، وإحدى تلك كانت المقُرِّيين. وتفيدنا بعض المصادر العربية بأن النوبيين في نوباتيا وأهل المقرة من أصل أو جذر عرقي واحد أو قل انحدروا من مجموعة عرقية واحدة، أما أهالي علوة فقد اختلفوا عن تلك المجموعة كما ذكر اليعقوبى في تاريخه:

"وكان ولد حام بن نوح قصدوا عند تفرق ولد نوح من أرض بابل إلى المغرب، فجازوا من عبر الفرات إلى مسقط الشمس وافترق ولد كوش بن حام، وهم الحبشة والسودان لما عبرو نيل مصر فرقتين، فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب، وهم النوبة والبجة والحبشة والزنج [...] فلما النوبة صارت في الجانب الغربي من النيل وتجاوزت مملكة البقط، وهم ولد بيصر بن حام بن نوح، تملكوا هناك، فصارت النوبة مملكتين، فإحداهما مملكة الذين يقال لهم "مقرة"، و هم في شرق النيل وغربه، ومدينة مملكتهم دنقلة، وهم الذين سالموا المسلمين وأدوا إليهم البقط. وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع واتساع المملكة شبيه بشهرين [...] والمملكة الثانية من النوبة الذين يقال لهم علوة أعظم خطرا من مقرة ومدينة مملكتهم يقال لها سوبة ولهم بلاد واسعة شبيهة بثلاثة أشهر والنيل متشعب عندهم في عدة خلجان"[٨٢].

وإن دققنا البحث حول أصول ملوك سوبا والأسرة المالكة في دنقلا، فإن من المحتمل أن بعضهم يرجع إلى نخبة مروية متأخرة ارتبطت بالأسرة المالكة في أكسوم، ولذلك فإنه ليس من الغرابة في شيء أن الملك عيزانا، فيما بعد انتصاراته على المرويين، قد ترك بعض الأكسوميين من الزعماء ليحكموا وادي النيل، وهذا ما ذهب إليه بعض المؤرخين العرب أن بعض ملوك النوبيين قد جاءوا من حمير في اليمن وفي هذا الصدد ذكر المسعودي:

"وملوكهم (النوبيين) تزعم أنهم من حمير، وملكهم يستولي علي معرد (معدن؟ مقرة؟) ونوبة."[٨٣]

---

[٨٢] تاريخ اليعقوبي، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٢٠-٢١. (cf. OS, p. 70-71)

[٨٣] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، في مسعد، ص ٥٠. (Cf. OS, p. 127)

كيف تبنت نوباتيا المسيحية؟

في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وبسبب خلافات لاهوتية أزكت جذوتها مشاعر وانفعالات إنسانية ومنافسات إقليمية، آلت إلى شرخ في وحدة المسيحية في الشرق، بل وإلى ظهور عدة طوائف. وحوالي عام ٥٥٠ م بلغت عددها في الإسكندرية عشرين ولكل واحدة منها قائد وأتباع. وقد كان أهم انشقاق حينذاك ما حدث فيما بين أنصار ومعارضين لمجمع خلقيدونية حوالي ٤٥١م. المعارضون، أي المونوفيزيون أو "اللاخلقيدونيون"، فتسمّوا أيضا باليعاقبة، لأن يعقوب باراداي نظّمهم في مصر حوالي ٥٣٠م[٨٤]. وفي مصر، فإنّ أغلبية المسيحيين الذين كانوا من اليعاقبة وعارضوا إمبراطور بيزنطة، تسمّوا بالأقباط.

في عام ٥٢٧م، صار يوستينينوس إمبراطورا لبيزنطة والذي انحاز في البداية لمجمع خلقيدونية. وما كان الإمبراطور الجديد يقبل بأن ينصب بطريرك الإسكندرية أحد المونوفيزيين وهكذا تعاقب على المنصب ثلاثة من الخلقيدونيين (الإغريق أو الملكيين) بعد إقالة ثيودوسيوس. إلا أن المسيحيين المحليين لم يعترفوا بهم مطلقا. أما ثيودوسيوس، الذي كان بطريرك الإسكندرية اللاخلقيدوني، وأيضا أحد قادة المعارضة السياسية في مصر(٥٣٦م)، فقد أُقيلَ من منصبه[٨٥] ونُفيَ إلي تراقيا (أي بلغاريا حاليا). وسارع ثيودورا[٨٦] إلى دعوته للإقامة في بيزنطة ومن معه من المنفيين، وقد كان أحد أولئك قس يدعى يوليانوس لعب دورا بارزا في انتشار المسيحية في بلاد النوبة.

كان الطريق ممهدا للمسيحية في أن تنتشر في نوباتيا لأن القائد البيزنطي نارسيس كان قد وضع نهاية لعبادة إيزيس في فيلة وقام بإيداع كهنة معبدها في السجن وأرسل تمثالها إلى بيزنطة بدون معارضة من البليميين، عبدة إيزيس المؤثرين آنذاك.

ذكر المؤرخ المصري يوحنا النيقوسي (٦٨٦م)، أن ملك نوباتيا قد طلب من الإمبراطور في القسطنطنية بعثات تبشيرية لتدريس الإنجيل في بلده، ومن جانبه وافق الإمبراطور يوستينينوس على ذلك الطلب فقد طالما حلم بتوسيع نفوذه السياسي ويا حبذا لو كان ذلك مع نشر المسيحية وخاصة في الحدود مع مصر. المصدر الرئيسي الذي يمكن الاعتماد عليه في انتشار المسيحية في بلاد النوبة، هو الجزء الثالث من "التاريخ الكنسي" كتبها يوحنا الأفسسي[٨٧]. وبما أن هذا المؤرخ كان من اليعاقبة، يتحدث بحماسة بمنجزات ونجاحات طائفته في حملاتهم التبشيرية ولكنه تجاهل تماما خصومه الخلقيدونيين.

أما البطريرك ثيودوسيوس، وهو في منفاه، فقد اهتم كثيرا بأن يتحول "البرابرة" إلى المسيحية لأنهم الجيران القاطنون في مكان ما جنوبي مصر. ومن جانبه كان قلب الكاهن يوليانوس يتأجج غيرة لحمل راية الإنجيل إلى

---

[٨٤] ملاحظة المحقق: سيشرح المؤلف الاختلافات بين الطائفتين بالتفصيل في نهاية الفصل.

[٨٥] ملاحظة المحقق: نذكر أن وظيفة بطريرك الإسكندرية دائمة حتى الموت وعليه لا يمكن أن يُقيل.

[٨٦] كانت ثيودورا(٥٠٠- ٥٤٨م) زوجة الإمبراطور البيزنطي يوستينينوس الأول وتعتبر الامرأة أكثر تأثيرا في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

[٨٧] ملاحة المحقق: كتب يوحنا تاريخه باللغة السورية. ترجمنا إلى العربية من النص الإنجليزي الذي يوجد في "المصادر الشرقية" (OS).

هؤلاء "البرابرة". فطلب يوليانوس مقابلة الإمبراطورة ثيودورا سنة ٥٤٣م وأطلعها على رغبته هذه. وهي التي كان قلبها مفعما بالإيمان والحماسة الدينية وسرعان ما وعدته بأن تفعل كل ما بوسعها لتحقيق ما يصبو إليه. في هذه الأثناء علم الإمبراطور يوستينيانوس بما دار بين القس والإمبراطورة وخشي أن ترسل الإمبراطورة بعضا من أصدقائها اليعاقبة. فأرسل كتابا إلى أساقفة صعيد مصر يوعز إليهم فيه أن يتوجهوا إلى بلاد نوباتيا لتلقينهم مبادئ الدين المسيحي طبقا للعقيدة التي وافق عليها المجمع الخلقيدوني، دون أن يأتوا على ذكر العقيدة المناوئة (اليعقوبية). وحمل هذا الكتاب موفدو الإمبراطور قاصدين صعيد مصر بعد أن زودهم الإمبراطور بالمال والهدايا والأثواب الناصعة (البياض) التي يرتديها المؤمنون الجدد يوم تنصيرهم، كما سلمهم رسائل إلى حاكم مقاطعة مصر العليا وهو أحد أعوانه وممثليه، يطلب إليه فيها أن يبذل جهده ليمهد السبيل أمام موفديه إلى بلاد نوباطيا.

وأطلعت الإمبراطورة تيودورا على مخطط زوجها الإمبراطور فأوفدت على جناح السرعة إلى حاكم صعيد مصر ذاته رسولا سلمه كتابا. وطلبت منه في رسالتها أن يحسن استقبال كاهنٍ اسمه يوليانوس ويعمل جاهدا على أن يصل يوليانوس موفودها المذكور إلى بلاد نوباطيا قبل موفدي زوجها الإمبراطور يوستينيانوس. وهددته بأشد عقاب – وهو ضرب العنق – إذا سمح لموفدي الإمبراطور بدخول هذه البلاد قبل يوليانوس الكاهن. وقد كتب يوحنا الأفسسي في هذا السياق[٨٨]:

"حينما قرأ حاكم طيبة [مصر العليا] تلك الرسالة ووصله سفير الملك، لعب على الأخير قائلا: «عليك بالصبر وذلك حتى تعد العدة من جمال ورحال يخبرون طريق الصحراء ويرافقكم حتى دخول البلاد.» وهكذا استبعد الحاكم وفدَ الإمبراطور إلى حين وصول وفد الإمبراطورة. وهؤلاء وجدوا الرحالَ والجمالَ على أهبة الاستعداد وفي ذات اليوم — دون تأخير— تظاهروا بأنهم أخذوا الجمال عنوةً، وهكذا كانوا أول من غادر. فيما بعد ذلك أوفد الحاكم رسولا إلى سفير الملك. «يا إلهي! حينما أعددت العُدَّة ونويت إرسالها لك، جاء سفراء الملكة على حين غرة ونهبوني بعنوة وأخذوا الجِمال المعدَّة لهم ورحلوا بسرعة، إني على علم بالخوف الذي يشعر به المعارضون للملكة. ولكن امكثوا معي حتى أحضِّر عُدَّتكم من جديد وترحلوا من هنا بسلام». حينما سمع سفير الملك بذلك هدّد الحاكمَ وأهانه. وبعد بضعة أيام غادر موفودُ الملك طيبةَ دون أن يكتشف الحيلة التي "انطلت عليه".[٨٩]

عندما وصل يوليانوس وسفراؤه [إلى نوباديا] أخبروا الملكَ وأمراءه، فتم إرسال جيش كامل لاستقبالهم. وقوبلوا بكل الترحاب وقدموهم إلى الملك الذي رحب بهم بكل حفاوة. وقدّم لهم يوليانوس رسائل الملكة التي قُرِئت وعُرِف محتواها ومضمونها. كما قبلوا هداياها والأزياء الخاصة الوفيرة. وبعد ذلك، عبّر الملك وأمراؤه عن اهتمامهم بالتلقي عن يوليانوس دروسا في العقيدة المسيحية والتخلي عن أخطاء آبائهم وأجدادهم والاعتراف بإله المسيحيين قائلين: «هذا هو الإله الحقيقي ولا إله غيره».

---

[٨٨] ملاحظة المؤلف: قمنا هنا بالاحالة – بإيجاز – إلى ما أورده يوحنا في تاريخه عن تلك الحادثة وإحالتنا هنا فقط لما له علاقة مباشرة بالموضوع. يمكن أيضا الرجوع إلى:
L.P. KIRWAN, Contemporary Account of the conversion of the Sudan to Christianity, SNR XX, 1937, 2, p. 289-295.

[89] Cf. OS, p. 9-10.

بعد تلك التعاليم والدروس والإعداد الجيد، أخبرهم يوليانوس وجماعته بأن ثمة نزاعات وخلافات محددة ظهرت فيما بين المسيحيين أنفسهم حول الإيمان إلى الحد الذي أقيل به ثيودوسيوس بواسطة الملك حينما رفض طاعته، على الرغم من مساندة الملكة له، وأضافوا «أنها قد أوفدتنا إليكم لتسلكوا طريق البابا ثيودوسيوس وتذهبوا مذهبه وتثبتوا ثباته، أما الإمبراطور فإنه بعث بسفرائه إليكم وهم في طريقهم إليكم». وأخيرا علّمهم يوليانوس كيفية ملاقاتهم والتعامل معهم".[٩٠]

فيما بعد ذلك، تبنى ملك نوباديا وشعبه المسيحية وفقًا للطريقة اليعقوبية التي جاء بها يوليانوس. وعندما وصل وفد الإمبراطور استقبلهم الملك استقبالا حارا وقبِل هداياهم، وعلى الرغم من ذلك اعتذر عن عدم الاستماع إلى عقيدتهم قائلا:

"«نتقبل الهدية الكريمة التي أُرسِلَت إلينا من ملك الرومان [أي إمبراطور بيزنطة] ونحن أيضا سنرسل هدية له. ولكننا لن نتقبل إيمانه. إننا اعتنقنا هذه الديانة وفق مبادئ البطريرك الإسكندري [ثيودوسيوس] القويمة التي يعاني من أجلها الاضطهاد والنفي، لا وفقا لإيمان الإمبراطور الشرير. وما كنا نتخلي عن عبادة الأوثان الباطلة لنقع في غيرها من الأباطيل».
ثم طردوا السفراء وقد دونوا كل ذلك. أما يوليانوس المبارك فقد بقي معهم لعامين متحمّلا متاعب كبيرة. وقد زعم لاحقا أنه جلس بينهم في كهوف ملأى بالمياه من الساعة الثالثة حتى الساعة العاشرة مع أهل الإقليم العراة أو لابسي قماش. لكنه ثابر وعلّمهم، وعمّد الملك والنبلاء، وكثيرا من الناس. وتمكن من استحضار أسقف طيبة معه، وهو شيخ اسمه تيودور. وبعد تعليمهم وتنظيم الجماعة، ولّي يوليانوس هذا الأسقف مسؤول الجماعة. ومن ثم تركهم وسافر إلى القسطنطينية. وحضرته عندما استقبلته الملكة بإكرام عظيم، وحكي أشياء عجيبة عن أولئك الناس الطيبين[٩١]".

مَن بشّر بالإنجيل في المقرة ومتى؟

لأي مدى يمكن لنا أن نصدق تقرير يوحنا الأفسسي؟ من الواضح أن هنالك مبالغات فيما ذهب إليه: الطريقة الصبيانية التي خدع وفدُ ثيودورا سفراء يوستينيانوس بها، والثناء الوفير ليوليانوس مقارنة بازدراء الوفد الخلقيدوني وسهولة النجاح ببلاط نوباديا مما يشير إلى أن يوحنا الأفسسي كبّر نجاح حزبه. من جانب آخر فإن واقعة ملك نوباديا، الذي ما أن تحول إلى المسيحية فيتكلم عن الفروق بين العقيدة الخلقيدونية واللاخلقيدونية كأنه عالم اللاهوت، تقف شاهدا على ما ذهبنا إليه من إفراطه في التفسير والتأويل[٩٢].

بالإضافة إلى كل ذلك فإن مملكة المقرة قد تلقت العقيدة المسيحية في وقتها في ذات اللحظة التي نشط فيها يوحنا الأفسسي في بيزنطة، إلا أنه لم يشر إلى ذلك البتة. مثلا، يمكن أن نتساءل أين ذهب وفد الإمبراطور بعد أن طردهم ملك نوباديا؟ لم يشر يوحنا إلى ذلك. بيد أننا نجد أن أحد رواة الأخبار ألا وهو يوحنا البيكلاري، الراهب

---

[90] Cf. JOHN OF EFESUS (ed. R. Payne-Smith), Ecclesiastical History, Book IV, Oxford 1860, p. 223; cf. OS, p. 10-11.

[91] Ibidem, p. 227-228. Cf. OS, p. 11-12.

[92] Cf. MONNERET DE VILLARD, Storia della Nubia Cristiana (SNC), Orientalia Christiana Analecta 118, Rome 1938, p. 61.

الأسباني الذي أقام في بيزنطة (حوالي ٥٦٧-٥٧٦) قد كان شاهد عيان لما حدث آنذاك وكتب قائلا:

"في العام الثالث لحكم الإمبراطور يوستينوس [٥٦٨م]، أرسل الغرامنتيّون[93] وفدا [لبيزنطة] معبرا عن رغبتهم في الخضوع للإمبراطورية الرومانية واعتناق المسيحية. وحالما استجابت الإمبراطورية لطلبهم، وهكذا تلقى أهل المقرة الإيمان بالمسيح[94].

وفي عام الإمبراطور السابع [٥٧٣م]، وصل وفد أهل المقرة إلى القسطنطينية وقد جلبوا معهم هدايا من سن الفيل وزرافة واحدة تعبيرا عما يكنونه من مشاعر الود والصداقة للرومان[95]".

إلا أن السؤال الذي ظل قائما، كيف عرف الغرامنتيون وأهل المقرة طريقهم إلى المسيحية، خاصة وأن الأمر ارتبط بعقيدة الإمبراطور ولا أحد غيره؟ يبدو من الطبيعي أن نزعم بأن الإمبراطور لا بد من جانبه، قد أرسل وفودا إما من رسله بعد طردهم من نوباديا (٥٤٥م) أو ربما بعثات أخرى أرسلت بغرض التبشير من بيزنطة. من جانب آخر، فإن أخذنا بالحسبان أن يوحنا البيكلاري كان يدون الأحداث سنتين بعد أن تحدث، يمكن لنا أن نزعم بأن أهل المقرة والغرامنتيين قد تحولوا إلى المسيحية أو قل إنها انتشرت في بلاد النوبة فيما بين ٥٥٠م-٥٦٧م.

وهنا لا تفيدنا المصادر والوثائق بأية معلومات أو بيانات جديدة فيما أعقب ذلك التاريخ، إلا أن كنيسة قد شيدت في دنقلا في أواخر القرن السادس الميلادي والفضل في ذلك يرجع للمعماريين والعمال من بلاد اليونان (الإغريق).

وكذلك من الآثار الدالة على أن المرسلين الخلقيدونيين لم يقفوا عاطلين في بلاد النوبة، فمثلا الكتابات في شواهد القبور في نوباديا التي قام جونكر (Junker)[96] بتحليلها تكشف عن أن صيغة الصلاة للأنصاب التذكارية النوبية تتوافق حرفا بحرف مع الصيغة البيزنطية التي تسمى "*euchologion mega*". ولا يمكن أن يكون هذا التأثير قد أتى عبْرَ مصر. وبالمثل، صيغة صلاة أخرى أقصر مستخدمة في النقوش النوبية وتتطابق مع الصيغة البيزنطية التي يمكن العثور عليها في مخطوطة في "غروتّافرّاتا" (Grottaferrata) بإيطاليا. إنما لا تتوافق مع النسخة القبطية الموازية المستنسخة في طقوس رافائيل طوكي (توفي ١٧٨٧)"[97].

لاحظ مونيريه دي فيلارد (Monneret de Villard) أن "التنظيم الهرمي الأقدم في النوبة، والأسماء المستخدمة

[93] ملاحظة المؤلف: لا يعني هنا بالغرامنتيينقبائل استوطنت منطقة فزّان (في الجنوب الغربي من ليبيا) القبائل التي استوطنت في منطقة فزّان (في الجنوب الغربي من ليبيا) بالضرورة، ولكن القبائل البدوية الأخرى الذين في ذلك الوقت كانوا يتجولون في الصحراء الغربية لنهر النيل، وكانت على اتصال مع كل من المقربين والناس من واحة غرمة، أي فزان. قد يكون من الجدير بالذكر أن قبيلة من البدو الرحل ودعا الغُرعان (الغران، الغرهام، وهو اسم المتصلة بغرمة) لا يزالون يعيشون عبر الحدود بين السودان وتشاد. و"درب الأربعين"، أي الطريق في الصحراء التي عبرت المملكة نوباديا، تفرعت في واحة سليمة في طرق عدة، واحد منهم مما أدى إلى النيل بالقرب من دنقلا، وغيرها إلى المناطق الداخلية في دارفور وتشاد.

ملاحظة المحقق: توجد أيضا الكتابات التالية: الجرمنتيوت والجارامنتيون (Garamantes).

[94] Monumenta Germaniae Historica Auctores Antiquissimi, t.XI, Johannes Abbas Biclarensis Chronicon, Berlin 1898, p. 212. cf. OS, p. 27.

[95] Ibidem, p. 213. Cf. OS, p. 27-28.

[96] Cf. H. Junker, Die christilichen Grabsteine Nubiens, ZAS 60(1925), p. 111-118.

[97] Cf. SNC, p. 61-62.

للأنفار النوبيين، وأسماء القديسين الذين كان لهم تفان كبير في النوبة، كل هذه تدل على صلة أوثق مع الكنيسة البيزنطية من الصلة بالكنيسة القبطية في مصر"[98]. وبالرغم من هذا، فإنه توجد اتصالات مباشرة مع الكنيسة في مصر أيضا.

وذكر المقريزي من يوسف المصري (١٣١٧م) فقرة منسوبة إلى بطريك الإسكندرية الروم الملكيين الكاثوليك يوتيخيوس (توفي ٩٦٩)، الذي ادعى أن البيزنطية كان لها تأثير حاسم على النوبة المسيحية في وقت مبكر.

"من الوقت الذي هرب فيه جرجس البطريك [البيزنطي] من الإسكندرية إلى القسطنطينية في السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب [أي ٦٣٧م]، إلى أن صار قزمان بطريكا على الإسكندرية في سبعة سنين من خلافة هشام [أي ٧٣١م] كان كرسي الإسكندرية بغير بطريك ملكي مدة سبعة وتسعين سنة، فتغلب اليعقوبية [أي اليعاقبة] على جميع الكنائس بمصر والإسكندرية. واحتاجت النوبة إلى أساقفة. فرسم لهم بطريك اليعقوبية [أي اليعاقبة] أساقفة فصارت النوبة من ذلك الوقت يعقوبية[99]".

ووفقا للمؤرخ يوحنا الأفسسي، قد أولى أسقف فيلة ثيودور عنايته للنوبيين الذين تحولوا للمسيحية بعد مغادرة يوليانوس. فقد كتب قائلا:

"كان الأسقف يعتاد على دخول البلاد وزيارة أهلها ويعطي دروسا ومواعظ قبل أن يقفل راجعا لبلدته – فيلة وقد استمر لثمانية عشر عاما على ذلك النحو".[100]

ووفقا لما ذكره يوحنا الأفسسي، قد ظل الأسقف ثيودور لفترة طويلة يولي عنايته للنوبيين بعد رحيل يوليانوس. فعلا، ظل الأسقف في نوباديا حتى عام ٥٥١م ، حينما رجع إلى فيلة حرص بعد ذلك على إرسال قساوسة لزيارة بلاد النوبة. لا تذكر المصادر والكتابات من بعد ذلك أية إشارة حتى عام ٥٦٩م، حينما وصل لونجينوس إلى أرض النوبة. وهو الرجل المهم الذي أسهم في التبشير في النوبة.

الملوك المسيحيون بنوباتيا

من هو ملك النوبة الذي استقبل يوليانوس؟ لا شك أنه سِلْكو، الذي ترك النقش الشهير المذكور سابقا، توفي فيما بعد عام ٤٥٠م. من النقوش التي يرجع تأريخها إلى الربع الثالث من القرن نفسه، نعرف أن المِلكين أيربانومي (Eirpanome) وتوكِلْتويتُن (Tokiltoeton) (ربما هنالك ثمة آخر)، خَلَفا الملك المسمى سِلْكو. ويَرِدُ اسم أيربانومي الملك في النقش الذي يحيي تحول معبد ديندور الوثني إلى كنيسة مسيحية. وقد شمل الاحتفال، وفقا

[98] المرجع نفسه.

[99] يوتيخيوس الإسكندري، نزم الجوهر، في:
J. Selden (ed.), Contextio Gemmarum, vol. 2, Oxford 1859, p. 386. Cf. OS, p. 110.

[100] John of Efesus, Ecclesiastical History, Book IV, Oxford 1860, p. 283; cf. OS, p. 14.

للعادات المسيحية القديمة، إقامة صليب، وقد ورد في تلك النقوش أن أبراهام القس قد تسلم الصليب من ثيودور أسقف فيلة، وأن جوزيف أبرخص[101] تلميس قد حضر ذلك الاحتفال، على أن تلك النقوش والكتابات لم يعزو لها تاريخ إلا أنها لا بد أن تكون فيما بين عام ٥٤٥م أوان مغادرة يوليانوس من نوباديا، ولحظة موت ثيودور الأسقف فيما بعد عام ٥٧٥م.

من ناحية أخرى نجد أن توكلتويتن، "ملك شعب نوباديا"، قد شيّد مدينة محصّنة بإخميندي (Mohondi) إلا أن النُصب التذكاري للتأسيس لم يعثر لها على تواريخ، بل يذكر فقط "جوزيفيوس، أبرخص تلميس، وهو على الأرجح نفس جوزيف لنقش ديندور.

أما المؤرخ أبو صالح الأرمني (١٢٠٨م) فقد ذكر في تاريخه الموسوم، أن الملك النوبي المسؤول عن تحوّل "نوباديا" إلى المسيحية اسمه بَحريا (بوحريا؟).

"النوبة كانوا في القدم يعبدون الكواكب وأن من انتقل منهم إلى معرفة الحضارة ومذهب شريعة المسيح بحريا ابن أخت الملك وكان رجلا عالما بعلم الفلك حكيما ماهرا. ولما أنه انتقل إلى مذهب المسيح تبعه جميع النوبة في السودان وأقام لهم بيع كثيرة بجميع بلاد النوبة وديانات كثيرة وهي الآن عامرة آهلة، فمنها ما هو متباعد عن البحر، ومنها ما هو قريبا من البحر[102]".

إن صحت رواية أبي صالح التي اعتمدت على الشهادة الشفهية، فإن بحريا هو الملك الذي استقبل يوليانوس، وإنه قد سبق كل من إيربانومي وتوكلتويتن في الحكم في نوباديا، إلا أن المسالة فيما جاء به أبو صالح الأرمني تظل قائمة. هنالك احتمال آخر في أن بحريا هذا (إن صح الزعم بأنه كان وراء تحول النوبيين إلى المسيحية) قد عاش من قبل مجيء يوليانوس إلى بلاد النوبة. أما وقائع الدراسات الأثرية فإنما تشير إلى أن جماعة مسيحية قد وجدت في فرص قبل عام ٥٤٣م.

ملاحظة تاريخية. الخلقيدونيون (الملكيون أو الملكانيون أو مذهب الكاثوليك) واللاخلقيدونيون – (الأقباط أو الأرثوذكس أو المونوفيزيون)

قبل تناول الأحداث المتعلقة بتاريخ الممالك النوبية المسيحية الثلاث، يبدو من المفيد (أو ربما من الضروري) أن نشرح الخلافات اللاهوتية/الكنسية التي لعبت، في بعض الأحيان، دورا في زعزعة العلاقة بين الكنيسة والمملكة. فسبّب الجدل اللاهوتي بين الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين (أو بعبارة أبسط، بين الأقباط (الأرثوذكس) من مصر

[101] في الإمبراطورية البيزنطية، كان الأبرخص ("الإيزرقوس" باليونانية: exarchos ἔξαρχος) حاكم الولاية. وفي الكنائس المسيحية الشرقية (الأرثوذكسية، الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الشرقية) نجد معنين لهذه الكلمة: نائب البطريرك أو الأسقف الذي يحمل سلطة على الأساقفة الأخرى دون أن يكون البطريرك (وبالتالي، وهو موقف متوسط بين البطريرك والمطران)؛ والمعنى الثاني هو أسقف على مجموعة من المؤمنين ليست كبيرة بما فيه الكفاية أو منظم بما فيه الكفاية لتشكل أبرشية (وبالتالي ما يعادل النائب الرسولي).

[102] تاريخ أبي صالح الأرمني (ed. Evetts)، أكسفورد ١٨٩٤، ص١٢١؛ في مسعد، ص١٣٩. (Cf. OS, p. 327)

والملكيين من الإمبراطورية البيزنطية) احتكاكات وعدم استقرار في المجال الديني وفي شؤون الدولة كذلك.

وأقر مجمع خلقيدونية المسكوني (٤٥١ م) الصيغة الآتية حول كيان يسوع المسيح: "يسوع المسيح شخص واحد- أي كلمة الله- في الطبيعتين الإلهية والإنسانية، بمعنى أن كلمة الله عند تجسُّده اتخذ الطبيعة الإنسانية المولودة من مريم العذراء وظلت الطبيعتان الإلهية والإنسانية كاملتين ومميزتين ومتحدتين في شخص واحد دون امتزاج أو تغيير. في المصطلحات الفلسفية نسمي أصحاب التعليم الخلقيدوني ب "ديوفيزيين" ("ديوس" بمعنى اثنين باليونانية و"فيزيس" بمعنى طبيعة). أما الأقباط فرفضوا هذه الصيغة وأيدوا صيغة أخرى تقول إن في المسيح "فيزيس" واحد ومن ثم أطلق عليهم اللقب "منوفيزيون" ("مونوس" بمعنى واحد باليونانية)[103].

المعاني الكامنة وراء المناقشة الشفوية وخطاباتها خفية، كان هناك الأحقاد القديمة بسبب الشؤون السياسية والاقتصادية من قبل المصريين ضد القسطنطينية التي جعلت مصرَ رخيصة "مخزن الحبوب" لها. ولذلك رفض الأساقفة المصريون، بقيادة ديسقوروس بطريركهم، العقيدة المعلنة في خلقيدونية وأصبح يعرف شعبيا على أنهم "اللاخلقيدونيون" (أي ضد خلقيدونية).

وكان الإمبراطور يوستينيوس من الخلقيدونيين، وبالتالي الاسم العربي "مَلِكي" لأتباعه؛ و زوجته الإمبراطورة تيودورا، فهي على العكس من ذلك لأنها كانت مصرية ومن المنوفيزيين، وأيّدت الأساقفة المصريين والرهبان والقومية المصرية بالثبات.

وسبّب الخلاف في مسألة الإيمان شقا كبيرا داخل الكنيسة وأزمة سياسية خطيرة في الإمبراطورية الشرقية، في حين أن يستينينوس يهدف إلى إعادة توحيد الإمبراطورية الشرقية بالغربية تحت تاجه، وذلك بواسطة التوحيد الديني. وكان يوستينينوس يتوقع أن ملك نوباديا يوافق على ما كان يرغب منذ ٥٤٠م، أي على إبرام تحالف بينهما وتعزيزه عن طريق تحويل نوباديا إلى المسيحية الخلقيدونية.

[103] ملاحظة المحقق: يساعدنا في فهم المجادلة توضيحُ الأب فانتيني الذي كتبه في "المسيحية في السودان"(أمدرمان ١٩٩٨، ص١١): "من الجدير بالذكر أن المجادلة بين الملكانيين والأقباط كانت عبارة عن حرب في الألفاظ ناتج عن سوء التفاهم بين الطرفين في مفهوم المصطلحات فاللفظة "فيزيس" لدى الأقباط كانت تدل على ما يقصده الملكانيون من اللفظة "بروسوبوس" أي شخص. غير أن التوترات السياسية بين الإسكندرية القسطنطينية هي التي أدت إلى تعنت الطرفين كل واحد في مصطلحاته فانتقل الخلاف اللفظي إلى خلاف عقائدي ولاهوتي بينما كان إيمان الطرفين بالمسيح واحدا. وقد اعترف بذلك رسميا البابا شنودة الثالث الأرثذوكس في بيانه في روما يوم ٣ مايو ١٩٧٣ إذ قال فيه: "نحن نؤمن ونعترف ونقرر بأن يسوع هو إله كامل في ألوهيته وإنسان كامل في إنسانيته متحدين معا (بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير) ونحن نرفض كل آراء تعاليم أوطيخا".

الفصل الرابع

كيف تحولت علوة إلى المسيحية؟

كل ما نعرف حول التبشير بالإنجيل في مملكة علوة كان مصدره الرئيسي كتاب يوحنا الأفسسي[١٠٤]. والشخصية الرئيسية في هذه القصة هو لونجينوس الإسكندري، الذي كانَ عضوَ الكنيسة المنوفيزية بأنطاكية، وأرسله بولس بطريك أنطاكية كمندوب (*apocrysarios*) للقسطنطينية.

فيما بعد بعثة يوليانوس لا نجد تسجيل أي وفد جديد من بيزنطة إلى نوباديا من طرف المونوفيزيين أثناء عهد الإمبراطور يوستينيوس. وحينما توفي يوستينيوس (نوفمبر ٥٦٥م) حاول عددٌ من قادة المونوفزيين المنفيين ببيزنطة إحياء أنشطتهم في نوباديا. وقد تفاءلوا خيرا بمجئ الإمبراطور الجديد يوستينوس والذي ربما أزاح عن كاهلهم بعض ما عانوا منه في عهد يوستينيوس. إلا أن ما حدث بعد ذلك قد صدمهم جميعا في كون أن الإمبراطور الجديد قد ظهر بوجه أكثر وحشية وفظاظة، والذي حالما سمع برسامة لونجينوس أسقفا لنوباديا، بادر على الفور وأرسله إلى السجن. وظل لونجينوس ثلاثة أعوام هناك حتى تمكن من الهرب. وهنا وصف يوحنا الأفسسي للوضع آنذاك:

"كان البابا ثيودوسيوس على فراش الموت حين ذكر هذا الشعب [النوباديين، Nobades]، خصوصا لأن يوليانوس التقي توفي وهو الذي علّمهم المسيحية، كما توفيت أيضا الملكة ثيودورا [٥٤٧م]. وعليه أمر ثيودوسيوس بأن لونجينوس التقي يحل محل يوليانوس، وذلك لقدراته وحماسته في كونه الأنسب لإكمال العمل التبشيري وتثبيت النوباديين في المسيحية. ومن بعد وفاة البابا [ثيودوسيس]، تم رسامة لونجينوس أسقفا لتلك الديار وحالما بدأ استعداداته للذهاب إليها. [هنا سكت يوحنا الأفسسي عن قصة سجنه لمدة ثلاث سنوات ولم يذكر تفاصيل حول هروبه من السجن].

ولما وصل لونجينوس إلى ذلك البلد أستقبل استقبالا حارا، وبدأ في الحال في الوعظ والإرشاد وتعاليم المسيحية في وسطهم"[١٠٥].

وبقي لونجينوس في نوباديا لمدة ست سنوات وله الفضل في تنظيم الكنيسة النوبية. وقد قام ببناء كنيسة بإبريم في ... مكان المعبد الذي بناه تهراقا (حوالي القرن السابع قبل الميلاد)، ورسم الكهنة، ونظّم الليتورجيا، وأقام ... سات الكنيسة كلها، وأدخل طقس الصلوات على حسب النموذج البيزنطي شاملا اللغة الإغريقية. ومن هنا ... الزعم بأنه هو الذي أنشأ إبريم، المدينة الملكية، كمقرّ أسقفي ومركز لمعرفة الممالك النوبية الأخرى.

---

[١٠٤] انظر تاريخ يوحنا الأفسسي، الإصحاحات ٨-١٠و٤٩-٥٣.

[105] JOHN OF EFESUS, Ecclesiastical History, Book IV, p. 225-226; cf. OS, p. 12.

لونجينوس في الإسكندرية

وتناقص عدد رؤساء الكنيسة المونوفيزية بحلول عام ٥٧٥م وصار عدد الأساقفة لا يتعدي الأربعة بأقصى حد، ومن ضمن أولئك لونجينوس وثيودور، أسقف فيلة. وتم إرسال اثنين منهم، ولم يذكر اسماهما، إلى نوباديا لتسليم دعوة إلى لونجينوس، إلا أن أحدهما مات في الطريق.

ومن جانب آخر، فإن طيباريوس (أو تيبيريوس) الذي خلف الإمبراطور يوستينوس بعد موته، قد كان أكثر تسامحا مع معارضي خلقيدونية، ومن جانبهم سعوا لاستعادة نظامهم، وذلك بتنصيب بطريرك من قبلهم في الإسكندرية، وبالفعل قام كهنة المونوفيزيين في الإسكندرية بعقد سينودس لاختيار البطريرك سنة ٥٧٥م. وقد لعب لونجينوس دورا مهما في ذلك الاجتماع الذي جلب له لاحقا عدة مشاكل مع طائفته. وقد زعم يوحنا الأفسسي أن دعوته لذلك الاجتماع كانت جزءا من مؤامرة حيكت ضده لإبعاده من بلاد النوبة، وقد كتب قائلا:

"بعد أن قضى لونجينوس في ذلك البلد [نوباديا] ست سنوات، أصبح الشيطان يغار من الحسنات التي قام بها، وحاول بكل الوسائل طرده من ذلك البلد، لإثارة الفتن والخلافات في الكنيسة بسببه، وإحداث خسائر. رتب [إبليس] أن يرسل رسائل له من قبل كهنة الإسكندرية. وكتب الرسائل الكاهن المشرف (archpriest)[١٠٦] ثيودوسيوس وثيودوروس، ابن أخيه ورئيس الشمامسة (archdeacon). وطلبوا منه مغادرة البلاد. وقد حزن أهل نوباديا على رحيله، وودّعوه وزودوه بجميع ما يلزم لهذه الرحلة. ومن هناك ذهب إلى طيبة لزيارة ثيودور، مطران[١٠٧] فيلة المتقدم في السنّ. ثم ذهب إلى Maryota [الإسكندرية] ووصل إلى المكان المعين لإقامته[١٠٨]."

وقبل انصراف لونجينوس من نوباديا، قد بعث ملك علوة برسالة إلى ملك نوباديا يدعوه فيها إلى إرسال لونجينوس للتبشير في سوبا. وحينما وصل رسله إلى فرص وجدوا أن لونجينوس قد غادرها إلى الإسكندرية.

عندما وصل لونجينوس إلى الإسكندرية بادر على الفور باختيار راهب (archmandrite)[١٠٩] من أصل سوري اسمه ثيودور ليكون البطريرك. وقد انتخبه المجمع الكنسي (السينودس) ورسمه أسقفا لونجينوس مع أسقفَيْن سوريين عابرَيْن بالإسكندرية. أما منوفيزيون الإسكندرية (الأقباط) فقد أزعجهم هذا الاختيار لأنّه لم تتم استشارتهم ووقع الاختيار على سوري. وما حدث بعد ذلك أنهم عقدوا مجمعا (سينودس) آخر ونصبوا بطريركا بينهم وهو الشماس بطرس الذي كان بالمنفى مع البطريرك ثيودوسيوس. تسلّط بطرس على الكنيسة في مصر، على الرغم من وجود البطريرك الخلقيدوني، وتقاعد ثيودور وعاد إلى ديره. أما لونجينوس فطُرِد من الإسكندرية وأقام بالجزيرة العربية مدة

---

[١٠٦] وهو كاهن مع واجبات الإشراف على عدد من الأبرشيات.

[١٠٧] المطران: هي كلمة مشتقة من "ميتروبوليس" أي مدينة الأم، فيكون المطران هو أسقف المدينة الأم. ولكن عمليا ليس هناك فرق بين الأسقف والمطران.

[108] JOHN OF EFESUS, Ecclesiastical History, Book IV, p. 227-228; cf. OS, p. 12-13.

[١٠٩] ملاحظة المحقق: "archmandrite" (ἀρχιμανδρίτης باليونانية) قد أستخدم هذا اللقب في الأرثوذكسية الشرقية والكنائس الكاثوليكية الشرقية للإشارة إلى الأباتي (رئيس دير) الذي عينه الأسقف للإشراف على عدة رؤساء دير وعلى الأديرة.

خمس سنوات، ولم يحضر نوباديا بعدها إلا في وقت متأخر من عام ٥٨٠م حيث قضى وقتا قصيرا، وذلك لأن ملك علوة جدّد مرة أخرى طلبه لدى الملك النوبادي في أن يأتي لونجينوس إلى علوة ويعمل على نشر تعاليم المسيحية بها.

المحاولات اليونانية للتبشير في علوة

ولم يكد إغريق الإسكندرية (الملكيون أو الملكانيون) يعلمون بطلب ملك علوة حتى حاولوا إيقاف لونجينوس ومنعه من الوصول إلى علوة، وأرسلوا أسقفَيْن ملكانيين إلى ملك علوة ليخبراه بأن لونجينوس كان محروما من الكنيسة، وبناء على ذلك فإنه غير مسموح له بالتبشير وبإقامة المعمودية، إلا أن الملك قابل ذلك بكثير من الاحتقار:

"عندما علم أهالي الإسكندرية بخبر ملك علوة وطلبه الثاني لملك نوباديا بإرسال لونجينوس، أرسلوا بدورهم وفدا إلى أهل علوة ليحتقروا سُمعته الجيدة ويدخلوا عقيدتهم الفاسدة[110] وكتبوا رسالة خادعة إليهم [...] «علمنا بأنكم طلبتم إرسال لونجينوس من نوباديا إليكم لتعميدكم، فنرسل نحن إليكم بعض الأساقفة والأفراد ليخبروكم بأن لونجينوس هرطقي مطرود من الكنيسة، ومن ثم فهو غير جدير بتعميد أحد»[111]".

وأضافوا تُهم أخرى ضد لونجينوس ليجعلوا قضيتهم جيدة، ولكن أهل علوة ردوا كالآتي:

"إننا لا نعرفكم ولا نقبل التعميد إلا من هذا الذي عمد النوباديين من قبل. ثم أننا لا نصدق ما تقولونه في حقه لأننا نعرف أنكم أعداؤه وتتكلمون حسدا له. غادروا بلادنا فورا كيلا تموتوا[112]".

لونجينوس في علوة

استطاع لونجينوس على أية حال الوصول إلى علوة وقد حفت رحلته تلك أحداث درامية فكان عليه أن يتجنب الكمائن التي نصبها له ملك المقرة. وربما كان سبب ذلك الخلاف السياسي فيما بين الملكين والذي ربما دفع بملك المقرة محاولة القبض على لونجينوس، ولربما كانت هناك أسباب أخرى تتعلق بالعقيدة الدينية لأنّ ملك المقرة كان ملكانيا (أي نصير عقيدة خلقيدونية)، واحتمال آخر هو أن رسل الإسكندرية إلى ملك علوة ربما استطاعوا إقناع ملك المقرة في أن يعترض طريق لونجينوس وهو مارا بأرضه.

غادر لونجينوس فرص (أو ربما إبريم) على ظهور الجمال بصحبة جماعة من البجة وعبروا الصحراء حتى وصلوا إلى البحر الأحمر، وقد تحاشوا قدر المستطاع جواسيس ملك المقرة على طول الطريق التي نفذوا منها إلى سواحل البحر

[110] ملاحظة المؤلف: ربما يقصد المؤلف هنا عقيدة خلقيدونية.

[111] John of Efesus, Ecclesiastical History, Book IV, p. 284-285; cf. OS, p. 15-16.

[112] Ibidem, p. 285. cf. OS, p. 16-17.

الأحمر، وقد وصف رحلته وما حدث آنذاك:

"على الرغم من حسرة ملك نوباديا ونبلائه وزعمائه على مغادرة لونجينوس من بينهم، فقد أعانوه بإرسال بعض من رجالهم الخبراء بمسالك الصحراء معه. وقد مرض في الطريق وكذلك بعض مرافقيه. وقد ذكر في مدوناته أن كثيرا من الحيوانات، من ضمنها سبعة عشر جملا، قد نفقت بسبب الحر. هذا بالإضافة إلى أن أهالي المقرة ممن كمنوا لهم في الحدود بين المملكتين، فقد أوعز لهم الملك، بدافع الحسد الشيطاني، بأن يراقبوا على طول الطريق وعلى الحدود وفوق الجبال والسهول وحتى البحر الأحمر.

وكان عليهم أن يعترضوا طريق لونجينوس ويقبضوا عليه مما سيعيق إنقاذ أهالي علوة. إلا أن الله قد أعمى بصيرتهم ولونجينوس "جاز في وسطهم ومضى"(لو ٤: ٣٠)[113] ولم يروه.

وعندما اقترب لونجينوس من حدود المملكة، أرسل له الملك أعظم وأنبل رجاله واسمه إيتيقيا والذي استقبله استقبالا عظيما، وعندما وصل عاصمة المملكة هب الملك لاستقباله بحفاوة أكثر، وقام لونجينوس بدوره بمباركتهم وشكر لهم حسن استقبالهم.

وفي بضعة أيام وليالٍ بدأ تعاليمه وعمد الملك ونبلاءه وزعماءه وعددا من عامة أهل المملكة. وقام الملك من فوره وأرسل رسالة شكر لملك نوباديا:

«سوف نذكركم يا سيدي بالحب والخير يا أخانا أورفيولو[114]، فقد غمرنا أنا وعشيرتي وأهلي حبكم وكرمكم وقد غمر أرواحنا وأجسادنا حينما أرسلتم أبا روحيا ومعلما عظيما[115]".

من ناحية أخرى وعد ملك علوة أن يحارب إلى جانب أهالي نوباديا ضد أعدائهم. وعلى الأرجح العدو المشترك هو ملك المقرة "لأنه ليس بعدوكم فقط"، وتستمر الرسالة، "بل إنه عدو لنا أيضا لأنّ أرضكم هي أرضنا وشعبكم هو شعبنا". وأفادوا أيضا برغبتهم في تأثيث كنيستهم على أن يبتاع الأثاث من مصر:

"الآن نحن في حوجة إلى أثاث لتأهيل الكنيسة ولعلمنا بحرصكم على الاهتمام بالأمر، كلنا ثقة في أنكم سوف ترسلونها بعناية وسأكتب ردّي لأني عندما كنت أحتفل لم أكن على يقين من وصولها[116]".

بالإضافة إلى تلك الرسالة فقد أورد يوحنا الأفسسي بضعة فقرات من تقارير لونجينوس لملك نوباديا والذي من المفترض أن يُرسَل إلى الإسكندرية و"الأبرشيات الأخرى". من المؤسف أن لونجينوس قد كتب بإيجاز بالغ والذي كان بإمكانه أن يسهب أكثر ولكي نحصل على مزيد من البيانات والمعلومات عن تاريخ تلك الفترة. وفضلا عن هذا فقد أورد يوحنا الأفسسي جزءا فقط من تقرير لونجينوس:

"لن تكون هنالك ثمة تفاصيل مملة عَمَّا حدث آنذاك وسوف أحكي لكم طرفا مما حدث، وذلك لثقتي في كونها تسعد كُلاً منكم مسيحيين ومؤمنين أرثوذوكس. عندما علم ملك علوة بمقدمنا، أرسل إلينا واحدا من قادته اسمه أيتيقيا ليقوموا باستقبالنا والترحيب بنا، وقد كان، وتعرفت على المنطقة وأهلها وذلك حال وصولنا على متن باخرة على ضفة النهر، ووصلت به حماسته

[113] ملاحظة المحقق: يقارن يوحنا الأفسسي ما مرت للونجينوس بمحاولة أهل الناصرة لطرح يسوع المسيح من حافة الجبل.

[114] ملاحظة المؤلف: تعترف الكتابة الأصلية السورية تشكيلا أخرى: أوارفيولا، أورفيلا... يعتقد بعض العلماء أنه قد يكون هناك تشويه للكلمة اليونانية "Euripylos" (ملك علوة).

[115] Ibidem, p. 286-287. cf. OS, p. 17-18.

[116] Ibidem, p. 289. cf. OS, p. 19.

لاستقبالنا بأن حضر بنفسه للترحيب بنا، وبفضل نعمة الله نشرنا تعاليم المسيحية وعمدنا الملك وأهله وأعيان بلده.
بما أن بعض الأكسوميين سقطوا في داء توهم "يوليانوس" (الهاليكارناسوسي)، قائلا إن المسيح عاني في جسم غير قادر على الألم أو الموت. وقلنا لهم ما هو الاعتقاد الصحيح والمطلوب منهم، وقد طلبنا منهم لَعْن هذه البدعة في الكتابة واستقبال هؤلاء الأشخاص بعد تقديم استدراكهم"[117].

المسيحيون الأكسوميون في سوبا

الدرس الذي نتعلمه من تقرير لونجينوس، المشار إليه هو أن هناك بعض المسيحيين من طائفة الخياليين ("الأفثاردوسيتية")[118] شاعت في مملكة علوة وقد دخلت إليها من مملكة أكسوم. ومن الواضح أن ذلك قد سبق مجئ لونجينوس إلى علوة؛ إلا أن السؤال هو كيف ومتى دخلت المسيحية فيها؟ للإجابة على ذلك السؤال، لا بد أن نحيل إلى طرف من تاريخ الكنيسة.

أسس يوليانوس الهاليكارناسوسي (Halicarnassus) طائفته في مصر حوالي (٥١٨-٥٢٠م)، وانتشرت في الجزيرة العربية بفضل نشاط يوتروبيوس (Eutropius) الذي كرّس عشر أساقفة هناك، وأرسلهم إلى كل الاتجاهات في الوقت الذي سيطرت فيه مملكة أكسوم (حوالي عام ٥٢٥م) على جنوبي المنطقة. ونزعم هنا أن العقيدة المسيحية كما تصورها يوليانوس الهاليكارناسوسي، قد جاءت إلى أكسوم من جنوب الجزيرة العربية، ومن هناك إلى سوبا في مملكة علوة. وهنا لا يمكن الإحالة إلى أي تاريخ، إلا أن بعض التعاليم قد انتشرت في أكسوم قبل عام ٥٥٠ وقد وصلت إلى علوة بعد فترة قصيرة من ذلك التاريخ. وهنا أيضا يمكن الإحالة إلى ربع القرن الذي سبق مجئ لونجينوس إلى علوة.

نبدأ أولا بالقول إن حضور الأكسوميين في مملكة علوة ليس بالأمر المستغرب، فقد كانت المملكة في أوج ازدهارها وسطوتها وهيمنتها السياسية، وقد امتد تأثيرها إلى جهة الشرق وليس هناك ثمة ذريعة في كونها لم تمتد في تأثيرها إلى جهة النيل الأزرق ونهر عطبرة. ومن هنا يمكن القول إن علاقات قد ربطت فيما بين مملكتي علوة وأكسوم.

ليس من المؤكد إذا كان كهنة لطائفة يوليانوس الهاليكارناسوسي في سوبا. وفعلا، السهولة التي تمكن لونجينوس بها من حصول على اعتناق عقيدته من قبل الناس تشير إلى عدم وجود كنيسة منظمة قبل وصوله. ونعود إلى رسالة لونجينوس:

[117] Ibidem, p. 290. cf. OS, p. 20.

[118] ملاحظة المحقق: أسس هذه الطائفة يوليانوس الهاليكارناسوسي، الذي تصور أن جسد المسيح كان لا يخضع لآداب "الفساد" التالية: الجوع والعطش والتعب والعرق والدموع والنزيف، فهي سمة من سمات الطبيعة البشرية نتيجة لخطيئة آدم. وقال إن المسيح عندما جاع وعطش، كان لأنه أراد ذلك، وليس من ضرورة، وقال إنه أراد ذلك لأن بهذه الطريقة فقط يمكنه أن يحرر البشرية من الفساد. وعليه تسمى هذه الطائفة بخياليين.

"وليرسل جميع آباء السينودس أساقفة يتقون بالله ويخدمون في العمل الإلهي، الذي يرضي الله، والذي يجري على ما يرام. في الواقع هناك الآلاف من الناس الذين يفدون إلى الخلاص هنا، لمجد المسيح المخلِّص.
صدقوني، فكرتُ في الأول ألا أكتب لأي شخص، ولكن عندما نظرتُ في خطر أولئك الذين يُهملون استخدام المواهب الروحية، قررتُ أن أبعث إليكم هذه الرسائل الصغيرة من أجل نفوسكم. أنا لا أريد المال، أو الذهب، أو الملابس، والله شهيد على ما أقول، وأنني أعدم الخبز اليومي وأحصل على الخضروات بصعوبة. ولكن ما قلته حتى الآن يكون كافيا"[119].

من بعد فقرات الرسالة هذه التي كتبها لونجينوس، أفادنا يوحنا الأفسسي برسالة ملك نوباديا إلى البطريك ثيودور والتي أسهبت في مدح لونجينوس. ولنا أن نركز على الجزء الآتي منها:

"بسبب المكائد الشريرة من قبله الذي يسكن بيننا، وأعني بذلك ملك المقرة، بعثُ بأبي الروحي القديس لونجينوس إلى ملك البليميين لكي يرشده عبر الطرق الداخلية أبعد. ولكن سمع أهل المقرة بذلك، فوضعوا مجموعة من الناس على المراقبة في أماكن يمر بها المسافرون في جميع المملكة، سواء في الجبال أو السهول وحتى البحر الأحمر. وكانوا يرغبون أن يمسكوا أبي الروحي ليوقفوا عمل الله الصالح، وتحمّل أبي القديس الآلام والتجارب المريرة للجسد والروح في بلد البليميين، وعلاوة على ذلك الكثير من المتاعب [...]
واعرفوا أيضا هذا: كيف الله، رب كل شيء، رافق أبي لكي تعجبوا من المعجزة العظيمة الآتية: بينما كان سَفَر الرسل لعمي الملك وأسلافه إلى نفس الملك يستغرق ثماني أو عشر سنوات شاملا رجوعهم، أرسل أبي القديس إلينا وفدا من نفس الملك مائتين يوم فقط بعد وصوله في تلك المنطقة. أما كثير من رسلي السابقين فلم يعودوا بعدُ"[120].

وقد ختم يوحنا الأفسسي سرده حول تحول بلاد النوبة إلى المسيحية بالاعتراف بأن التنصير كان عملا إلهيا، وأخيرا يعطي تاريخا محددا للأحداث المذكورة:

"وتمت هذه الأحداث بعون الله سنة ٨٩١ [منذ الإسكندر الأكبر، أي ٥٨٠م] وقد كتبناها هكذا"[121].

حوالي ٥٨٠م، مع تحويل الملوك والنبلاء، أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للممالك النوبية الثلاث. بَيدَ أنه، من المعقول أن نفترض أن انتشار المسيحية إلى القرى الأخرى على طول النيل قد استغرق بعض الوقت.

المطران نابيس ومسيحي عيذاب

لقد ورد في كتاب "سينكساريون الأقباط"[122] ذِكْرُ القديس القُبْطي "نابيس" كَمُبَشِّرٍ بالمسيحية في جهات عَيْذاب. ويقول الكِتاب المذْكور إن نابيس سَبَقَ أن كان راهبا في مدينة قِبْط، ثم رُسِّم أسقفا ومن مَقرِّه في قبط اعتاد أن يُسافر جَنوبًا إلى مدينة "برْنيكا" وهي عيذاب. وكان من أكبر همومه المساعدة الدينية للمسيحيين القاطنين أو

[119] Ibidem, p. 292. cf. OS, p. 21.

[120] Ibidem, p. 293-294. cf. OS, p. 22-23.

[121] Ibidem.

[122] ملاحظة المحقق: السينكساريون هو كتاب يحتوي على سير القديسين ويتم قرائته في سياق العبادة العامة والصلاة الشخصية.

العابرين على عيذاب إذ كانت هذه الميناء لتلك الجهات، وكان يستأجر جمال أهل البجا لأسفاره.

ثم لما لم يقدر أن يقوم بالسَّفر بنفسِه كان يُرسِل أحد القساوسة نيابة عنْهُ مما نستنتج منه وجود بعض المسيحيين في تلك الناحية، وفي حوالي زمن المطران نايس كانت حامية عسكرية تسكُن في عيذاب، ومن المحتمل أن بعضَ العسـاكر كانوا تابعين للدين المسيحي، وذلك في القرن السادس أو السابع.

الفصل الخامس

تنظيم الكنيسة النوبية

لقد بذل لونجينوس كل ما في وسعه لتنظيم الكنيسة في مملكة علوة كما فعل في نوباديا. رسم بعض القساوسة والشمامسة وشيّد بعض الأديرة وأرسل في طلب الكتب الكنسية والأثاثات. وقد ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسي أن لونجينوس قد كرس كنيسة واحدة في نوباديا يفترض أن تكون هي تلك التي بنيت على بقايا معبد تهراقا في قصر إبريم.

تشير المناطق الأثرية بأن هناك عدداً مقدراً من المعابد الوثنية التي تم تحويلها إلى كنائس مسيحية في نوباديا وربما في علوة كذلك. وقد وجد دليل بسيط على ذلك في مملكة المقرة. أما الدليل على أن المعابد الوثنية السابقة قد تم تحويلها إلى كنائس فيتجلي في النقوش وعلامات الصليب المنحوتة على مداخل المعابد السابقة، وكذلك صور يسوع المسيح والحواريين والملائكة والقديسين على الجدران الداخلية. وفي مدينة فرص قام الملك بتحويل المقر الملكي إلى كنيسة أطلق عليها علماء الآثار اسم "كنيسة بوابة النهر".

مقرّات الأساقفة

تم إنشاء بعض المقرات الأسقفية في نوباديا في وقت التبشير، ثم تبع ذلك إنشاء أسقفيات أخرى في وقت لاحق، أما قائمة "العروش الإسكندرية" (alexandrinos thronos)[١٢٣] أي المقرات الأسقفية التي تنطلق من مقر الإسكندرية البطريكي (٦٧٥-٧٠٣م) فتذكر المقرات المذكورة أدناه في بلاد النوبة:

- فيلة أو جزيرة البِربا.
- النوبة.
- طافا أو تافة (Tathis).
- الشلالات (Katarakte Nilou).

أما الوثائق التي عثر عليها في وقت لاحق فقد أوردت الأسماء التالية لمقرات أسقفية في نوباديا:

- طافا (Taifa)، التي حلت محلها تلميس في عام ٧١٠م.
- كورتا (Kurte).
- إبريم.

---

[١٢٣] وجد R. Pococke هذه القائمة في مصر جنبا إلى جنب مع خريطة مرفقة حيث كتبوا أسماء الأماكن باللغة القبطية والعربية.

فرص (باخوراس، Pachòras)، التي كانت في وقت سابق عاصمة نوباديا.

وفي مملكة المقرة:

- دنقلا (حالياً دنقلا العجوز)، وهي العاصمة.
- صاي، في جزيرة بهذا الاسم، جنوبي الشلال الثاني.
- شنقير، يفترض أنها بالقرب من مدينة أبو حمد الحالية.
- كلاما وميركا، وما زال هذان الاسمان مجهولين.

بالنسبة لمملكة علوة فلا توجد وثائق تشير إلي أسماء المقرات الأسقفية، ويمكن أن نجزم بأن العاصمة سوبا كان بها أسقف. وأن لونجينوس كان أول أسقف عليها. أما المقرات الأسقفية في تلك المملكة المترامية الأطراف فأغلب الظن أن هناك عددا منها، ولكن لا يمكن تحديدها في الأسماء الموجودة اليوم.

وقد اعتاد بطريرك الإسكندرية القبطي تعيين أساقفة لمقرات بلاد النوبة بحكم السلطة المخولة له بذلك، وبالمثل فإن بطريرك الإسكندرية الإغريقي(الملكاني) قد اعتاد تعيين أساقفة وإرسالهم إلى مقرات أسقفية حيث يسود الاعتقاد الخلقيدوني – وحدث أحيانا أن قام الملوك النوبيين بتعيين أسقف المدينة نائباً له ومنحه مسؤوليات سياسية بجانب واجباتهم الروحية.

كان لكنائس النوبة أيضاً عدد من القساوسة والشمامسة الذين يخدمون الجمعيات الريفية وقد وجدت نقوش لقساوسة وشمامسة في كنائس العديد من القرى، وكانت كل قرية لها كنيستها الخاصة أو كنائسها وأحيانا قس أو شماس مقيم.

وأقدم كنائس بلاد النوبة قد شيدت من الحجر والطوب الأحمر. لاحقا، تم استبدالها بالطين والطوب المحروق تحت الشمس. ولكن الحفريات الحديثة في دنقلا العجوز أظهرت بعض الاستثناءات، حيث كاتدرائية قصر إبريم (في القرن السابع) قد شيدت من البداية بالحجر الملبس وهي مثال فريد من نوعه في كل بلاد النوبة. عندما بدأ النوبيون تشييد كنائسهم بأنفسهم فقد قلدوا – بصفة عامة طراز الكنائس الإغريقية في سوريا وفلسطين حيث الجدران الداخلية مزينة منذ البداية بصور يسوع المسيح والصليب المقدس ومريم العذراء والحواريين (الرسل) والملائكة والقديسين المشهورين. وفي وقت لاحق أضيفت صور الملوك والأساقفة وشخصيات أخري. ويبدو أن بعض الرسومات (مثل السيد المسيح ضابط الكل (Pantokrator)، والحواريين الاثني عشر، وميلاد المسيح والثلاثة شبان في الأتون[١٢٤]...) قد وضعت في أماكن محددة معينة على الجدران تماشياً مع التقاليد أو التعاليم التي أصدرتها سلطات الكنيسة[١٢٥].

[١٢٤] ملاحظة المحقق: انظر سفر دانيال ٣: ١٩-٢٠ في الكتاب المقدس.

[١٢٥] ملاحظة المحقق: تعبر أهمية الصور في الكنائس النوبية عن دور الأيقونة في الكنائس الشرقية. الكلمة "أيقونة" هي تعريب لكلمة يونانية تعني صورة "εἰκών" أو شبه. وتُصنع الأيقونات وفق أساليب محددة وبالنظر لاعتبارات لاهوتية محددة، بالتزامن مع صلاة الرسام أثناء عملها أيضا, لكي تخدم أغراض العبادة وترتقي بحياة الناظر إليها من الأمور الأرضية للروحية.

الأديرة

ذكرت المصادر التاريخية أن هناك عددا كبيرا من الرهبان في مملكة النوبة. كما أن وجود أديرة للرجال في مملكة النوبة قد دلت عليه المصادر الأدبية (ساويرس بن المقفع، أبو صالح الأرمني) وبقايا الأديرة التي تم اكتشافها في أماكن كثيرة مثل فرص وجزيرة مرقس بالقرب من ديبود وغزالي في وادي أبي دوم بالقرب من مروي ومناطق أخرى عديدة[١٢٦]. وقد تم اكتشاف دير بارز في دنقلا العجوز في عام ١٩٨٩م وأطلق عليه اسم "دير الثالوث الأقدس" بسبب كثرة الصور حول ذلك الموضوع، وسوف نعطي لاحقا نبذة قصيرة عن هذا الدير ضمن الاكتشافات الحديثة التي تمت في دنقلا[١٢٧].

إن القول بأنه كان هناك ١٢،٠٠٠ راهباً في بلاد النوبة كما جاء في مخطوطة "حدود العالم"، هو بلا شك فيه الكثير من المبالغة خاصة إذا كانت كل الدلائل تشير إلى ديرين فقط.

"طري (؟): بلد صغير بين حدود النوبة والسودان[١٢٨]، يقع في مفازة، وفيه صومعتان للنصارى، يقال إن فيهما اثني عشر ألف راهب، وحينما ينقص واحد منهم من حدود النوبة، يحل محله أحد النصارى الموجودين في صعيد مصر[١٢٩]".

كنائس فرص

باستثناء دنقلا العجوز وفرص وإبريم وسوبا ومناطق أخرى محددة، فإننا نعرف القليل جداً عن الكنائس الأخرى في بلاد النوبة فيما يتعلق بالزمن والظروف المحيطة بإنشائها والأحداث الرئيسية التي مرت بها. ولكن بالمقابل فإننا نعرف الكثير عن بعض الكنائس في فرص ويرجع الفضل في ذلك إلى الاكتشافات الحديثة (١٩٦٠—١٩٦٤م) والرسومات والنقوش على الجدران.

وكان من الممكن رؤية بقايا وأطلال كنائس كثيرة في فرص والمناطق المجاورة في بداية القرن المنصرم وكنائس أخرى قد ألقى عليها علماء الآثار[١٣٠] الضوء وبُرزت للعالم. وقد اكتشف فرانسيس لويلين قريفيث (Francis Llewellyn

[126] Cf. MONNERET DE VILLARD, La Nubia Mediavale, vol. I, Cairo 1935.
يحتوي هذا الكتاب على قائمة المواقع المسيحية في النوبة، بما في ذلك الأديرة.

[١٢٧] ملاحظة المحقق: انظر الفصل الثاني والعشرين لهذا الكتاب.

[١٢٨] ملاحظة المؤلف: ولكن الاحتمال الأقوى أن دير غزالي في أبودوم جنوبي كريمة، هو المعني هنا بالرغم من الرقم المبالغ فيه أو ربما تكون هناك واحة أخرى في الصحراء الغربية. الدلائل الجغرافية تشير إلي واحة سليمة.

[١٢٩] "حدود العالم من المشرق إلى المغرب" هي محفوظة جغرافية باللغة الفارسية كتبت في عام ٩٨٣م (٣٧٢هـ). لا نعرف اسم المؤلف ولكن المعلومات التي وردت فيها عن بلاد النوبة، هي صحيحة بصفة عامة. نقلنا من الترجمة العربية الآتية: (تحقيق يوسف الهادي)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٩٩٩، ص١٤٧.
Cf. Ed. V.Minorsky, Oxford 1937, p. 165. OS, p. 174 .

[130] Cf. GEOFFREY S. MILEHAM, Churches in Lower Nubia, Philadelphia 1910; SOMERS CLARKE, The Christian Churches and Remains in the Valley of Nile, (ms. 1899); S. CLARKE, Christian Antiquities in the Nile Valley, Oxford 1912; FRANCIS LLEWELLYN GRIFFITH, Oxford Excavations in Nubia, LAAA XI (1924), XIII-XV (1926-28); MONNERET DE VILLARD, op. cit., p. 188-200.

(Griffith) عام ١٩٠٩ كنيسة قائمة على شاطئ النيل وسماها بـ"كنيسة بوابة النهر" (Rivergate Church) الت
تُعتبر أقدم كنيسة بُنِيَت بعد اهتداء الملك بالمسيحية. ووجد فيها صورة مطران تحت حماية السيد المسيح. وكان
هناك أجزاء من صور أخرى، ولكن الجدير بالذكر أن صور السيدة العذراء في حالة سيئة وتحتها الكتابة التالية باللغ
اليونانية: "يا مريم العذراء والدة الله" وكتابة أخرى تقول: "أيها السيد يسوع امْنَح بركةً وقُوّةً لخادمك الشماس
باخوراس" (فرص).

كما اكتشف قريفيث بقايا كنيسة أخرى على بعد ٨٠٠ متر ناحية الجنوب اسمها "الكنيسة العظمى"، ومن
ضمن المباني الشاهقة في ربوة بفرص (كوم فرص) عثر على كنيسة باسم "كنيسة القلعة"[131].

وفي الفترة ١٩٦٠- ١٩٦٤م قامت جامعة وارسو (المركز البولندي لآثار منطقة البحر الأبيض المتوسط)
بحفريات في ربوة فرص (كوم فرص) واكتشفوا كنيسة ذات خمس ممرات ومبانٍ مسيحية أخري مدفونة تحت الرمال،
حيث تراكمت رمال الصحراء حول الجدران فحافظت عليها واقفة كما كانت وحمتها من الدمار خلال الحروب بين
النوبيين والمماليك في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وبالتالي انقدت الرسومات التي على الجدران.

وقد أطلق اسم "الكاتدرائية"[132] على الكنيسة ذات الخمس ممرات، أي الكنيسة التي فيها كرسي الأسقف. وقد
وجدت الجدران الداخلية مزينة بالرسومات التي كان بعضها بحالة جيدة جدا[133]، وبإجراء المزيد من الحفريات أسفل
أرضية الكاتدرائية تم اكتشاف مبني مدني مشيد من الحجر، وأطلق عليه اسم "القصر"، بالإضافة إلي بقايا كنيسة
صغيرة مصنوعة من طوب الطين، اسمها "كنيسة الطين". وهي أوال الكنائس التي عرفت في فرص ومن الواضح أنها
شيدت قبل تحول نوباديا رسمياً إلي المسيحية. وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني وجود جماعة مسيحية في فرص قبل
وصول القس يوليانوس إليها. هذه النتيجة التي تم التوصل إليها بتحفظ، تثير أسئلة كثيرة وبحث مكثف حول تحديد
دخول المسيحية إلي بلاد النوبة وبجانب ما أورده يوحنا الأفسسي، فقد ظهرت دلائل كثيرة من الحفريات الحديثة في
قصر إبريم ومناطق أخرى.

وقد قام بعض الملوك – الذين كانوا وثنيين بعدُ – بهدم "كنيسة الطين" حتى أصبح ارتفاع الجدران ٧٠ سم
فقط، وساوَوها بالأرض وشيدوا "القصر" في نفس موقعها، وعندما اعتنق ملك نوباديا المسيحية في عام ٥٤٣م، قام
بتحويل إحدى الصالات في مقر سكنه إلي كنيسة مناسبة لإقامة طقوس الدين الرسمي الجديد، وهذه "كنيسة بوابة
النهر"، وفي وقت لاحق ترك الملوك السكن على الربوة (الكوم) واختاروا مكانا آخر لتشييد قصورهم. وقد شيدت
كنيسة جديدة أو كاتدرائية على نفس خريطة القصر المهجور بثلاثة أصحن وسميت "كاتدرائية الممرات الثلاثة".

---

[131] ملاحظة المؤلف: اكتشف قريفيث ودرس مواقع مسيحية أخرى في فرص التي لا يتم تضمينها في هذه القصة.

[132] ملاحظة الأب فيلوثاوس فرج: بنيت كنيسة الشهيدين بالخرطوم (شارع ١٥ بالعمارات ١٩٦٨/٤/٦م) على نموذج كاثدرائية فرص.

[133] ملاحظة المؤلف: يوجد جزء من لوحات فرص مع الكائنات الأخرى الآن في متحف السودان القومي بالخرطوم، والجزء الأخر في المتحف وارسو القومي.

وتشييدها قد تزامن على الأرجح مع رسامة أول أسقف لفرص في عام ٦٣٠م، اسمه أيتيوس (Aetios)[134].

وفي حوالي عام ٧٠٠م قام باولوس، الأسقف الخامس في فرص، بتحديد وبناء "المكان المقدس"، أي قام
بتوسيع "كاتدرائية الممرات الثلاث" بإضافة ممر في كل جانب حيث أصبحت ذات خمس ممرات، وهو من نموذج
كاتدرائية في دنقلا العجوز. وقد أمر الأسقف باولوس بوضع كتلتين كبيرتين من الحجر أمام المبني لتخليد ذكرى
ذلك العمل حيث حفرت نقوش على إحدى الكتلتين باللغة الإغريقية وعلى الآخر باللغة القبطية، وقد أوضحت
تلك النقوش أن الكاتدرائية قد تم تدشينها في السنة الحادية عشر من عهد الملك ميركوريوس ملك دنقلا وخلال
حكم مركوس، ممثل الملك (أبرخص)[135] في نوباديا، وأوضحت النقوش أيضاً أن باولوس كان أسقف (باليونانية:
πρόεδρος) فرص (باخوراس).

أما أسباب استخدام اللغتين فيرجع إلى أن اللغة الإغريقية كانت اللغة الرسمية في البلاط الملكي في دنقلا وأما
اللغة القبطية فهي أصبحت لغة الطقوس الدينية عندما مر مقر فرص إلى اختصاص البطريرك القبطي.

وكان ميركوريوس هو الملك الوحيد المذكور في ذلك النقش لأنه، في تلك الفترة، كان ملكاً على نوباديا أيضا,
وقد اندمجت المملكتان، المقرة ونوباديا، في مملكة واحدة قبل نصف قرن من ذلك التاريخ، كما سنرى فيما بعد. أما
أسباب الاندماج فربما أن المقرة قد طغت على نوباديا وأخضعتها، أو أن الغارات القادمة عبر الحدود من مصر قد
أضعفت نوباديا وأنهكت قوتها. ولابد من أن نضع في أذهاننا أن الغزوة الفارسية/الساسانية القادمة من مصر عام
٦١٩ م قد وصلت إلى نوباديا.

أورد النقش الموجود داخل الكاتدرائية أسماء سبعة وعشرين من أساقفة فرص، ومع كل اسم ذُكِر اللقب وتاريخ
التعيين وتاريخ الوفاة وبعض المعلومات الأخرى. وهذه القائمة من أهم الوثائق لدينا عن تاريخ الكنيسة النوبية،
خاصة في نوباديا.

نذكر أدناه أسماء أول سبعة أساقفة في مقرّ فرص منذ البداية وحتى منتصف القرن الثامن الميلادي[136]:

١- أيتيوس (Aetios)، هو أول اسم في القائمة، ولم ترد معلومات أخرى عنه، ولكن لا بد أنه كان أسقفا في خلال الحملات العربية ضد بلاد النوبة (٦٤١—٦٥٢م).

٢- سيرابيون (Serapion).

٣- أسقف مجهول، يعتقد أنه تامر (Tamer). فقد وقع ذلك الجزء من الحجر الذي يحمل اسمه.

---

[134] Cf. K. Michalowski, Faras, Centre Artistique de la Nubie Chrétienne, Leiden 1966, p. 9.

[135] ملاحظة المحقق: الأبرخص (باليونانية: ἔπαρχος, eparchos) هو نائب الإمبراطور في مدينة أو منطقة محددة. أما الكلمة "إيزارقوس (باليونانية: ἔξαρχος exarchos) فتقصد إلى الواقع نفسه، بل بخصوص بعض المناطق مثل إطاليا، إسبانيا وشمال إفريقا ضم الإمبراطورية البيزنطية.

[136] ملاحظة المحقق: توجد هذه القائمة في متحف السودان القومي بالخرطوم.

٤- بيلاطس (Pilatos)، ظل مهيمناً على المقر الأسقفي لأكثر من أربعين عاما، ويعتقد علماء الآثار أ

هو الذي شيد "الكنيسة العظمى".

٥- أبّا باولوس (Paulos)، من وجود كلمة "أبا"، نفهم أنه كان رئيساً لأحد الأديرة، ربما تلك التي تجاو

الكاتدرائية، وهو الذي عمل على توسيع الكاتدرائية من ثلاث إلي خمس ممرات، كما قام أيضاً بتشييد

عدة مباني فرعية. أما أهم حدث إبّان توليه منصب الأسقف فهو تحول وَلاء أسقف فرص إلى بطريرك

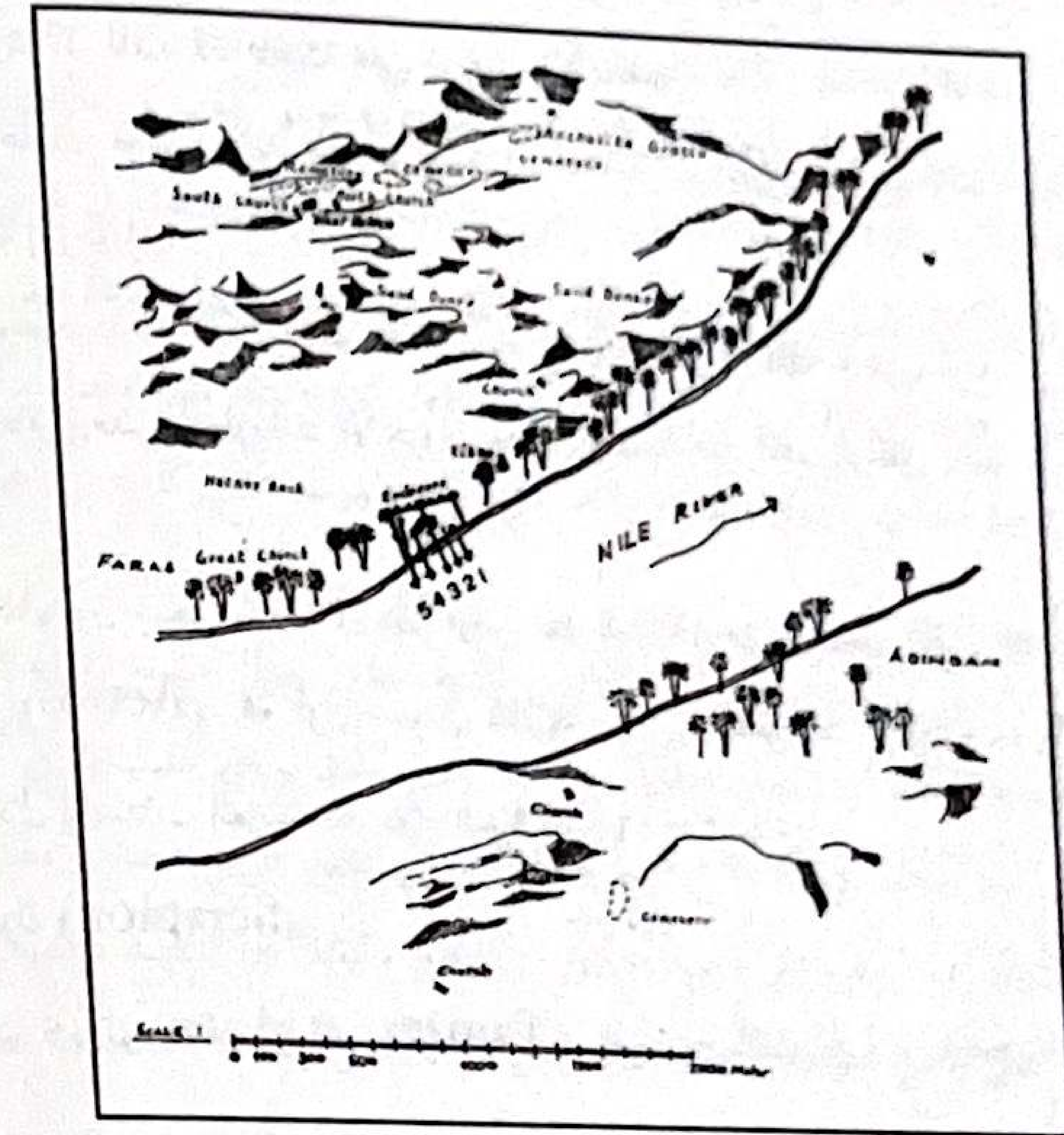
الإسكندرية القبطي، ولم ترد معلومات عن تاريخ تعيينه أو تاريخ وفاته، ولكن يعتقد أن وفاته كانت في

حوالي عام ٧٢٠م لأن الأسقف ميناس قد حل محله في تلك السنة.

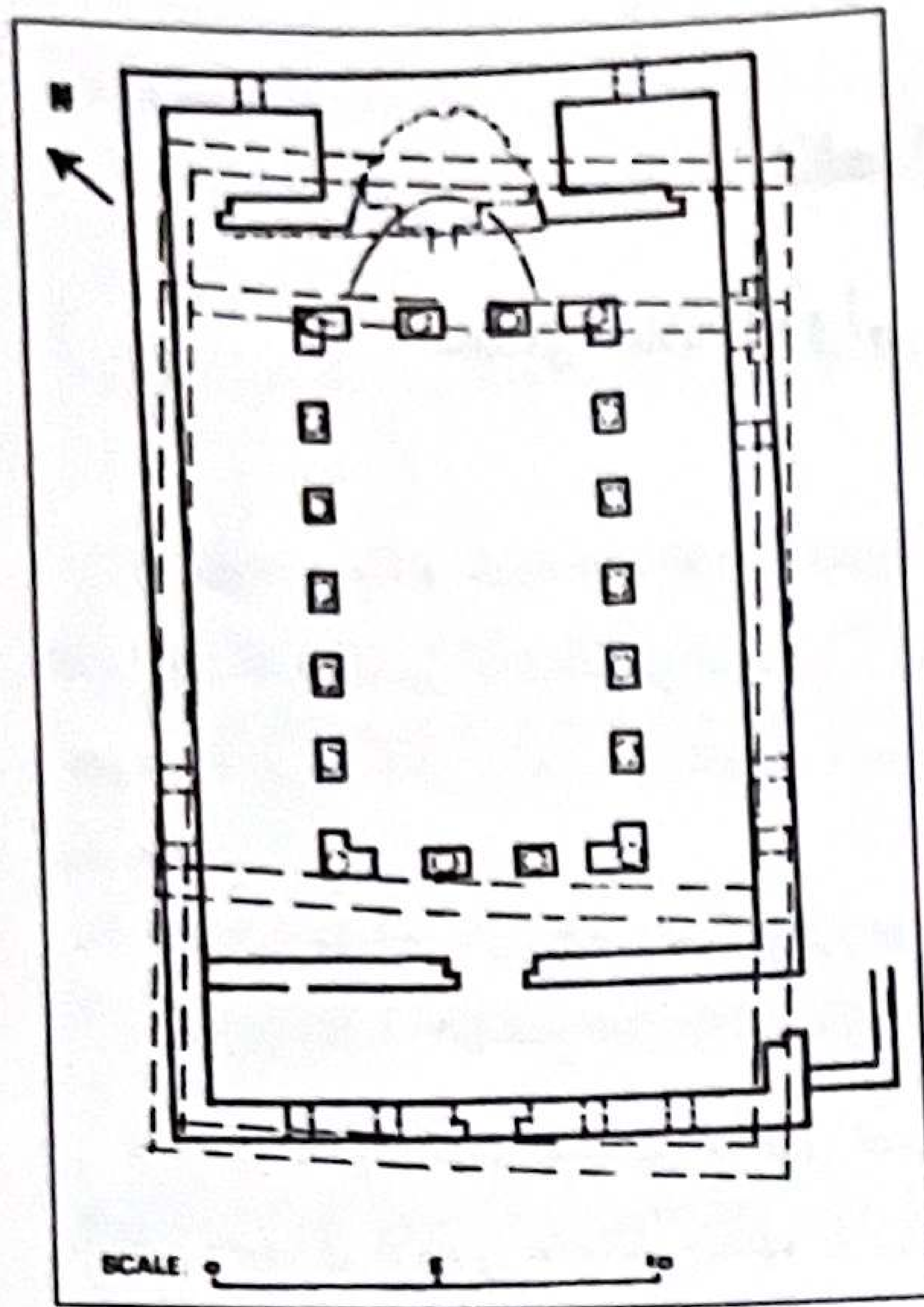
٦- ميناس (Minas)، ينحدر من أصل نوبي كما يبدو من صورته المرسومة في الكاتدرائية.

٧- متاؤس (Matayos)، اعتلى الكرسي الأسقفي في منتصف القرن الثامن الميلادي واستمر حتى عام

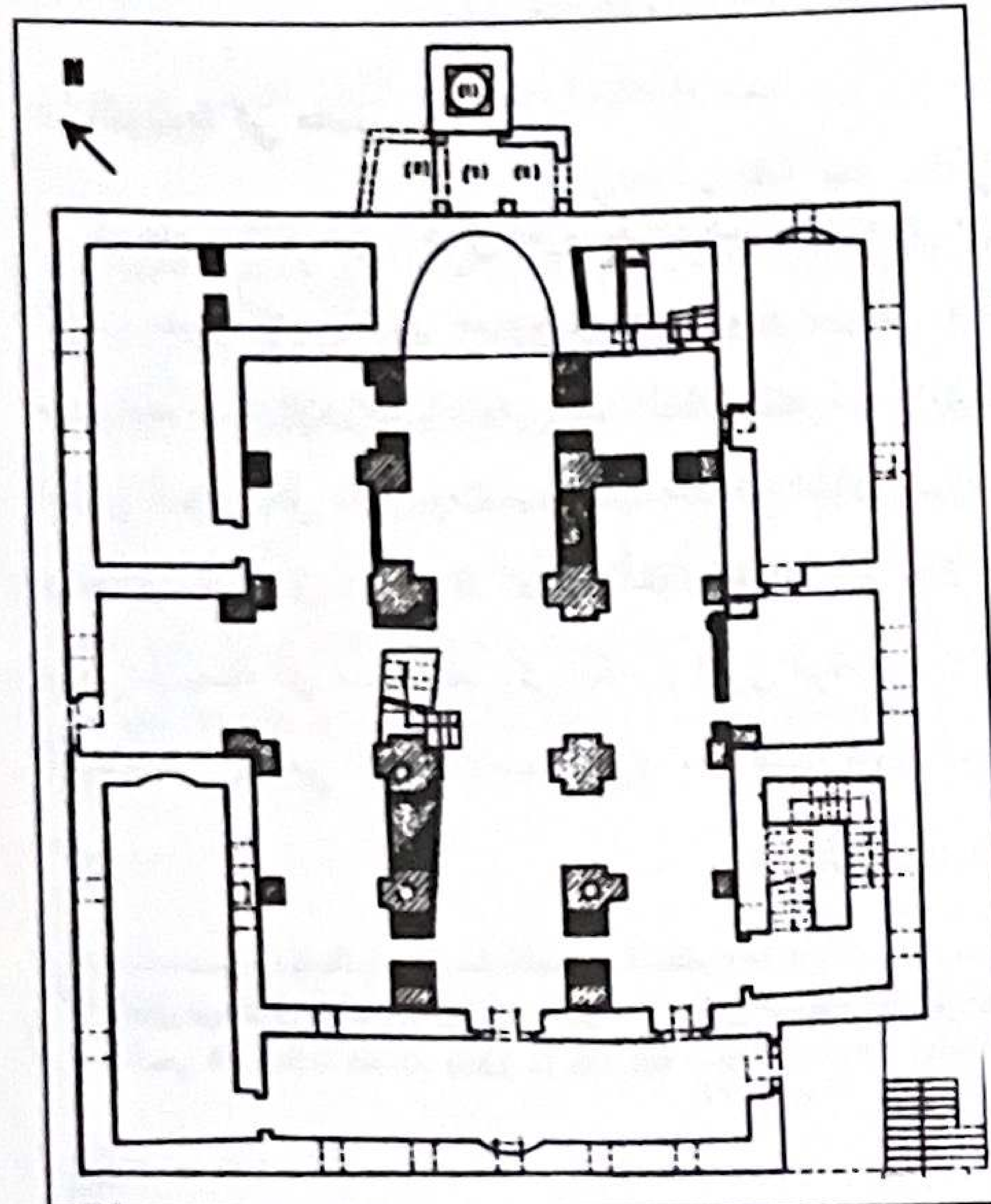
٧٦٦م، وقد عُرِف تاريخ وفاته من النُّصب الحجري التذكاري الذي وُجد على قبره.



فرص وضواحيها.
١) كنيسة بوابة النهر؛ ٢) الدير وكنيسة القلعة؛ ٣) الكاتدرائية؛ ٤) كنيسة الربوة الجنوبية؛ ٥) ما تبقي من مجموعة البيوت X



المباني المسيحية الأولى بالكوم.
كنيسة الطين.
جدران القصر ورواق داخلي بأعمدة.
جدار الكاتدرائية الخارجي و صفان من الأعمدة.



كاتدرائية الأسقف باولوس والترميمات المتعاقبة.
كاتدرائية الممرات الخمسة بالأعمدة.
أعمدة الكاتدرائية بعد بنائها (حوالي ٩٥٠م)
الجدران الطينية الشاشة لبنة بعد استعادة جزئية (حوالي ١١٧٥).
(١) ضريح يوانس.
(٢) مصليات مريم العذراء والملاك مخائيل.
(٣) قبر أسقف فرص الأخير.

الفصل السادس

المناوشات الأولى بين النوبيين والعرب

في عام ٦١٦م قام جيش ملك الفرس "خسرو" (Chosroes) بغزو أراضي الإمبراطورية البيزنطية حيث ظل الفرس منذ أقدم العصور أعداء لدودين للبيزنطيين والمسيحية. وقد غزوا العراق وسوريا وفلسطين ومصر وتقدموا نحو حدود بلاد النوبة، ولكن لم يُعرف إن كانوا قد دخلوا بلاد النوبة أم لا، فقد كتب أغابيوس أسقف مَنبج في سوريا عام ٦١٦م ما يلي:

"في [السنة] الخامسة لهرقل [الموافق ٦١٦م] خرج الفرس من قيسارية وغزوا أورشليم وافتتحوها [أي فتحوها] وفي السنة الثامنة لهرقل [الموافق ٦١٩م] افتتح الفرس الإسكندرية وما حولها ووصلوا النوبة"[١٣٧].

وقد ذكر بعض الكُتّاب المسيحيين ما عمل الفرس من أعمال السلب والنهب والدمار الذي أحدثوه في القدس وأماكن أخرى في الأراضي المقدسة، ولكنهم لم يذكروا أي تفاصيل عن تقدم الفرس إلى بلاد النوبة، ويحتمل أن يكون القصر الملكي في "كوم فرص" قد تعرض أيضا إلى نهب الفرس حيث إن تاريخ تحولها إلى كنيسة ثلاثية الممرات في عام ٦٣٠م يتفق تماماً مع الأحداث السياسية المذكورة[١٣٨].

النوبيون في مصر

في عام ٦٣٨م تحرك الجيش العربي بقيادة عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر وبدأ في هزيمة كل القطر. فقد كانت مصر أكثر الأقاليم خصوبة في الإمبراطورية البيزنطية حيث كانت توفر إيرادات كافية للجيش البيزنطي في مصر ولعاصمة الإمبراطورية، ومن هذا المنطلق فقد أمر الإمبراطور هرقل ولاته الحاكمين في مصر بمقاومة تقدم الجيش العربي بكل ما في وسعهم، وعليه فقد قام الحاكم البيزنطي في مصر بدفع الجزية للمسلمين ليمنع تقدمهم لاحتلال كل وادي النيل. وقد تصرف الحاكم هكذا لأنه كان يتوقع وصول مدد لمساعدته من بلاد النوبة والبجة. ولكن لم يصله أي مدد. وقد ذكر الكاتب العربي الواقدي ٧٩٠م أن الحاكم الإغريقي في مصر والذي اسماه الملك أرسطوليس(ربما هي تحريف لاسم هرقل)، وقد طلب ملوك النوبة والبجة الحضور لمساعدته في المعركة الأخيرة ضد العرب.

---

[١٣٧] أغابيوس، كتاب العنوان، PO، م١، ص ٤٥١. كان الأسقف أغابيوس معروفا أيضا بمحبوب بن قسطنطين المنبجي، وهو أول مؤرخ مسيحي كتب باللغة العربية. (cf. OS, p. 121)

[138] Cf. K. Michalowski, ibidem.

"وفي يومهم ذلك الذي خرجوا فيه جاء الرسل الذين [كان قد] بعثهم الملك أرسطوليس إلى النوبة وإلى ملك البجاة في طلب النجدة وأخبروا: بأنه وقع بين النوبة والبجاة [فتنة]، واختلفوا، وأن أحدا [ك] منهم يبعث للملك أرسطوليس نجدة. فصعب ذلك على الملك"[١٣٩].

وقد رسم نفس المصدر صورة عن الوضع بالنسبة لجلب المؤن من بابليون (أي الفسطاط، مركز قوة الإغريق في مصر) وذلك في عشية المعركة الحاسمة.

"جمع أرسطوليس الحجاب والأمراء وقال: قد ضاق صدري من هؤلاء العرب ومقامهم علينا، وقد غلا السعر عندنا، لأنهم قد حكموا على أهل القرى والضياع، وقد منعوا أهل البلاد أن يصلوا إلينا بشيء من حواصل بلادهم، وخيلهم أيضا تضرب إلى الريف والصعيد من هذا الجانب، وأيضا أن أهل النوبة والبجاة ما نصرنا منهم أحد، وقد وقعت الفتنة بينهم واختلفوا"[١٤٠].

و نقرأ في " تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية"[١٤١] ما يلي:

"فلما رأى هرقل ذلك- أي زحف العرب إلى مصر- جمع جميع جيوشه من مصر إلى حدود أسوان ومكث يدفع القطيعة (أي الضريبة) التي يقررها على نفسه وعلى جيشه ثلاث سنين للمسلمين وكانوا يسمون المقرر (البقط) أي أنه بَقَطَ رؤوسهم إلى أن يدفع معظم ماله. ومات كثير من الناس من التعب الذي كانوا يقاسونه"[١٤٢].

وهنا نلاحظ ذكر الكلمة "بقط" لأول مرة -وهذه هي كلمة يونانية (pakton) أصلا معناها "اتفاق"- وكانت عبارة عن ضريبة من غلال كان البيزنطيون يجمعونها من سكان مصر لتزويد جيوشهم بالمؤن فأخذوا يدفعون هذه الضريبة للمسلمين المحاصرين مدينة مصر (بابليون). ومن الجدير بالذكر أن هذه الكلمة – بَقْط – صارت فيما بعد تدل على التبادل التجاري الذي اتفق عليه العرب والنوبة بعد إبرام الهدنة والمصالحة بينهم.

وفي النهاية -كما هو معلوم- فقد تمكن العرب من هزيمة مصر واحتلالها حيث قام القائد المنتصر عمرو بن العاص بإعداد بنود معاهدة السلام مع المصريين التي كتب عنها الطبري ما يلي:

"لما نزل عمرو بن العاص على القوم بعين شمس (أي بابليون)، وكان المسلك بين القبط والنوب، ونزل معه الزبير عليها، قال أهل مصر لملكهم: "ما تريد إلى قوم فلّوا كسرى وقيصر(أي الإغريق) وغلبوهم على بلادهم؟ صالح القوم ولا تعرض لهم ولا تعرضنا لهم [...] بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح [...] ومن دخل في صلحهم من الروم [أي الإغريق] والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم [...] وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من

---

[١٣٩] الواقدي، كتاب فتوح مصر والإسكندرية، في مسعد، ص ٥- ٦. (Cf. OS, p. 48)

[١٤٠] المرجع نفسه، ص ٦.

[١٤١] ملاحظة المحقق: توجد أسماء عديدة لهذا الكتاب: "سير الآباء البطاركة"(B. Evetts)، "تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية في الإسكندرية" (ضمن مجموعة Patrologia Orientalis)، "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة" (تولته الجمعية القبطية). والنصوص الواردة في كتاب مسعد منقولة من "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية"، بيروت ١٩١٤.

[١٤٢] تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية في الإسكندرية، في: PO، م١، باريس ١٩٠٧، ص٤٩٣.

تجارة صادرة ولا واردة[143]".

ويتضح من الشرح أعلاه أن هنالك أعدادًا كبيرة من النوبيين كانوا يسكنون في مصر عندما احتلها العرب، وقد انضم بعض النوبيين إلى الإغريق في الدفاع عن مصر، وعليه فإن الفاتح العربي لم يفرق بين البيزنطيين والنوبيين بعد أن هزمهم ولكنه سمح لهم بالعودة إلى أوطانهم.

المناوشات الأولى

بعد فتح مصر مباشرة وصلت طلائع الجيش العربي إلى أسوان في الحدود بين مصر وبلاد النوبة وقد أدى هذا إلى مناوشات حيث إنه من السهل على العرب والنوبيين عبور الحدود وشن الغارات على أراضي بعضهم البعض. ومن المعلوم أن النوبيين والبجة والقبائل الأخرى معتادون على الغارات على الريف المصري وقد استمرت هذه العادة بعد فتح العرب لمصر مما دفع العرب إلى شن غارات معاكسة.

وقد اتفق الكتاب العرب على أن عمرًا بن العاص لم يتخل أبداً عن فكرة فتح بلاد النوبة، وقد أرسل حملة متكاملة في عام ٢١هـ (٦٤١م) وصلت حتى سهول دنقلا ودخلت معهم في معركة، ولكنها واجهت مقاومة شرسة، خاصة من الرماة النوبيين، وقد سلمت دنقلا من الفتح. وقد وضعت روايات الكتاب العرب عن هذه الحملات ضد بلاد النوبة بالكتابة مائة وخمسين عاما في وقت لاحق، والكثير من التفاصيل الثمينة مثل أسماء الملوك، وأسماء الأماكن (باستثناء دنقلا)، والأحداث العسكرية قد اندثرت بمرور الوقت. وليس هنالك أي معلومات عن مرور العرب عبر مملكة نوبادبا في طريقهم إلى دنقلا. وإن كل ما حفظته ذاكرة العرب القصصية خلال ستة أجيال متعاقبة هو اسم دنقلا والقدرات غير المتوقعة للرماة النوبيين التي حولت الحملة العسكرية إلى تقهقر متعقل.

وقد دوّن المؤرخون العرب حملتين رئيستين: الأولى في عام ٢٠- ٢١هـ (٦٤١ – ٦٤٢ م) تحت حكم عمرو بن العاص في مصر (٦٣٨- ٦٤٥م)، والثانية في عام ٣١هـ (٦٥٢م) تحت حكم عبد الله بن سعد. ومع هذا، قد ذكر المقريزي حملتين بقيادة عبد الله بن سعد ضد بلاد النوبة. بالتالي، يمكننا أن نفترض أن إما عبد الله قاد كل من البعثتين (٦٤١-٦٤٢ و ٦٥٢)، أو أن هناك حملة غير المدونة بقيادة عبد الله في حوالي عام ٦٤٦م[144].

وإن كل هذه الحملات قد تمخضت عن هدنة أو معاهدة لم يراعها النوبيون، وهذا الأمر الذي قاد إلى الحملة الكبرى في عام ٦٥٢م. نورد فيما يلي سردًا تاريخيًا عن الحملات المختلفة حسب ما جاءت على لسان الأخباريين العرب:

"لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها الخيل ليطأها. فبعث عقبة بن نافع الفهري، وكان نافع

[143] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، في مسعد، ص ٣٥-٣٦؛ (De Goeje) ليدن ١٨٩٣، ص٢٥٨٧-٢٥٨٨. (cf. OS, p. 97)

[144] انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، في مسعد، ص ٣٠١؛ والقلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩٤٥-١٩٦٣، ٨، ص ٦. (Cf. OS, p. 639)

أخا العاص لأمه. فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقي المسلمون بالنوبة قتالا شديدا. لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة، فسموا رماة الحدق. ولم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح فسألوه الصلح والموادعة، فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلاث مئة رأس، في كل سنة، وعلى أن يهدي المسلمون إليهم طعاماً بقدر ذلك[145]".

وقد سجل نفس الكاتب قصة أسندها إلى شخص يدعى محمد بن سعد، الذي تلقاها من سلسلة السلطات.

"[...] عن شيخ من حمير قال: «شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب (٦٣٤- ٦٤٤م)، فلم أر قوماً أحدّ في حرب منهم. ولقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبال، فما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا [أي فصفّوا للهجوم علينا] ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. ورمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مئة وخمسون عيناً مفقوءة. فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل، وإن نكايتهم لشديدة. فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نزع وولي عبد الله بن سعد بن أبي السرح فصالحهم»[146]".

وقد اتفقت رواية بلاذري مع التقارير التي أوردها المؤرخون والأخباريون الأوائل والمعاصرون مثل الواقدي وابن عبد الحكم واليعقوبي والطبري، وكلها مبينة على سلسلة من الروايات المتواترة بها.

وقد ذكر مؤرخ آخر – أحمد الكوفي (ت.٩٢٦م) – أنه في عشية مغادرة جيش المسلمين إلى بلاد النوبة، قام عمرو بن العاص ووزع على الجنود كل الأموال التي جمعها كجزية من أهالي الإسكندرية. وكانت الحملة المتجهة إلى بلاد النوبة قوامها ٢٠,٠٠٠ جندي.

"عندما وصل عمرو إلى هناك أطلق للجنود العنان فانتشروا في كل اتجاه يقتلون وينهبون كل ما تطوله أيديهم وعندما رأى النوبيون الدمار الذي حل بأرضهم جمعوا صفوفهم حتى بلغ عددهم ١٠٠,٠٠٠ رجل وتحركوا لمهاجمة المسلمين بكل بسالة حتى إن المسلمين لم يواجهوا خسائر قط مثل تلك التي منوا بها في بلاد النوبة حيث قطعت الكثير من الرؤوس والأيدي وفقئت العيون بفعل السهام فضلا عن الجثث المبعثرة في كل مكان[147]".

واحد من المصادر الرئيسية التي نقل عنها المؤرخون الأخباريون العرب كلهم، هو يزيد بن أبي حبيب وأبوه نوبي أسره العرب في دنقلا. وقد أورد شاعر موجود في جيش العرب وصفاً لمعركة دنقلا بأبيات الشعر التالية التي حفظها الكثير من العرب عن ظهر قلب:

"لم تر عيني مثل يوم دنقلة — والخيل تعدو بالدروع مثقلة
ترى الحماة حولها مجدلة — كأن أرواح الجميع مهملة[148]".

[145] البلاذري، فتوح البلدان، في مسعد، ص ٢٥؛ (De Goeje) ليدن ١٨٦٦، ص ٢٨٠. (cf. OS, p. 80)

[146] المرجع نفسه، ص٢٦.

[147] أحمد الكوفي، الفتوحات. لا يوجد النص الأصلي. ترجم الأب فانتيني من:

E. M. Quatremère, Mémoires géographiques et historiques sur l’Egypte, 2, Paris 1811, p. 39. Cf. OS, p. 95.

[148] ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في مسعد، ص ٢٥٨؛ نشر قسطنطين رزيق، بيروت ١٩٣٨، ص ٤٤-٤٥.

المقريزي، الذي كتب في القرن الخامس عشر الميلادي، يبدو أنه قد خلط بين التفاصيل والأحداث المختلفة الخاصة بالحملة العربية ضد دنقلا في القرن السابع الميلادي وحملة سلاطين المماليك في مصر في القرن الثالث عشر الميلادي.

"فلما مات (الخليفة) عمر، نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد، وكثرت سراياهم إلى الصعيد، فأخربوا وأفسدوا، فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد بن أبي سرح [أي السرح]، وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان، رضي الله عنه، سنة إحدى وثلاثين (٦٥٢م)، وحصرهم بمدينة دمقلة (دنقلة) حصاراً شديداً، ورماهم بالمنجنيق - ولم تكن النوبة تعرفه - وخسف بهم كنيستهم بحجر. فبهرهم ذلك، وطلب ملكهم واسمه "قليدوروث"[149] الصلح، وخرج إلى عبد الله وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعا. فتلقاه عبد الله ورفعه وقرّبه. ثم قرر الصلح معه"[150].

البقط، أي الاتفاقية بين العرب النوبة

اتفق المؤرخون العرب على أن حملة عام ٦٥٢م لم تسفر عن منتصر أو منهزم حيث انتهت معركة دنقلا بالهدنة التي صارت فيما بعد صلحا ثابتا وصادق عليها الخليفة عثمان بن عفان. وأول مَن كتب نصا عن "البقط" هو ابن عبد الحكم (عام ٨٧١م)، وأدعى بأنه قد تلقاه شفهياً من يزيد بن أبي حبيب، وقد اتفق معه كل الكتاب العرب الأوائل إلا في بعض التفاصيل الصغيرة مثل نوع وكمية السلع المتبادلة بموجب اتفاقية الصلح. وذكر بعض الشيوخ من مصر أن واحدة من شروط اتفاقية السلام مع النوبيين كانت تقديم ٣٦٠ عبداً كل سنة، وقال بعضهم إن الرقم هو ٤٠٠ عبداً كل سنة، ٣٦٠ منهم لخزينة المسلمين و٤٠ لوالي الدولة. ويطالب بعض الشيوخ بأن يكونوا سبع عشرة من النساء بالتبني.

"ثم انصرف عبد الله بن سعد عنهم. ويقال فيما ذكر المشايخ المتقدمين إنه [يزيد] نظر في بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينحرق، فإذا هو يحفظ منه: إنّا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأسا، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنكم إن قتلتم من المسلمين فقد بَرِئَتْ منكم الهُدنَة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبدا فقد برئت منكم الهدنة، وعليكم رد أبّاق المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة.

قال وزعم غيره من المشايخ أنه لا سُنّة للنوبة على المسلمين، وأنهم أول عام بعثوا "بالبقط" أهدوا لعمرو بن العاص أربعين رأسا فكره أن يقبل منهم، فرد ذلك على عظيم من عظماء القبط يقال له نستقوس، وهو القيّم لهم فيها، فباع ذلك واشترى لهم جهزا، فاحتاجوا بذلك أن عمرا بعث إليهم القمحَ والخيل، وذلك أنهم زُجروا عن القمح والخيل فكشفوا ذلك الزمان الأول فأصيبوا. هذه قصتهم"[151].

---

[149] ملاحظة المؤلف: توجد قراءات عديدة لاسم الملك: قاليدوروت، باليدارليب... ومن الممكن أن يكون "ثيودوروس/ تادروس"... بالتأكيد شوّه الشهودُ السفهية الاسمَ النوبية أولا، وفي وقت لاحق شوهه الكاتب العربي.

[150] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، في مسعد، ص٣٠١؛ (G. Wiet)، ٢، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٢٢، ص ٢٩٠. (cf. OS, p. 639)

[151] ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، في مسعد، ص ٩-١٠؛ (C.Torrey) باريس وليدن ١٩٢٢، ص١٨٩. (cf. OS, p. 58-59.)

واعطى المسلمون النوبيين كمية معينة من القمح (أو/ و العدس) ومنسوجات وخيل (أو خل؟). ومن المفيد أن نذكر نص البقط كما أورده المقريزي. فيبدو أن المقريزي قد نقل ذكر شرائط البقط من مصادر مختلفة في جملتها، وربما يعود الاختلاف وشبه التناقض بين المصادر إما إلى تعديلات متعددة للبقط على مدى الزمان، وإما إلى اختلاف شرائط البقط النوبي بعهود أخرى تمت بين المسلمين وشعوب أخرى. قد وردت في كتاب "الخطط" نصوص نقلها المقريزي من شتى المصادر من أهمها أبو زكريا يحيى بن عثمان وقال أبو زكريا إنه سمع أباه يتحدث عن البقط وما فيه من الشروط قبل أن تتلف النار النسخة الأصلية في ديوان الفسطاط:

"عهدٌ من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة: أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح جعل لهم أمانًا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة:

«إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم: أن لا نحاربكم، ولا ننصب لكم حربًا، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم؛ على أن تدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين فيه. وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقها من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم. وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، وعليكم رد من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين وأن تخرجوه من بلادكم إلى أرض الإسلام ولا تستملوا عليه ولا تمنعوا منه.

وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًا ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنه. وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمنه [أي تكرمته]. وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأسًا، تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران [ك] وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحُلمُ. تدفعون ذلك إلى والي أسوان. وليس على مسلم دفع عدوّ عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبدًا لمسلم أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئًا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا. فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سوء، حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

وعلينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله [عليه] وسلم، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.»

وكتب [أي كتبه] عمر بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين (٦٥٢م) "[152].

هناك تفاصيل إضافية حول السلع المتبادلة بموجب نص البقط، كما أوردها المقريزي نقلاً عن أبي خليفة البحتري وهو كاتب في القرن التاسع الميلادي:

"وعن أبي خليفة حميد بن هشام البحتري: أن الذي صولح عليه النوبة ثلاثمائة وستون رأسا لفئ المسلمين، ولصاحب مصر أربعون رأسًا؛ ويدفع إليهم ألف أردب قمحًا، ولرسلة ثلاثمائة أردب، ومن الشعير كذلك، ومن الخمر ألف اقنين للمتملك، ولرسله ثلاثمائة اقنين وفرسين من نتاج خيل الإمارة، ومن أصناف الثياب مائة ثوب، ومن "القباطي" (نوع من القماش) أربعة

---

[152] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، في مسعد ٣٠٢-٣٠٣؛ (Wiet)، ص ٢٩٠-٢٩٣. (cf. OS, p. 640-642)

... ومن المعمّلة خمسة أثواب وجبة عمل...
أثواب للمتملك، ولرسله ثلاثة، ومن "اليقطرية"(نوع آخر من القماش) ثمانية أثواب، ومن "أحاص" عشرة أثواب، وهي ثياب غلاظ.
للملك، ومن قمص أي بقطر عشرة أثواب، ومن "أحاص" عشرة أثواب، وهي ثياب غلاظ.
قال أبو خليفة: ليس في كتاب عبد الله بن وهب ولا في كتاب الواقديّ تسمية ينتهي إليها، وإنما أخذت التسمية من أبي زكريا.
قال أبو زكريا: سمعت والدي عمرو بن صالح يقول هذا الخبر، فحفظت منه ما وقفت عليه"[١٥٣].

يبدو أن البقط ليس قائمة شروط يفرضها الفائز على المهزوم، ولكنه اتفاقية ثنائية سياسية وتجارية، تؤسس لعلاقات تجارية ظلت قائمة بين النوبيين ومصر منذ أقدم العصور.

وقد كان موضوع تأمين الحدود المشتركة في أسوان من أوائل الشروط في الاتفاقية حيث التزم النوبيون والمسلمون على عدم شن أي غارات على أراضي البعض، ووضعت أحكام لحماية المسافرين المسلمين، خاصة التجار في بلاد النوبة إذ ربما أن السلع التي يحملونها للتجارة تغري النوبيين بالنهب والقتل، وكذلك يجب حماية النوبيين الذين يستقرون في مصر بصفة مؤقتة، شريطة أن لا يحملوا أسلحة ولا يستوطنوا، ويجب إعادة عبيد المسلمين الذين هربوا من الأصحاب.

وتعهد النوبيون بإعطاء المسلمين، كل سنة، ٣٦٠ عبدا (أو ٤٠٠، أو أقل أو أكثر، وفقا لمختلف المصادر) حيث يصبحون ملكا للخزينة. وتم تعيين قبطي في أسوان لاستقبالهم وتوفير كمية محددة من الخيول والمواد الغذائية والمنسوجات، بنفس القيمة للنوبيين.

وقد تمت مراجعة البقط عدة مرات حيث أُضيف إرسال حيوانات مدارية لحديقة الخليفة، وكذلك تم تثبيت مواعيد دفع البقط لتكون مرة واحدة كل ثلاث سنوات، أما العبيد الواجب تسليمهم من النوبيين فإن معظمهم أسرى الغارات التي يشنها النوبيون علي القبائل المجاورة. وقد ذكر البلاذري أنه إذا لم يكن عدد الأسرى كافياً لإكمال العدد المطلوب فلا مانع للنوبيين من إكمال العدد من بني جنسهم[١٥٤].

والليث بن سعد، وهو فقيه (عام ٧٨٢م)، قال عن شرعية شراء العبيد النوبيين:

"نحن أعرف بأرض النوبة من مالك بن أنس، إنما صولحوا على أن لا تغزوهم، ولا تمنع منهم عدواً فما استرقه متملكهم، أو غزا بعضهم بعضاً، فشراؤه جائز، وما استرقه بغاة المسلمين وسرّاقهم، فغير جائز. وكان عند جماعة منهم جوارٍ نوبيات لفرشهم"[١٥٥].

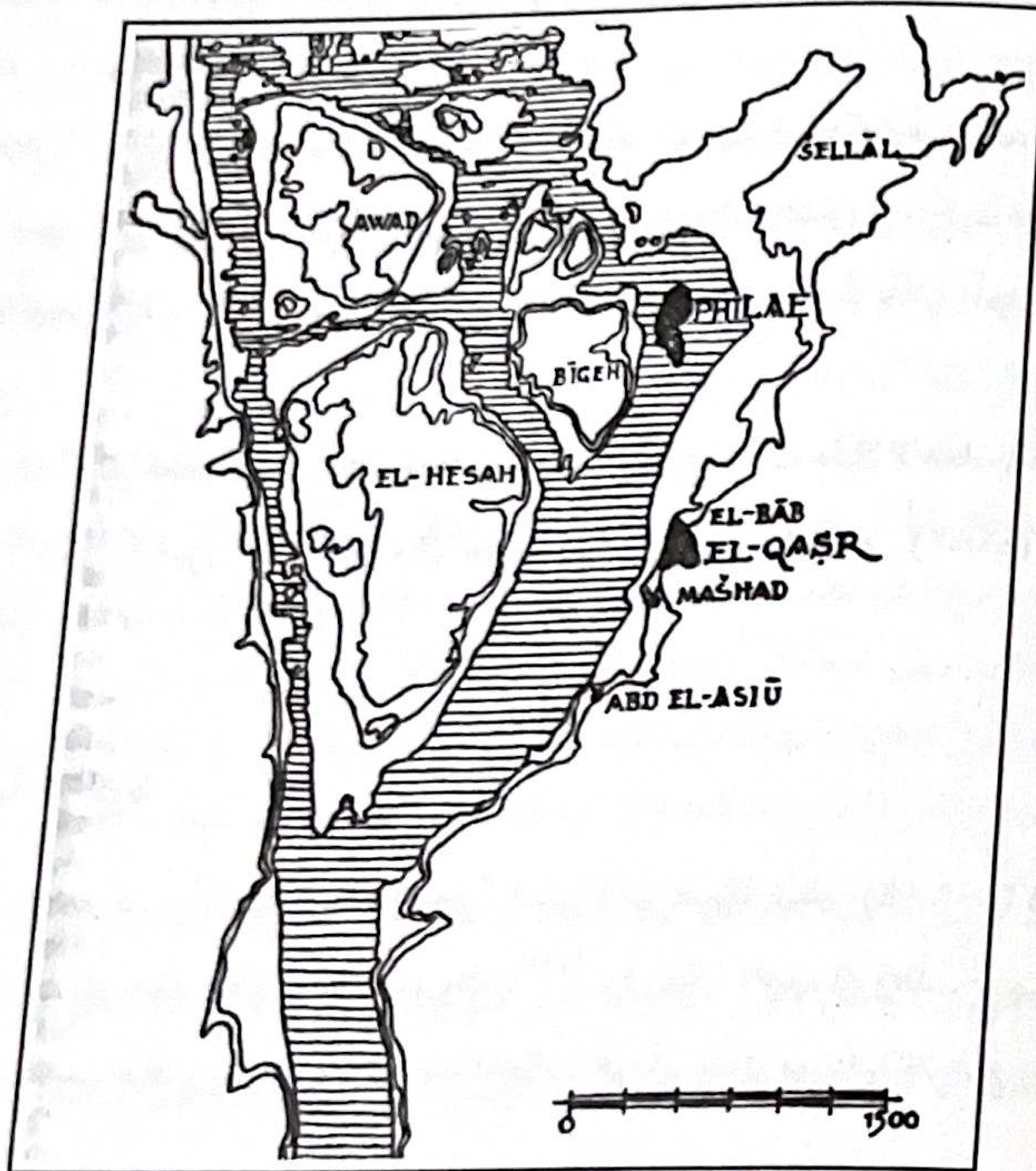
الرّق كمؤسسة احتماعية في التقاليد النوبية ظلت موجودة لزمن طويل قبل تحولهم إلى المسيحية واستمرت سائدة طوال العهد المسيحي هناك, ومسألة اتخاذ النوبيين عبيداً من جنسهم لم تحرج النوبيين أو تؤثر عليهم في أي شيء كما نحن اليوم، وذلك لأن النوبيين جميعهم قد تعودوا أن يعيشوا تحت الملك في مقام العبيد.

وقد أكد اليعقوبي وابن حوقل وأبو صالح أن التبادل بين المسلمين والنوبيين كان يتم على الحدود بين بلاد النوبة

[١٥٣] المرجع نفسه، ص ٣٠٣. (cf. OS, p. 642-643)
[١٥٤] راجع: البلاذري، كتاب فتوح البلدان، في مسعد، ص ٢٦-٢٧؛ ليدن ١٨٦٦، ص٢٨ (cf. OS, p. 81)؛ وابو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، كتاب الخراج، مخطوطة باريس رقم ٥٩٠٧، ص ١٧٢ (cf. OS, p. 105).
[١٥٥] المرجع نفسه، ص ٣٠٤. (cf. OS, p. 644)

ومصر في منطقة تسمي "القصر". ذكر سليم الأسواني أن منطقة القصر كان بها كنيسة ومدخل مقوس يُعتَبَر "بوابة الدخول إلى بلاد النوبة". هذا الوصف يتفق تماماً مع موقع كان يوجد جنوب فيلة قبل أن تغمر المنطقة مياه السد العالي. كان هناك حصن سماه "مونيريه دي بيلارد" (Monneret de Villard) "القصر" وهو مُطِلّ على النيل"[١٥٦]. وعلى الأرجح، هذا هو مكان تبادل "البقط". وفي عهد الفاطميين في مصر، تم تشييد "محراب تذكاري" بالقرب من منطقة "القصر". فسموه "مسجد الرديني" وهو مبني فوق أساس كنيسة قديمة، وهذا من شأنه يؤكد وجود "المدخل المقوس" أو "بوابة الدخول إلى بلاد النوبة".

وبالتأكيد، كانت فيلة في يد المسلمين منذ تولّي المسلمين على مصر، ولكن كان هناك مكان حيث هبطت قوارب النوبيين. كذلك أصبحت فيلة مكان المقابلة بين المسلمين والمسيحيين لفترة طويلة والوضع المثالي للعلاقات التجارية والثقافية.



الطرف الجنوبي للشلال الأول (من SNC)؛
الطول من الجنوب إلى الشمال: حوالي ١٠٠ كم
لاحظ جزيرة فيلة.

[١٥٦] تسمّت القرية الموجودة بالقرب من "القصر" ب "الباب". Cf. NM, I, p.17; II, pl. VIII

الفصل السابع

اندماج نوباتيا في المقرة

تسبب وجود الساسانيين في مصر (٦١٨ – ٦٢٨م) في حالة من عدم الاستقرار في نوباديا وتمثل في انتشار الفقر وانفلات الأمن، وإمكانية انقلابات عسكرية متتالية.

في ظل هذه الأحوال يبدو أن ملك دنقلا "كاليدوروت" أو سلفه قد انتهز حالة الضعف والفوضى بنوباديا وضمها إلى مملكة دنقلا، ويقول الدكتور قودليوسكي (W. Godlewski)[157] أن هذا الانصهار ربما يكون قد حدث بعد عام ٦٣٠م وقبل عام ٦٤١م.

أما الرأي الثاني[158]، وهو أقل احتمالا، أن يكون النوباديون أنفسهم قد أدركوا عدم مقدرتهم على مواجهة الغزو العربي، ولذلك دعوا ملك المقرة لتوحيد الدولتين تحت التاج في دنقلا، ويحتمل أن يكون قد حدث هذا بعد غارة عام ٦٤١م، أما فيما يختص بتاريخ ظهور المملكتين فإن النوباديين أنفسهم لم يذكروا أي شيء عن هذه الحادثة وضياع استقلالهم.

من الصحيح أن الآثار تعطينا بعض التلميحات، ولكنها بالطبع ليست دليلا قاطعا، ويقول الخبراء إن العديد من المباني العامة – مثل الكنائس – قد شيدت في نوباديا في الحقبة بين طرد الفرس (٦٨٢م) وأول غارة عربية ضد دنقلا في عام ٦٤١م.

مملكتان في بلاد النوبة

في حوالي سنة ٧٠٠م، كتب أبا مينا "سيرة إسحق" الذي كان بطريركا قبطيا (٦٨٩– ٦٩٢م). فنقرأ في هذا الكتاب أن إسحق كتب إلى ملك المقرة وملك "موروطانيا"[159] (لم يذكر اسميهما) وطلب منهما أن يعقدا اتفاقية سلام بينهم لأن كليهما مسيحيان. وسببُ إرسال هذا الخطاب هو أن ملك موريتانيا قد منع رسل ملك المقرة من

---

[157] Cf. W. Godlewski, The Rise of Makuria, Boston, 1998.

[158] Cf. Monneret, SNC, p. 80.

يقول مونيريه إن البعثات العربية ضد النوبة قد أضعفت نوباتيا أكثر بكثير من المقرة. ووقعت نوباتيا وحدها البقط وتحمل أعبائه. بالتالي، شعرت المقرة بالحماية ضد العرب، واستمرت حالة الحرب مع نوباتيا.

[١٥٩] ملاحظة المحقق: اسم موريتانيا يرجع إلى العهد الروماني حيث أطلق الرومان هذا الاسم على منطقة شمال إفريقيا كلها. وترى أملينو (Amélineau) أن الكلمة "موروطانيا" تشير هنا إلى البليميين.

Cf. E.Amélineau, Vie d'Isaac Patriarch d'Alexandrie, Paris 1890, p.33.

السفر عبر أراضيه إلى مصر لاستقبال أسقف كان قد رسمه البطريرك لمملكتهم, فالأمر أدى إلى نقص عدد الأساقفة في المقرة.

ويبدو من الوهلة الأولى أن مملكة المقرة تقع جنوبي نوباديا وشمالي مملكة علوة, بحيث إذا أراد أهل المقرة الحصول على أسقف، عليهم عبور أراضي موريتانيا (أي نوباديا)، التي كانت في حالة سلام مع مصر.

كتب ساويرس بن المقفع عن نفس الموضوع في "تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية القبطية" مع مزيد من الكفاءة. تحدث ابن المقفع عن خطاب أرسله البطريرك إلى ملك الحبشة وخطاب آخر إلى ملك النوبة, وهذا يعني وجود مملكتين فقط في تلك الحقبة، حيث أن الحبشة وهي اسم عام يطلق على مملكة علوة، أما "النوبة" فيشير إلى مملكة المقرة.[١٦٠]

ويري البروفيسور قودليوسكي أن الخطابَين اللذَين أرسلهما البطريرك إسحق (كما ذكر أبا مينا) قد كانا موجهين إلى ملك المقرة وملك علوة قبل هجوم العرب على دنقلا بخمسين سنة، فقد كانت علوة تحتاج إلى أساقفة، ولكن المقرة – التي كانت في عداوة معها - حاولت أن تمنع ذلك. والغرض هو أن المقرة – التي ما زالت تعتنق المذهب الخلقيدوني– أرادت أن تقلص من سلطة البطريركية القبطية في علوة، هذا بالإضافة إلى خطة المقرة للتوسيع جنوبا.

وقد ذكرنا أن البطريرك إسحق قد كتب خطابين قبل غارة عام ٦٤١م – أحدهما إلى ملك نوباديا والآخر إلى ملك المقرة وهذه هي القصة الكاملة كما وردت عن ساويرس بن المقفع.

"في تلك الأيام كتب البطرك [إسحق] إلى ملك الحبشة وملك النوبة، أن يصطلحا، ولا يكون بينهما سجس [أي نزاع]، وذلك لخلف [أي لخلاف] كان بينهما فسعى به قوما من أهل المكر إلى عبد العزيز [ولي مصر من سنة ٦٥هـ إلى ١٣٣هـ]، فغضب جدا وأنفذ من يحضره لقتله. فكتبوا [ك] الكتّاب كتبا غير الكتب، ودفعوها إلى الرسل الذي [ك] أنفذهم إلى الحبشة، وأخذوا تلك الكتب منهم، خوفا على البطرك. وإنما فعلوا هذا الأمر لئلا يلحق البيعة ضرر. ومن قبل أن يصل البطرك إلى الأمير عرّفوه أن الرسل هاهنا، ومعهم الكتب، فأنفذ سرعة طلبهم، وأخذ الكتب منهم. فلما وقف عليها لم يجد شيئا مما ذكر له. فسكن غضبه، وأنفذ للوقت، وأعاد البطرك إلى الإسكندرية، ولم يدعه بعد هذا يصعد إلى القبلة[١٦١]".

وربما يكون هناك شك إذا قبلنا الافتراض بأن الكتبة قد كتبوا اسم موريتانيا بدلا عن نوباديا للتمويه على الأمير, ولكن هذه خدعة طفولية ساذجة, ونحن حقيقة لا نعلم محتوى الخطابين الذَين تم التلاعب فيهما واستلمهما الأمير, ولكن يمكن أن نلاحظ أن كلا من البطريرك إسحق وساويرس يتحدثان عن مملكتين في النوبة.

الاندماج قبل ٦٣٨م

متى ولدت المملكة العظمى الجديدة الناتجة عن توحيد مملكتي المقرة ونوباديا؟ إذا أخذنا في الاعتبار دخول

---

[١٦٠] راجع: ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في مسعد، ص ٧٧-٧٨؛ بيروت ١٩١٤، ص ١٣١. (cf. OS, p. 38)

[١٦١] المرجع نفسه.

العرب إلى مصر عام ٦٣٨م ومنعهم البطاركة من التواصل مع الممالك المسيحية جنوبي مصر، وحالة السلام (البقط) القائمة بين دنقلا ومصر(٦٥٢م)، فإن هذا "الخطاب الخطير" قد كُتِب قبل عدة سنوات من الغارة العربية على دنقلا في عام ٦٤١م. ولا نعرف متى توفي الملك "كاليدوروت"، وعلى الأرجح، هناك ملك أو اثنان اعتلوا العرش في دنقلا بين كاليدوروت وميركوريوس الذي اعتلى العرش في عام ٦٩٧م.

الملك ميركوريوس

اثنان من حجر الأساس في كاتدرائية فرص ذات الخمس ممرات تحمل نقشا بتاريخ ٤٢٣ AM[١٦٢] (٧٠٧م) واسم واحد وهو "محب المسيح الملك ميركوريوس في السنة الحادية عشرة من جلوسه على العرش". وكذلك توجد نقوش أخرى من تافة بتاريخ ٤٢٧ AM (٧١٠م) عليها أيضا اسم ميركوريوس في السنة الثالثة عشرة من جلوسه على العرش[١٦٣]، ولم تذكر أي ملك آخر.

وفرص العاصمة السابقة لنوباديا (أو إبريم أحيانا) صارت مقرا لأبرخص يقوم بدور ممثل ملك دنقلا، وهذا يعني أن ميركوريوس قد اعتلى العرش في عام ٦٩٧م (أو نحو ذلك)، وهو الملك الوحيد الذي حكم المملكتين المتحدتين – المقرة ونوباديا (سابقا).

وحين تدشين الكاتدرائية كان الأبرخص "هو سيد مرقس المشهور النبيل العظيم الذي أحسن إدارة المملكة[١٦٤]". وكان أسقف (pròedros) فرص هو "أبا باولوس" كما ذكرنا من قبل. وكانت المحافظة (ἐπαρχία, eparchia)، هي الأكثر أهمية في كل مناطق المملكة نسبة لقربها الشديد من أراضي الإسلام، والأبرخص هو مسؤول عن حفظ السلام على الحدود المشتركة ومراقبة كل التواصل والاتصالات مع مصر. وواحدة من شارات أبرخص نوباديا هي خوذة بها قرنان (أو عدة قرون) كما توضح الصور التي تم اكتشافها في بعض الكنائس في نوباديا، أما اتحاد المملكتين المقرة ونوباديا فقد سماها الكتاب العرب "مملكة النوبة".

وقد اعتنق الملك ميركوريوس مذهب المونوفيزيين (مذهب الطبيعة الواحدة ليسوع المسيح)، وقد رأى بعض علماء الآثار أن المقرات الأسقفية كلها في بلاد النوبة انتقلت في تلك الفترة لسلطة البطريرك القبطي في الإسكندرية[١٦٥]. وهذا هو المرَجّح جدا لأن الملك كان يقوم بتعيين كل الذين يتم ترشيحهم ليكونوا أساقفة في مملكته.

---

[١٦٢] ملاحظة المحقق: (AM = Anno Martyrum) أي عصر الشهداء: عدّت كنيسة الإسكندرية السنوات من انضمام الإمبراطر الروماني ديوكلتيانوس في سنة ٢٨٤م، الذي أطلق أشد الضطهاضات ضد المسيحيين.

[١٦٣] ملاحظة المؤلف: وفقا لجاكوبيلسكي (Stefan Jakobielski: Faras III. A History of the Bishopric of Pachoras, p. 45) العام لنقش تافة كان الرابع عشر من ميركوريوس الملك.

[164] STEFAN JAKOBIELSKI, op.c., p. 45.

[165] Cf. SNC, p. 80-84.

زكريا "أبو الملوك"

إذا تركنا جانبا من تاريخ اعتلاء الملك ميركوريوس العرش، فإن كل المعلومات المتوفرة لدينا عنه وعن ابنه زكريا وردت إلينا في تاريخ سيرة البطريرك ميخائيل الأول (٧٤٤-٧٦٨م)، الذي دوّنه سكرتيره يوحنا الشماس فترة وجيزة بعد عام ٧٦٨م. وهو مصدر تاريخي موثوق به، ولكن لسوء الحظ سجّل حادثة واحدة فقط عن بلاد النوبة حيث قال:

"وقد اضترني الأمر إلى أن أذكر شيئًا يسيرًا، لا يجب الغفلة عنه [أي اضطرّني واجبي أن أذكر في إيجاز أمرًا لا يجب الغفلة عنه]، وذلك أنه كان ملك في بلد النوبة في فوفبلسا (بدون نقط في النص الأصلي) اسمه مرقوريوس، وكان يدعى قسطنطين الجديد، لأنه صار بأفعاله الجميلة كاحدى [ك] التلاميذ، ووهب له الرب ولدا اسمه زخريا [أي زكريا][١٦٦]".

لماذا أطلق على ميركوريوس لقب "قسطنطين الجديد"؟ ومن المحتمل أن الإمبراطور قسطنطين قد جعل المسيحية قانونية في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية ٣١٣م، وبالمقارنة فإن الملك ميركوريوس قد حول كنيسة المقرة من العقيدة الخلقيدونية (مذهب الطبيعتين) إلى سلطة بطريرك الإسكندرية المونوفيزي (مذهب الطبيعة الواحدة) كما ذكر المؤرخ فيما بعد:

"فلما مات مرقوريوس الملك، لم يختار [أي يختر] زخريا [أي زكريا] أن يكون ملك [أي ملكًا]، بل كان مشغول [أي مشغولاً] بكلام الله وخلاص [نفسه] فرفض المملكة. وتقدم قريب له اسمه سيمون، وكان أرتدكس، فسلك طريق مرقوريوس الجيدة. ومات سيمون فعمد زكريا إلى شاب شجاع من القصر اسمه إبراهيم، جعله ملكا، وكان متكبرا شريرا. وكان أسقف مدينة الملك يردعه ويعلّمه، فلا يلتفت إليه، ولأجل ذلك وقع بين الملك والأسقف خصومة. فكتب كتابا إلى الأب البطرك أنبا خايال [أي ميخائيل] يقول فيه ويقسم: «إنك إذا لم تقطع كيرياقوس الأسقف والا جعلت كورتي كلها تعبد الأوثان»، لأنه كتب عنه قولا محالا وشهادات زور. فلما وقف البطرك على ذلك وكتب له كتب سلامة فلم يرضى [أي يرض]، لكنه رجع كَتب كُتب [أي كُتبًا] أخرى أشرّ من الأول بشهود زور، وأنفذهم إلى الإسكندرية مع كيرياقوس الأسقف القديس. فجمع الأب الأساقفة وعمل سنودس بمدينة الإسكندرية. فلما اجتمعوا، أخرج الكتب، وقريت [أي قُرِئَت] ، فعلموا أن كل ما فيه مُحال [...] فسألوا الأب كيرياقوس أن يجلس في إحدى ديارات الإسكندرية، إلى أن يزول غضب الملك، فلم يجب إلى ذلك [...] واقسموا الذي أنفذه لهم الملك، وكان اسمه يونس [ك][١٦٧]".

وكان الأسقف كيرياقوس قد بلغ الثمانين عاماً عندما تم عزله من كرسي دنقلا، وقضى بقية عمره في أحد الأديرة في بلاد النوبة. وقد ذكر مؤرخ حياة البطريرك ميخائيل أن البلاد النوبية قد ضربها الجفاف وانتشر فيها الوبا عاماً بعد عام حتى أخذ السكان يذهبون إلى قبر كيرياقوس لكي يصلوا هناك نادمين على ما صنعوا به. عند هطل المطر وانقشع الوباء، وقد تأثر زكريا بهذه الخوارق فقام بنفي أبراهام إلى جزيرة نائية في النيل، وعيّن مركو

---

[١٦٦] يوحنا الشماس في تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في مسعد، ص ٧٩؛ بيروت ١٩١٤، ص١٨٣-١٨٤. (cf. OS, p. 40).

[١٦٧] المرجع نفسه، ص٨٠. (cf.OS, p. 41)

ملكا في محله.

وقد تسلسل أنصار مركوس إلى الجزيرة بغرض اغتيال أبراهام، ولكن أصدقاء أبراهام قاموا بكشف المؤامرة فقام[illegible] بخدعة مركوس وقتلوه وهو يصلي في الكنيسة. وقد دامت فترة ملكه ستة أشهر فقط، فقام زكريا بتعيين رجلا [illegible] قرياقوس ملكا، وقد سمي زكريا "بأبي الملوك" لأنه في فترة حياته قام بتعيين أربعة ملوك. وقد حكم الملوك الثلا[ثة] الأوائل لفترة قصيرة جدا، أما الرابع فقد حكم فترة طويلة توفي خلالها زكريا. ولا نعرف بالضبط متى توفي زكريا [illegible] الملك، ولكنه كان على قيد الحياة عندما كتب يوحنا الشماس سيرة البطريرك.

الملك قرياقوس

وقد كان قرياقوس ملكا على دنقلا قبل سقوط الدولة الأموية (٧٥٠م)، حيث أنه قد قاد جيشا ضد الأمير الأموي في مصر، وقبيل سقوط دولتهم كان الأمويون في حاجة ماسة إلى المال مما دعى الأمير الأموي في مصر إلى فرض المزيد من الضرائب، وقد تم انتداب البطريرك القبطي ليشرف على جمع مبلغ محدد من أتباعه، وقد ذهب يستحدي الناس ولكنه لم يوفق في جمع المبلغ المطلوب. وعليه فقد أرسل إلى السجن حيث ذهب معه يوحنا الشماس، وقد تأثر الملك قرياقوس بهذه الحادثة وطلب من الأمير أن يخلي سبيل البطريرك، ولكن الأمير رفض الطلب فقام الملك بإعداد جيشه وسار نحو مصر وقبل أن يصل الجيش إلى الفسطاط، قام الملك بإرسال أبرخص نوباديا إلى الأمير مجددا طلبه بإطلاق سراح البطريرك، ولكن الأمير أودع الحاكم السجن. ومن ثم قام الملك بحصار الفسطاط. ولم يكن الأمير مستعدا لمقاومة الحصار، وقد توصل إلى اتفاق مع النوبيين ليحمي المدينة من الهجوم والتخريب. وقد كتب يوحنا الشماس عن هذا الأمر، وبالتالي نقلا عن شاهد عيان:

"سار الملك [قرياقوس] من بلاد النوبة يريد ديار مصر، في عسكر عظيم، فيه مائة ألف فارس، ومائة ألف جمل. ولقد شاهد من أخبرنا بعينه، أن الخيل الذي تحتهم كانت تقاتل بأيديها ورجالها في الحرب، كما تقاتل فرسانها، وكانوا خيل قصار [أي خيلاً قصارًا] مثل الحمير. فلما قربوا إلى مصر ليسبوها، في البركة المعروفة إلى اليوم ببركة الحبش، نهبوا وقتلوا المسلمين، وقد كانوا فعلوا ذلك بمسلمي الصعيد. وكان الملك قبل وصوله، إلى مصر قد سيّر رسول اسمه الأبرخس [أي الأبرخص]، من كبراء المملكة، إلى عبد المالك يأمر أن يطلق البطرك، فأخذه عبيد الملك واعتقلوه مع البطرك. فلما علم بمجئ الملك ووصوله إلى مصر، ولم يكن له قدرة على محاربته، وخاف منه جدا، وأطلق رسوله الأبرخص من السجن. وخرج في لقاء الملك، بعد أن قرر معه واستحلفه أن يرده وعساكره إلى بلاده، ولا يدعه يتقدّم إلى حصونه، ولا يحاصره[١٦٨]".

وقد رأى بعض المؤرخين أن هدف الأمير الأساسي، هو أن يجبر البطريرك ليقنع ملك النوبة بالعودة إلى أرضه، دون أن يحدث المزيد من الأضرار، وأن يمنعه من محالفة البيزنطيين لإعادة احتلال الإسكندرية.

[١٦٨] المرجع نفسه، ص ٨١-٨٢.

"وكان المسلمين [أي المسلمون] يسرقوا [أي يسرقون] النوبة ويبيعوهم [أي يبيعونهم] بمصر، فعاد بعسكره بعد أن نهب من المسلمين شيء كثير [أي شيئًا كثيرًا] لأنه لما أعلمه الأبرخس أن البطرك قد أفرج عنه وأحسن عبد الملك إليه، وهو يامره أن يعود، ويبارك عليه [أي وهو نفسه دعا النوبيين إلى العودة لوطنهم بمباركته][١٦٩]".

مسألة اختطاف النوبيين الذي ذكرها الليث أعلاه قد وردت أيضا من مصدر آخر مستقل. وإذا تركنا جانب التخمينات المبالغ فيها بالنسبة لعدد النوبيين المشتركين في الحملة التأديبية، فإن مرور الجيش عبر مصر قد ترك دون شك انطباعا عميقاً في كافة أنحاء الشرق الأوسط، لأن هذه هي المرة الأولى بعد الفرعون الأسود بِعَنخي (Piankhi) (٧٣٠ ق. م.) قد جاء بقوات "كوش". من ثم أصبحت النوبة معتبرة كسلطة عظيمة غير معروفة تعيش داخل إفريقيا السوداء، وكان البطريرك القبطي يعتبر ملك النوبة حاميهم ومدافعًا عنهم. وقد ذكر المؤرخ القبطي – بكل الرضا– أن ملك النوبيين يدين بالولاء للبطريرك القبطي، وقد ذكر بالصدفة نظام الممالك والكنيسة النوبية.

"كان تحت يد كرياقوس ملك النوبة، ثلثة [أي ثلاثة] عشر ملكا، ضابطين المملكة والبلاد. وكان ملك الفره [أي المقرة] الحبشي ارتودكس, وهو الملك العظيم، الذي نزل عليه التاج من السماء، وملك إلى أقاصي الأرض القبلية، لأنه الملك اليوناني رابع ملوك الأرض[١٧٠] لا يقاومه مملكة وملك يروك [أي لا تقف ضده أي من المماك الأخرى بل يستقبله ملوكهم عندما يمر بارضهم]. وهو تحت سلطان مرقس الإنجيلي حكم بطرك اليعاقبة عليه بمصر، وعلى ملوك الحبش والنوبة جميعهم. وعنده في بلاده أسقف أرتودكس، قسمه [أي رسمه] البطرك مطران [مطرانا]. فصار يقسم له الأساقفة والكهنة في تلك الكورة. وإذا مات المطران أقسم لهم بطرك الإسكندرية غيره ممن يختاره ويقسمه لهم[١٧١]".

إن وجود ثلاثة عشر ملكا تحت ملك دنقلا العظيم هو دليل قاطع على أن النظام الإقطاعي موجود في بلاد النوبة منذ أقدم العصور. والملك العظيم الذي "نزل عليه التاج من السماء" يتمتع باحترام كل الناس بموجب القرابة المقدسة واسعة الانتشار في وادي النيل، وإن سجود كل الناس وتقبيل قدمه ليست جزءا من الاحتفاء به فقط، بل هي أيضا لإظهار الولاء والطاعة له. أما لقب "الملك اليوناني" فقد جاءت الإشارة إلى واحدة من الممالك الأربعة الكتابية التي وصفتها رؤية دانيال في الكتاب المقدس (دانيال ٧: ٢٣). ومن المفترض أن يحكم ملك دنقلا على الحبش كلهم (باليوناني: Aithiopes)، بحسب محدودية المعرفة الجغرافية في ذلك الوقت. وقد كانت كلمة "النوبة" مرادفة للجنس الأسود. وكل الناس الذين يعيشون داخل إفريقيا مصنفون إنهم "نوبة".

وقد ذكر يوحنا الشماس كلا من ملك الحبشة وملك النوبة وأن الاثنين يخضعان لسلطة البطريرك القبطي. ولم يعرف بالضبط إن كانت كلمة "الحبشة" المقصود بها أثيوبيا اليوم أم مملكة علوة! ومهما يكن من أمر فإنه بحلول

[١٦٩] المرجع نفسه، ص ٨٢-٨٣.
[١٧٠] راجع الكتاب المقدس، سفر دانيال ٧: ١٧؛ ٨: ٢١؛ ١٠: ٢٠؛ ١١: ٢،٥.
[١٧١] يوحنا الشماس في مسعد، ص ٨٣؛ ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، بيروت ١٩١٤، ص ١٨٦. (cf. OS, p. 44-45).

منتصف القرن الثامن الميلادي فإن كل ممالك النوبة من أسوان إلى سوبا تنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية القبطية في الإسكندرية.

القوانين الكنسية العربية/النيقيّة

يعتقد –خطأ- أن مجموعة من ثمانين قانونا كنسيا قد أصدرها مجمع نيقيا عام ٣٢٥م وترجمت إلى اللغة العربية خلال الفترة بين عامي ٧٠٠- ٨٠٠م، وقد عرفت باسم "القوانين الكنسية العربية/النيقيّة" وبالرغم من كون هذه القوانين مُزيّفة، إلا إنها انتشرت على نطاق واسع وطبقت في الكنائس الشرقية. فالقانون رقم (٣٦) ينظم العلاقة بين مطران الكنيسة "الأثيوبية" والبطريرك القبطي في الإسكندرية, يقول القانون:

"القانون ٣٦: يجب على الحبش عدم إيجاد أو انتخاب بطريرك وذلك لأن أسقفهم نفسه، لا بد أن يكون تحت سلطة كل من يكون على رأس كرسي الإسكندرية. قد يكون في أوساطهم شخص في مقام البطريرك، والذي يجب أن يسمى "كاثوليكوس"، وليس له الحق في خلق أسقفيات كما للبطريرك، لأنه لم يبلغ درجة الشرف أو امتلاك السلطة لذلك. وإذا حدث أن اجتمع مجمع مسكوني وكان أسقف الحبشة من ضمن الحضور، يجب أن يجلس على المكان السابع بعد أسقف سيلوكية [Ctesiphon ، حالياً بغداد].

وإذا منح السلطة لخلق أساقفة في منطقته فإنه لا يسمح له بتعيين الأساقفة – وكل من يخالف هذا الأمر فإن المجمع السنودس سيقوم بجرمه الكنسي"[١٧٢].

ومازال هناك شكٌّ فيما إذا كانت كلمة الحبش تعني أثيوبيا أم النوبة. وقد رجح البولنديون (Bollandists)[١٧٣] التفسير القائل بأن الحبشة المقصود بها النوبيون بحجة أن سلطة بطريرك الإسكندرية القبطي على الكنيسة الأثيوبية كانت مقبولة بدون نزاع في القرن الثامن، بينما قد لا تكون كذلك في بلاد النوبة. وإذا قبلنا هذا التفسير يمكن الاستنتاج أن القانون الكنسي رقم (٣٦) يرسخ سلطة بطريرك الإسكندرية القبطي على بعض الأجزاء من بلاد النوبة، ويمكن أيضا أن نعيد للأذهان حقيقة أن مطران الكنيسة الأثيوبية كان دائما من الجنسية المصرية حتى عام ١٩٤٧م، بينما كان هناك في بلاد النوبة أساقفة من الجنسية النوبية حملوا لقب "مطران".

هروب ما تبقي من الأمويين

في عام ٧٥٠م أسقط العباسيون دولة الأمويين في دمشق وهرب مروان، آخر خلفاء بني أمية، إلى مصر، ولكنه توفي في إحدى المعارك. وقد فرّ ابناه عبد الله وعبيد الله مع بعض أفراد الأسرة وأتباع قليلين إلى بلاد النوبة على أمل

---

[172] G.VANTINI, The excavations at Faras, p. 62.

[١٧٣] ملاحظة المحقق: Bollandists هي رابطة مؤرخين وعلماء اللغة الذين منذ أوائل القرن السابع عشر درسوا سير القديسين وعبادة القديسين في المسيحية. وسميت كذلك بسبب (Jean Bolland) يوحنا بولاند (١٥٩٦-١٦٦٥م).

أن يقيموا دولة لهم هناك، ويستخدمونها كقاعدة ينطلقون منها لمعارضة العباسيين. وقد بعثوا مراسيل "لملك النوبة"[١٧٤] وطلبوا منه السماح لهم بالإقامة في بلاده. وقد خرج الملك مع مجموعة كبيرة من جنوده لمقابلتهم تحت خيمتهم، وقد استقبله عبد الله في خيمة فخمة وفرشها بالسجاد العجمي الذي استجلب خصيصا لهذه المناسبة. غير أن الملك ذمّ الدولة الأموية وأمر الأميرَين بمغادرة بلاده بعد انتهاء الأيام الثلاثة التي تمنح للضيف حسب العادة المتبعة.

وعلى الأرجح أن الملك قرياقوس هو الذي استقبل ابني مروان. وإن مسألة الهروب والدرس الأخلاقي الذي تلقّياه من الملك قد أخجلت الأمويين وربما تكون هذه مجرد قصة مختلقة من بعض الكتاب لإرضاء العباسيين، ومع هذا فإن هذه الرواية لا يمكن إلغاؤها بالكامل لأنها تحتوي على مرجعيات جغرافية وتاريخية لا يمكن اختلاقها في بغداد. أدناه قصة حكاها عبد الله بن مروان بين يدي الخليفة المنصور كما ورد في كتاب ابن قتيبة الدينوري:

"المنصور العباسي سمر ذات ليلة، فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات، وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله عز وجل ومساخطه، جهلا منهم باستدراج الله تعالى، وأمنا من مكره تعالى، فسلبهم الله تعالى الملك والعز، ونقل عنهم النعمة، فقال له صالح بن علي[١٧٥]: «يا أمير المؤمنين، إن عبيد الله بن مروان دخل أرض النوبة هاربا ممّن أتبعه، سأل ملك النوبة عنهم فأخبر، فركب إلى عبيد الله، فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه وأزعجه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة، ويسأله عن ذلك»؛ فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة.

فقال: يا أمير المؤمنين، قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي فافترشته بها، وأقمت ثلاثا، فأتاني ملك النوبة، وقد خبر أمرنا، فدخل عليَّ رجل طوال، أقنى، حسن الوجه، فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟! فقال: إني مَلِك، وحق على كل مَلِك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله؛ ثم أقبل عليَّ فقال لي: لِمَ تشربون الخمور وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وسفهاؤنا؛ قال: فلِمَ تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: يفعل ذلك جهالنا؛ قال: فلم تلبسون الديباج والحرير، وتستعملون الذهب والفضة، وهو محرم عليكم؟ فقلت: زال عنا الملك، وقل أنصارنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا؛ فاطرق مليأ، وجعل يقلب يده وينكت في الأرض، ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم عليكم، وركبتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله تعالى العز وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله تعالى فيكم نقمة لم تبلغ نهايتها، وأخاف أن يحل العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاث، فتزودوا ما احتجتم إليه، وارتحلوا عن بلدي؛ ففعلتُ ذلك"[١٧٦].

وقد روى ابن إياس (١٤٤٨- ١٥٤٢م) القصة نفسها مع إضافة بعض التفاصيل الخاصة ببلاد النوبة:

"فلما وصل [عبيد الله] هناك وجد مدائن خرابا و بها قصور محكمة البناء، فنزل في بعض تلك القصور، وأمر غلامه بكنسها

---

[١٧٤] وربما كان الملك هنا أبرخص نوباديا.

[١٧٥] هو قائد الجيش العباسي الذي طارد الأمويين.

[١٧٦] ابن قتيبة الدينوري، تأويل مختلف الحديث في:

H. F. WÜSTENFELD, Ibn Coteibas Handbuch der Geschichte, Göttingen 1850, p. 248-249. Cf. OS, p. 65-67.

فكنست [...] ثم قال لبعض غلمانه: «أمض إلى ملك النوبة وخذ لي منه أمانا على نفسي من القتل» [...] فلما دخل [قاصد ملك النوبة] عليه قال له إن الملك يقرئك السلام ويقول لك: «أجئت إليه محاربا أم مستجيرا؟» [...] رجع [قاصد ملك النوبة] وقال له: «إن الملك قادم عليك في هذه الساعة». فقال عبيد الله لغلمانه: «افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة» [...] فقام الأمير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر إلى ملك النوبة فإذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد، وعليه بردان قد اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ومعه عشرة من السودان حوله ومعه حراب بأسنة تلمع"[177].

وقد وجّه ملك النوبة أسئلة واستفسارات أكثر من تلك التي أوردها ابن قتيبة وابن إياس:

"وبلغنا أنك لما وليّت على مصر، كنت تخرج إلى الصيد وتكلّف أهل القرى ما لا يطيقون، وتفسدون الزرع على الناس، وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى، وكل هذا لأجل كركي تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية"[178].

وذكر اليعقوبي معاناة المروانيين بعد أن غادروا بلاد النوبة من حيث توجهوا إلى الشرق ودخلوا أراضي البجة وتعرضوا لهجوم عنيف. وقُتِلَ عبيد الله على يد عصابة من الأحباش الذين سلبوا ممتلكات من كان مع عبيد الله وأخلوا سبيلهم. وتاه أتباع عبيد الله في الصحراء كالمعتوهين حفاة وعراة حتى هلكوا من العطش ويقال إن أحدهم تبول في كف يده وشرب البول، وأخيرا تمكن الناجون منهم باللحاق بالأمير عبد الله بن مروان الذي تغلب على الظمأ والتعب وكان معه مجموعة من النساء وكلهن حفاة وعراة وقد تقرحت أقدامهن من السير وتشققت شفاههن من شرب البول وأخيراً وصلوا إلى "المانديب" ومكثوا فيها شهرا، ثم غادروا إلى مكة متنكرين في زيّ حمالين[179].

النسخة الأصلية من اتفاقية البقط

معلومات إضافية عن العلاقات بين بلاد النوبة ومصر بعد الحملة التأديبية التي قادها الملك قيرياكوس وبعد سقوط دولة بني أمية وردت في ورق البَرْدِي الذي وجد في إبريم عام ١٩٧٣م. وكانت تلك المعلومات مكتوبة باللغة العربية بتاريخ يوم الأحد ١٧/رجب ١٤١هـ الموافق ٢٥ نوفمبر ٧٥٨م. وربما هذه هي أقدم مخطوطة عربية اكتشفت حتى الآن. وقد وجدت مع النص العربي أجزاء من مخطوطة قبطية متعلقة بذات الموضوع، مما دعى المكتشفين إلى أن يميلوا إلى الرأي بأن الخطاب القادم من مصر إلى ملك النوبة تتم ترجمته في إبريم. ونخلص من ذلك أيضا إلى أنّ اللغة القبطية وليست الإغريقية –كانت هي لغة المراسلات مع البلاط الملكي في دنقلا.

وقد أرسل أمير مصر، موسى بن كعب، رسالة[180] إلى ملك النوبة ميركرياكوس (قيرياكوس) باللغة العربية. وبعد التحيات التقليدية دلف الأمير إلى تذكير الملك بالبقط الذي تم تأكيده بالقسم. وقد أضاف ابن كعب في الرسالة

[177] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٠م، م١، ص١٨؛ في مسعد، ص ٣٨٨. (cf. OS, p. 776)
[178] المرجع نفسه، ص١٩؛ في مسعد، ص ٣٨٩. (cf. OS, p. 776-777)
[179] راجع: تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٩٦٠، م ٢، ص ٣٤٧-٣٤٨.
[180] ملاحظة المؤلف: نختصر هنا محتويات الرسالة ويوجد النص الكامل في:. J.M. Plumley, JEA, 61, 1975, p. 241-245

أن شهادة الزور هي مخالفة خطيرة وسط الناس مهما كانت دياناتهم, ثم ذكر أن المسلمين قد أوفوا بالتزاماتهم ولكن النوبيين حنثوا, وقد ذكر أمثلة لذلك حيث إن العبيد التابعين للمسلمين هربوا إلى بلاد النوبة، ولم تتم إعادتهم كما اتفق عليه. برغم المذكرات العديدة التي أرسلت في هذا الخصوص إلى "النائب" (أي الأبرحص). كذلك بعض التجار المسلمين الذين ذهبوا من مصر إلى بلاد النوبة ولم يعودوا، والراجح أنهم قد اعتقلوا هناك. وطلب ابن كعب من الملك أن يعيد هؤلاء التجار دون تأخير، إذا كانوا أحياء، مع كل ممتلكاتهم, أما إذا كانوا قد قتلوا فيجب إرسال ممتلكاتهم مع دية قدرها ألف دينار.

وأخيرا ألحّ الأمير على الملك أن يرسل البقط الذي حان وقت استحقاقه مع كافة المتأخرات عن السنين الماضية (ولكنه لم يحدد عدد السنين), وقد أعاد تذكير الملك بأن يكون العبيد أصحاء وأشداء وألا يكون بينهم أعرج أو أعور أو شخص طاعن في السن وضعيف البنية, وهدّد الملكَ بأنه إذا لم ينفذ هذه الالتزامات ربما ينزل حكم الله عليه (أي الحرب) وقال: "إذا لم تطع فإن لي رأي بيني وبينك إن شاء الله".

هذه الوثيقة تؤكد صيغة البقط الأولى والتي عرفت – قبل هذا الاكتشاف – من روايات المؤرخين العرب في القرن التاسع الميلادي والتي تركز على معلومات شفهية, كما توضح أيضا بأن العلاقات بين دنقلا ومصر كانت تتوتر من حين لآخر إن لم تكن عدائية مستمرة.

هناك معلومات قليلة جدا عن العلاقة بين النوبيين والعرب في الفترة من عام ٧٥٨م وحتى خلافة المأمون (٨١٣-٨٣٣م). وكانت هناك غارة على بلاد النوبة قادها عبد أعلى بن حامد تحت حكم يزيد بن حاتم (٧٦١-٧٦٩م) كما ذكر ابن الفرات، وفي عهد الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥م) تمت مراجعة البقط وصار يدفع مرة كل ثلاث سنوات.

ويبدو أن العلاقة بين الكنيسة الملكانية والخلافة قد تحسنت في عهد الخليفة المهدي (٧٨٦-٨٠٩م)، بحيث أن هارون الرشيد طلب من بطريرك الإسكندرية الملكاني بلاتيانوس، والذي كان طبيبا، أن يحضر إلى بغداد لعلاج واحدة من خادمات الخليفة, وقد نجح البطريرك في ذلك. فأمر الخليفة بإعادة الكنائس التي أخذها الأقباط من الملكانيين في مصر إلى أصحابها السابقين.

ولما صار المأمون بن هارون الرشيد خليفة, طلب من البطريرك اليعقوبي بأنطاكية ديونيسيوس من تل مهر (Dionisius of Tell-Mahre)، وبطريرك الإسكندرية يوسف أن يتوسطا لإنهاء ثورة الأقباط الباشمور (Bashmurite) في مصر. وبالرغم من ذلك، فإن العلاقات بين النوبيين والمسلمين قد ساءت أثناء خلافة المأمون

أما الآنية الفخارية التي صنعت في مصر في تلك الفترة والتي تم اكتشافها في بلاد النوبة تشير إلى تدهور مل في المستوردات المصرية في بداية العصر العباسي. وقد أدى هذا إلى تطور المهن المحلية.

الفصل الثامن

نشأة الملك قرْقي[181] الأول

لا نعرف متى مات الملك قرياقوس أومن خلفه مباشرةً على العرش. وبنهاية القرن الثامن أو بداية التاسع توالى على عرش دنقلا ملكان هما ميخائيل ويوهانس.

ومصادرنا الموثوق بها عن النوبة في القرن التاسع تتمثل في اليعقوبي، والطبري، وابن حوقل، وسليم الأسواني من مناطق العرب، وساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين بالإضافة إلى ذائع الصيت أبو صالح الأرمني (وهو قبطي اسمه أبو المكارم)، وأيضا ميخائيل السوري من المسيحيين. سافر كل من ابن حوقل وسليم إلى النوبة حيث جمعا معلوماتهما، أما ساويرس وأبو صالح فقد اقتبسا من الوثائق القبطية، وبالنسبة لميخائيل السوري فقد كان مصدره وقائع ديونيسيوس من تل مهري (Dionisius of Tell-Mahre)(ت. ٨٤٥م).

الحرب الطاحنة التي دارت رحاها بين الأمين وشقيقه المأمون في مصر بعد سقوط عرش والدهما هارون الرشيد استمرت حتى وفاة المأمون (في عام ٨٣٣م). وخلال الأعوام الأربعة عشر الأخيرة من خلافة المأمون تدهورت الأوضاع إلى درجة توقفت معها كل سبل التواصل والتبادل التجاري بين مصر وبلاد النوبة. وحاول البطريك القبطي الجديد يوسف (يوساب) (٨٣٠-٨٤٩م) -بعد وقت قصير من انتخابه- إرسال رسائل إلى ملوك النوبة، ولكنه فشل. انتهز ملك دنقلا وزعيم البجة فرصة الاضطرابات التي عمت مصر للتوقف عن دفع البقط اعتبارا من عام ٨٢٢م، كما دخلوا إلى مصر بغاية السلب والنهب.

توفي المأمون سنة ٨٣٣م فاستولى شقيقه إبراهيم المعتصم على الخلافة. وكانت مهمة المعتصم الأولى استعادة النظام، وقد وضع حراس على الطرق المؤدية إلى الحبشة والنوبة[182]. ثم بعث رسولا إلى ملك دنقلا طالبا منه دفع البقط للأربعة عشر عاما كديون[183].

لاحظ ميخائيل السوري أن أحد أسباب الاضطرابات كان احتقار العباسيين للنوبيين.

---

[181] ملاحظة المؤلف: اسم الملك في النص السوري لتاريخ ميخائيل هو "جورجي" (Georgi). انظر:
Jean-Baptiste Chabot (ed.), Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite d'Antiche (1166-1199), Paris 1899-1905.
ويكتب الأسواني ومؤرخون آخر من العرب "قورقي"، و"قرقي"، و"قيرقي"؛ ويكتب ساويرس جرجه. فيبدو أن النوبيين نطقوا ب"قُرقَي". ملك قرقي النوبة من ٨٧٢ إلى ٨٩٢م.

[182] راجع ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في مسعد، ص٨٤. (cf. OS, p. 193; PO 10, p. 503-512)

[183] ملاحظة المؤلف: فرضت ضريبة البقط مرة كل ثلاثة أعوام أيام الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥م)، إلا أن الأحداث هنا تشير إلى أن المعتصم قد فرضها كل عام.

"وعلاوة على ذلك، فإن تعليق دفع ضريبة البقط أدى إلى اتساع إمبراطورية الطايوى (tayaye-العرب)[184] الذين قللوا النوبيين وحطوا من قدرهم. فقد توقفت كل تلك الترتيبات فالنوبيون لم يحافظوا على تقليدهم القاضي بإرسال أشياء إلى العرب، وهؤلاء من جانبهم لم يرسلوا ما عليهم إلى النوبة[185]".

على الأرجح كان ملك النوبة في تلك الأثناء زكريا إسرائيل بن يوهانس. وقد صحبت المطالبة بالبقط بعض التهديدات: "أرسلوا إليّ الهدايا كما جرت العادة عن كل الأعوام السابقة وإن لم تفعلوا فسأرسل إليكم الطايوى ليمحوكم أنتم وبلادكم من الوجود[186]".

بدأ زكريا فترة حكمه على النوبة قبل مدة قصيرة من وصول مبعوث الخليفة إليه، وكان ذلك في وقت ما بين ٨٣٤-٨٣٥م، وللحقيقة فقد التقى مبعوث الخليفة بملك آخر غير الذي بعث إليه. لا يمكننا أن نجزم بأن الملك الذي سبق زكريا مباشرة كان يوهانس المذكور في اثنين من الوثائق القبطية "كالملك الحاكم على كل منطقة الحبشة من تيليموارا (Tilimauara) وحتى قصر بيلاك (قلية)". مونيريه (Monneret)[187] يعتقد أن تيليموارا، رغم أنها غير معروفة في وقتنا الحاضر، كانت مكانا ما ضمن مملكة علوة أو بالقرب منها، لذا فإن مملكة يوهانس قد ضمت إليها مملكة دنقلا كلها.

ولعل ما يدعو إلى الاهتمام إنه يرجح أن زكريا تولى عرش دنقلا بعد انقلاب سبّب تغيير السلالة الملكية. بالرغم من انتمائه لواحدة من الأسر الرئيسية في المملكة، إلا إنه اعتبر دماء غير ملكية مما يعني أنه لم تكن لديه أي صفة شرعية في المطالبة بالعرش. لذا فقد كان لزاما عليه منذ بواكير فترة حكمه أن يحارب المتمردين الذين أطلق عليهم المؤرخون "البَربَر". ويرجح أنهم لم يكونوا من أصل نوبي أو ربما كانوا قسما من النوبيين الذين احتجوا لاغتصاب العرش من قبل زكريا. ونسبة لعدم توفر الاستقرار في دنقلا، فإن زكريا لم يستطع أن يتركها تتعرض لهجمات مباغته وطويلة الأمد.

"حينما وصل المبعوث، وجد أن ملك النابادوس (نوباديا) قد مات، وأن المملكة في تلك الأثناء قد حكمها أمير يدعى زكريا المنحدر من سلالة غير ملكية، مما يعني عدم أهليته القانونية في أن يصبح ملكا، إلا أنه قد صدف أنه كان لديه ابن كانت أمه من سلالة ملكية، وكان ذلك الابن يدعى جورجي[188]".

نصح ملك النوبة البطريرك يوسف - الذي تلقى رسالة من الخليفة يطالبه فيها بدفع البقط- بأن يدفعها:

---

[184] ملاحظة المحقق: أطلق الأراميون والإيرانيون على العرب اسم (طايوى = tayaye) نسبة إلى قبيلة "طي".

[185] ميخائيل السوري في:
Jean-Baptiste Chabot (ed.), Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite d'Antiche (1166-1199), Paris 1899-1905, vol. III, p. 90; OS, p. 316.

[186] المرجع نفسه، ص ٣١٧.

[187] Cf. SNC, p. 101.

[188] OS, p. 317 .

"ويجب الآن يا أحبائي أن تتموا ما يجب عليكم لهؤلاء الرجال"[189].

تشاور زكريا مع ابنه قرقي حول الأمر: "ما الذي أصنع فيما التمس مني الملك من يجتمع بقط أربعة عشر سنة، أنفس أنفذهم إليه، ولا أتمكن من مفارقة كرسي لئلا يملكوا البربر المخالفين لي"[190].

كان رد الفعل الأول للأمير المتوج أن يثور على المسلمين ويستعد لمحاربتهم. كان والده أكثر حكمة فقال له: "هذا (البقط) شيء رآه السلف من آبائنا صوابا، وأخشى أن يفضي هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين"[191].

جعل الأب وابنه يزنان الأمور من جميع أوجهها إلى أن قرر الأب أن يذهب قرقي إلى بغداد ليناقش الأمر مع الخليفة. وكان هنالك هدف آخر خفي من تلك الرحلة، وهو التجسس على القوى الفعلية للخليفة قبل مهاجمته. "غير أني أوجهك إلى ملكهم رسولا، فأنت ترى حالنا وحالهم فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة وإلا سألته الإحسان إلينا"[192].

قال زكريا لمبعوث الخليفة: "لا أريد أن أبرم معاهدة بالرسائل؛ سأبعث بابني إلى ملككم ليقدم له فروض الولاء والاحترام"[193].

علم الخليفة بقرار ملك النوبة فمنحه الإذن، وعلى غرار العادات النوبية كان يجب أن يتوج قرقي (ملك النوبة) قبل مغادرته لتمثيل بلاده. يقول ساويرس إن زكريا "أحضر ولده الأكبر، اسمه جرجه (قرقي)، وضرب بالبوق، وجعل منادى ينادي أنه الملك بعدي"[194].

ويضيف ميخائيل السوري: "تم تتويجه بالفعل بينما استمر والده في حكم المملكة حتى كبر واشتد عوده"[195].

كانت تلك التفاصيل أجزاء من أعراف التتويج في العرش النوبي. وبحسب المقريزي انضم ملك البجة إلى الملك قرقي في رحلته حيث أن الاثنين واجها مشكلة في التعاطي مع الخليفة[196]. وذلك مرجعه إلى أن البجة أوقفوا دفع البقط لأربعة عشر عاما متتالية.

الملك قرقي في بغداد

غادر قرقي بغداد في وقت ما من صيف العام ٨٣٥م. وقد دوّن المؤرخون المسيحيون تفاصيل الرحلة وكونها كانت ربما الحالة الأولى من نوعها التي يعبر فيها ملك مسيحي بلاد الإسلام في زيارة لدولة مسلمة تحت حماية

[189] ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في مسعد، ص ٨٤. (cf. OS, p. 193).
[190] المرجع نفسه، ص ٨٥. (cf. OS, p. 194).
[191] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، في مسعد، ص ٣٠٥. (cf.OS, p. 644).
[192] المرجع نفسه.
[193] ميخائيل السوري، في (OS, p. 317).
[194] ساويرس، في مسعد، ص ٨٥. (cf. OS, p. 194).
[195] ميخائيل السوري، في (OS, p. 317).
[196] راجع: المقريزي، في مسعد، ص ٣٠٥. (cf. OS, p. 645).

الخليفة الرسمية، فقد كان حدثا غير مسبوق تزايدت معه شعبية قرقي لدى المسيحيين وحبهم له في كل البلدان التي عبرها أثناء رحلته.

كان الوقت شتاء حينما سافر قرقي عبر فلسطين وسوريا. مات اثنان من الأساقفة وأعضاء آخرون من حاشية الملك بسبب البرد. رغم أنه لا توجد أي إشارة واضحة لزيارة الملك قرقي إلى أورشليم، إلا أن واحدًا من رهبان بونيفاسيوس كتب في سيرة القديس أنهم رأوا في أورشليم "رهبانا من الحبشة جنوب مصر". وفي كالينيس (رقّة، Callinice) في الجزيرة السورية، كتب الملك إلى بطريرك أنطاكية اليعقوبي ديونيسيوس من تل مهري طالبا أن يرافقه حتى بغداد. ورد البطريرك أنه لا يسمح لأحد بالسفر دون إذن الخليفة.

"لما علم أبو إسحق [أي المعتصم] بمغادرة الخليفة ووصوله إلى الفسطاط، كتب إلى حكام مصر ليزودوه بالجمال التي قد يحتاج إليها لنقل أمتعته، وأن يمنح أيضا ثلاثين دينارا كل يوم كمصروف، وأن يخرج لاستقباله رئيس كل مدينة باستقبال تشريفي ملكي، وعندما وصل الأمير إلى كالينيس قدم أمير الجزيرة للقائه ورافقه الطايوى والمسيحيون ليشهدوا ذلك الحدث الفريد في بلادهم.

امتطى الأمير جملا يزينه سرج مختلف من نوعه. كانت هنالك مظلة على شكل قبة بصليب ذهبي مثبت في أعلاها. وكان الأمير يحمل صولجانا بيدٍ وصليبا بالأخرى كما اصطف شبان نوبيون في مشية عسكرية يحملون صلبانا أيضا، وأمام الأمير ركب أسقف يحمل أيضا صليبا بيده. كل تلك الصلبان كانت مصنوعة من الذهب الخالص.

أما بقية الفرسان والعبيد فقد كانوا خلف الأمير أو محيطين به، وجميعهم كانوا من السود. مات أسقفان ممن غادروا معه في رحلته جراء الثلوج والبرد القارس اللذين لم يألفوهما في بلادهم. توقف الركب بكالينيس في عيد الميلاد المجيد [في السابع من يناير]. دخل الأمير بغداد تحت حراسة مشددة من قبل جنود الخليفة وبقي هنالك من شباط[197] وحتى آب [أي شهر أغسطس]، وقد تسبب في ذلك التأخير ما يلي: كان أحد النوبيين المكلفين بتنظيم استقباله في بلاد الطايوى [أي خارج مناطق النوبة] قد تمرد على الملك وأسلم. قام قرقي بمطاردته حتى قبض عليه وأسره فما كان من الرجل، إلا أن كتب إلى الطايوى من الأسر بأن قرقي هو رجل مزيف [أي أنه ليس بابن ملك]. وأرسل الخليفة إلى مصر مستفسرا بشأن تلك الاتهامات التي ساقها المتمرد، ولهذا السبب تم تأجيل اجتماع قرقي بأبي إسحق. وعندما اتضحت الحقيقة التي كان مفادها أن قرقي فعلا ابن ملك، أرسل الخليفة في طلبه. وعند وصول الملك أرسل الخليفة جنوده مرتدين لباس الحرب والدروع واصطفوا على جانبي الطريق بينما مر قرقي في وسطهم وكان يرتدي تاجا مزينا في الأعلى بصليب.

كان العرش معدا بشكل أكثر بهاء من المعتاد لأبي إسحق. تقدّم قرقي نحو الملك الذي قاده من يده. ثم أجلسه أمامه وعرف أبو إسحق بواسطة مترجم أن قرقي جاء لتقديم تحيات. أحسن الملك استقبال قرقي ومنحه هدايا ثمينة من الذهب والفضة وبعض الحلل الخاصة برجال الدين، إضافة إلى المسك من العنبر كما أهداه الخليفة أيضا عشرة جمال مُطَهَّمَة من الإسطبلات الملكية، كما أصدر أوامر تقضي بأن يعامل قرقي كملك وأن يستقبل بتشريف ملكي إلى أن يبلغ مناطق نفوذه وأن يمنح أيضا ثلاثين دينارا كمصروف يومي"[198].

[197] ملاحظة المحقق: أي شهر فبراير في التقويم السرياني.
[198] ترجمنا من ميخائيل السوري، في (OS, p. 317-319)؛ انظر: J.B.Chabot(ed.),III, p.90-94

وزار للملك النوبي البطريرك ديونيسيوس، الذي وصل إلى بغداد بعد أن علم أن قرقي انتمى إلى المذهب الديني اليعقوبي

"ذهبنا إلى هناك برفقة بعض الأساقفة والمؤمنين. ووجدناه رجلا ذكيا شابا في حوالي العشرين من عمره، كريم الأخلاق متعلما وسيما يستحق أن ينتمي إلى سلالة الملوك لدماثة خلقه وطيب معشره. تحاورنا معه عن طريق مترجم فوجدناه مؤمنا أرثوذكسيا مخلصا عميق الإيمان و كارها للتواصل مع المرطوقيين. وفي يوم الأحد أقمنا القداس معه، وأعطينا المناولة له ولأفراد حاشيته الذين كانوا يحملون معهم الآنية والأزياء المخصصة للاحتفال بالأسرار المقدسة.

وحينما أزف وقت الرحيل قدمنا إلى الملك النوبي بضعة هدايا من الذهب والفضة، بما يتلاءم مع مكانتنا ومن ناحية أخرى لتبقى تذكارا له في مملكته[199]".

الحقائق أو الآراء التي أبانها ديونيسيوس عن الانتماء العقائدي للملك قرقي كانت بلا شك مؤكدة لحقيقة أن الأخير كان عضوا في الكنيسة القبطية. ويخبرنا المقريزي أن المفاوضات التي أجراها الملك قرقي قد كللت بالنجاح أعجب الخليفة بالملك النوبي اليافع وقال له: "اطلبني ما تريد". فطلب منه قرقي إطلاق سراح بعض السجناء النوبيين. لا نعرف هوياتهم أو أين ومتى تم حبسهم، إلا أنه يرجح أنهم اعتقلوا في الحدود المصرية النوبية وقد استجاب الخليفة لطلبه على الفور.

وكان هنالك أيضا رجاء آخر وهو إلغاء المتأخرات لضريبة البقط، ومرة ثانية استجاب الخليفة لمطلبه، وجدد قرقي شكواه ضد مسلمي أسوان الذين قاموا بشراء عقارات ضمن محيط ونفوذ المارس، وطلب قرقي أن تخصص تلك الأراضي لملك النوبة. لم يستجب المعتصم للمطلب، ولكنه كما أخيه المأمون في الماضي، طالب بالاستقصاء عن قانونية شراء تلك الأراضي. فأكد قاضي أسوان قانونية الأمر مما أدى إلى إسقاط الشكوى.

كان لملك النوبة أيضا مطلب آخر يرجو فيه الملك أن ينقل حِصن المسلمين من "القصر" إلى مكان آخر في الشمال متعللا بأن "القصر" كان يقع ضمن مناطق النفوذ النوبي، إلا أن الخليفة لم يستجب لذلك.

أكّد الأخباريون المسيحيون تبادل الهدايا بين الملكين، وكانت الهدايا المقدمة من قبل الخليفة أكثر قيمة من تلك التي قدمها ملك النوبيين. وقام الخليفة بإهداء ٧٠٠ دينارا على المدى الطويل بالإضافة إلى حصان بسرج كامل ولجام، وزوج من الجمال، وسيف مزين، وحلة مطرزة بالذهب، كما قدمت المزيد من الحلل لحاشية الملك، إلا أنهم تسلموها في مصر بعد تسليم البقط.

كان البقط هو البند الرئيسي في الحوار السياسي بين الملك النوبي والخليفة. وفرض الملك دفعه مرة واحدة كل ثلاثة سنوات من جديد. وفي تلك المرة تسلم الملك النوبي وثيقة مؤمّنة خطيا. أُلغيَت الديون، ولكن تم استمرار البقط ومراجعته. عند مقارنة القيمة التجارية للبضائع التي قدمها المسلمون عند التبادل، فقد وجد الخليفة أنها كانت أقيم من بضائع البقط التي قدمها النوبيون. ولكن الخليفة لم يعترض بل أنكر عطية الخمر، والقمح، والثياب كما تمت إضافة شروط جديدة للبقط.

[199] ميخائيل في (OS, p. 319-320).

"وعلى [الخليفة] على المتولي القبض البقط وعليهم [النوبيين] رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرّفين معه، وما يهدي إليهم بعد ذلك فغير محدود؛ وهو عندهم هدية يجازون عليها[200]".

الملك قرقي في مصر

يرجح أن الملك قرقي قد غادر بغداد في خريف نفس العام ٨٣٦م، ووصل إلى دياره في عام ٨٣٧م، وفي مصر استقبله البطريرك يوسف (يوساب) كمنتصر. وهنا يؤكد ساويرس على سلطة البطريرك الأبوية على الملك النوبي. إلا أن أكثر ما يثير اهتمامنا هو التفاصيل الأثرية التي تطرقت إليها كتابات ساويرس الوصفية.

وفي مصر أقام الملك قرقي بصفة مؤقتة في منزل ملحق بقصر المتولي، وطلب هيكلا خشبيا متحركا للصلاة في البيت. كرّس له البطريرك "هيكلا مكرزا معمول (معمولا) من خشب، يتفضل ويتركب إلى داخل قصر الملك". مرة أخرى نجد الأساقفة النوبيين ضمن حاشية الملك قرقي، ويقيمون له الشعائر الدينية بحيث أن الملك وحاشيته قد يتناولون القربان الأقدس هناك[201].

كان "الناقوس" (جرس خشبي) هو ما أدهش مسيحيي مصر، وقد كان يدق بأمر الحاكم على سطح القصر حيث تمارس الشعائر الدينية "ليجتمع أصحابه للصلاة معه والقداس كما يفعل في بلاده[202]".

يقول أبو صالح إن قرقي رجع إلى دنقلا سالما غانما، فأمر والده زكريا باحتفالات رسمية تعبيرا عن الفرح. كما شيد كنيسة مخطوطة بعناية ومهارة شكرا لله على رجوع ابنه. ومع ذلك، يبدو أن أبا صالح قد خلط أحداثاً مختلفة عندما يضيف أن "شيد هذه الكنيسة أنبا جرجة، أسقف ناتو الذي أرسله البطريرك كريستودولوس (Christodulos) (١٠٤٦– ١٠٧٧!)".

وبالنسبة لروائيي القرن التاسع فإن رحلة قرقي إلى بغداد كانت بمثابة حدث القرن طالما إنه لا يزال هنالك اعتبار لبلاد النوبة في التاريخ، فقد عرفت بالتأكيد الشرق الأدنى بوجود الممالك المسيحية في إفريقيا وراء حدود الإمبراطورية الإسلامية. نجاح دبلوماسية قرقي في حواراته مع الخليفة ساعد على رفع شهرة المملكة النوبية وهَيبتها، فبدأ الكثيرون في الاعتقاد بأن بلاد النوبة هي مملكة مسيحية قوية حيث كان ملكها قادرا على أن يتعامل بنفس مستوى شروط الحكام في كل أرجاء العالم الإسلامي.

[200] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، في مسعد، ص ٣٠٥. (cf. OS, p. 645).
[201] راجع ساويرس في مسعد، ص٨٦. (cf. OS, p. 195)؛ وأبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في مسعد، ص١٤٢.
[202] أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني، في مسعد، ص ١٤٢. (cf. OS, p. 331)

الفصل التاسع

النوبيون والبجة

في هذا المنعطف من تاريخ المسيحية في بلاد النوبة، من الضروري أن نضع البجة في الاعتبار، فقرقي ملك النوبة قد اشترك في حادثة لها أهمية كبرى في تاريخ البجة.

ذكرنا قبل ذلك أن البليميين الذين ينتمون لمجموعة من قبائل البجة، كانوا في نزاع دائم مع النوباديين بسبب امتلاك ضفاف النيل، خاصة في شمال بلاد النوبة. وفقا لبعض العلماء الذين سنذكرهم في وقت لاحق، تم تحويل بعض البطون من قبائل البجة إلى المسيحية، ولكنهم مكثوا في هذا الدين لفترة قصيرة فقط.

عندما رجع عبد الله بن أبي السرح من حملة دنقلا إلى مصر في عام ٦٥٢م "تجمع له في انصرافه على شاطئ النيل البُجة. فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم فنفذ وتركهم"[٢٠٣]. وعليه رأى عبد الله بن أبي السرح أنها بلد لا تستحق الهجوم. ومن ثم فقد تجاوزهم وواصل طريقه إلى مصر في حوالي عام ٧٢٠م. آنذاك كانت هناك اتفاقية سلام قائمة بين المسلمين في مصر والبجة وضعت حدًّا لسلسلة طويلة من غارات وحملات عسكرية قادها عبيد الله بن حباب في عام ٧١٩ أو ٧٢٠م. وأشبهت هذه الاتفاقية البقط، ولكنها كانت تشمل بعض السمات المتميزة كالآتي: "يبقي وكيل البجة عائشا في الريف المصري كرهينة لدى المسلمين"[٢٠٤].

إن مناجم الذهب والزمرد التي اشتهرت بها بلاد البجة منذ أقدم العصور، قد جذبت العديد من العرب الذين استوطنوا في مناطق التعدين، وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام في أوساط البجة. ولكن دخول الغرباء إلى المنطقة قد تسبب بالضرورة في توتر ومشاجرات، غير أن المسلمين قد سارعوا وتزوجوا من فتيات البجة الأمر الذي خفف من التوتر وساعد في استمرار علاقات سلسة.

استمر البجة في شن الغارات على طول وادي النيل داخل الأراضي المصرية. وقد تمكن المسلمون من المحافظة على الوضع تحت السيطرة حتى عام ٨١٩م. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاة الخليفة المأمون تحولت حرب العصابات إلى حرب كبيرة متكاملة. وقد أورد ابن حوقل وصفا تفصيلياً عن الغارات على مدن أسوان وكوم أُمبو وقفط. ولم يكن أمير مصر قادرا على التدخل لإيقاف هذه الهجمات، ولذلك فقد قام المواطنون العاديون بواجب الدفاع عن السكان في صعيد مصر، وأعدوا جيشهم الخاص لهذا الغرض. وفي هذه الأثناء، ظهر في المشهد شخص يدعى أبو

[٢٠٣] ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر والمغرب، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٥٥؛ في مسعد، ص ١٠. (cf. OS, p. 59)

[٢٠٤] المرجع نفسه.

عبد الرحمن العمري، والذي صار فيما بعد شخصية مشهورة في تاريخ النوبيين.

أخيرا أرسل الخليفة أحد العبيد المحررين يدعى عبد الله بن الجهم الذي شن غارة مكثفة على البجة، وأبرم على إثرها اتفاقية سلام معهم في أبريل ٨٣١م. وقد وقع على الاتفاقية عبد الله بن الجهم وكنون بن عبد العزيز الزعيم الأعلى لقبائل البجة. وليس مستغربا أن نجد زعيما لقبائل البجة يحمل اسما عربيا مسلما، حيث أن اختراق المسلمين لقبائل البجة قد بدأ قبل مائة عام من هذا التاريخ، وذلك من خلال التزاوج والمصاهرة.

بجانب الشروط العادية مثل دفع الجزية وتأمين سلامة المسافرين المسلمين وممتلكاتهم، فقد أقرت الاتفاقية أن كل أرض البجة "من مُنتهى حدّ أسوان من أرض مصر إلى حدّ ما بين دهلك وباضع [حالياً مصوع] مُلكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين عزه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجة"[٢٠٥]. وعليه فإن ملك البجة قد صار مجرد عامل للخليفة، أما الشروط الأخرى التي لم ترد في الاتفاقيات السابقة فهي كالآتي:

"وليس لك أن تخرم [ك] شيئا عليك من الخراج. وعلى أنّ كل أحد منكم إن ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه [...] وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتنى[ها] المسلمون بصَنجة وهجر، وبسائر بلادكم طولاً وعرضاً، [...] وعلى كنون أن يُدخِل عمّال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة[٢٠٦]".

التزم البجة بشروط الاتفاقية لفترة من الزمن، ثم استأنفوا الغارات. وقد لاحظ رجال عبد الله بن الجهم خلال الحرب أن أراضي البجة غنية بمناجم الذهب، وعندما انتهت الحملات عادوا مرة أخرى في شكل مستوطنين، وفي هذه الفترة نفسها فر آلاف العرب من اليمامة إلى مصر، وجاء بعضهم ليستقر في مناطق التعدين. وقد ذكر ابن حوقل أن "تكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومُضر، وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين"[٢٠٧] (الموافق ٨٥٢م)، وقد نشب عراك بين أحد رجالهم وأحد رجال البجة حيث قام البجة بالإساءة إلى الرسول.

الحملة القومية

تم تبليغ الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) بهذه الحادثة وبالخروقات الأخرى للاتفاقية. فأخذ الخليفة الأمر بصورة حادة وقرر أن يعلن الحرب، ولكنه قبل أن يدخل في أي عداوات، استفسر عن أرض البجة من العارفين بشبكة الاتصالات في الإمبراطورية، فأخبروه بأنها صحراء جرداء لا ماء فيها، وأن الدخول فيها هو مغامرة خطيرة، وعليه فقد صرف الخليفة النظر عن الحملة التأديبية.

[٢٠٥] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ٢٠٠٢، م١، ص ٥٣١. (cf. OS, p. 625)

[٢٠٦] المرجع نفسه، ص٥٣٢-٥٣٣.

[٢٠٧] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص ٦٨. (cf. OS, 156)

كان هناك رجل يدعى محمد بن عبد الله القومي اشتغل لعدة سنوات في حماية القوافل المسافرة إلى الحج، سمع هذا الرجل بخطة الخليفة فعرض عليه أن يقود الحملة ضد البجة، ومن ثم بلاد النوبة ليخضع هؤلاء الناس[208]، وذلك إذا ترك له حرية اختيار ألف من رجاله. ووافق الخليفة على العرض وكتب إلى عامله في مصر عنبسة بن إسحق، وأمره بأن يزود ابن القومي بكل ما يحتاج إليه من الخيل والمشاة والإبل والأسلحة والأموال اللازمة لمحاربة البجة. وقد ذكر حملة بن القومي الكثيرُ من المؤرخين العرب، وعلى رأسهم البلاذري الذي كانت روايته الأقدم والأقرب إلى الحقيقة. أما رواية ابن تغري بردي، فقد كانت الأحدث من حيث التاريخ الزمني ولكنها غنية بالتفاصيل الهامة لتاريخ النوبيين، وقد استقاها من مصادر لم يعد لها أي وجود حاليا.

حمل القومي معه كل ما استطاع حمله من المؤن والمعدات وشحن الباقي من السويس في سبع مراكب كبيرة محملة بكل نوع من المؤن، وقد وجه المرشدون من يقودون المراكب أن يتجمعوا في مكان معين في ساحل البحر الأحمر في وقت واحد بالقرب من عيذاب. تحرك القومي من قوص على رأس قوة قوامها سبعة ألف جندي، وانضم إليهم المسلمون الذين طردهم البجة من منطقة التعدين.

الملك قرقي يشترك في الحرب

بالرغم من أنه من الصعب قبول رواية ابن تغري بردي أن القومي قد دخل بلاد النوبة "حتى قّارب مدينة دنقلة"، ولكننا نصدق أنه أثناء سيره في بلاد البجة، قد يكون عبر حدود مملكة النوبة في مكان ما. وقد انتشرت أخبار الغزوة على نطاق واسع على طول وادي النيل حتى مدينة دنقلا، وبالطبع فإن ملك النوبة قد اتخذ خطوات ضد الغازي بإرسال رجاله إلى أرض البجة أو بمساعدتهم تعبيرا عن "التضامن السوداني". وقد كتب ابن تغري بردي ما يلي:

"وشاع خبر قدومه [القومي] إلى أقصى بلاد السودان؛ فنهض ملكهم- وكان يقال له علي بابا- إلى محاربة العسكر الواصل مع محمد المذكور ومعه من تلك الطوائف المقدم ذكرها أمم لا تحصى، غير أنهم غُزاة بغير ثياب، وأكثر سلاحهم الحراب والمزاريق، ومراكبهم البُخت النوبية الصهب، وهي على غاية من الزعارة والنفار؛ فعندما قاربوا العساكر الإسلامية وشاهدوا ما هم عليه من التحمل والخيول والعدد وآلات الحرب فلم يقدروا على محاربتهم، عزموا على مطاولتهم حتى تفنى أزوادهم وتضعف خيولهم ويتمكنوا منهم كيفما أرادوا؛ فلم يزالوا يراوغونهم مراوغة الثعالب، وصاروا كلما دنا منهم محمد ليواقعهم يرحلون من بين يديه من مكان إلى مكان، حتى طال بهم المطال وفنيت الأزواد، فلم يشعروا إلا وتلك المراكب قد وصلت إلى الساحل، فقويت بها قلوب العساكر الإسلامية؛ فعند ذلك تيقنت السودان أن المدد لا ينقطع عنهم من جهة الساحل، فصمموا على محاربتهم ودنوا إليهم في أمم لا تحصى. فلما نظر محمد إلى السودان التي أقبلت عليه انتزع جميع ما كان في رقاب جمال عساكره من الأجراس، فعلقها في أعناق خيوله وأمر أصحابه بتحريك الطبول وبنفير الأبواق ساعة الحملة؛ وتم واقفًا

[208] راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، م٢، دار الكتب المصرية- القاهرة ١٩٣٠، ص ٢٩٧.

بعساكره وقد رتبها ميامن ومياسر بحيث لم يتقدم منهم عنان عن عنان؛ وزحفت السودان عليه وهو بموقفه لا يتحرك حتى قاربوه، وكادت تصل مزاريقهم إلى صدر خيوله؛ فعند ذلك أمر أصحابه بالتكبير، ثم حمل بعساكره على السودان حملة رجل واحد وحركت نقاراته وخفقت طبوله، وعلا حس تلك الأجراس، حتى خيل للسودان أن السماء قد انطبقت على الأرض، فرجعت جمال السودان عند ذلك جافلة على أعقابها، وقد تساقط عن ظهورها أكثر ركابها؛ واقتحم عساكر الإسلام السودان فقتلوا من ظفروا به منهم حتى كفت أيديهم وامتلأت تلك الشعاب والبراري بالقتلى، حتى حال بينهم الليل.

وفات المسلمين علي بابا (أعني ملكهم)، لأنه كان مع جماعة من أهل بيته وخواصه قد نجوا على ظهور الخيل"[209].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن علي بابا قد قُتِلَ في المعركة وأن ابن أخته أو ابن أخيه قد تولى القيادة، وذكر آخرون أن علي بابا قد أُخِذ أسيرا وقبل كل شروط الهدنة التي أملاها عليه محمد القومي. ثم رجع القومي مع جيشه واخذ معه ملك البجة ليقدموه إلى الخليفة.

وقد ذكر ابن حوقل أنه قد تم الاستيلاء على كنز علي بابا، وتم بيعه في أسوان بقيمة خمسين أوقية من الذهب، وأن السلك الشايك الذي استخدمه القومي لحماية معسكره وكذلك صندوق علي بابا لحفظ النفائس، كانت موجودة في أسوان.

وكان ابن حوقل وحده هو الذي ذكر أن "يوركي ملك النوبة" (الملك قرقي) قد أسره محمد القومي، وقام بترحيله أولاً إلى أسوان ثم إلى بغداد, ولم يَعْطِ أي أسباب لذلك. أما "التضامن السوداني" الذي ذكره ابن تغري بردي فأسبابه اشتراك ملك دنقلا في الحرب بين البجة ومحمد القومي.

"أنفذ إلى يركي [جرجة] ملك النوبة فأتاه طائعا، فانحدر بالجميع إلى بغداد في سنة ثمان هذه المؤرخة (٢٣٨-٨٥٢م)، القومي فادخلهما إلى السلطان، فنودي عليهما، فبلغ ملك البجة سبعة دنانير، وملك النوبة تسعة. فأجرى لكل واحد منهما في كل يوم مثل ثمنه. وعاد إلى أسوان بعد موافقتهما على أداء الجزية"[210].

وقد ذكر الطبري أن الجزية المفروضة على البجة هي ٤٠٠ مثقال (٢,٤٠٠ غرام) من الذهب سنويا بالإضافة إلى سداد متأخرات أربع سنوات.

أما الشيء المثير للعجب والذي ذكره الطبري ومؤرخون آخرون، هو أن علي بابا كان يعبد الأوثان، وقد ظل كذلك طيلة الفترة التي قضاها في بغداد. وكان قد حمل معه (ربما تحت ثيابه) "صنما من حجارة كهيئة الصبي يسجد له"[211].

"فأمره الحاجب بتقبيل الأرض فامتنع فعزم المتوكل أن يأمر بقتله وخاطبه على لسان الترجمان: إنه بلغني أن معك صنمًا معمولا من حجر أسود تسجد له في كل يوم مرتين فكيف تتأبى عن تقبيل الأرض بين يدي وبعض غلماني قد قدر عليك وعفا عنك

[209] المرجع نفسه، ص ٢٩٧-٢٩٩. (cf. OS, p. 729-731)

[210] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص ٦٩. (cf. OS, p. 158)

[211] الطبري (تحقيق فضل إبراهيم)، تاريخ الرسل والملوك، م٣، القاهرة ج١ ١٩٦٠- ١٩٦٩، ص ١٤٣٣. (م٩، ج٢ ١٩٧٥، ص٢٠٦).

فلما سمع علي بابا كلامه قبل الأرض ثلاث مرات"[٢١٢].

كانت أخطر نتائج هزيمة البجة، هي السماح بمزيد من الهجرات الجماعية للمسلمين إلى مناطق التعدين. وكان الخليفة نفسه مهتما بهذا الأمر حيث بدأت كميات الذهب والأحجار الكريمة تصل إلى مصر، ومن هناك يذهب الجزء الأكبر منها إلى بغداد. وذكر المسعودي أن التزاوج بين العرب والبجة قد نتج عنه جيل عربي بيجاوي عاطفته ووجدانه مع العرب.

"وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة؛ فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مُضر بن نزار ممن سكن تلك الديار"[٢١٣].

ممالك البجة

أحسن علاقات النوبيين الخارجية توثيقا في القرن التاسع الميلادي، هي علاقتهم مع البجة. وقد خلف ثلاثة من كُتَّاب الرحالة العرب أوصافا مطولة عن بلد البجة وتقاليدهم وديانتهم. وقد كتب اليعقوبي عن البجة معتمدا على المعلومات السماعية في الفترة ٨٧٢-٨٩١م. وقد عكست كتاباته الوضع الذي كان قائما في وقته. وقد حسب خمس ممالك للبجة في الأرض الممتدة من أسوان حتى البحر الأحمر مقابل أثيوبيا[٢١٤].

أما ابن حوقل، فقد زار أرض البجة في وقت ما في الفترة ٩٤٥-٩٥٠م. وقد بدأ خط رحلته من موقع بالقرب من بور تسودان (حاليا)، وسار فوق الجبال وعبر الوديان بمحازاة البحر الأحمر حتى وادي بركة، ثم اتجه غربا نحو سوبا. وبالرغم من أن وصفه لبلاد البجة كان في القرن العاشر الميلادي، فيمكن مقارنته بالوصف الذي أورده اليعقوبي وبالوضع العام خلال القرون التي تلت.

أما ابن سليم الأسواني فقد كانت لديه معرفة شخصية ببلاد البجة بحكم قربها من موطنه أسوان، ولأنه سافر إلى دنقلا حوالي عام ٩٧٠م. وقد كتب كتابا عن النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل ولكنه ضاع. وقد نقل عنه المقريزي أجزاء عديدة خاصة المرتبطة بجغرافية المنطقة.

لم يكن كل سكان ممالك البجة الخمسة من البيجاويين، فقد كانت هنالك قبائل أخرى، ولكن مجموعة البجة كانت مهيمنة وغالبة من ناحية العدد والنفوذ السياسي.

---

[٢١٢] ابن تغري بردي، ص ٢٩٩.
[٢١٣] المسعودي، مروج الذهب، ٢، دار الفكر، بيروت ج٥ ١٩٧٣، ص ١٨. (cf. OS, p. 131)
[٢١٤] ذكر اليعقوبي مملكتين أخرى: مملكة النجاشي (أي مملكة أكسوم)، ومملكة الزنج (أي غالا؟). ويقول عن الأول إنها تعتنق الدين المسيحي وإن الأخيرة كانت وثنية.

١. نقيس

كتب اليعقوبي ما يلي:

"فأول مملكة البجة من حد أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمّن بين المشرق والمغرب إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال له: نقيس، ومدينة المملكة يقال لها: هجر، ولهم قبائل وبطون كما تكون للعرب، فمنهم: الحدرات [أي الحدارية]، وحجاب، والعماعر[أي الأمرأر] وكوبر، ومناسة، ورسفة، وعربرتعة، والزنافج، وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر، والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن"[٢١٥].

هذه المملكة توافق الأرض التي يقطنها العبابدة والبشاريين والأمرأر والهدندوة. وقد ذكر الأسواني أن الحدارية (هدندوة) وأنهم يعترفون بالمنحدرين من ناحية الأم (الأخت)، وأنهم أقسام عديدة، وأن كل قسم له زعيم بالرغم من أنه ليس لديهم ملكا.

"ولا لهم [الحدارية] دين، وهم يورّثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون: إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال"[٢١٦].

بحكم مجاورة الحدارية لمصر وطبيعتهم المزعجة، فقد كانوا مصدر إزعاج للمسلمين وظلوا يتحرشون بهم حتى كبح عبد الله بن الجهم جماحهم في عام ٨٣١م. وتحولوا إلى الإسلام، ولكن إسلامهم كان "إسلاما ضعيفا". وقد اعتبروهم ذميين تحت حماية الإسلام ويدفعون الجزية للمسلمين. ومما يثير الاهتمام هو ذكر الزنافج من قبل اليعقوبي وسليم على السواء.

"ومنهم جنس آخر يُعرَفون بالزنافج، وهم أكثر عددا من الحدارب، غير أنهم تبعٌ لهم وخُفراؤهم يحمونهم ويحبونهم المواشي. ولكل رئيس من الحدارب قومٌ من الزنافج في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديما أظهرَ عليهم"[٢١٧].

وقد ذكر نفس المؤرخ أن الزنافج، أو بعض عشائرهم، قد عاشوا في منطقه شنقير،

"وهي الناحية التي تبلُغ العُطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشنكة. [... والزنافج] انتقلوا إلى النوبة قديما وقطنوا هناك، وهم على جملتهم في الرَّعْي واللغة لا يخالطون النوبة ولا يسكنون قُراهم، وعليهم والٍ من قبل النوبة"[٢١٨].

وروى اليعقوبي أن تقاليد الزنافج تشبه تقاليد الحدارية. "ليس لهم شريعة، إنما يعبدون صنما يسمونه حجاجوا"[٢١٩].

هنالك قبيلة أخرى من البجة تعيش فيما يعرف بمملكة نقيس ويسمونها "البَليون" وقد ذكرهم الإدريسي، والحرّاني، وابن خلدون، وابن الوردي. وكان مقرهم بجوار أسوان لناحية الشرق.

---

[٢١٥] اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، في مسعد، ص ٢١-٢٢. (OS, p. 71-72)
[٢١٦] ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص١٠٥.
[٢١٧] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لندن ٢٠٠٢، م١ ، ص ٥٣١. (cf. OS, p. 624-625)
[٢١٨] المرجع نفسه، ص٥٢١. (cf. OS, p. 607-608).
[٢١٩] اليعقوبي، كتاب البلدان، في مسعد، ص٢٠. (cf. OS, p. 79)

"وربما أغار على أطرافها خيل السودان المسمّين بالبلّيين، ويزعمون أنهم روم، وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط وإلى ظهور الإسلام، غير أنهم خوارج في النصارى يعاقبة، وهم متنقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة ويتصلون ببلاد النوبة[٢٢٠]".

وقد ذكر ابن خلدون أن الموطن الأصلي للبلّيين كان في منطقة تقع بين شبه جزيرة سيناء ويثرب في الجزيرة العربية[٢٢١]. وذكر الحراني أيضا أنهم مسيحيون يعقوبيون ("نصارى خوارج")[٢٢٢]. وإن اسم البلّيين يعيد للأذهان اسم البلميين الذين عاشوا في نفس هذه المنطقة في الصحارى الواقعة شرق النيل وليس بعيدا عن أسوان. وإن تشابه الاسمين يتطابق مع ما ذكره ابن خلدون عنهم، وعليه ليس من المستغرب وجود مسيحيين في أوساط البليميين وشأنهم في ذلك شأن النوبيين الذين كانوا على اتصال مع مصر المسيحية قبل ظهور الإسلام. ولعل القبيلة البجاوية الأخرى التي تأثرت بالمسيحية هي قبيلة البشارين كما ذكر أبو نصر المقدسي (٩٩٦م).

"وأما البشرية [قبيلة البشارين] فإنهم قوم سود بلادهم حارة وماءهم من النيل ودينهم النصرانية وهم أصحاب الخيام منهم البجة[٢٢٣]".

ويقول المقريزي نقلا عن المسعودي أن الحدارب والخاسا وهم من أهالي سواكن،

"وهم مسلمون من بين سائر البجة. والدخلاء من البجة كفّار، يعبدون صنما لهم[٢٢٤]".

وحسب وصف خلفه الأسواني أن بجة الداخل يمارسون نوعا من العبادة أشبه بالشامانية.

"والبجة الداخلة في صحراء بلد علوة مما يلي البحر المِلْح [ك] إلى أوّل الحبشة، ورحالهم في الظعن والمواشي واتّباع الرَّعي والمعيشة والمراكب والسلاح، كحال الحدارب، إلا أنّ الحدارب أشجَع وأهدَى من الداخلة على كُفْرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكُهّانهم.

ولكل بَطْن كاهن يَضرب له قُبّة من أدم معبدُهم فيها؛ فإذا رأوا استخباره عما يحتاجون إليه، تَعَرَّى ودخل إلى القُبّة مُستدبرا، ويخرج إليهم وبه أثرُ جنون وصَرَع، يقول: الشيطانُ يُقرِئُكم السلام، ويقول لكم ارحلوا عن هذه الحِلة فإن الرَّهْطَ الفُلاني يَقَع بكم؛ وسألتُم عن الغزو إلى بلد كذا، فسيروا فإنكم تَظفَرون وتغنمون كذا وكذا، والجِمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لِي، والجارية الفُلانية التي تجدونها في الخِباء الفلاني، والغنم التي من صِفتها كذا، ونحو هذا القول.

فيزعمون أنه يصدقهم في أكثر من ذلك[٢٢٥]".

من بين ما تضمنه وصف ابن حوقل لبلاد البجة نقدم الملاحظات الآتية:

"وإذا أخذت من القلزم [السويس اليوم] غربيّ هذا البحر فإنه ينتهي إلى برية قفرة لا شيء فيها [...] والبجة في أعراض تلك

[٢٢٠] الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، في مسعد، ص١٣١-١٣٢.(cf.OS, p. 276)
[٢٢١] راجع: تاريخ ابن خلدون، م٢، بيروت ١٩٦٠-١٩٦٧، ص٥١٦. (cf. OS, p. 552)
[٢٢٢] الحراني، جميع العلوم وسلوان المحزون، في: (Gotha, herzogliche Bibl., MS ar 1513, fol. 31v)
[٢٢٣] المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، م٤، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠، ص٦٩. (cf. OS, p. 148)
[٢٢٤] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، في مسعد، ص ٢٩٤.
[٢٢٥] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لندن ٢٠٠٢، م١، ص ٥٣٤-٥٣٥. (cf. OS, p. 630-631)

البرية. وهم أصحاب أخبية شعر، وألوانهم أشدّ سوادا من الحبشة في زيّ العرب، ولا قرى لهم ولا مدن ولا زرع إلا ما يُنقل إليهم من مُدن الحبشة ومصر والنوبة، وينتهي في حدهم، ما بين الحبشة وأرض مصر وأرض النوبة، معدن الزمرد والذهب، ويأخذ هذا المعدن من قرب أسوان على أرض مصر نحو عشر مراحل حتى ينتهي على البحر إلى حصن يسمى عيذاب، وبه مجمع لربيعة تجتمع إليه يعرف بالعلاقي [...] وأموال هذا المعدن تقع إلى مصر. وهو معدن تِبْر لا فضّة فيه[٢٢٦]".

يجلب التجار لبلاد البجة الصوف والأقمشة القطنية وكل ما يعين على الحياة كالجمال والعبيد، ولعل أبعد نقطة يصل إليها التجار، هي منطقة "قَلْعِيب" حيث تكثر مجاري المياه تخرج من جبل تسمى ملاحيب، وهو أكبر الجبال في وادي بركة.

"وبين قلعيب وبركة غياض عادية ذوات أشجار. وربما كان دائر الشجرة من أربعين ذراعا إلى خمسين ذراعا وستين ذراعا. وأفنيتها مراتع الأفيلة والزرافات السبع والكركدنّ والنمر والفهد إلى سائر الوحوش سائمة راتعة في غيلها ومياهها وغياضها. ويتصل بحد ملاحيب من شقه الشرقي واد يعرف بصيغوات كثير الماء أيضا والشجر والحمر والوحش. وبنواحي بركة بطون كلتم وهي المعروفة بعجات من البجة. ويتصل بها مما يلي سواحل البحر الجاسة، بطون كثيرة في السهل والجبل. وكأن هذا الجبل آخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن وهي أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة ومن يخضر معهم من البجة.

وفي شق بركة قبائل كثيرة تعرف ببازين وباريه، وهم أمم كثيرة، قتالهم بالقسى والسهام المسمومة والحراب بغير درق [...]

والذي بين وادي بركة وجبالها المدعوّ ملاحيب راجعا إلى الإسلام قلعيب وأبنوديت وجبال درويت ومياه متصلة وبلدان عامرة لبيواتيكه من قبائل البجة تزيد على أحصاء ولا يبلغ عددها لتوغلهم في أعماق الصحارى.

وبركة تقارب جزيرة باضع وبينهما يوم وتكون نحو ثلاث مراحل مملوءة ببطون قَغْصَة، وهي أجلّ بطون البجة الداخلة، وأكثرها مالا وأعزها [...]

وتحاذي سواكن بطون تعيف برقابات وحنديا، وهم خُفراء على الحدربيّة [...] فأما بطون الحدارب فمنهم: العريتيكية، والسوتباروا والحوتمه والعكنبيترا والنحريروا والجنيتيكه [...] وجميعهم منتجعون لا حاضرة لهم. وتكون بلادهم التي تُمطر وتُزرع ويتتجعونها بمواشيهم طولا نحو شهرين مسيرة، والعرض من البحر إلى النيل. ومشاتيها على البحر المالح والسواحل، ومصائفهم الأودية التي في وسط البلد ذوات مياه مراع تقوم بهم، وخريفهم فيما قارب النيل مغرّ بين عن بلادهم بديار قليلة الشجر كثيرة نبات الأرض والغدران، وطعامهم اللحم واللبن خاصة، وصفاؤهم يأكلون الوحش كالغزال والنعام والحمار. وهم مسلمون بالاسم، ومياسيرهم لا يرون أكل الصيد ولا مخالطة آكله ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحلّه ولا يحلبون فيها ولا يشربون. ولغتهم لغة تعمّ البُجة وجميعها أعجمية، ولبعضهم لغة يتفرّدها[٢٢٧]".

[٢٢٦] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص ٦٤. (cf. OS, p. 151-152)
[٢٢٧] المرجع نفسه، في مسعد، ص ٧٠-٧٢.

٢. بقلين (تفلين)

"والمملكة الثانية من البحة، مملكة يقال لها: بقلين، كثيرة المدن واسعة يضارعون في دينهم المجوس والثنوية[٢٢٨]، فيسمون الله عز وجل الزبحير الأعلى، ويسمون الشيطان صَحَي خراقة، وهم الذين يتفون للحاهم، ويقلعون ثناياهم ويختتنون[٢٢٩]".

ويمكن أيضا أن ننقط الاسم "بقلين" بصفة مختلفة ب"تفلين"، كما ورد في ابن حوقل. على كل حال، إقليم "بقلين\تفلين"، كما وصفه ابن حوقل، يبدو أنه ينطبق تقريبا على محافظة كسلا، وكان محدودا بالحدارب إلى الشمال، وبوادي بركة إلى الشرق، وببازين إلى الجنوب وبنهر عطبرة إلى الغرب. في حين أن اليعقوبي لا يذكر وجود المسلمين بين أهل بقلين، يقول ابن حوقل:

"ولهم ملكٌ مسلمٌ يتكلّم بالعربية من قِبَل صاحب علوة [...] فيهم مسلمون كثيرون من غير ناحية على دينهم، يتجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها[٢٣٠]".

إذا كانت هذه المعلومات التي قدمها ابن حوقل صحيحة، فيمكننا أن نستنتج أن الإسلام قد أحرز تقدما كبيرا بين هذا القسم من البحة بين القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر.

ويعتقد العالم الإيطالي كونتي روسيني (Conti Rossini) أن الاسم "الزبحير" نظرا إلى الله، هو تشويه للاسم الأثيوبي لله "Egzia-bhièr" (أي رب الأرض)، مما يمكن أن يشير إلى تأثير المسيحية على هذه البحة من خلال أثيوبيا.

٣. بازين

"المملكة الثالثة يقال لها: بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة ويتاخمون بقلين من البحة، ويحاربون هؤلاء. وزرعهم الذي يأكلونه [...] [٢٣١]وهو طعامهم واللبن[٢٣٢]".

الذي يقوله اليعقوبي عن بازين يتفق مع وصف ابن حوقل. وأهل بازين هم الكوناما الذين يسكنون في سهول إريتريا الغربية. فبينهم ما زال هناك اليوم قسم يسمى بازين. ويقول ابن حوقل إنهم كانوا يدعون الله بالكلمة "آنّا"، التي لا زالوا يستخدمونها حتى اليوم. فمن المحتمل جدا أنهم في الماضي احتلّوا إقليما أوسع يمتد إلى ما هو الآن في السودان.

---

[٢٢٨] ملاحظة المؤلف: والمجوس هم السحارون، أي الزرادشتيون. والثنوية أي المانوية والطوائف ذات الصلة. ولكن الكلمتين هنا تشيران بشكل غامض إلى ديانة ليست اليهودية، ولا المسيحية، ولا الإسلام، ولا عبادة المشركين.

[٢٢٩] تاريخ اليعقوبي، في مسعد، ص ٢٢. (cf. OS, p. 72)

[٢٣٠] ابن حوقل، في مسعد، ص ٨٤. (cf. OS, p. 164)

[٢٣١] بياض في الأصل.

[٢٣٢] تاريخ اليعقوبي، في مسعد، ص ٢٣.

٤. جارين

"والمملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، ومُلكه ما بين بلد يقال له باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بركات من مملكة بقلين[٢٣٣]".

٥. قطعة

"والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البحة، ومملكتهم واسعة، من حد موضع يقال له باضع: إلى موضع يقال له فيكون، ولهم حد شديد وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة، يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب جلد مستعدون للحرب والقتال[٢٣٤]".

وعلى الرغم من الارتباك الشديد في البيانات الجغرافية للمملكتين الأخيرتين، ويبدو أن المقصود هنا هو قسم من بني عامر من البحة. في القرن العاشر انتشروا في جميع أنحاء الجزء الشمالي من إريتريا.

---

[٢٣٣] المرجع نفسه.

[٢٣٤] المرجع نفسه.

الفصل العاشر

مغامرة العمري

بعد وفاة الخليفة المتوكل سنة (٨٦١م)، حصل البجة على قدر كبير من السيطرة على العلاقي منطقة المعادن فيما خسر المسلمون. ولم يُعترف بسلطان الخليفة على تلك الجهات منذ عام ٨٥٩.

ظهر في ذلك الوقت رجل دين عربي في بلاد النوبة اسمه أبو عبد الرحمن عبد الله عبد الحميد العمري، والذي عرف فيما بعد باسم العمري. لقد أصبح هذا الرجل شخصا مهما في التاريخ النوبي.

ولد العمري بالمدينة المنورة. ثم انتقل إلى مصر ليدرّس علم الحديث، ومن ثم سافر إلى القيروان ليتلقى علوم الشريعة والفقه. وفي عودته من مصر سمع بخبر مناجم الذهب بأرض البجة. وقد أحس برغبة محمومة للذهب، وكما لا ننسى أنه اشتعل حماسا لنشر الدعوة الإسلامية بين أوساط البجة الوثنيين، وقد كوّن له جيشا صغيرا خاصا انطلق لصعيد مصر ومن ثم إلى أرض البجة. ولبعض الأسباب غير المعروفة لنا عزم أمير مصر على اعتقاله، غير أن أحد نبلاء العرب حكم النابغي قد أجاره. وكان هذا الرجل قد وصل إلى صعيد مصر بجيشه الخاص من جهة الدلتا، وذلك لحماية السكان المحلين من خطر البجة، والذين كانوا يكثرون الغارات على الريف المصري في أيام الخليفة المأمون. يمكن ربط نشاط العمري بتدفق العمال المسلمين على أرض البجة في أعقاب اتفاقية ٨٣١م، والتي وقعها كلا من عبد الله الجهم وكانون عبد العزيز.

ثمة تاريخ آخر. فيما يروي المؤرخ ابن الأثير خبر عمري بعد حملة القومي (٢٤١ هـ /٨٥٥م)، من المحتمل أن العمري استقر بالبجة لأول وثاني مرة بعد أن رتب القومي وعلي بابا للسلام، أي بعد ٨٥٥م.

أقام العمري معسكره في وسط عرب مُضر والذين كانوا على خلاف مع بني ربيعة، وقد أراد أن يكون سيدا للمضرية. وعندما أحس بأنهم لم ينتبهوا له، أعلن أنه أُهين. تظاهر بأنه يريد ترك المعسكر حتى يتوسل إليه رجال المضرية ليعود، وهذا ما حدث في الواقع. لقد عاد العمري وتم الاعتراف به كقائد. وفي يوم من الأيام بتحريض من العمري، أغارت المضرية على بني ربيعة، إلا أنهم هزموا. ونتيجة لذلك فقد تراجع العمري إلى منجم جهة الجنوب يبعد عن المناطق الربيعية داخل أو بالقرب من أراضي مملكة النوبة. يصعب تحديد مكان هذا المنجم كما ذكر مونيريه دي فيلارد (Monneret de Villard)[٢٣٥]. لعله يقرب من أم نباري بالقرب من محطة القطار نمرة ٦، أو وادي رديغلب (Radiglib) نمرة ٧. ولما كانت الآبار بهذه المنطقة شحيحة المياه، فقد أخذ العمري بالتفكير بمنجم آخر بالقرب من النيل. وكذلك قد استقر بمنطقة المقرة:

[235] Cf. SNC, p. 111.

"فنظر [العمري] ذات يوم إلى طير، فقال: «هذا من طيور الشُّطوط، وأحسب أن النيل قريبٌ». فوجّه الوارد، فكان كما قدر. وعاد إليه من يومه بقرب الماء، وأخبره بما شاهد من بلد مقرة، وأنهم في ظهره. فسر بذلك، وأمر الناس بالورود. فأنكرت النوبة شأنهم، وقبضوا على جماعة منهم"[٢٣٦].

هذا حسب ما أورده المقريزي كيف أن العمري قد استقر بالمقرة ودخل في نزاع مع أهل المقرة. ولعل العمري قد دخل في نزاع مع نوبة نوباديا قبل أن يتوغل في أراضي المقرة. ويحلو لنا أن ننظر إلى ما قاله مؤرخ عربي آخر، هو أبو محمد البلوي (ت ٩٥٠م)، وهو الذي كتب سيرة ابن طولون وأخذ الكثير من المعلومات من كتابات ابن الداية، الذي عاصر الأحداث عن قرب:

"وكان [العمري] مسالما للنوبة للعهد الذي لهم حتى بدا له النوبي الأول الذي بالموضوع المعروف بمريس. فعطف عليه العمري وأجلاه عن دياره، وحرّق مدائنه، وسبى منهم شيئا كثيرا حتى أنه كان الرجل من أصحابه يشتري الحاجة من البيّاع أو من البقال بنوبي أو بنوبية، لكثرتهم كانوا أيدي أصحابه"[٢٣٧].

لا يمكن حمل ما أورده البلوي محمل الجد في حرب العمري مع أهل المقرة كما سنرى. يبدو أن "النوبي الأول" إما أن يكون شعب أول مقاطعة نوبية، أي نوباتيا\مريس، أو حاكم تلك المقاطعة، أي الأبرخص. أيا كانت التفاسير، فقد دخل العمري في نزاعات مع النوبيين قبل أن يستقر بالمقرة. يبدو أن هذا هو أحد الأسباب لمعارضة أهل المقرة له عندما دخل بلادهم.

لقد ذهب العمري بنفسه ليستقصي أخبار المساجين الذين أخذوهم في المقرة. وقد استأذن أيضا في طلب الماء مؤكدا أن العرب سيسلكون الطريق التي يحددها لهم النوبة. وقد كان رد النوبة الوحيد أنهم أعدموا المساجين مما جعل العمري يدخل معهم في عداء مفتوح. وقد جهز رجاله بعد أن ارتحل بهم إلى مكان يدعى شنقير.

"وعاد [العمري] إلى أصحابه، واستنفر الناس، فاجتمعوا إليه، وحلفوا له، فأمرهم بإحضار آلة المعدن. فلما حضرت أمر بضربها حرابا، وسار إلى النوبة في غفلة منهم، فوقع بموضع يعرف بشَنْقير [...] والنيل ينعطف في هذا الموضع إلى مطلع الشمس، حتى يصير بينه وبين الشّنكة بعض نهار يوم، ثم يعود النيل إلى الغرب، ويرجع إلى الشرق [...] فنكى[٢٣٨] العمري في النوبة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكثر السبي عند أصحابه، حتى إن أحدهم كان يلق رأسه، فيعطي المزيّن رأسا"[٢٣٩].

جمع النوبة أشياءهم، ثم تراجعوا إلى الضفة الغربية من النيل حيث أخذوا يناوشون العرب من وقت لآخر. وفي إحدى الليالي عبر المسلمون النهر على القِرَب (الجلود المملوءة هواء) ثم باغتوا النوبة وأخذوا كل المراكب التي يستخدمها النوبة لشن حروب على المسلمين. وبهذا النصر وجد العمري كأنه ملك على رأس مملكة صغيرة ومن ثم دعا تجار أسوان للتعاون معه.

[٢٣٦] المقريزي، كتاب المقفى، في مسعد، ص ٣٥٦. (OS, p. 708)

[٢٣٧] البلوي، سيرة أحمد بن طولون، في مسعد، ص ٤٢. (OS, p. 181-182)

[٢٣٨] ملاحظة مسعد: "في النوبة أي قتل منهم وجرح" (ص ٣٥٧).

[٢٣٩] المقريزي، كتاب المقفى، في مسعد، ص ٣٥٧. (cf. OS, p. 708)

في هذا الوقت كان الملك قرقي (جرجة) الأول متربعا على عرش دنقلة. وقد بعث نيوتي ابن أخيه "قشما" (قُسما أو قزما) لمحاربة العمري بعد أن أمده بالأخيار من جنده. بعد مناوشات عديدة مع العمري توصلا إلى اتفاق يستطيع بموجبه العمري أن يبقي في تلك المنطقة من البلاد، حيث يعيش دون أن يناله أذى. ثم بعث الملك قرقي ابنه الأكبر الذي لم يظهر اسمه في كتب المؤرخين لمحاربة نيوتي الخائن، ولما تعرض الأمير الكبير للهزيمة على يد نيوتي مرات عديدة فر إلى علوة، وبقي هناك لمدة أربع سنوات تحت حماية ملك علوة.

"وكان لقيرقي [قرقي، جرجة] ابنٌ آخر اسمه زكريا، فأشار عليه بموادعة العمري ومحاربة ابن قشما، وأن يندبه لذلك."[٢٤٠]

لقد كانت خطة زكريا هي القضاء على نيوتي أولا، ثم الالتفات إلى العمري. وقد ذهب إلى العمري بأنه يريد قتال نيوتي على أن يبقي العمري محايدا، ولكن هزم جيش زكريا. إذ أخذ يتسلل إلى معسكر العمري لوحده نتيجة لخطة محكمة رسمها للقاء العمري، وقد أمسك رجال العمري بزكريا وقدموه للعمري الذي سر بلقائه، واتفقا على قتال نيوتي متحدين، خاصة بعد أن داهن العمريَ بوعود معسولة، حيث أكد زكريا أن هناك كنزا من الذهب يستطيع العمري أخذه، وبالفعل حفر رجاله المكان وعثروا على الذهب كما قال زكريا.

"وقال [زكريا] له [العمري]: إنه [نيوتي] عدوي وعدوك، وإن أظفرني الله به، رجعتُ النوبة إلى طاعتي واجتمعتْ إليّ، فصرت بهم إليك، وتصرفت عن أمرك في الأعاجم، وما بعد منك وما بيدك يكون بمحالة، وأزوّجك من أختي -زوجة ابن قُشما- بعد قتله، لأن أبي شيخ كبير، وقد كبرت سِنُّه"[٢٤١].

وقد قبل العمري بالعرض المغْري وشعر زكريا بثقة العمري به. إذن كشف زكريا خطته ليقتل نيوتي، واختار أربعة من أفضل رجال العمري الذين يعرفون نيوتي جيدا، فحصل زكريا على دعمهم بعد أن وعدهم بأن يدفع لكل منهم وزنه ذهبا إن نجحوا في قتل نيوتي. غادروا على متن زورق خفيف، وعندما اقتربوا من معسكر نيوتي، أوصى الرجال الأربعة بأن يقيدوا يدَيه ورجلَيه و بأن يقولوا هذا وهذا. وبالفعل دخلوا المعسكر وقالوا: "إن الشيخ الصالح -يعنون العمري- يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن الله قد أمكن من عدويّ وعدوك". ودعوا نيوتي إلى أن يقترب من السبي. فذهب نيوتي إلى الجزيرة الصغيرة التي كان فيها الرجال الأربعة مع زكريا وهو مقيّد، فأمر زكريا أصحابه بأن يُسلموه إلى نيوتي وقال:

"«أشاغله بالكلام، فإذا اطمأن فافتكوا به». وجعل زكريا العلامة [بينه] وبينهم البكاء. فلما وضع زكريا بين يدي ابن قُشْما [ك]، نقف رأسه [أي ضربه أيسر الضرب] بقضيب ذهب كان في يده، وقال: «الحمد لله الذي أمكن منك». قال له: «يا عم، قدرْت، فاعفُ عني، وأحسن الظفر، فإن هؤلاء المسلمين غدروا بي، ورغبوا إلى العوض»[٢٤٢]".

---

[٢٤٠] المرجع نفسه، ص٣٥٩. (cf. OS, p. 711)
[٢٤١] المرجع نفسه، ص٣٦٠. (cf. OS, p. 712)
[٢٤٢] المرجع نفسه، ص٣٦٢. (cf. OS, p. 714)

وقد استمر العرض الدرامي لبعض الوقت حتى انفجر زكريا باكيا، وهنا هجم الرجال على نيوتي وقتلوه، وأخرجوا زكريا من القيد ورافقوه لمعسكر نيوتي حيث تمت مبايعته من قبل رجال نيوتي، وذهب لأخته -زوجة نيوتي- وأخبرها أمام رجال العمري بأنه يريد تزويجها من العمري. قبلَتْ الأرملة بذلك ودفع زكريا لها المهر على الطريقة النوبية، ثم كتب إلى العمري بأن يُعدّ مأوى لهم. وقد صدق العمري كل كلمة قالها زكريا، ولكنه قتل الرجال الأربعة الأشداء واتجه بجيشه نحو معسكر العمري

"حتى قرب منه. فقال رجل للعمري: «إن هذا الكافر صار معنا بأرض واحدة، وهو مما لا طاقة لنا به». فقال: «على هذا وافقني أن تسير بالجيش إليه وتكون في طاعتي».

ثم إن زكريا هجم على القوم وهم غادون، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزم العمري وأصحابه، وتركوا جميع ما معهم؛ لا يلوون على شيء منه. وانحدر من كان في الجزائر منهم في مراكب، وكانوا يتقوّون بها، ويُحمل إليهم الطعام من الجزائر[٢٤٣]".

انسحاب العمري من بلاد النوبة

وإذ كانت خطة زكريا إجلاء كل العرب من بلاد النوبة، فقد دبر حيلة جديدة.

"فدس إليهم زكريا رجلا مشهورا بمعرفة طرق الجنادل، فأخذه العمري، وأحسن إليه، ودفع إليه مالا، على أن يجوز بهم الجنادل، فأمرهم بشد المراكب بعضها إلى بعض. وركب في أولاها وسار بهم، فسلك طريقا غير مسلوكة، حتى وقعوا في الهلْكة، [ثم] تركهم ونجا بنفسه عوما في البحر، فغرق الجميع. وقدم على زكريا، فأقطعه مواضع وقفت عليه وعلى عقبه، وتلف جميع ما بقي لهم من السلاح والرجال، وضعفوا، فلم يتمكنوا من الإقامة[٢٤٤]".

لعل الشلال الذي قُتِلَ فيه رجال العمري هو الشلال الثاني، ويعرف كذلك باسم "بطن الحجر"، وقد ذكر اليعقوبي في وصفه للطرق الموصِّلة معادن العلاقي بعلوة اسم مكان يطلق عليه "ماوا"[٢٤٥] في مسلك بين أسوان والمقرة.

"وبهذا الموضع كان زكريا بن قرقي خليفة أبيه قرقي ملك النوبة. ومن ماوا إلى مدينة النوبة العظمى [أي سوبا] التي ينزلها ملك النوبة وهي سنّال[٢٤٦] ودنقلة مرحلة[٢٤٧]".

لقد نجا العمري من المجزرة وانسحب برجاله إلى مكان شمال -غرب الشلال الثاني-، لعله معدن العلاقي في

---

[٢٤٣] المرجع نفسه، ص٣٦٣. (cf. OS, p. 715-716)
[٢٤٤] المرجع نفسه.
[٢٤٥] ملاحظة المؤلف: لا يمكننا تحديد اسم هذا المكان اليوم بيقين كامل. الاحتمال الأول هو سوء الإملاء من قبل الناسخ. وتقع مقاطعة واوا على بعد نحو مائة ميلا إلى الجنوب من الشلال الثاني. ويذكر بوركهاردت (Burckhardt) وداوود روبيني (David Reubeni) في القرن السادس عشر مكانا آخر يدعى ماما، وهو بالقرب من الشلال الثاني. ومن المحتمل أيضا أن زكريا قد أقام خلال المرحلة الأخيرة من حملته ضد العمري في جبل أدّى، يدعى أدوة (أدو، دو) لاحقا، مقابل مدينة فرص. من هناك، استطاع زكريا إنشاء المفاوضات مع العمري الذي كان قد انسحب إلى معدن في الصحراء داخل النوبة بعدُ.
[٢٤٦] ملاحظة مسعد: "سنّال: ليس في المراجع المتداولة في هذه الحواشي ما يساعد على التعريف بها".
[٢٤٧] اليعقوبي، كتاب البلدان، في مسعد، ص ١٨-١٩. (OS, p. 78)

حدود أراضي الملك النوبي.

"وكتب إليه زكريا يعتذر، بأن الشحّ على الملك دفعه على ما فعل، وأنه لا يحاربه بعدها، وسأله الخروج عن بلده"[248].

استمرت المفاوضات بينهما عاما كاملا. ولكن اختلفوا أصحاب العمري وبعضهم انشقّوا عن قائدهم ولجأوا إلى زكريا[249]. وأضطرّ العمري إلى الانسحاب شمالا تاركا أراضي النوبة.

وكاد العمري أن يدخل أرض مصر إلا أن حاكمها أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤م) خشي أن يتسبب له في بعض القلاقل، فأرسل قوة إلى صعيد مصر كإجراء احترازي. كذلك أراد وقف زحف النوبة على مصر أيضا، ولكن النوبة لم يلاحقوا العمري لحدود مصر. بيد أن قوة ابن طولون قد دخلت في اشتباك مع العمري. وانتصر العمري ولكنه تقهقر أخيرا إلى أرض البجة ذات المناجم، وهناك لقي حتفه عندما غدر به رجلان من رجاله، وقطعا رأسه، وأسلماه إلى ابن طولون على أمل أن يكافئهما. وبدلا من ذلك أعدما.

لو أننا أخذنا في الحسبان أن نشاط العمري ببلاد النوبة دام سبع سنوات بما في ذلك ثلاث سنوات قبل أن يدخل في صراعات مع زكريا، يمكن أن نقول أن حملة زكريا كانت في منتصف ٨٦٠م. ويقول المقريزي إن العمري بقي مع البجة بعد قتاله مع النوبة عام ٢٥٥ للهجرة (٨٦٨م)[250].

لقد اعتزم النوبة رفض أي غارة عربية على بلادهم ليحموا استقلالهم. وعما إذا كانت الدوافع الدينية تكمن وراء استماتة النوبة فهذا أمر لا يمكن تبيانه، ولكن يمكن القول إن الهدف الديني هو ما كان يحمله العمري عندما استقر وسط البجة أول مرة، وحسب ما ورد في سيرة ابن طولون، فإن العمري قال لشُعبَة بن حركام -وهو قائد الجيش لابن طولون- في محاولة لعدم الدخول في معركة ضارية:

"إن الأمير أحمد بن طولون لم يبلغه خبري على حقيقته، وقد موّه عليه في أمري. أني لم أخرج أبغي فسادا، ويدلّك على ذلك أني لم أوذ مسلما [ولا] معاهدا. وإنما خرجت في طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم"[251].

ابن طولون

بعد أن طويت صفحة العمري بدأت حقبة جديدة في بلاد النوبة طابعها السلام بين العرب والنوبة. والفضل في هذا يعود لابن طولون، ولما كان تركيا فسرعان ما أعلن استقلاله عن الخليفة، وكان رجل دولة من الطراز الأول كما عرف عنه سعة أفقه وصدره وهو إداري محنك.

على طول امتداد فترة حكم الأسرة الطولونية (٨٦٨-٩٠٥م)، لم يذكر أي خلاف بين مصر وبلاد النوبة.

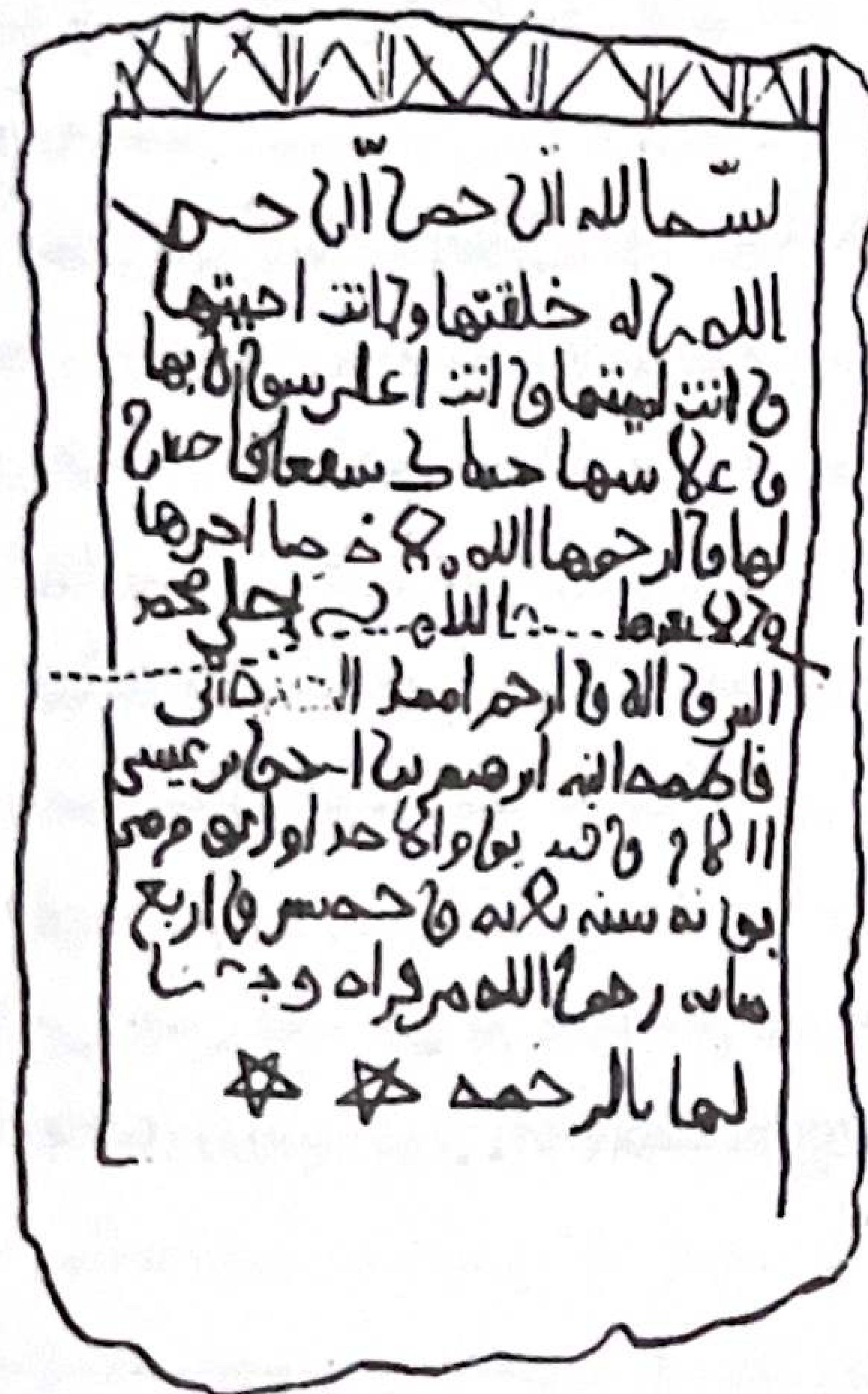
[248] المقريزي، كتاب المقفى، في مسعد، ص ٣٦٣. (OS, p. 716)
[249] ملاحظة المؤلف: لأولئك الذين انشقّوا عن العمري، منح زكريا أراضيا في مقاطعة ديندان (أديندان) والأدوة (جبل أدى). من المنجم حيث أنهم تقاعدوا، واصل رجال العمري في غارة النوبة حتى مغادرتهم إلى معادن البجة.
[250] راجع: المقريزي، المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لندن ٢٠٠٢ م١، ص ٥٣٤. (cf. OS, p. 629)
[251] البلوي، سيرة ابن طولون، في مسعد، ص ٤٣. (OS, p. 183)

وعلى العكس من ذلك، فقد كان هناك العديد من النوبيين الذين تم تجنيدهم بالجيش الطولوني، وكانوا حرسا لابن طولون، وكان ذلك عندما حلوا محل العساكر العرب الذين انعدمت فيهم الثقة.

"فعرض ابن طولون الرجال، وأثبت من يصلح، واشترى العبيد من الروم والسودان، وعمل سائر ما يحتاج إليه، وخرج في تجمل كبير وجيش عظيم [...] والقطائع عدة قطع تسكن فيها عبيد ابن طولون وعساكرهم وغلمانه، وكل قطيعة لطائفة. فيُقال قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفرّاسين، ونحو ذلك.

[... وكان واحدا من أبواب المدينة] باب الدرمون لأنه كان يجلس عنه حاجب أسود عظيم الخلقة يتقلد جنايات الغلمان السودان الرجالة [أي الرجال] فقط [...] ومضت أصناف العسكر وطوائفه تلاهم السودان، وعدتهم ألف أسود لهم درق من حديد، محكم الصنعة، وعليهم أقبية سود، وعمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحرا أسود يسير [ك]، لسواد ألوانهم، وسواد قيابهم، ويصير لبريق درقهم وحلي سيوفهم والبيض التي تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم زي بهج، فإذا مضى السودان قدم خمارويه، وقد انفرد من موكبه"[252].

و(آل طولون) "استأثروا بالروم والسودان جمعوا الجموع مع الجموع فأكثروا [...] يتبخترن في الحرير وفي الوشي والحبر وملوك عبيدهم عدد الشوك والشجر وجيوش يؤيدون لدى البأس بالظفر من صنوف السودان والترك والروم والخزر [...]"[253].



أول حجر لقبر إسلامي في تاريخ النوبة عام ٤٥٣هـ (٧٣٧م)

[252] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لندن ٢٠٠٢، م٢، ص ٨٠-٨٢. (cf. OS, p. 668-669)
[253] المرجع نفسه في ص ٩٠. (cf. OS, p. 670)

الفصل الحادي عشر

أسرة الملك قرقي (جرجة، جورجي) الأول

تذكر المصادر الأدبية القليل عن الملك قرقي الأول إضافة إلى تلك الحوادث الثلاثة آنفة الذكر. أبو صالح في وصفه لتوسقا حيث "كان بها صاحب الجبل"، يقول إن "كحله جرجا بن زكريا إسرائيل"[٢٥٤]. ومن ثم نعتقد أن "جرجا بن زكريا إسرائيل" ما هو إلا الملك قرقي (جرجة) الأول[٢٥٥]. ولا نعرف شيئا عن هذا الأمر سوى هذه القصة.

أما عن مصادر علم الآثار، فيمكن أن نجمع منها القليل من المعلومات. فقد وجد بورتريه الملك قرقي الأول الجداري في الحائط الداخلي من قبة كاتدرائية فرص. ورغم أن صورة الملك قرقي الأول كانت إضافة إلى التركيب الأصلي المتكوّن من مريم العذراء وسط الحواريين الاثني عشر. في الصورة يلبس الملك عباءة بيضاء على الطراز البيزنطي كانت واضحة مقابل الرداء البنفسجي الذي كانت تلبسه العذراء، وقد تم إعادة طلاء يَدَي مريم العذراء لتتوافق مع بورتريه الملك[٢٥٦].

أما عن صورة "قرقي زكريا بن إسرائيل، ملك النوبة" في كنيسة دَرْمُس (تَلْمِس، كلابشة) التي ذكرها أبو صالح[٢٥٧]، فنحن غير متأكدين بشأنها، وربما تكون صورة جورج الثاني الذي هو ابن زكريا الثالث. في تلك الصورة – التي لا توجد حاليا- بدا الملك "شيخ كبير كان يجلس على سرير أبنوس مطعّم بعاج مصفّح بالذهب الخالص[٢٥٨]".

والمطران "أبّا كيروس"[٢٥٩] الذي كان تولّى كرسي فرص الأسقفي من ٨٦٢م إلى ٨٩٧/٨٩٨م (أو ٨٦٦-٩٠٢م)[٢٦٠]، أي أثناء فترة حكم قرقي، وهو أول أسقف يحمل لقب "مطران". ومن المؤكد أن بطريرك الإسكندرية قد منح هذا اللقب استجابة لطلب الملك. لقد كان كيروس نوبيا وصورته في كاتدرائية فرص كانت على هيئة مماثلة لصورة الملك قرقي.

وفي لوحة من الحجر كانت على قبر واكتشفت في دنقلة، توجد كتابة بالإغريقية تقول: "يؤانس، أبرخص جاديرون (Gaderon) وبروتوميزوتيروس (Protomeizoteros)، ابن زكريا أوغوستو (Augustou)". وهذا الرجل

[٢٥٤] تاريخ أبو صالح الأرمني، في مسعد، ص١٣٧. (OS, p. 324)

[255] Cf. SNC, p.115.

[256] Cf. K.Michalowski, Faras Centre Artistique de la Nubie Chrétienne, Leiden 1966, p.13.

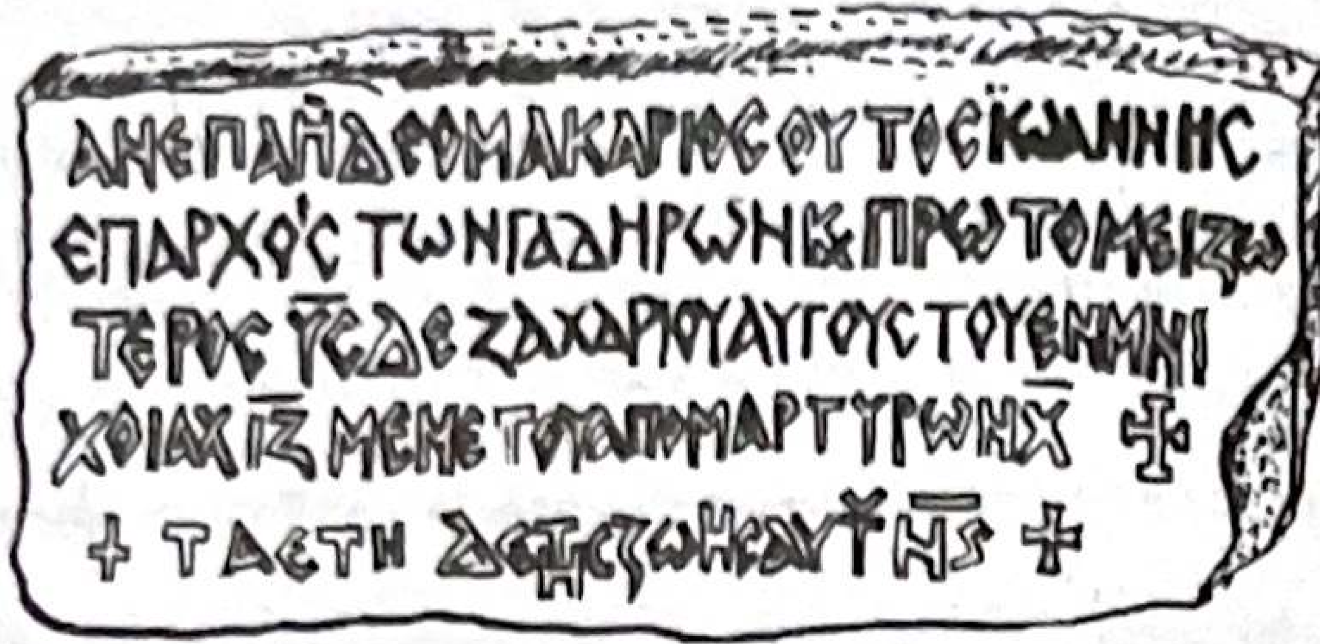
[٢٥٧] تاريخ أبو صالح الأرمني، في مسعد، ص١٤٤. (OS, p. 334)

[٢٥٨] المرجع نفسه، ص١٤٥. (OS, p. 334)

[٢٥٩] ملاحظة الأب فيلوثاوس فرج: ربما يكون كيروس هو كيرلس، وهذا الاسم قديم بين الأساقفة والبطاركة.

[260] Cf. S.Jakobielski, Faras III, p. 85-86.

قد توفي في ١٣ ديسمبر سنة ٨٨٣م في عمر الـ٥٦[٢٦١]. واللقب "أبرخص" وحده يدل على أن هذا الرجل شخصية عظيمة. بالعكس، ليس معنى جاديرون (Gaderon) واضحا، ولا الوظيفة المتصلة باللقب "بروتوميزوتيروس (Protomeizoteros)". ولو كان الكلمة (Augustou) – وشكل المضاف إليه باليونانية هو أمر عادي لأسماء الملوك النوبيين- لقبا ملكيا، فيؤانس هو اسم أخ الملك قرقي.



قطعة النصب التذكاري الموجودة على قبر يؤانس زكريا أوغوستو (Yoannes Zachariou Augustou)

وقد ورد ذكر اسم الملك قرقي مرتين في نقش مكتوب بالقبطية بفرص، وقد أشارت الكتابة إلى أن الشخص الذي امّحى اسمه من هذه اللوحة الحجرية، قد تم تعيينه "بفضل الملك جرجي دوميستيكوس بوخارص (domestikos Pachoras)". وامّحى معظم تاريخ النقش بحيث أنه لا يمكننا القراءة. بالرغم عن هذا، أرّخ الدكتور جاكوبيلسكي (Jakobielski)[٢٦٢] التاريخ المنقوش بسنة ٨٧١م، وقرأ السنة الثانية عشرة من الملك قرقي بصفة ذكية، ولكنه استبعد أن تكون القراءة الصحيحة للآثار القليلة المنقوشة على لوح الحجر السنة الثانية والعشرين أو الثانية والثلاثين. إذا كانت السنة الثانية عشرة هي القراءة الصحيحة، فيجب علينا أن نستنتج أن قرقي بدأ يسود في ٨٥٩م، ولكن قد لاحظنا أن قرقي أصبح ملك النوبة رسميا أو رمزيا في عام ٨٣٥ قبل بعثته إلى بغداد للتفاوض مع الخليفة. كذلك ابن حوقل يدعوه "بملك النوبة" في وقت حملة القومي (٨٥٢م). في الواقع، نعرف من البقايا الأثرية أنه كان يجلس على عرش دنقلة كالملك الوحيد في ٨٥٦م. ويتناسب البيان الأخير مع نص ميخائيل السوري الذي قال إن والد قرقي (زكريا) "ساد المملكة إلى أنّ بلغ الصبي عمر الحكم"[٢٦٣].

لم يرد التاريخ الحقيقي لموت الملك قرقي في أي من المصادر. ولكن يمكن أن يستدل عليه من كتابة في لوحة صخرية من فرص[٢٦٤]، فيحتفي النقش بذكرى التدشين "لكنيسة المنحدر الجنوبي" والذي حدث في "العام العاشر

[261] Nubia, Récents Récherches, Varsovie 1975, p. 44-48.

[262] S.Jakobielski, Faras III, p. 95.

[٢٦٣] ميخائيل السوري، في (OS, p. 317).

[264] Cf. Faras III, p. 112ff.

للملك زكريا بن جرجي"، وكان ذلك في AM٦٤٦ الموافق ٩٣٠م، وعليه فإن بداية زكريا الثالث بن جرجي لحكمه هي على وجه التحديد في ٩٢٠م، وهو نفس العام الذي يفترض فيه موت الملك قرقي (جرجي) الأول.

التسلسل الزمني لأسرة الملك قرقي الأول

لو أننا سلمنا بصحة المعلومات التي وردت إلينا من المصادر الأدبية والأثرية، فيمكن اعتبار الآتي تسلسلا زمنيا لأسرة الملك **قرقي** (جرجي، جرجة) **الأول**: وُلِدَ في حوالي ٨١٦م واعتلى (رمزيا) في ٨٣٥ وحكم في ما بين ٨٥٩م و٩٢٠م حين توفي، وقد امتدت حياته إلى ١٠٤ سنة.

وزكريا **الثالث** بن قرقي الأول كان في ال٣٢ من عمره عندما قاد حملته ضد العمري (حوالي ٨٦٤م)، وقد تربع على العرش في ٩٢٠م وحكم حتى ٩٣٠م. أما تاريخ موته فمجهول.

جرجة (جرجا) **الثاني** هو ابن زكريا الثالث، وقد كان يحكم في ٩٦٩م وتحت بطريركية فيلوثاوس (٩٧٩-١٠٠٢)، ونجهل متى ولد وارتقى إلى العرش وكذلك موته.

رافائيل كان يملك في ١٠٠٢م، ولكننا لا ندرى إن كان ينحدر من الأسرة المالكة.

كلنا نلاحظ العمر المديد وفترة الحكم الطويلة للملوك الثلاثة الذين اعتلوا العرش، هل يمكن أن يكون هذا مقبولا بدون شك؟ أم نفترض وجود ملوك حكموا فيما بين هذه الفترات غير معروفين لدينا؟ يمكن أن نقبل العمر الطويل للملك قرقي الأول، ولكننا لا نعلم تماما أن سنة ٩٢٠ هي التاريخ الحقيقي لموته. وكل ما نعرفه مما لدينا من الوثائق هو أن لزكريا أخا يكبره، لا نعرف اسمه، كان قد فر لعلوة أثناء حملة نيوتي. هذا الأمير ربما طالب بالعرش بعد موت قرقي.

يقول المسعودي:

"وانتهيت في تصنيفي لهذا الموضع من كتابنا هذا في ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلثمائة [الموافق ديسمبر ٩٤٣م]، وكنت بفسطاط مصر، فأخبرت أن الملك للنوبة في مدينة دنقلة كبرى [كبري] بن سرور وهو ملك بن ملك فصاعدا، ومُلكه يحتوي على ماقرّه [أي مقرة] وعلوة[265]".

من هو "كبرى بن سرور وهو ملك ابن ملك"؟ وكيف نستطيع أن نفسر أن يكون لملك نوبي اسم عربي والأسرة المالكة في أوجها السياسي؟ ولعل الإجابة هي أن يكون كبرى لقبا لزكريا الثالث، ولكن ذلك يبدو تبسيطا. وإجابة أخرى هي أكثر ترجيحا أن كبرى تشويه لاسم "كابيل"، وهو لقب ملكي لملوك دنقلة. لو كان كذلك، مَن هو "كابيل بن سرور"؟ فالاحتمال الأرجح هو أن كابيل بن سرور هو أكبر ابن لابن الملك قرقي أو ابن أخت زكريا الملك. وفي الواقع، فإنه لو كانت أخت زكريا قد تزوجت ثانية من شخصية ملكية فلابنها الحق في المطالبة بعرش

[265] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، في مسعد، ص ٥٠-٥١. (OS, p. 130.)

النوبة بحسب التقاليد النوبية. ورغم أن هذه الإجابة معقولة، إلا أنه لا يوجد من الوثائق ما يدعمها.

ومن الصعوبات الأخرى في هذا الصدد، كيف استعاد الملك جرجة (جرجا) الثاني (و٩٦٩م؟-ت ١٠٠٢م؟) "ابن الملك زكريا" (كما هو مكتوب في النقوش كلها) عرشَ أبيه وحده بعد أن تنقّل لابن البنت للملك أو ابن الأخت، فهو نظام التوريث التقليدي في النوبة (قانون الأحوال).

ويمكننا اقتراح إجابات أخرى[266]، ولكن يجب أن نعترف بأن معلوماتنا عن أحفاد الملك قرقي قليلة، رغم أن بلاد النوبة في عصره قد وصلت ذروتها السياسية والثقافية.

زكريا الثالث

عُرفَ زكريا الثالث فقط من خلال الحملة التي شنها على العمري "كخليفة أبيه قرقي[267]"، ولم يذكر عنه شيئا آخر في المصادر الأدبية. ولعله تولى المملكة في السنوات الأخيرة لحكم أبيه. ويذكر نقش فرص ٩٣٠م بعد الملك، "عندما كانت أمه مريم ملكة–والدة". وإن كان زكريا يبلغ من العمر العشرين عندما قاد حملته على العمري، فلا بد أن يكون قد تولى العرش وهو في السادس والسبعين من عمره والسادس والثمانين عند كتابة النقش. ونسأل أنفسنا عما إذا كانت مريم أمه الحقيقية أو أحد نساء العائلة الملكية يحملن اللقب "ملكة–والدة". نستطيع أن نلاحظ ههنا الاستمرار لتقليد الكنداكة المروي من حيث للمرأة دور مهم في شؤون البلاط. ومن الشخصيات الأخرى التي ذكرت في النقش: "أبا إلياس مطران فرص (Pachoras)" و"إيسو (Iesu) الأمجد أبرخص نوباديا[268]".

في سنة ٩٠٥م انتقلت إمارة مصر من أسرة ابن طولون إلى حكام آخرين عيّنهم الخليفة في بغداد. وكان أول أولئك محمد سليمان الذي أخضع مصر قسرا للخليفة. ولما دخل الفسطاط قام بذبح كل الجنود السود الموجودين في القطاعي. فقد تولى حكم مصر ما لا يقل عن ثلاثة عشر حاكما أثناء ثلاثين عاما، وكان بعضهم عن طريق التعيين والآخرون عن طريق الاغتصاب. كان أشهرهم أبو منصور تكين التركي، وهو حسبما يرى النويري[269] وابن الفرات[270] قد غزا بلاد النوبة. وإذ كان أبو منصور تكين حاكم مصر أربع مرات (المرة الأولى في ٩١٠م والأخيرة من ٩٢٤م إلى ٩٣٣م)، فإننا لا نعلم تاريخ غزوته لبلاد النوبة على وجه التحديد.

وفي عام ٩٣٥م تم تعيين محمد بن توج الإخشيدي أميرا لمصر. وقام بتأسيس أسرة ملكية لم تدم طويلا، عرفت باسم الأسرة الإخشيدية. وتحت حكم السلالة الملكية هذه، صار العبد المخصي كافور سيد مصر الفعلي (٩٣٦-

[266] Cf. S.C. MUNRO-HAY, Kings and Kingdoms of Ancient Nubia, Univerisity of Khartoum, Dept. of History, (mimeograph), p. 17.

[267] اليعقوبي، كتاب البلدان، في مسعد، ص١٩. (OS, p. 78)

[268] Faras III, p. 111-112.

[269] راجع: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مسعد، ص٢٢٣. (OS, p. 476)

[270] راجع: ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في مسعد، ص ٢٥٩. (OS, p. 529)

٩٦٦م).

لقد كان أبو المسك كافور (موسكي كامفور) حسب الروايات العربية ينحدر من أصول نوبية[٢٧١]، وقد أُجلب عبدا إلى مصر عندما كان في العاشرة من عمره. وقد اشتراه الأمير الإخشيدي من تاجر الزيت[٢٧٢]، وإذ أظهر كافور مَقْدِرَة وأمانة فقد عيّنه الإخشيدي مربيا لولدَيْه بعد موته.

الغارات النوبية على صعيد مصر

لقد دوّن بعض المؤرخين العرب الغارات النوبية على صعيد مصر من حوالي منتصف القرن العاشر أثناء فترة حكم كافور وضعف مصر السياسي.

وقد تم التأريخ لغزوة نوبية عام ٣٣٩هـ \ ٩٥١م. الملك النوبي الغازي والذي لم يذكر اسمه، ويفترض أن يكون جرجة الثاني، أغار فجأة على الواحات غرب النيل في صعيد مصر حيث قتل العديد من الناس، وأخذ الكثير من المصريين أسرى. ويمكن أن نتخيل أن هذه الواحات هي بئر كسلا، وبئر الشبّ، وكُركور، ودُنقُل الواقعة شمال سليمة على درب الأربعين. وقد كانت غنية بالشَّبّ الذي كان مطلوبا بشدة في أسواق البحر الأبيض المتوسط، لكونه يدخل في عمليات صناعية عديدة.

"وفي ذلك العصر (٣٤٥هـ\٩٥١م) خرج ملك النوبة أيضا حتى بلغ أسوان وخرّبها، وقتل وسبى منها. وسارت العساكر إليه من مصر برًّا وبحرا وقتلت وسبت من النوبة عددا كثيرا، وولّى باقوهم [أي باقيهم] منهزمين، وفُتح حصْن من حصونهم يُعرَف بإبريم[٢٧٣]".

وفي عام ٣٥٢هـ\٩٦٢م كانت هناك غارة نوبية أخرى وصلت حتى حدود أخميم. وقد انسحب الغُزاة بعد فترة، ولكن قد أبقوا جزءا من صعيد مصر تحت قبضتهم لمدة قرن من الزمان.

وقد قاد كافور حملة على بلاد النوبة تختلف عن تلك التي وصفت عام ٣٤٥هـ\٩٥٦م، وفيها استعاد المصريون إبريم، ولم يدوّن المؤرخون تاريخ الحملة لكافور ولا سببها. فالشيء الوحيد الذي وجدوه الجدير بالذكر، هو أن كافور الأسود خرج لقتال السود. وقد وصف شاعر عربي المعركة التي حدثت في مملكة دنقلة بعيد العاصمة[٢٧٤]:

"لما غزا كافور دنقلة غدا   بجيش كطول الأرض من مثله عرض

غزا الأسود السودان في رونق الضحى   فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض."

---

[٢٧١] ملاحظة المؤلف: يبدو أن الكلمة "النوبي" هنا تقصد إلى أي بلد إفريقي جنوب مصر. يدعو المتنبي كافور باللابي، ولكن لا نعلم بموقع "لاب".

272 Cf. S. Lane-Poole, A History of Egypt, London 1914, p. 87.

[٢٧٣] يحيي الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، جروس برس، طرابلس ١٩٩٠، ص٨٧. (OS, p. 386)

[٢٧٤] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مسعد، ص٢٢٣؛ وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في مسعد، ص ٢٥٩. (OS, p. 476 and 529)

جرجة الثاني

كان الملك جرجة الثاني ابن زكريا الثالث متربعا على عرش دنقلة عندما احتل جوهر الصَّقْلّي (أو الصَّقَلّي) مصر في ٩٦٩م. ربما بدأ حكمه قبل ذلك، ولا زال يحكم أثناء بطريركية فيلوثاوس التي بدأت عام ٩٧٩م. ولا نعلم تاريخ وفاته ولكن من المرجح أنه مات سنة ١٠٠٢م أو قبل ذلك، لأنه في تلك الأيام كان الملك رافائيل حاكما على دنقلة. وهناك حادثتان عن حياته أخذت من المصادر الأدبية. سيشار إليهما فيما بعد لأنهما مرتبطتان بالعلاقات بين النوبة والدولة الفاطمية.

ملوك علوة

هناك مَلِكا علوة فقط معروفان على وجه التحديد من المصادر الأدبية، وقد ذكرهما ابن حوقل.

"وكان ملكهم وأنا بالناحية اسابيوس كرجوه بن جوتي، وقد خلا له في ملكه سبع عشرة سنة وتُوفي، فجلس ابن أخته اسطابنوس بن يركي [أي اسطفانوس بن جورجي]، وهو مقيم فيهم إلى وقتنا هذا.

ومن سُنَّة جميع السودان إذا هلك الملك أن يقعُد ابن أخته دون كل قريب وحميم من ولدٍ وأهلٍ[٢٧٥]".

لو اعتبرنا قانون الاعتلاء في عرش علوة الملكي، فيمكن على سبيل الحدس القول بأن جوتي، أب اسابيوس، لم يكن ملكا رغم أنه زوج من أخت ملك. بينما اسابيوس واسطابنوس (اسطفانوس) هي أسماء إغريقية، وقد أخذاها بمناسبة اعتلائهما العرش[٢٧٦]، أما جوتي فهو اسم نوبي كما يظهر من اللغة التي يتحدث بها أهل علوة. وكان اسابيوس في العام السابع عشر من حكمه عندما زار ابن حوقل مملكة علوة حوالي ٩٥٠م. وقد ختم الرحالة العربي آخر فصول كتابه بعد ٩٧٠م. وقد تزوّجت أخت الملك اسابيوس من يوركي (أي جورجي) ملك دنقلة، وهو جرجة الثاني. وبحسب قانون مملكة علوة، فإن ابن يوركي\جرجة ملك دنقلة تولّى عرش سوبا. وربما يكون قد حدث نوع من المصاهرة بين العائلات المالكة في كل من سوبا ودنقلة في أكثر من مناسبة حتى أنه اعتلى ملوك من دنقلة عرش سوبا والعكس. وهذا ما يعلل قول ابن حوقل إن ملك علوة تابع لملك دنقلة فما أكد عكس الواقعة كتاب آخر.

هناك ثلاثة ملوك من علوة ذكروا للتو، ولم تذكر مدة حكمهم وهم: سَنَّال في نهاية القرن التاسع، وباسيل وبول (بدون تاريخ)[٢٧٧]. وهناك ملك آخر، وهو داود، وجد اسمه منقوشا في أحد أنصاب جنائزية، والذي تم استخدا كعتبة، ولها التاريخ ١٠١٦م تقريبا.

---

[٢٧٥] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص ٧٣. (OS, p. 163)

[٢٧٦] ملاحظة المؤلف: واستمر العُرف لاتخاذ اسما جديدا بمناسبة اعتلاء العرش في أثيوبيا حتى الإمبراطور الأخير.

277 *Cf. S.C. Munro-Hay, Rassegna Studi Etiopici, XXXIX, 1982-1983, p. 136.*

وقد ذكر الأسواني "سيمون"، وهو أمير علوة وهو الذي أفاد الأسواني بالمعلومات عن النوبة. ولا يُعرف عن سيمون شيء آخر إلا أن اسم "سيمون أبرخص فرص (Pachoras)"، ورد على يمين لوحة للملك جرجة الثاني في كنيسة "سونقي تينو"(Sonqi Tino) (أي سونقي غربي)، والأبرخص كان مسئولا عن إدارة كل الذين يفدون من مصر، ولا بد أن يكون الأسواني قد التقى به قبل أن يذهب لبلاط دنقلة. وإذ كان هناك مصاهرة بين العائلات المالكة في دنقلة وسوبا، فيمكن أن يكون سيمون ابنا لملك دنقلة ووارثا لعرش سوبا بينما كان يعمل أبرخص نوباتيا.



أبرخص نوباديا في لوحة من كنيسة عبد القادر.

الفصل الثاني عشر

بلاد النوبة والفاطميون

امتازت فترة حكم الفاطميين في مصر (٩٦٩- ١١٦٩م) بالعلاقات السلمية الطيبة بين حكام مصر وملوك النوبة، لم يذكر المؤرخون أي حروب أو صراعات بينهم. وأوضحت البقايا الأثرية تزامن العصر الذهبي لبلاد النوبة مع فترة الفاطميين التي وصلت إلى أوج عظمتها أثناء حكم الملك جرجة الثاني، والفترة التي تليها بقليل.

اهتم اثنان من ملوك الفاطميين وأتمتهم بإقامة علاقات طيبة مع بلاد النوبة وهما المعز لدين الله (٩٥٤- ٩٧١م) وابنه العزيز بالله (٩٧١- ٩٩٦م). استولى جوهر الصقلي على مصر في عام ٩٦٩م نيابة عن المعز وأسس القاهرة كعاصمة جديدة للإمبراطورية الفاطمية وأسس أيضًا الجامع الأزهر.

وبمجرد تَوَلِّيه مقاليد السلطة الفاطمية في مصر، قام جوهر الصقلي بإرسال رسالة إلى الملك النوبي جرجة الثاني سلّمها سليم الأسواني الذي كان تابعا للمذهب الإسماعيلي – الفاطمي. وقد ترك الأسواني وصفًا تفصيليًا لبلاد النوبة. ولكن تحفظ منه المقاطع المرتبطة بجغرافية النيل، بينما لم يتم حفظ أي تقرير لبعثته السياسية. وفيما يلي نقف على شواهد المعلومات التاريخية القيمة التي خلفها الأسواني.

الشلال الثاني

يوجد الكثير من النوبيين في المنطقة التي تقع ما بين "القصر" والشلال الثاني[٢٧٨] الذين اعتنقوا الإسلام ولكنهم لا يتحدثون العربية. وفي الجزء الأعلى من هذه المنطقة (أي بالقرب من وادي حلفا) تنتشر العديد من مزارع العنب والمحاصيل بصورة أكبر من الجزء الأدنى. وكانت أهم المراكز هي بجارس (بخورس\أي فرص) وإبريم وميناء أدواء (الدو، أداء، حاليا أَدّة). وكل من دخل النوبة لأي أمر، يجب أن يطلب الإذن بذلك من "صاحب الجبل" (الأبرخص) ويجب أن يقدم إليه هدية أو إلى مولاه (الملك) . ويتلقي "صاحب الجبل" أي شخص كان ويقدم كل زواره بالخدم، ولكنه لا يسمح لأي شخص مسلمًا أو غيره بالسفر لزيارة مولاه (دون الحصول على تصريح بذلك). وكانت ملاحة المراكب النوبية تنتهي عند "بقوة" (تقوى, وعدة قراءات أخرى) حيث يقع الميناء. وبالرغم من أن هذه القرية لا نعرف موقعها بالضبط، يمكننا القول إنها كانت تقع في مكان ما بين وادي حلفا وحلفا دغيم (أقصى

---

[٢٧٨] راجع تعليق رحلة الأسواني:

G. Troupeau, La déscription de la Nubie d'Al-Uswani, ARABICA, I, 1954, p. 276-288.

شمال الشلال الثاني).

وكان يجب على المسافرين السير لمدة ستة أيام على شاطئ نهر النيل للوصول إلى أقصى الجنوب من الشلال الثاني. وهناك عند "المقس الأعلى" أي بيت الجمارك، توجد نقطة مراقبة للجميع. وكتب الأسواني عن الشلال الثاني قائلاً:

"وهذه الجبال حصنهم، وإليها يفزع أهل الناحية التي قبلها المتصلة بأرض الإسلام"[279].

وأكدت البقايا الأثرية في الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ما أثبته الأسواني والذي انطبق على أي فترة من الزمان.

كانت "المقس" (بيوت الجمارك) ونقاط المراقبة تقع في قرية تسمى حالياً باسم "عكاشة" أو بالقرب منها. و يتم تفتيش أمتعة المسافرين كلهم، حتى لو كانوا أبناء الملك نفسه. وكان تصريح مزيد من ملك دنقلة ضرورياً لعبور تلك النقطة. وكانوا يعاقبون منتهكي القانون بالموت. وبهذا المعيار التحوطي يكون كل ما يحدث في مملكة المقرة سراً، بحيث يستطيع جيش النوبة الهجوم المفاجئ في الصحراء"[280].

لا يتداول النقد أبعد من "المقس"، بل تتم المعاملات بتبادل الرقيق والماشية والجمال والأدوات من الحديد والحبوب.

وإلى الجنوب من جزيرة صاي، تبدأ حدود مقاطعة سقلوذا وهو اسم نوبي يعني "الحكام السبعة" وتعرف حالياً باسم "سوكوت". ويتم تعيين حاكمها بأمر مباشر من ملك دنقلة. ويعتبر القطن أحد منتجات هذه المنطقة حيث يغزل وينسج محليًا لإنتاج القماش الخام.

ويلي ذلك وصفاً يبدو أنه عن الشلال الثالث بين دِلْقو وكرمة وعدة قرى كتبت بطريقة خاطئة وبذلك لم تكن معروفة. ومن هذه المقاطعة وحتى أسوان نجد أن اللغة واحدة، أما إلى الجنوب منها فهنالك لهجة مختلفة من اللغة النوبية. ونجد أن المزارع على طول شاطئي نهر النيل هنا، تنتج المحاصيل الغذائية التي يتم إمداد العاصمة منها. وقد قام الأسواني برحلة نيلية مع الملك إلى هذه المقاطعة.

وتقع المقاطعة التالية على الحدود الجنوبية لدنقلة العجوز. وتمتد القرى هناك في سلسلة متصلة من المباني الجميلة، والكنائس، والأديرة، وأشجار النخيل، والكروم، وحدائق الفاكهة، والمزارع والمراعي. وكانت هذه المقاطعة عبارة عن القلب النابض للمملكة، وغالباً ما يزورها الملك في أوقات فراغه.

ولم يحتفظ بأي وصف للعاصمة آنذاك. ويأخذ النيل منعطفا كبيرا خلف دنقلة وصفه الأسواني بطريقة سريعة وغير مفصلة. وانتهى الأسواني بالتعليق أن شنقير هو المكان الذي اتخذ منه العمري نشاطه التعديني في النوبة. وأيضا

[279] ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص٩٤. (OS, p. 603)

[280] راجع المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥.

هرب عن طريقه آخر الأمويين إلى شبه الجزيرة العربية.

البعثة الدبلوماسية

وكان للأسواني عدد من اللقاءات مع الملك "قيرقي [ك]". وكان يرمي ببعثته إلى دنقلة إلى تأسيس أواصر السلام والتفاهم المتبادل بين المملكتين الجارتين. ويمكن تلخيص أسبابه للسلم والأمن والتفاهم في الآتي:

١- احتياج الفاطميين والنوبيين إلى الدعم المتبادل ضد الأعداء.

٢- كان الفاطميون مقتنعين بأن من واجبهم الاستيلاء على كل العالم. وفي جذور عقيدتهم كان هناك الاعتقاد بأن المهدي سيأتي في آخر الدهر ليقيم العدل في العالم كله.

واهتم الفاطميون بصورة خاصة بالاستيلاء على ممتلكات الدولة العباسية، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم نحو سوريا إلا بعد تأمين حدودهم. ولهذا السبب ولاحتياجهم للأخشاب لبناء أسطولهم البحري، قام الفاطميون بعقد اتفاقية مع الدول الأوروبية، خاصة مع البندقية، ومع النوبيين لتأمين حدودهم، وربما أيضا لإدراجها ضمن قائمة قوائمهم بدلا من العرب والأتراك ومجموعات أخرى من المعتقد السُنّي.

الأسواني والأساقفة النوبيون

دونت فترات قليلة من إقامة الأسواني في دنقلة بواسطة المقريزي:

"عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني، بعثه القائد جوهر بكتابه إلى قرقي [أي جرجة الثاني] متملك النوبة يعرض عليه فيه الإسلام ويستأذن منه ما عليه من البقط. فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين أحرجا معه. فكبر ذلك عليه وجمع علماءه وأساقفته وأحضر ابن سليم للمناظرة، وقرأ عليه كتابا جوابا عن الكتاب الوارد معه يدعو جوهرا إلى النصرانية، ويحتج فيه كما احتج عليه بنسخ الشرائع؛ فطالت بينهما المناظرة.

ثم عاد إلى ذكر طاعته وموالاة أبيه وأخيه من قبل، فأعلمه ابن سليم أن هذا الذي دعى إليه يوجب الشكر عليه لأنه اختار له ما اختار لنفسه، ويجب أن يحمد الله على ما أولاه من إبقائه على مُلكه، لأن الإسلام لما ظهر أزال ملوكا كبارا من الأكاسرة [أي القياصرة] وغيرهم، وأقربها إليه أرض مصر: «فأيهما أكبر ملك مصر أو مُلكك؟» فقال له: «أما في الحال والمال فمصر، وأما الرجال، فنحن أكثر عددا و مددا.» فقال [ابن سليم]: «إن احتججت عليك بأن رجال مصر أكثر من رجالك ظلمتك في الاحتجاج، لأنك تقول لي قد رأيت مصر، وأما رجالي وغايتهم وما ورائي من البلاد الفلاني والفلاني فلم ترهم»"[281].

إن دفع البقط للملك الفاطمي يمثل اعترافاً رسمياً بأنه الخليفة الشرعي للدولة، أو أنه يعترف بملك مصر واقعاً حقيقياً.

[281] المقريزي، كتاب المقفى، في مسعد ص ٣٦٩-٣٧٠. (OS, p. 721-722)

وإن الدعوة لاعتناق الإسلام في المذهب الشيعي بالطبع، ترمي إلى الحصول على حلف سياسي، وأيضاً لل
إعطاء الفرصة للنوبيين للتقاسم في إمامة الفاطميين. إن الحجّة التي أقامها جوهر كانت مبنية على المقارنة الآتية وهي: كما أن الإسلام بتغلبه السياسي قد أثبت أنه دين الله الذي خص به الناس، فكذلك هو الملك الفاطمي الذي حقق نصراً في شمال إفريقيا، سيكون بإمكانه، بعون الله، أن يطيح بملك النوبة. ولكن للأسف، لا يوجد لدينا الرد الذي بعث به ملك النوبة رداً على هذه الحجة. ولكنه من دون شك نتاج بعثة الأسواني هذه، كان أساساً لحلف دام طويلا بين الفاطميين والنوبة.

أول عيد للمسلمين في دنقلة

وتزامن الوقت الذي كان فيه الأسواني بدنقلة مع موعد عيد الأضحى. وقد خرج الأسواني مع ستين من المسلمين للاحتفال به خارج المدينة. وبعد أن قاموا بنشر بندين عليهما اسم المعز لدين الله، فأمر الأسواني بضرب الطبل ونفخ البوق إيذانا بالاحتفال بالعيد وصلّى صلاة العيد مع مرافقيه. وكان أولياء الملك قد ضغطوا عليه لمنع الاحتفالات ولكن الملك قد أذن لهم بالاحتفال بالعيد وقال:

"هذا رجل فارق أهله ووطنه في صلاح، وهو يوم سرور، ويريد أن يتحمل بفعله هذا فلا أخلّ [ك] به[٢٨٢]".

والتقى الأسواني أثناء إقامته في دنقلة برجل في مجلس ملك المقرة وسأله عن موطنه وشعبه وديانتهم. فأخبره الرجل بأن بلاده تبعد مسافة ثلاثة أشهر عن نهر النيل. أما عن ديانته فأجاب الرجل قائلاً: "إن ربي وربك ورب الملك ورب كل إنسان واحد أحد". ولم يكن الرجل قد سمع من قبل عن موسى وعيسى (المسيح) أو محمد. ويبدو أن البلد الذي تحدث عنه الرجل يتبع لمنطقة ما في دارفور, أو إلى نفس المسافة غرب النيل. إن سكان ذلك البلد وثنيون ومن الواضح أن لهم شكلاً لتوحيد العقيدة. إن حقيقة وجود رجل من ذلك البلد في مجلس ملك دنقلة يبدو كدلالة على تأثير ملك المقرة الذي وصل إلى أماكن بعيدة عن النيل في ذلك الوقت (القرن العاشر).

الملك جرجة الثاني وتدخله لأجل أثيوبيا

في أوائل القرن العاشر قام البطاركة الأقباط بترك أثيوبيا دون أي مطران لمدة قاربت الستين عاما. ويعود السبب في تلك العقوبة إلى أن ملك أثيوبيا قد قام بنفي المطران الشرعي الذي بُعث إليهم من مصر، وقبل مطرانا آخر عين نفسه في محل الرسمي. وقد احتفظ ساويرس بالنص التالي من خطاب ملك أثيوبيا إلى ملك النوبة:

"أحب أن تساعدني في التعب منحل [أي من أجل] الله، ومن أجل اتفاق الأمانة، وتكتب كتاب من جهتك إلى الأب البطرك بمصر، تسله أن يحللنا. ويحلل بلادنا، ويصلي علينا [ك]، ليزيل الله عنا وعن أرضنا هذا البلا وينعم لنا بأن يقسم لنا

٢٨٢ المرجع نفسه، ص ٣٧١. (OS, p. 722)

مطران كما جرت عادة آبائنا [أي آبائنا]... وذكرت لك أيها الأخ ذلك خوفا من أن يتعرض ويبطل دين النصرانية من عندنا [...] وقد ماتوا أساقفتنا وكهنتنا، وقد خربت البيع[٢٨٣]".

وتلقى الملك جرجة خطاب ملك أثيوبيا وكتب للبطريرك فيلوثاوس[٢٨٤] (٩٧٩/٩٨٠-١٠٠٣) راجيا منه التعاطف مع الشعب الأثيوبي. وقد وافق البطريرك على وساطة الملك النوبي. ولم يحتو أي من خطاب الملك أو سيرة حياة البطريرك على أي دلالات أثرية فيما يتعلق بالسنة التي طُلب فيها من الملك النوبي أن يتوسط لدى البطريرك.

ولا توجد معلومات معتمدة أخرى في المصادر الموثوقة عن الملك جرجة الثاني. ولكن دوّن كتابٌ عربيٌ يعقوبيٌ يدعى "سنكسار"[٢٨٥] (Synaxarion) (٢٣ كيهَك = ١٩ ديسمبر) قصة خيالية يبدو أنها ترجع إلى فترة الملك جرجة الثاني، عندما كانت تسيطر النوبة على مصر العليا. وأصبح "قفرى" (أو قفري) ابن أخ أو أخت ملك النوبة راهباً في مصر. وفي أحد الأيام ذهب من ديره لزيارة صديق له كان يقطن في "دير شنودة" (بالقرب من سوهاج). وعكس ما كان متوقعا فقد وجد الصديقان نفسيهما في أورشليم بعد رحلة استمرت لليلة واحدة. ولم يكن هنالك شك لدى بالنسبة لحضور عدد من رهبان النوبة إلى الأديرة في مصر آنذاك.

في عام ١٠٠٢م كان ملك يدعى رافائيل يحكم على دنقلة. وكان هو أو خليفته قد توفي في ١٠٠٦م كما سنرى في قصة "أبي ركوة". وخلف على عرش دنقلة يبدو أنه كان ينقل من الأب لابنه. وبالتالي يمكننا الافتراض، وبلا دليل، أن سلالة جرجة ما زالت على العرش.

إن المصادر الأدبية كانت صامتة عن التاريخ النوبي في الفترة من القرن الحادي عشر وحتى القرن الثاني عشر، بالرغم من ازدهار الثقافة فيما جُمع فيها من آثار. ونتعرف فقط على وجود ملك منفصل لدُتاوّ في شمال نوباتيا. وقد تولى ذلك الملك العرش باسم موسى جورج في الفترة من ١١٤٤ إلى ١١٩٩م. أما بشأن انقسام مملكة المقرة بهذا الشكل، فنشتبه فقط في أي نوع من الدسيسة في بلاط دنقلة. ويبدو أن خليفة موسى كان ملكا آخر باسم جورج.

وهنالك بعض الأحداث المتناثرة التي وردت في سير البطاركة الأقباط وفي مؤلفات بعض المؤرخين العرب في مجال التاريخ المصري.

الحاكم بأمر الله

في عام ٩٩٦ خلف الحاكم بأمر الله —وهو ذو الأحد عشر عاماً وأمه إغريقية مسيحية- أباه ملك مصر العزيز بالله وهو رجل حكيم. وبعد سنوات قليلة من الوِصاية، أظهر الحاكم شخصيته الحقيقية، فهو كوحش يجمع الضراوة

٢٨٣ ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في مسعد، ص ٨٧-٨٨. (OS, p. 206-207)

٢٨٤ يوجد أيضا هذا الاسم مكتوب كالآتي: فيلاثاوس.

٢٨٥ ملاحظة المحقق: كتاب السنكسار هو سير القديسين يُقرأ بعد سفر أعمال الرسل في الكنائس القبطية.

مع الشراسة. فنحو عام ١٠٠٥م أعلن أن كل الكنائس وبما فيها كنيسة القيامة في القدس يجب أن تُهدَم. وأعطى المسيحيون خيار اعتناق الإسلام أو مغادرة البلاد. ومن الغريب أن الحاكم قد واصل دعوة والده للمسيحيين لـ أن يكونوا عونا له في الحكومة حتى كان يأمر بقطع رؤوسهم. وقد أمر بأن يُرمي بالبطريرك القبطي زكريا (١٠٠٣م–١٠٣١م) للأسود. وكان راهب نوبي يدعى شيشي (أو سوسان) مرافقاً للبطريرك في مغامرته تلك والتي عادا بعدها في أمن وسلام.

وفي حوالي عام ١٠٠٨م، أعلن الحاكم أن أي مسيحي بمصر يود الذهاب إلى الإغريق أو النوبة أو أثيوبيا لا يجب منعه، وقد كانوا يُمنعون في السابق من السفر[٢٨٦].

أبو ركوة

أكثر الأحداث أهمية في هذا الوقت عندما كانت النوبة مشاركة بشكل ما في القبض على "أبي ركوة" في مكان ما بالقرب من فرص.

كان الوليد بن هشام الملقب بأبي ركوة –لأنه كان يحمل قِربَة معه– سليلَ الأمويين من الأندلس. وفي عام ١٠٠٣م جاء إلى شمال إفريقيا حيث حصل على ولاء القبائل البربرية وبعض العرب. وبمعاونتهم تمكن أبو ركوة من هزيمة قوات الحاكم في عدة مواجهات، وبحوالي عام ١٠٠٦م وصل إلى أطراف القاهرة. وجمع الحاكم جيشا ضخماً بقيادة الفضل بن صالح لملاقاته. وجرت المعركة المحتومة في الفيوم وهُزِم أبو ركوة شر هزيمة. ونصحه جنوده باللجوء إلى النوبة طلباً للأمن، وفي ذلك الوقت أُعتقل هناك. وقصة اعتقاله التي ذكرها عدد من المؤرخين العرب مثل ابن القلانسي، ويحيى الأنطاكي، وابن الأثير، وأبو صالح وغيرهم، كانت تحتوي على تفاصيل تشير إلى الوضع في بلاد النوبة.

أما جنود الفضل الذين بحثوا عبثاً عن أبي ركوة في مصر العليا، فقد عادوا أدراجهم إلى القاهرة. كان أبو ركوة قد دخل النوبة متخفياً برفقة جمّالين من البجة، وذهب إلى "صاحب الجبل". وقدم نفسه كمبعوث للحاكم وطلب مقابلة الملك. وأخبره "صاحب الجبل" بأن الملك شديد المرض وأنه يلزمه تصريح خاص ليذهب إلى دنقلة. وفي ذلك الوقت وصلت المعلومات إلى القاهرة مفادها أن أبا ركوة موجود بإبريم. وهنا بعث الحاكم بالرسل والرسائل طالباً إعادة المتمرد لمحاكمته. وقد أرسل صاحب الجبل تقريراً إلى ملك دنقلة. وأمر فضل بن صالح رجلا اسمه الحُذَيْل، وهو "أمير العرب وحاكم السودان(السود)"، بالقبض على أبي ركوة بكل الوسائل، ووعد بجائزة من المال والماشية لذلك الغرض. وعندما بحث الحذيل جيدًا في مقاطعة المريس وصل إلى إبريم وأخبر صاحب الجبل بمهمته.

[٢٨٦] راجع: ساويرس، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية في:
H.O.S. Burmester (ed.), History of Patriarchs of the Egyptian Church, vol. II, Soc. Arch. Copte, Cairo 1943, p. 206. (OS, p. 207-208).

وأضاف بأن جيشه سيحتلّ النوبة ويسلبها لو لم يسلمه المتمرد. ومن دنقلة جاءت الأنباء بموت الملك وبخلافة ابنه على العرش. كان ذلك في نوفمبر من عام ١٠٠٦. وقيل أن صاحب الجبل قد أخبر الحذيل قائلا: "لم يجتز أحد الحدود إلا اثنين من النصارى لهما جمال البجة". فقال الحذيل: "إنهما من أطلبهما. وإذا وجدتهما فاقبض عليهما".

وتم إلقاء القبض على أبي ركوة في دير القديس شنودة على بعد عشرة أيام من جنوب أسوان، أي بالقرب من فرص. هنالك وجد الحذيل خادما برفقة اثنين من الجمال وسأله عن سيده، وفجأة ظهر أبو ركوة وهو متنكّر وحامل الركوة –أي الحقيبة– على رأسه، فحياه الخادم: "السلام عليك يا أمير المؤمنين". وهنا قام الحذيل باعتقال أبي ركوة واقتاده إلى أسوان. وتم إعدام أبي ركوة بصورة وحشية في القاهرة في ٨ مارس ١٠٠٧م.

يعتقد بأن الحذيل هو ذلك الزعيم لقبائل ربيعة العربية والذي –كما جاء به المؤرخون– كُرّمَ من قِبل الحاكم بلقب "كنز الدولة" ليصبح لقباً متوارثاً في عائلته. وكان أحفاده من أصول مختلطة من العرب والبجة والنوبة قد لعبوا دوراً في الأيام الأخيرة لدولة المقرة ومنحوا موالاتهم تارة للمصريين وتارة أخرى للنوبيين مما سبّب توتراً في مصر العليا.

النوبيون والمُستنصِر

سجلت بعض الحلقات من "سير البطاركة" الأحداث التي وقعت أثناء حُكم المستنصر بالله ملك مصر (٤٢٨-٤٨٧هـ؛ ١٠٣٦- ١٠٩٤م).

قام الوزير الذي يدعى اليازوري (١٠٥٠-١٠٥٨م) باعتقال البطريرك القبطي اخرسطادلوس (١٠٤٦-١٠٧٧) لبعض الوقت بسبب الاتهام الباطل بأن البطريرك قد نصح ملك النوبة بألا يدفع البقط.

وفي حوالي عام ١٠٧٠م أرسل اخرسطادلوس جرجة أسقف نَتو (أو بَتو)، وبمون (Poimen) أسقف أرْمانت، إلى النوبة برسالة إلى الملك ليطلب منه مساعدة مالية لدفع فداء. وقد أحسن الملك وفادتهم وأعطاهم مبلغاً من المال جاءوا به للبطريرك. "وفي نفس الرحلة قام الأسقف أنبا جرجة بتدشين كنيسة جديدة بناها ملك النوبة بمدينة دنقلا وكرز فيها أربعة هياكل"[٢٨٧].

ويحكي كاتب سيرة اخرسطادلوس –دون ذكر للزمان والمكان– أن عصابة من السود اجتاحت ديرا في مصر ولكنهم هزموا بطريقة معجزية.

أتهم اخرسطادلوس في الفترة من ١٠٧٣م و١٠٧٧م بتنصيبه مطرانا نوبيا يدعى فيكتور يُزعَم أنه قام بتدمير مسجد في النوبة. وعُين البطريرك مسؤولاً عن الإساءة المزعومة تلك. وآنذاك كان الوزير "أمير الجيوش" (أي بدر

[٢٨٧] ساويرس، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية في:
H.O.S. Burmester (ed.), op.cit., p. 282. (cf. OS, p. 212).

الجمالي الأرمني المولد ١٠٧٣-١٠٩٤) في مصر العليا لإخماد تمرد قاده واحد من أبناء كنز الدولة ولاستعادة الحكم الفاطمي. فأمر الوزير بحبس البطريرك وفي نفس الوقت إرسال رسول إلى النوبة لبحث الشكوى. وعاد الرسول الذي يدعى حسام الدولة بأن الاحتجاج لا أساس له من الصحة. بالتالي البطريرك قد أطلق سراحه ولم تكريمه. وكان لا يعرف إن كان يوجد مسجد في النوبة أم لا آنذاك. ومما يمكن استخلاصه من هذه الحلقة أن الإسلام قد تقدم نسبيا في النوبة منذ زيارة الأسواني لدنقلة.

أما بشأن المتمرد كنز الدولة، فقد تولى حكم مصر العليا مستقلا عن القاهرة مرة أخرى -مما نقض الاتفاقية الموقعة بينه وبين أمير الجيوش- وسبب سلبا ونهباً في كل أنحاء مصر العليا. فبعث أمير الجيوش بأحد النبلاء يدعى سيف الدولة لإقصائه. وبعد اتفاقية بين الأمير والبطريرك، سافر هذا الرسول برفقة أسقف يدعى ميركوريوس - ويلقب بـ "الوعواء"- وكان يحمل رسالةً من البطريرك إلى ملك دنقلة. وعندما علم كنز الدولة بأن سيف الدولة قد تحرك لإقصائه، هرب إلى النوبة. وتقدم سيف الدولة وميركوريوس معا نحو النوبة. وقدم الأسقف الخطاب إلى الملك، وهذا سلم المتمرد كنز الدولة للمطران الذي أرسله إلى القاهرة حيث أعدم هناك.

سَلْمون الملك

في ١٠٧٩م تنازل سلمون ملك النوبة عن عرشه ليكرّس نفسه للحياة الرهبانية. وعيّن ابن أخته جرجة (جورج الثالث) خَلَفًا له. وتقاعد سلمون في دير "أبو نفر" الذي لا بد أنه كان قريبا من فرص كما قيل أنه يبعد عشرة أيام من أسوان. ولما سمع أمير الجيوش بذلك بعث بالرسل لاعتقاله وجلبه إلى القاهرة. وقد تلقاه الأمير بعظيم الترحاب واقتطع له دارا فخمة في القاهرة القديمة. وتوفي الملك في السنة التالية (١٠٨٠م) ودُفِن في دير ماري جرجس في الخندق بالقرب من باب الكنيسة. وفي هذا أضاف المؤرخ أبو صالح قائلا:

"وُجِدَ ضمن أوراقه خطابٌ كتب بخط يده بقلم نوبي [أي بحروف نوبية] أثبت تعليمه وديانته وزُهده. وكان معلناً بأنه 'الملك القديس'[٢٨٨]".

إن كاتب سيرة البطريرك كيرلس (١٠٧٧-١٠٩٣) الذي روى قصة سلمون لم توضح الذي حدا بأمير الجيوش أن يتخذ تلك الأحكام ضد ملك نوبي انفرد للعبادة والنسك. ربما كان عضو عائلة بني كنز مَن تآمر على سلمون، لأن ملك بلاد النوبة (ربما سلمون نفسه)، كما ذكر آنفا، قام بتسليم أمير من بني كنز أُعدِم في القاهرة. ومن الممكن أيضا أن الأمير ربما يكون قد خاف الثورة والقلاقل كملك يسكن بالقرب من الحدود الجنوبية.

وبصرف النظر عن هذه الافتراضات، فإن لنا بعض الملاحظات حول هذه القصة. أولها أنه تمت استعادة قانون أولوية العرش لابن أخت الملك في دنقلة. ولعل أسرة جرجة قد توقفت أو تم الإطاحة بها. والملك الذي حكم بعد

٢٨٨ تاريخ الأرمني. ترجمنا من (OS, p. 332).

سلمون يسمى جورج ونعتبره هنا جورج الثالث لأننا لا نعرف أي اسم بعد جورج (جرجة) الثاني.

وقام ملك نوبي يدعى باسل أثناء بطريركية كيرلس بإرسال

"هدية قيمة [...] ومعها ابن الملك الذي كان قبله وتوفي، وكان غرض ابن الملك أن يرسمه الأنبا كيرلس أسقفا للنوبة. إذ حسب تقاليدهم عند وفاة الملك، ليس ابنه خلفه بل ابن أخته[٢٨٩]".

إذا ليس ثمة شك في استعادة هذا القانون التوارثي للعرش في دنقلة. وهنا نقرأ لأول مرة طلب ابن ملك ليصير أسقفا.

ونعرف ملك آخر باسم جورج (الرابع) من كتابة على لوحة قبره الصخرية في كنيسة العذراء بدير السوريان بوادي النطرون. وشكل الحجر هو دائري منقوش بالنوبية والإغريقية. ومن النصين يتبين أن جورج الرابع ولد في ١١٠٦م ولا يمكن الجمع بينه وبين ذلك الملك جورج الثالث الذي حكم بعد سلمون. لقد نال العرش في ١١٣١ وتوفي في ١١٥٨م. ولما وجدت مقبرته في دير فإننا نفترض أنه أصبح راهبا بمصر.

النوبيون في الجيش الفاطمي

إن عدد النوبيين الذين تم تجنيدهم بالجيش الفاطمي بلغ مبلغا غير مسبوق من قبل ومن بعد. وصل عددهم ٥٠,٠٠٠ في عهد المستنصر بصرف النظر عن النوبة المهاجرين إلى مصر. وكانت أم المستنصر وهي أمة سابقة تملك خمسة آلاف أسود في خدمتها. معظم الجنود السود كانوا من النوبيين ولكن يوجد عدد قليل من البلاد والقبائل المجاورة. يقول ناصر خسرو الذي قام بزيارة مصر وبلاد النوبة عام ١٠٥٠م:

"وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا لمصر من أطراف العالم، ولا يعدون من الجيش. وهم من المغرب واليمن والروم وبلاد الصقالبة والنوبة وأولاد ملوك الكرك [جورجيا] وأبناء ملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان... ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين وليس لهم عمل إلا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون[٢٩٠]".

وذهب ناصر خسرو إلى عيذاب كمبشر وبقي هناك لبعض الوقت وخلف هذا الوصف:

"ومدينة عيذاب هذه تقع على شاطئ البحر وبها مسجد جمعة، وسكانها خمسمائة، وهي تابعة لسلطان مصر، وفيها تحصل المكوس على ما في السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن[٢٩١]".

المسلمون السنيون الذين يحرون للحج من عيذاب إلى جدة كان يترتب عليهم دفع دينار واحد على الرأس كضريبة تدفع للخليفة الفاطمي. ولما كان ناصر خسرو شيعي فإنه لم يذكر المعاملة السيئة التي كان يتعرض لها

٢٨٩ ساويرس، نفس المرجع، ص ٣٤٩-٣٥٠. ترجمنا من (OS, p. 217).

٢٩٠ ناصر خسرو علوى، سفر نامة (ترجمة: يحيى الخشاب)، القاهرة ١٩٤٥، ص١١٤. (لا تذكر الطبعة الثانية "أمراء النوبة": الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص١١١.) (cf. OS, p.237)

٢٩١ ناصر خسرو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص١٣٣؛ و مسعد، ص ١١٨. (cf. OS, p.235-236)

الحجيج بعيذاب. وقد ذكر هذه المعاملة السيئة الرحالة السُّنّي ابن جبير والذي تصادف وجوده هناك في عام ١١٧٣ في أعقاب الإطاحة بالنظام الفاطمي في القاهرة. وقد ذكر أن صلاح الدين قد ألغى التدابير الشائكة وكل الضرائب والمكوس بمجرد وصوله إلى السلطة.

وقد كانت عيذاب مرسى للسفن الخمس من الأسطول الفاطمي الذي كان يقوم بحماية التجارة البحرية في البحر الأحمر.

أما في الشؤون السياسية فقد فرض السود سطوتهم على حد قول أبي شامه: "وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلّوه"[٢٩٢]. فقد كان حاجبا البلاط الفاطمي خصيين نوبيين. وكان أحدهم يلقب باسم "مؤتمن الخلافة" والثاني "زعيم الخلافة".

النزاعات العرقية

لقد تسبب التباين العرقي بين الجنود – مقترنا بالحقد الذي أثاره أخذ النوبة أكبر نصيب في اقتسام الغنيمة – بصدام جنود النوبة مع الترك، مما عاث فسادا في القاهرة. ولعل أكثر الصدامات دموية ذلك الذي حدث في ١٠٦٦ أثناء موكب هدف إلى السخرية من الحج لمكة. واستل جندي تركي سكران سيفه وضرب به جنديا أسود، فكان أن هجم عليه كل السود وأردوه قتيلا. وقد اندلعت حرب "بكوم شريك" حيث انتصر الأتراك على السود بقيادة ناصر الدولة بن حمدان وذبح الكثير من السود.

وقد أحزنت تلك المذبحة التي تعرض لها السود أم المستنصر فبعثت بتعزيزات من المال والجنود للذين نجوا من القتل. وقد استولى الترك على بعض المال والأسلحة وذهبوا للاحتجاج لدى المستنصر، وقد أقسم لهم أنه لا علم له بالحادثة. إلا أن الاضطرابات قد تجددت. وأصبح الأتراك أقوياء ومتعجرفين أمام الخليفة، فأخذوا يطالبون بزيادة راتبهم رغم شح موارد البلاد آنذاك. أما أم المستنصر، فقد أرسلت إلى قواد السود تغريهم بقتل الترك. وقد تحرك السود تجاه الجيزة لقتال الترك إلا أن ناصر الدولة قد التقاهم وقطعهم إربا. أما البقية منهم، فقد هربوا إلى الصعيد وأعادوا تنظيم صفوفهم استعدادا لملاقاة الترك في جحفل وصل عدده قرابة الـ١٥,٠٠٠ فارس. وعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة أرسل ناصر الدولة للمستنصر يستطلعه الأمر إلا أن المستنصر أنكر مرة أخرى أن يكون هو المنظم لجمع السود.

وفي هذه الغضون أمرت أم المستنصر السود من حاشيته بالمهاجمة على الترك فجأة وقد فعلوا وقتلوا الكثيرين منهم. وقد أقسم ناصر الدولة أن لا ينزل من صهوة فرسه ما لم ينحل الأمر. وشنت حرب أخرى لقي فيها الكثير

[٢٩٢] أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، في مسعد، ص ١٧٦. (OS, p. 366)

من السود حتفهم[٢٩٣].

وخرج ناصر الدولة للإسكندرية وقد قام بقتل كل من صادفه من السود في طريقه. ثم ذهب إلى الصعيد لسحق ما تبقى منهم. وفي واقعة أخرى بالقرب من الجيزة دحر السود. واشتبه دائما في أن المستنصر كان قد ساعد السود. والمزيد من النوبيين جاءوا إلى مصر للانخراط في الجيش. وبنهاية الدولة الفاطمية كان هناك ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ مجند أسود تحت إمرة "العديد" آخر الخلفاء الفاطميين. وقد ظهر جليا مناصرة السود للفاطميين في الحروب بين الفاطميين وصلاح الدين.

بالإضافة إلى النوبيين المسجلين في الجيش الفاطمي، كان هناك الذين هاجروا إلى مصر يبحثون عن عمل. ومعظمهم، إن لم يكن جميعهم، قد اعتنق الإسلام الشيعي. وبالتأكيد كانت هذه الهجرة واحدة من العوامل في تقدم الإسلام في النوبة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

ومن ناحية أخرى، قد سهّل وجود عدد كبير من النوبيين في مصر لهجرة بعضهم إلى فلسطين وبيت المقدس والأماكن الأخرى على طول البحر الأبيض المتوسط. وقد ذكر الرحالات الغربيون أن للنوبة كنيسة خاصة بهم بالقرب من كنيسة القيامة التي شيدها المقاتلون الصليبيون. ومن ثم نشأ الاتصال بين النوبة والصليبيين والذي كان له بالغ الأثر في التاريخ النوبي.



وجدت هذه الصورة في كنيسة "بوابة النهر". فيها أسقف نوبي بالملابس الخاصة به.

[٢٩٣] انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، باريس ١٩١١-١٩٢٧، م٢، ص ٢٧٦-٢٧٩.

الفصل الثالث عشر
النوبة والفترة الذهبية

نعمت النوبة بفترة طويلة من السلام بين القرنين العاشر والثاني عشر. ويمكن للمرء أن يفترضها أيضا فترة استقرار سياسي وازدهار اقتصادي نسبي. وتؤكد جميع البقايا الأثرية المكتشفة في فرص، ودنقلة العجوز، وإبريم وعدة مناطق أخرى خاصة من منحني دنقلة، أن هذه الفترة كانت العهد الذهبي للثقافة والازدهار النوبي. وسوف يتم وصفهم أدناه في فصل منفصل عن الاستكشافات الأكثر حداثة[٢٩٤].

المعلومات الواردة من المصادرة الأدبية هي نادرة نوعا ما. وأفضل الروايات المتاحة هي تلك التي كتبها ابن حوقل وسليم الأسواني، اللذين زارا علوة والمقرة على التوالي حوالي القرن العاشر الميلادي. وكشف علم الآثار أنه كان في النوبة صفوة متعلمة من البنائين والرسامين الخزافين والفنانين والمترجمين من المواعظ الدينية وبحوث الكتاب الشرقيين، وبكل تأكيد، فإن ترجمتهم للكتاب المقدس للّغة النوبية من الإغريقية تعد تحفتهم.

سوبا

هنالك دليل بأن موقع سوبا, حوالي ٢٠ كم باتجاه المنبع من ملتقى النيلين الأزرق والأبيض، كان مقطونا منذ القرن الرابع قبل الميلاد. ولكن ليس هناك دليل بأنها كانت العاصمة. بعد سقوط مروي (حوالي سنة ٣٥٠م)، هرب كثير من الناس باتجاه الجنوب قرب ملتقى النيلين، وربما سهّل وجودهم هنالك تغيير الدين من الوثنية إلى المسيحية.

كل الكتاب العرب الذين تحدثوا عن علوة ذكروا سوبا على أنها مدينة البلاط الملكي المبني على الضفة الشرقية للنيل الأزرق والرأس الشمالي للجزيرة الكبرى، التي كونها النهران[٢٩٥].

ويقول اليعقوبي إن الطرق إلى سوبا مسيرة ثلاثين يوما من العلاقي مرورا بالأبواب.

"والمسلمون يختلفون إليها، ومنها يأتي خبر ابتداء النيل[٢٩٦]".

ويقول الأسواني معتمدا على الأقاويل عن سوبا:

---

[٢٩٤] راجع الفصل الثاني والعشرين لهذا الكتاب.

[٢٩٥] راجع: ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص ١٠٢. (cf. OS, p. 613)

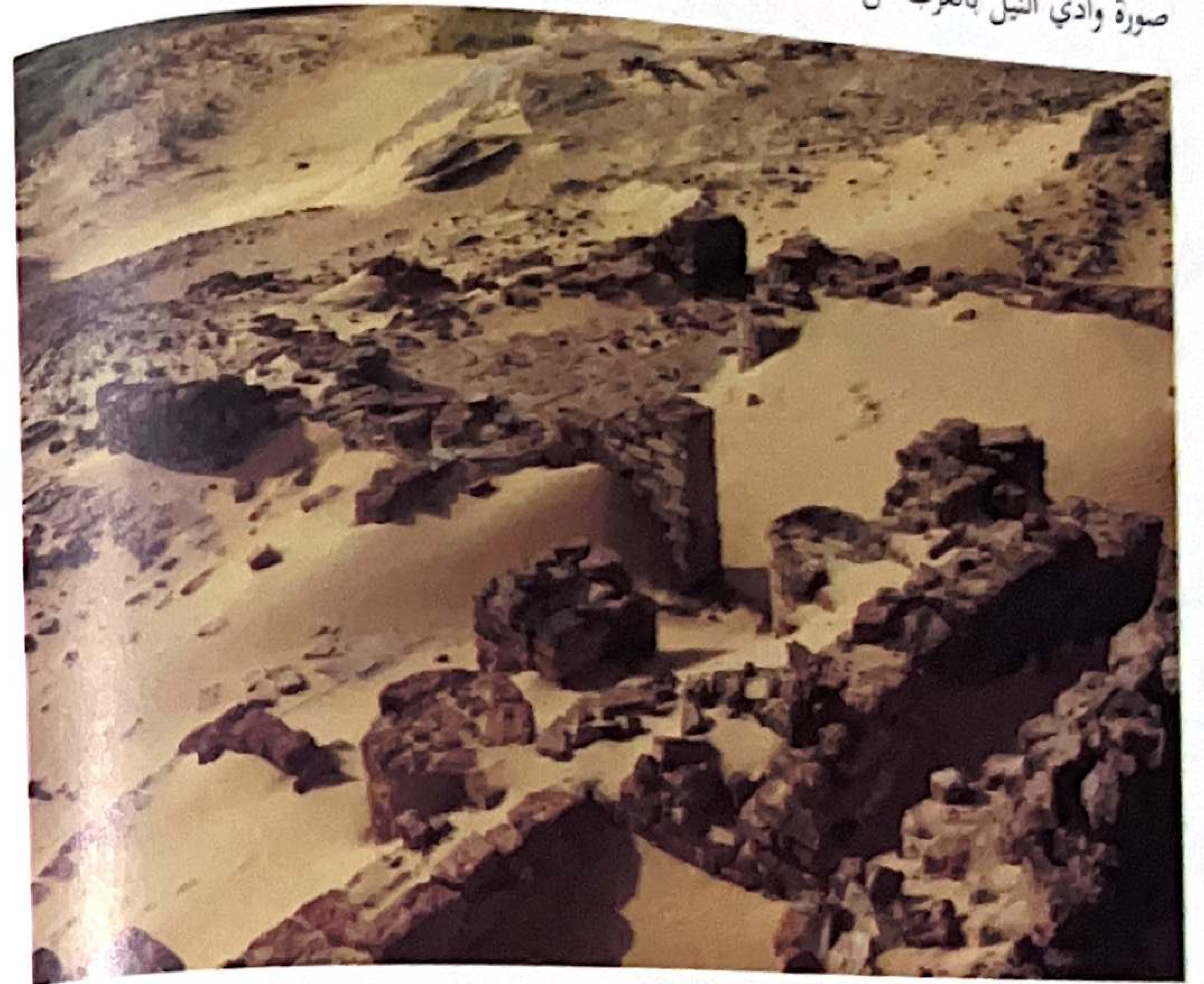
[٢٩٦] اليعقوبي، كتاب البلدان، في مسعد، ص١٨. (cf. OS, p. 78)



صورة توضح منظرا لمدينة دنقلا من ناحية الصحراء الشرقية.



صورة وادي النيل بالغرب من دنقلا العجوز.



صورة لدير الثالوث الأقدس بدنقلا العجوز.

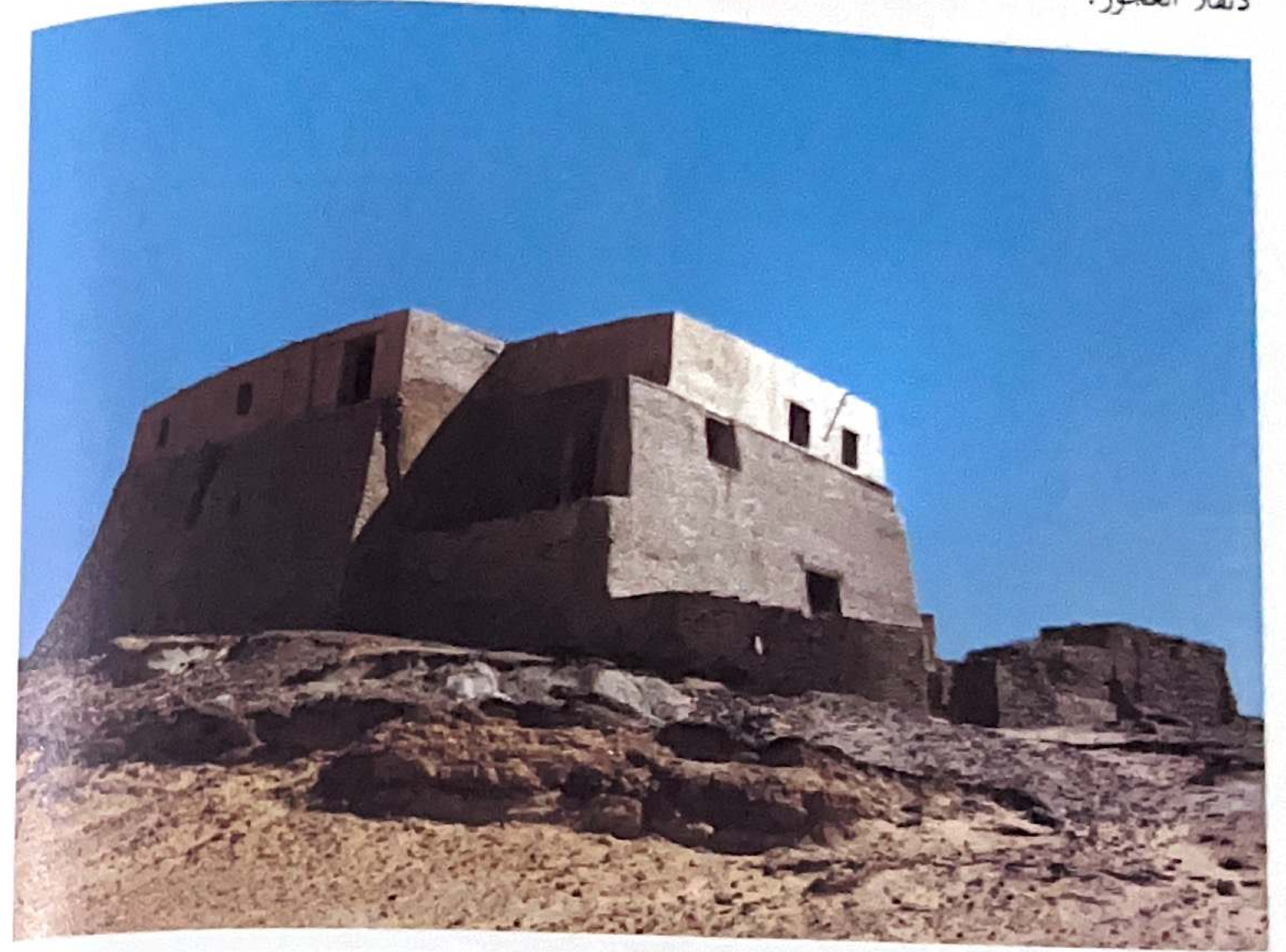


صورة للكنيسة ذات الأعمدة الجرانيتية التي أُستخدِمت في وقت ما ككاتدرائية.





دنقلا العجوز.



صورة لما كان يُعرف ب(المسجد القديم) الذي شُيد كقصر ملكي لجمهور المستمعين في القرن العاشر.



مجسّم بلاستيكي لكاتدرائية فرص.



صورة لسرداب كاتدرائية فرص وفي وسطه يظهر للملك قرقي الأول تحت حماية العذراء وحوله الرسل الا



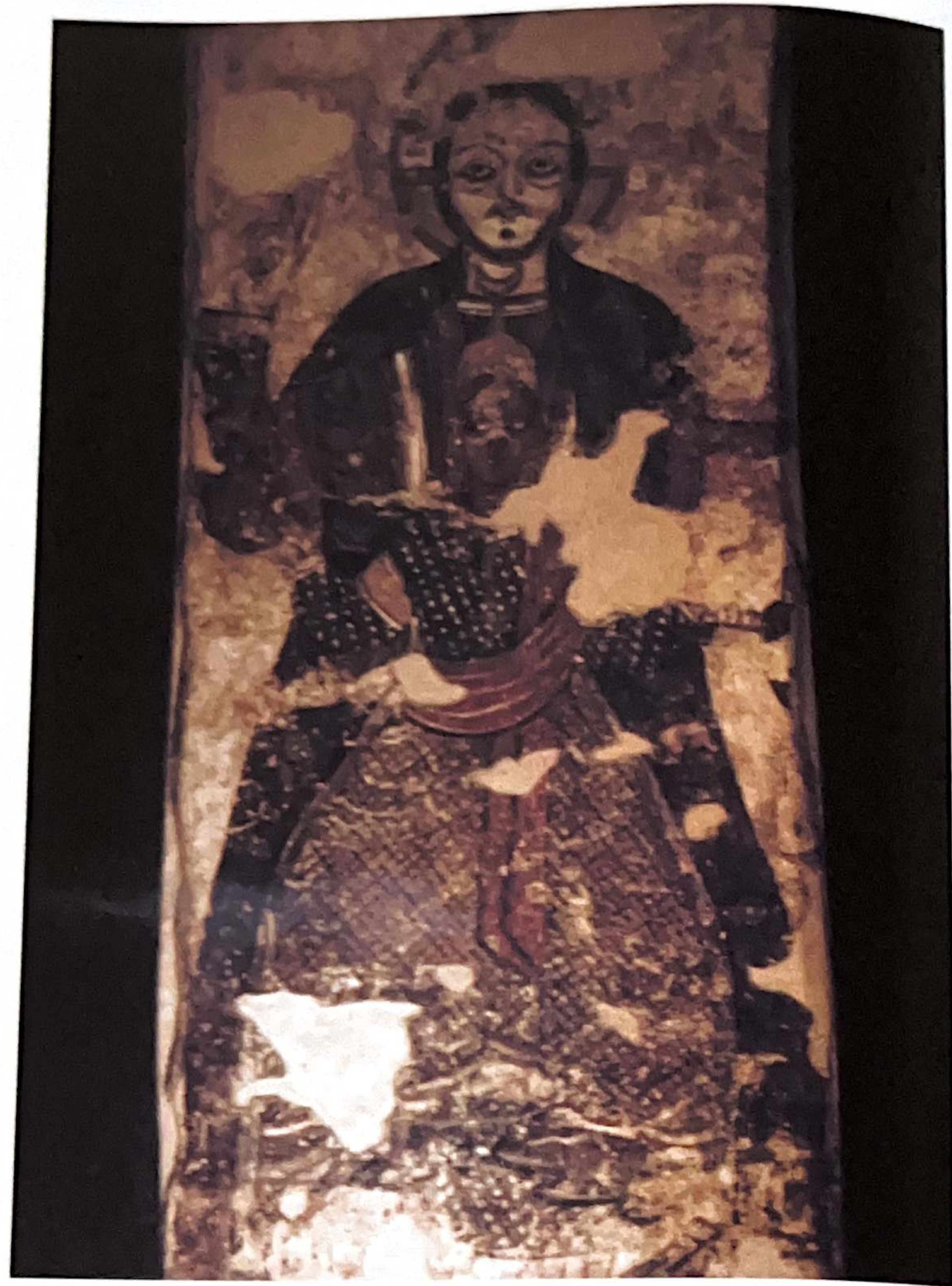
صورة لكاتدرائية فرص. يظهر فيها المطران ماريانوس تحت حماية مريم العذراء (١٠٠٦-١٠٣٦م



صورة الفتية الثلاثة في أتون النار تحت حماية الملاك ميخائيل.



كاتدرائية فرص: صورة العذراء مريم بين ملاكين.



كاتدرائية فرص: صورة أبرخص نوباديا تحت حماية يسوع المسيح (اللوحة الأصلية محفوظة في متحف وارسو القومي). في الصفحة السابقة: صورة بكاتدرائية فرص نوضح العذراء مريم والطفل يسوع يقومان بحماية زوجةَ الأبرخص.

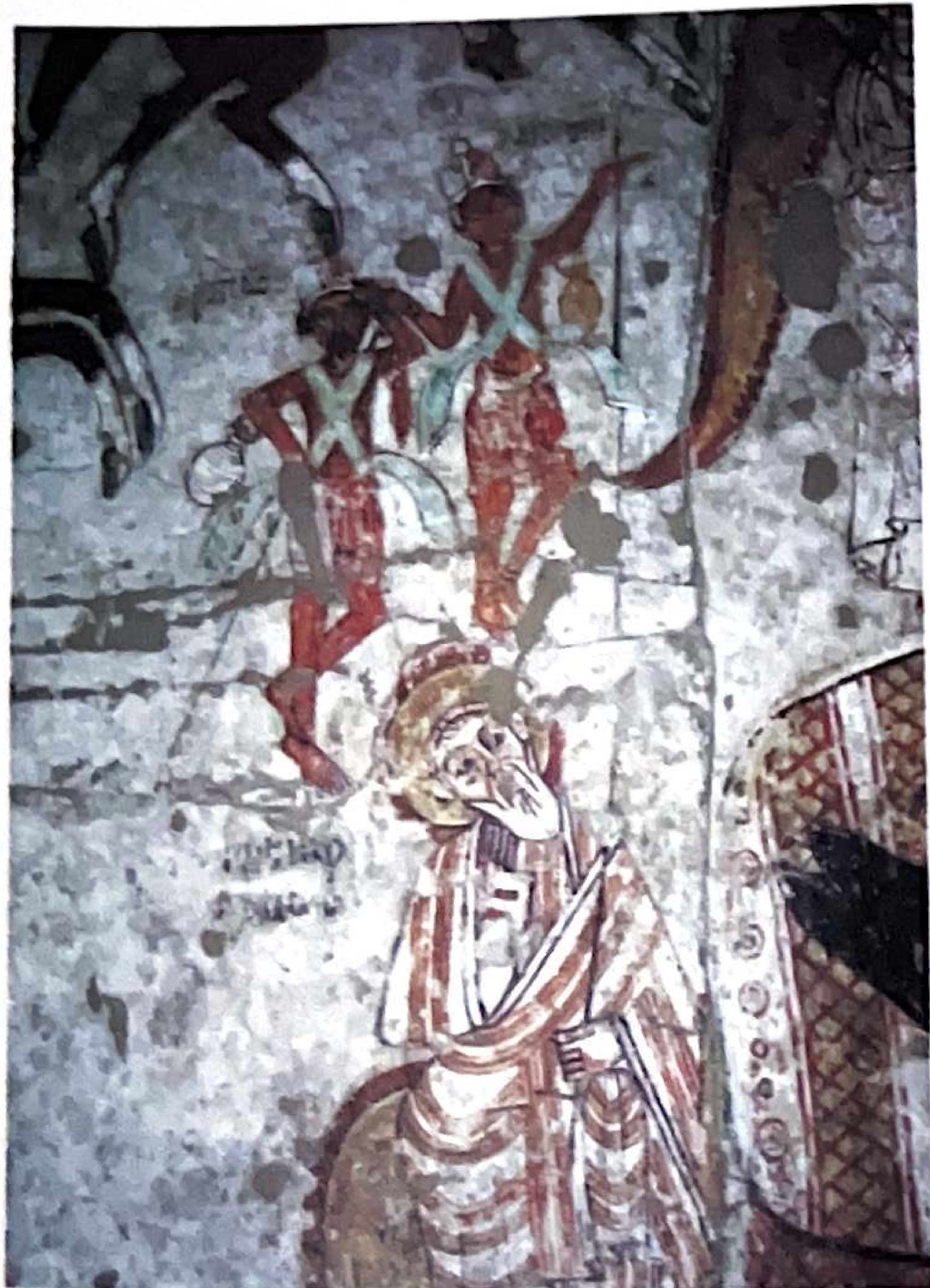


اللوحة الرئيسية بكاتدرالية فرص
التي توضح مولد الرب يسوع المسيح
(ترجع خوالي القرن الحادي عشر)

توجد هذه اللوحة في
متحف السودان القومي.







كاتدرائية فرص: تفاصيل لوحة الميلاد.

الميلاد. في إتجاه عقارب الساعة:

- الملاك جبرائيل.
- رؤساء الملائكة ميخائيل ورافائيل بالخلف من مريم العذراء.
- المجوس الثلاثة.
- النجمة المثمنة فوق المذود ببيت لحم حيث يشير وسط النجمة إلى وجه الطفل يسوع.
- الراعيان (أرتيس وليكوتيس) بالأزياء النوبية ويشيران إلى المذود، بينما يتأمل القديس يوسف في مريم العذراء.







ي الصحفة السابقة: كاتدرالية فرص.
يحمل يسوع المسيح الكتاب المقدس
بيده اليسرى ويبارك بالأخرى وعلى
وعلى يساره قائمة بأسماء أساقفة فرص.

ي هذه الصحفة: كاتدرائية فرص:
المطران بتروس (٩٧٢-٩٩٦) تحت
حماية بطرس الرسول.

كاتدرائية فرص. صليبان نذريان.



كاتدرائية فرص. القديسة آنا (القرن الثامن).




أعلاه وعلى الصفحة التالية: الملائكة في كاتدرائية فرص.



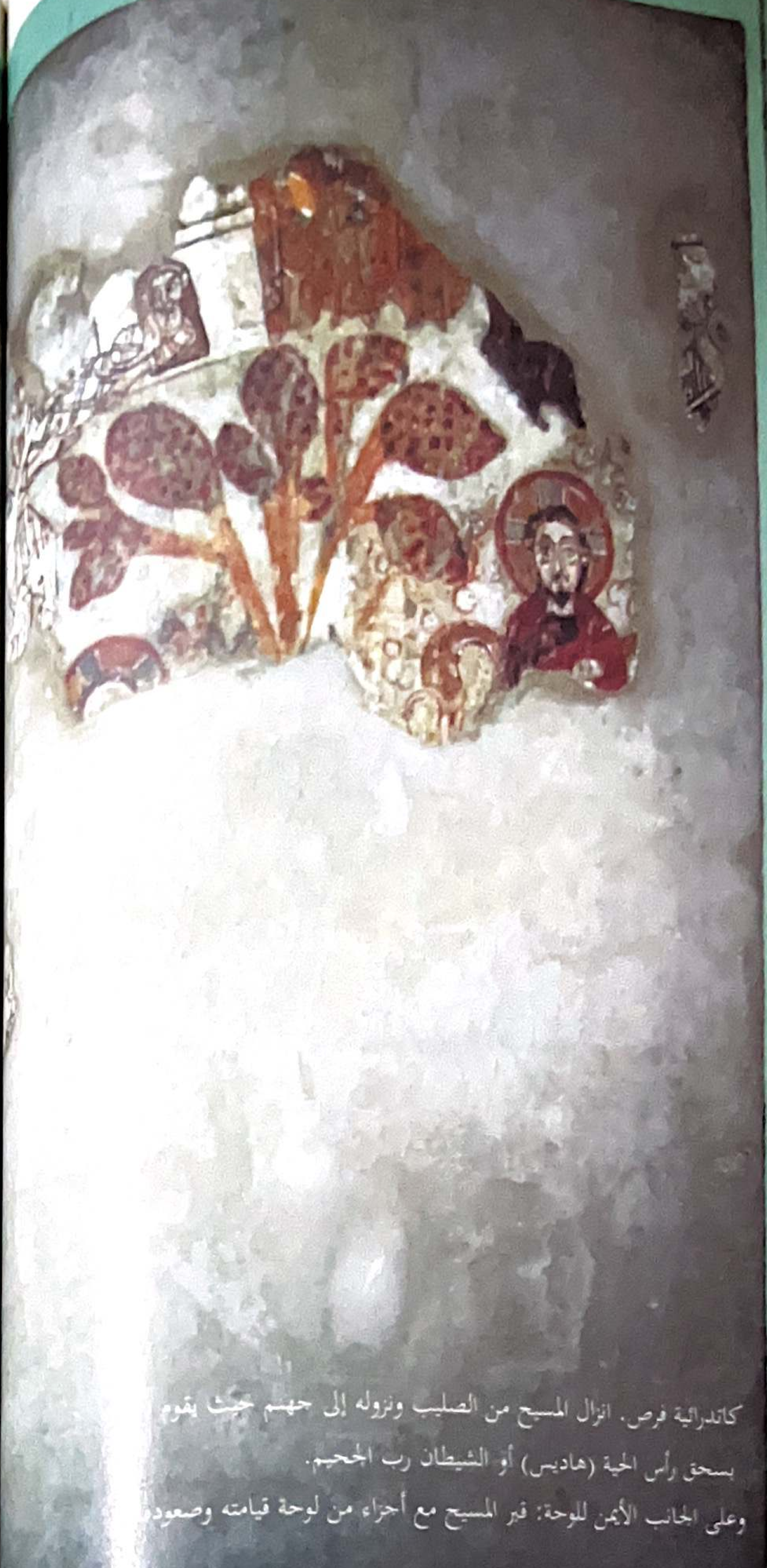


كاتدرائية فرص. الصليب يتوسطه المسيح وحوله رموز الإنجيليين الأربعة.

في الصفحة التالية: كاتدرائية فرص. محارب قديس بملابسه النوبية.







كاتدرائية فرص. انزال المسيح من الصليب ونزوله إلى جهنم حيث يقوم بسحق رأس الحية (هاديس) أو الشيطان رب الجحيم.

وعلى الجانب الأيمن للوحة: قبر المسيح مع أجزاء من لوحة قيامته وصعوده

"وفيها أبنية حسان ودور واسعة وأديرة كثيرة الذهب والبساتين[٢٩٧]، ولها ضاحية فيها جماعة من المسلمين[٢٩٨]".

ومن الراجح أن أبا صالح (١٢٠٠م) تحدث عن المدينة والمملكة، وهما في قمة الازدهار؛ فكتب:

"مدينة علوة: بها جيش ومملكة عظيمة جدا وأعمال متسعة، وبها أربعمائة كنيسة. وهذه المدينة في شرقي الجزيرة الكبيرة بين البحرين الأبيض والأخضر. وجميع من بها نصارى يعاقبة، وحولها ديارات متباعدة من البحر، ومنها ما هو على البحر، وبها كنيسة عظيمة جدا متسعة محكمة الوضع والبنا أكثر من جميع الكنائس التي بها، وتسمى بكنيسة منبلي. ويزرع أهل هذه المنطقة[٢٩٩] على ماء النيل والمطر[٣٠٠]".

لا يوجد اسم "منبلي" في أي من المصادر المسيحية العربية، ولكنه مجرد تخمين الاعتقاد بأنه اسم مؤسس الكنيسة.

وروى ابن حوقل (حوالي ٩٥٠ م) الذي زار سوبا أن الجزء الأكثر ازدهارا في البلد هو إقليم علوة، حيث توجد سلسلة من القرى وعديد من السواقي. ويقول: "وكان ملكهم وأنا بالناحية اسابيوس كرجوه بن جوتي [...]، فجلس ابن أخته [أي ابن أخت يركي] اسطابنوس [أي اسطفانوس] بن يركي[٣٠١]".

وهذا يعني أنه تمت استعادة تنصيب الملك الجديد من ناحية أخت الملك الأخير. ويذكر أن مملكة سوبا طالت حتى منطقة شعب الكرسي على بعد مسيرة شهر واحد باتجاه منبع النيل الأزرق. ويعبر الإقليمَ نهرُ السَنسَي (عطبرة) الذي ينحدر من أثيوبيا. ويخضع سكان المناطق المجاورة لهذا النهر لملك علوة. وفي الناحية الغربية للمملكة تحد قاطني جبال النوبة، وهم "أحديون"(أي يدينون بديانة التوحيد).

عند مقارنة أقوال الأسواني واليعقوبي يمكن للمرء أن يستنتج أن المهاجرين المسلمين بدأوا الاستيطان في سوبا ما بين ٨٧٠ و٩٧٠م. وقطنوا بقرية خاصة بهم طرف المدينة. وتبعا للأسواني، كان هناك في مملكة علوة أكثر من مطرانية واحدة، ولكننا نعرف بالاسم مطرانيةَ سوبا فقط. "...وكتبهم بالرومية [أي بالإغريقية] يفسرونها بلسانهم[٣٠٢]".

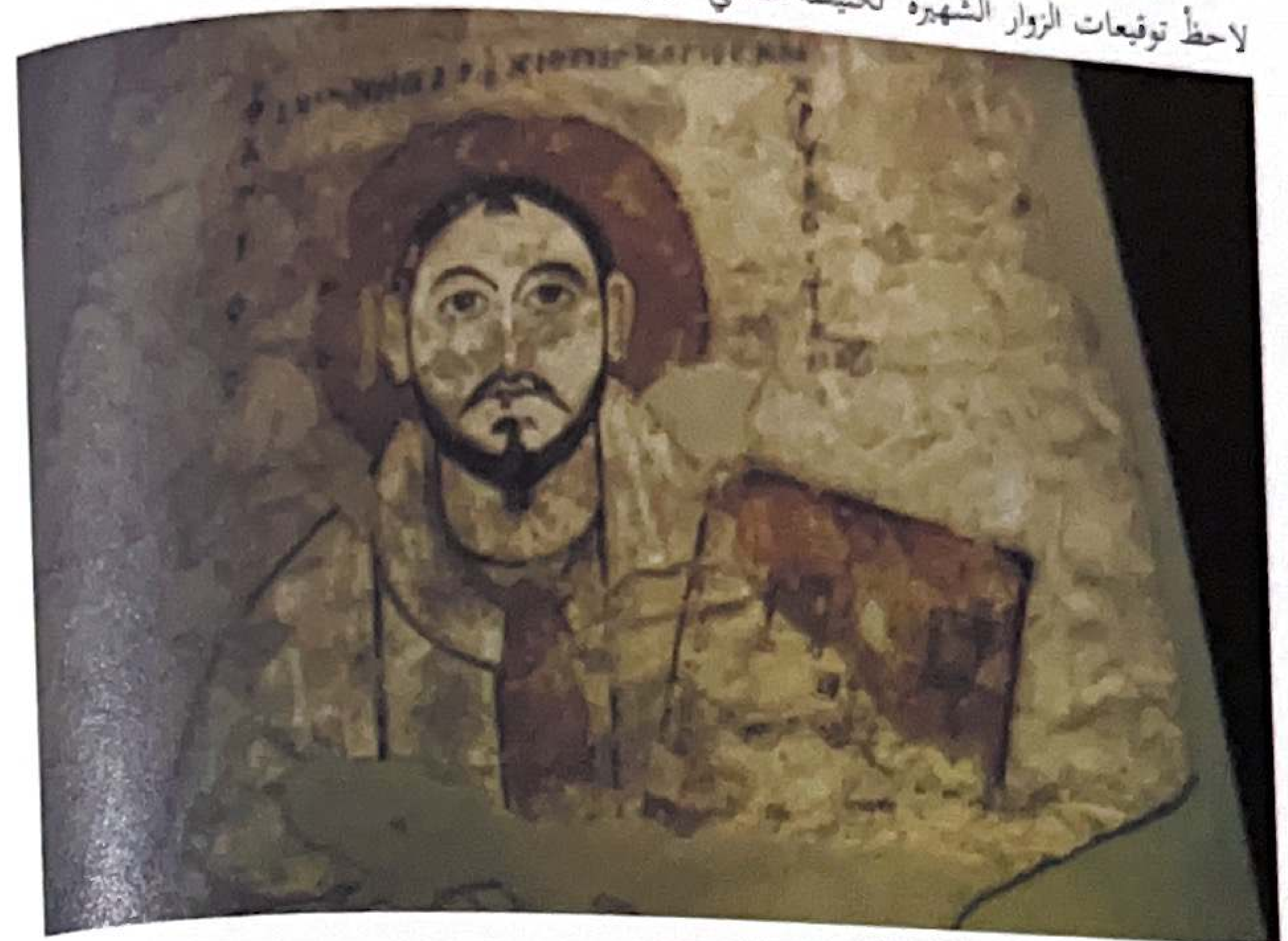
ويقول ابن الفقيه الهمذاني (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م): "وهم [أي النوبة] نصارى يعقوبية يَهذَوْن الإنجيل[٣٠٣]"، أي يقرؤونه ولا يفهمونه. ولكن ابن القفيه لم يفرق بين علوة والمقرة. ولم يكن أحد ليتوقع من السكان المحليين سواء في علوة أو المقرة أن يدركوا معاني الإغريقية أوالقبطية. ومن الأسلم أن نفترض أنَّ لغة علوة لم تكن لها صيغة كتابة على نقيض لهجة المقرة النوبية التي كانت لها صيغة مكتوبة مستنبطة من حروف الأبجدية للغة الإغريقية/القبطية. ويقول

[٢٩٧] ملاحظة المحقق: في النص الأصلي: "...وكنائس كثيرة الذهب بساتين، ولها رَبض فيه ..."
[٢٩٨] ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص ١٠٢. (cf. OS, p. 613)
[٢٩٩] ملاحظة المحقق: في النص الأصلي: "ومزرعتهم على ماء..."
[٣٠٠] تاريخ الأرماني، في مسعد، ص ١٣٨-١٣٩. (cf. OS, p. 326)
[٣٠١] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص٧٣. (cf. OS, p. 163)
[٣٠٢] ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص ١٠٢. (cf. OS, p. 614)
[٣٠٣] ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، في مسعد، ص ٣٠. (cf. OS, p. 91)



سنكي طينو. لوحة للملك جرجة الثاني بالزي والشعارات والرموز الملكية.

لاحظ توقيعات الزوار الشهيرة لكنيسة سنكي طينو.



كاتدرائية فرص. القديس يوحنا فم الذهب.

الأسواني إن سكان علوة "أقل فهما" من النوبة (أي المقرة)[٣٠٤].

وفرق الدمشقي (ت. ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) معتمدا على كاتب عربي من القرن العاشر، بين نوبة علوة الذين كانت عاصمتهم كوسّة (كوشة) وبين نوبة المقرة الذين كانت عاصمتهم دنقلة. وأضاف بعدها دون الإشارة بشكل واضح لأي من المملكتين:

"والنوبة نصارى يعقوبية يقرؤون الإنجيل بلسان الروم الملكانية. ولهم ببلادهم كنائس قديمة رومية. وهم أصحاب ختان وغسل من الجنابة، لا يطؤون نساءهم في الحيض. وخلف بلاد علوا من السودان بلاد يسكنها قوم عراة مثل الزنج، متوحشون جهلة لا يدينون بدين[٣٠٥]".

ويقول الأسواني عن ملك النوبة:

"وملكهم يسترق من شاء من رعيتهم بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه، بل يسجدون له، ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم، وينادون: الملك يعيش، فليكن أمره[٣٠٦]".

وكان الملك يعتبر إلهيا ويتوج بتاج من الذهب الخالص، وتمت ملاحظة تقليد الملكية الإلهية على امتداد وادي النيل من مصر إلى أوغندا. ويحتمل أن تكون عبادة الملوك في علوة ذات علاقة بهذا التقليد.

كان لملك سوبا أمراء يعملون تحت سيادته، ومن الموثق أن حاكم إقليم الأبواب في المنطقة قرب ملتقى نهر النيل بنهر عطبرة كان من بينهم. ويمكن الاستخلاص من الاسم أن هذه المقاطعة كانت بوابة علوة للمسافرين القادمين من جهة الشمال. وكان حاكم هذه المنطقة يلقب بما يفهم في العربية ب "واخْواخْ" (وبقراءة أخرى: "رَغْرَغْ). وذكر ابن حوقل ملكا إقطاعيا آخر، وهو ملك مملكة تفلين بإقليم البجة مع أنه كان مسلما.

اعتمدت سوبا اقتصاديا على المحاصيل المزروعة على ضفتي النيل الأزرق على الأرجح في منطقة سنار.

"وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته، بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد. وميرة بلد علوة ومتملّكهم من هذه الناحية، يوجهون المراكب فتوسق، وربما وقع بينهم حرب[٣٠٧]".

ومن الراجح أن تلك الرحلات من أجل الطعام كانت عبارة عن غارات. كانت الذرة البيضاء والسوداء المحاصيل الأساسية التي كان يصنع منها السكان المحليون الخبزَ و نوعا من البيرة المحلية اسمها "مِزْر".

ودهش الأسواني كثيرا من القصص (المبالغ فيها كثيرا) عن مساعدة الجن للإنسان في أعمال الزراعة والحصاد.

"ومما في بلده [أي بلدة علوة] من العجائب، أن في الجزيرة الكبرى التي بين جنسا يعرف بالكرسا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر. فإذا كان وقت الزرع. خرج كل واحد منهم مما عنده من البذر. واختط على مقدار ما معه وزرع في أربعة أركان الخطة يسيرا. وجعل البذر في وسط الخطة وشيئا من المزر وانصرف عنه. فإذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر. فإذا

---

[٣٠٤] راجع الأسواني، ص ١٠٢. (cf. OS, p. 614)

[٣٠٥] الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في مسعد، ص ٢٣٧. (cf. OS, p. 457)

[٣٠٦] الأسواني، ص ١٠٢. (cf. OS, p. 614)

[٣٠٧] المرجع نفسه، ص ١٠٣. (cf. OS, p. 615)

كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه. ووضعه في موضع إرادته ومعه مزر وينصرف. فيجد الزرع قد حصد بأسره وحزن. فإذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك [...]

وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة وعلوة. وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكّون فيه ولا يرتابون به[٣٠٨]".

وكانت ملاحظة الأسواني النهائية:

"فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجان تفعل ذلك، وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون [أي ينصاعون] لهم بها. وتعمل لهم عجائب وأن السحاب يطيعهم[٣٠٩]".

تحوي ملاحظة الأسواني الأخيرة معلومةً مثيرةً للاهتمام، وهي وجود سحرة جالبي الأمطار في الجزيرة في ذلك العهد. ونجد هذا الاعتقاد حاليا في بعض الأنحاء جنوبي السودان فقط. هذا ونجد استخدام حجارة التنبؤ أيضا في علوة آنذاك كما في أماكن كثيرة في الزمن الراهن.

كان يعتقد, وفقا للتقاليد القديمة التي ما زالت تذكر جنوب منطقة الفونج (جبل قلى وأولو)، ورغم ذلك لم تتم دراستها بصورة علمية, بأن بعض المسنين من الرجال (أي السحرة) كانوا يمتلكون قوى خارقة مثل جلب الأمطار ووفرة المحصول...إلخ. واعتاد السحرة زيارة الحقول أثناء الليل ليباركوها. وكانوا يشربون "المزر" المتروك في الحقول وينشرون البذور أثناء زياراتهم بالليل[٣١٠].

وهناك تفسير محتمل آخر, رغم أنه أقل احتمالا، هو أن القردة شربت "المزر" ونشرت البذور.

وحسب ابن حوقل المرَنْكَة والكرسى والأحديون بين شعوب علوة. ويبدو أن المرَنْكَة والكرسى كانت قبائل تعيش في الوادي الأعلى لنهري الرهد والدندر. وهذان النهران يمثلان في الغالب نهري أور وأتمتي الذين ذكرهما الكاتب.

"وفي أعالي بلد علوة نهر يجري من المشرق يعرف بأور وعليه مرنكة قبيل من النوبة، فينصبّ في النيل، ومن أعلاه عند يومين نهر أتمتي، وعليه من النوبة المعروفين بكرسى أمة كثيرة يتصلون ببلاد الحبشة على هذا النهر. وهذه الأنهار كبار غزر تتصل بنهر سوبة إلى بلد المقرة... وذكر قوم أنهم يجتازون في أعالي هذا النهر – أعني النيل [الأزرق]- من أعالي بلد كرسى ببلد طبْلى، وهو منتهي مُلك علوة على النيل، فلا يخالطونهم، ولا يتاجرونهم عراة حاسرين، ولا يُعْلَم ما غذاؤهم ولا كيفية سيرتهم. وأهل كرسى أصحاب زفال وهو الجِلد الذي يتزرون به عرضا، ويستخرج طوله من تحت الأفخاذ فيُغْرَز عند السُرّة فيما انعقد من الزفال.

ومن غرب النيل نهر يجري من ناحية المغرب كبير غزير الماء يُعرف بالنيل الأبيض، وعليه قوم من النوبة. وبين النيل الأبيض وعمود النيل المتقدم ذكره ببلد علوة جزيرةٌ لا يُعرف لها غاية، بها جميع الوحش ويسكنها النوبة والكرسى. ومن لا يقدر لامتناع

---

[٣٠٨] المرجع نفسه، ص ١٠٣. (cf. OS, p. 614-615)

[٣٠٩] المرجع نفسه.

[٣١٠] اخبر الأستاذ كريستيان ديلميت (Christian Delmet ، متحف الإثنوغرافيا بالخرطوم، ١٩٨٠) الأب فانتيني بهذه المعلومات.

جانبه أن يحاط بمعرفته"[٣١١].

كان الأسواني متلهفا لمعرفة المزيد عن الجزيرة، ولكن مصادره أيضا كانوا يعلمون القليل عنها. بين النيلين ...
جزيرة (الجزيرة) لا تعرف حدودها الجنوبية. رغم معرفة الناس لحجم عرض النيل الأبيض قرب المقرن لم يستكشف ...
أحد أبعد من ذلك باتجاه المنبع.

"لا تدرك سعتهما [النيلين] لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض لأن فيها أجناسا كثيرة وخلقا عظيما.
[...] وبلغني أن بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها، فلم يأت عليه بعد سنين. وأن في طرفها القبلي ...
يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدّة حر الشمس، ويسرحون في الليل، وفيهم قوم ...
"[٣١٢].

بعد ذلك تحدث الأسواني عن الروافد الأربعة للنيل الأزرق التي تنساب من الاتجاه الجنوبي الشرقي جميعها ...
موسم واحد. لم يذكر الأسواني أسماء هذه الروافد، لكنه ذكر أن ضفافها مقطونة ومزروعة.

وضغط الأسواني على مصادره لإخباره المزيد عن هذه الأنهار، لكن لم يكن أي منهم يعلم سوى أنها تنبع من ...
أرض قاحلة. وتتسبب الأمطار في فيضان النيل الأزرق. يتزامن موسم الفيضان في هذه الأنهار مع موسم الفيضان ...
بمصر مما أثار دهشة الأسواني.

ونسبة لابن حوقل فإن القبائل الأخرى باتجاه غرب النيل كانت خاضعة لملك علوة أيضا. هذا بالرغم من وصف ...
الغامض لدرجة أنه لم يكن بمقدور أي شخص التعرف عليهم. مهما كان الكاتب يفتقر إلي دقته فيما يتعلق بموقع ...
تلك القبائل فإن ما لا شك فيه هو أن ملوك سوبا في القرن العاشر كان لهم نفوذ سياسي في هذه المناطق في الجزيرة ...
وحتى أطراف المرتفعات الأثيوبية التي عاشت فيها قبائل ذات أصول غير نوبية. لكن من الواضح أن نفوذهم بين ...
تلك القبائل استغرق ما بقيت السلطة المركزية في سوبا قوية ومستقرة.

خراب سوبا

لم يرد ذكر مملكة علوة أو مدينة سوبا في المصادر الأدبية قبل تاريخ يوحنا الأفسسي في القرن السادس ...
الميلادي. ومن المحتمل أن علوة كانت منطقة جنوبية للإمبراطورية المروية وذلك لوجود تماثيل للإله آمون برؤوس ...
خراف. ولكن لم يتم اكتشاف أي معبد بالمنطقة، مما يحتمل معه أن تكون التماثيل قد جلبت من مكان آخر. ومن ...
الأرجح أن مدينة سوبا توازي "مدينة علوة" التي ذكرها عيزانا الذي دمر مروي حوالي عام ٣٥٠م.

وأطلق عليها الكتاب العرب اسم علوة على الأرجح لموقعها باتجاه منبع النيل. وكان اليعقوبي، حوالي ٨٧٠م، ...

---

[٣١١] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص ٧٥. (cf. OS, p. 164-165)

[٣١٢] الأسواني، في مسعد، ص ١٠١. (cf. OS, p. 611-612)

أول من ذكر هذا الاسم.

قليل جدا من النقوش المكتوبة باللغة النوبية القديمة تم إنقاذها في علوة، فغالبيتها مكتوبة باللغة الإغريقية. وربما من بين النقوش المكتوبة بالنوبية، النقش التالي على لوحة حجرية موضوعة على قبر ملك يدعى داود بسوبا شرق – وتم استخدامه لاحقا كحجر عتبة بعد أن طمس جزئيا– يعتبر أكثر النقوش لفتًا للنظر. وكتب عليه:

"يا إله الأرواح وكل جسد، أنت الذي أبطلت مفعول الموت ووطئت الجحيم وأعطيت الحياة للعالم، ارقد روح عبدك الملك داود في حضن إبراهيم وإسحاق ويعقوب في مكان نور وخضرة وإنعاش الذي يهرب منه الحزن والألم والبكاء.

اغفر وامح (كل خطيئة ارتكبها) قولا وفعلا (وتفكيرا) لأن (المرء لا يعيش) من دون ارتكاب خطيئة. (لأنك يا رب أنت الوحيد بدون) خطيئة وعدالتك (هي العدالة الأبدية).

يا رب، كلمتك هي (الحق) لأنك أنت راحة عبدك وقيامته وإياك نرنم بمجد الآب والابن والروح القدس، الآن ودائما وإلى الأبد. آمين.

...والسنوات منذ ولادته، عندما لم يكن ملكا، هي... وكان ملكا لمدة ست عشرة سنة وثلاثة شهور، ٧٣٢ بعد الشهداء (أي ١٠١٦م). وتمم حياته يوم الخميس شهر 'هاتور"[٣١٣].

وحسب رواية العلماء الأثريين الذين قاموا بالحفريات التي تمت بسوبا عام ١٩٨٠، فإن المدينة أو المملكة قد انهارت في القرن الثاني عشر، إلا أن مصدر الأهالي الذي يعرف ب "وقائع الفونج" في القرن الثامن عشر يعزي سقوط المملكة لهجوم مشترك بين العرب البدو والسود من سنار (الفونج) سنة ١٥٠٤م.

وهناك مصدر شفاهي يمكن الاعتماد عليه يؤكد ما ذهب إليه المصدر "وقائع الفونج"، ويضيف معلومات لم تكن معروفة للمؤرخين. أما اسم سوبا فظل محتفظا بنوع من القداسة نتيجة للتقاليد والعادات الشعبية.

نهاية علوة/سوبا

إذ ليست لدينا معلومات مباشرة من المؤرخين المعاصرين عن انحدار مملكة علوة وسقوطها، فيمكننا الاستخلاص أنها انهارت بنفس الطريقة كمملكة دنقلة تقريبا، أي نتيجة للاحترابات الداخلية والنزاعات في الأسرة الملكية وهجوم العرب من الشمال. المصادر الشفهية تؤيد ذلك. في "كتاب الطبقات" لمحمد نور ود ضيف الله، والذي يتحدث عن الشيوخ المشهورين الذين قاموا بنشر الإسلام في شمال السودان، يتناول الآتي:

"إعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها في أول القرن العاشر: سنة عشر بعد التسعماية وخطت مدينة سنار

---

[٣١٣] ملاحظة المحقق: هاتور، هو الشهر الثالث في التقويم القبطي، ويمتدي من ١١ نوفمبر إلى ٩ ديسمبر. وهاتور أيضا هو إله الجمال لإر... المزروعات فى وقته كانت تزين الارض. وهذه العبارات الدعائية مأخوذة من صلوات الكنيسة القبطية فيمى يسمى صلاة الراقدين. وترج... (S. Jakobielski) هذا النص من اللغة النوبية إلى الإنجيليزية في: D. A. WELSBY, The Mediaval Nubian Kingdoms, p. 62.

حطاها للملك عماره دونقس"[٣١٤].

أما سجل "وقائع الفونج" وقد كتبه "كاتب الشونة" في القرن التاسع عشر معتمدا على معلومات وردت في وثائق سابقة:

"إن أول ملوك الفونج عمارة دونقس وابتداء أمره في أول الحال كان جماعة مجتمعين مقيمين بمحل يعرف بـ"لولو" أقاموا به مدة، ولم يزالوا في زيادة الجموع ثم انتقلوا إلى جبل موية المعروف وأقاموا بها مدة وبلغهم خبر أن جارية تسمى سنار مقيمة على شاطئ بحر النيل، فانتقلوا إليها وزادت جموعهم واتفق عمارة المذكور مع عبد الله جماع القريناني من عربان القواسمة وعبد الله المذكور هو ولد شيخ عجيب الكافوتة جد أولاد عجيب وتمت كلمتهم على محاربة النوبة وهم الفنج [أي العنج] ملوك سوبة وملوك القري، فتوجه عمارة وعبد الله جماع المذكوران بما معها من الجيش وحاربوا ملوك الفنج [العنج] وقتلوهم وأجلوهم من سوبة، وتوجهوا إلى القري فقتلوا ملكها ولما تم لهم النصر على النوبة، واستولوا على محلاتهم واتفق رأي عمارة بأن يكون هو ملك عوضا عن ملك علوة التي هي سوبة كونه هو الكبير وأن عبد الله يكون في مكان ملك القري، فعند ذلك توجه عمارة إلى سنار واختطها وذلك في سنة عشر بعد التسعمائة وجعلها كرسي مملكته"[٣١٥].

من هذه الشهادة نستطيع القول بأن الائتلاف بين الفونج والعرب هزم أهل سوبا ووضع نهاية لملكهم.

"وأما النوبة فمن بعد ما حصل بينهم من المحاربة والمقاتلة وصار الظفر للفونج تفرقوا شذر مذر، منهم من فر إلى جبال الصعيد فازوغلي وغيرها، ومنهم من فر بالغرب إلى جبال كردفان، ولم يبق منهم إلا أنفار قليلة جدا ودخلوا في الإسلام وتفرقوا في البلاد وسكنوا مع الناس وتناسلوا فيهم وهم إلى الآن أنفار قليلون جدا منهم بنواحي شندي، ومنهم أنفار قليلون أيضا مقيمون بحرف قمر وغيرها ولا في محلين أو ثلاثة وهم مسلمون من جملة أهالي البلاد، وقليل من الناس يعرف أن أصلهم من النوبة لأن لسانهم الآن عربي حكم لسان العرب لأن العرب كثير دخلوهم [أي لأن عرب كثيرين دخلوا] إلى بر السودان وصاروا سكانها منهم من سكن الحضر"[٣١٦].

هذه الرواية تفيد أن "قليلا منهم" (النوبة) اعتنقوا الإسلام واختلطوا بالعرب، أما الذين هربوا إلى الجنوب، فهم لم يعتنقوه على إثره. ووجود بعض النوبة الذين يعيشون في أعالي النيل الأزرق وجبال النوبة يؤكد التفاصيل التي دونتها "وقائع الفونج".

رواية شفهية لنهاية سوبا

روى الباحث السوداني الفحل الفكي الطاهر (توفي ١٩٧٥م وعمره ٩٠ سنة) قصة انهيار وسقوط سوبا بتفاصيل أدق حديثا معتمدا على روايات شفهية وبعض الوثائق المكتوبة. ورغم أن الرواية الشفهية تفسد الحقائق

[٣١٤] محمد النور بن ضيف الله (حققه يوسف فضل الله)، كتاب الطبقات، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم ١٩٧٤، ص٤٠. (cf. OS, p. 784). ابتدأ عمارة دونقس حكمه يوم ١٤ يونيو ١٥٠٤م.

[٣١٥] كاتب الشونة، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطة السنارية والإدارة المصرية، دار السودانية للكتب، الخرطوم ٢٠٠٩، ص١٤٥. (cf. OS, p. 786).

[٣١٦] المرجع نفسه، ص ١٤٦. (cf. OS, p. 787-788)

عالميا، فإن صميم رواية الفحل الفكي هو جدير بالحسبان. يروي أن المعركتين الكبيرتين دارتا حول سوبا كانت أولاهما في ١٤٧٦م والثانية في ١٥٠٩م، وهذه المعركة الفاصلة. كانت المعركة الأولى بائتلاف قبيلتين عربيتين: قحطان وقادها الأمير حيدان وهو قادم من جنوب الجزيرة، والأمير حميدان الجعلي وهو قادم من الغرب. وقد عبر النيل الأبيض بمخاضة أبو زيد بالقرب من كوستي، والتقى قحطان في الجزيرة وانطلقا لسوبا. وخرج ملك سوبا والمطران بجيشيهما لقتال الغزاة ولكن بسبب خلاف بينهما فقد هزما، وقُتِل الملك يدعى عفايق وهرب المطران "ديرين". وقد نهب الغزاة المدينة. أما عرب قحطان فقد احتلّوا أعالي وادي النيل الأزرق من كركوج تاركا أسفل النهر للأمير حيدر.

أما المعركة الفاصلة الثانية فقد حدثت بعد ثلاثين عاما وذلك في أعقاب عودة المطران، الذي أعاد تنظيم المملكة وعمل حاكما حتى لو اعتلى ملك جديد العرش. وقد نشأ الخلاف بين أتباع حيدان وحميدان حول مُلك أحسن أراضي النيل، أي جزائر النهر. واتفقوا أن يكون حيدان الأمير. وهذا هو مختصر القصة كما يرويها الفحل الفكي لنهاية سوبا:

"تم الاتفاق بين أمراء قبائل قحطان الأمير حدير [أي حيدر] بن أحمد بن حمد بن الأمير رافع ولد عامر والأمير حميدان ولد الأمير صبح ولد الأمير مسامر ولد الأمير سرار على أن يغزوا عاصمة الفنج [العنج؟] والنوبة في مملكة علوة إلى سوبا [...] وفي سهل الجزيرة التقى [الأمير حميدان وجيش الجعليين] بقبائل قحطان بقيادة الأمير حدير [أي حيدر] [...] ووصلوا بلاد علوة فاشتبكوا مع الفنج والنوبة في حرب ضروس [...] وألح العرب على الملك عفايق فهزموا جيشه وقتلوه ولم يتعرضوا للكنائس بأذى بل تركوها موفورة الكرامة وكانت الكنائس أربع كنيسات [أي كنائس] [...] أما البطريك [أي المطران] فإنه هرب ولم يتبعه العرب وبعد قتل الملك قسموا بين الناس الغنائم واتفقوا على أن يكون النيل الأزرق من كركوج إلى آخره ملكا لقبائل قحطان، [...] ومن كركوج ملكا للجعليين [...] وبعد ما انتهت الحرب رجع الأمير حميدان إلى مقر ملكه [...] فاحتل [الجعليون] أولا النوبة السفلى [...] والنوبة العاليا وعاصمتها مروي [...]

وبعد وفاة الأمير حدير [أي حيدر] عاد البطريك "ديري ين" إلى علوة وعمّرها وكان قد جمع جيشا كبيرا من النوبة والأحباش والبجا [...]

وبعد وفاة الأمير حدير [أي حيدر] أصبح الأمير عبد الله القرين صاحب الأمر.

فلما اختلفوا جمع القرين أعيان عشيرته وقال لهم: «نحن أحق بالبلد من الجعليين والجعليون ملكوا الجزاير والبلد لحد دنقلا أرى أن نحاربهم ونطردهم من البلد» [...] فهنالك أخذ الأمير عبد الله القرين طائفة من رجاله وأهله وذهب إلى جبال البرون حيث اجتمع بالملك عمارة دونقس ولد الملك عدلان وضمن له الملك عموم البلد. وتعاهدوا على أن يكون للملك عمارة وأهله الملك، وللأمير عبد الله القرين وأهله قيادة الخيل وجباية الأموال وفي سنة ٩١٠هـ [١٥٠٩م] نزل الملك عمارة دونقس [قائد الفونج] من الجبال ومعه عشيرته وجيشه الكثير العدد واختط سنار وبواسطة الأمير عبد الله دانت له كل البلاد والقبائل [...]

واتخذ البطريك جيشا قويا من النوبة والأحباش والبجا [...] وفي سنة ٩١٥هـ جرد الملك عمارة دونقس جيشا كثير العدة والعدد وجمع الأمير عبد الله كل القبائل العرب وقصدوا مملكة علوة إلى سوبا [...] والله قدر نصر العرب [...] الخيل كرت

على الطريق وقتل [...] النوبة انهزموا وتبعتهم العرب قتلا وأسرا وبذلك تم خراب سوبا المؤيد فحرق العرب البلد والك...
وقتلوا وسبوا النساء ونهبوا الأموال وذلك خراب سوبا المؤيد"[317].

هذه الرواية ربما تشوه حقائق التاريخ لما تشتمل عليه من مبالغات وأميال محددة. ولكن شهادة "الطبقات" و"كاتب الشونة" الموافقة تؤيد صحة تاريخ سقوط علوة وسوبا (٩١٠هـ/١٤٧٦م). ومن الممكن أيضا إعادة ... وتنظيم المدينة بعد الهزيمة الأولى. ووجود مجموعات النوبة اليوم في جبال النوبة بجنوب كردفان، وكذلك وجود ... الأقليات غير المسلمة وغير العربية في أقصى جنوب إقليم النيل الأزرق، تؤيد ذكر هروب أغلبية النوبة والأنج ... العنج) جنوبا بعد الهزيمة الثانية (١٥٠٩م). ولا يزال اسم سوبة يحتفظ بشيء محترم ويُستخدم في القسم[318] ... أبان بعض الرحالة. وقد هجر أهالي سوبة منازلهم وبقيت آثارها يشاهدها الرحالة حتى بداية القرن التاسع عشر ... مجيء بناء الخرطوم حين فككوا المباني واستفادوا من مواد بنائها.

أصبح الملك عمارة دونقس "الكبير" وقد امتد حكمه شمالاً على طول النيل حتى دنقلة وأبعد. وفي عام ١٥١٧م ... طاردت جحافل السلطان سليم الأول العثماني واليا مصريا فارًا ووصلت إلى منطقة هَنَك، خمسة عشر ميلا شما... دنقلة العجوز، وهذه الحدود الشمالية لمملكة الفونج. وقد عيّن السلطان العثماني أمراء شبه مستقلين، يسمى ... الواحد منهم "كاشف"، من أصول بوسنية لتأكيد حكمه هناك. وقد انتهى هذا النظام بمجيء محمد علي الذي احتل السودان سنة ١٨٢٠م باسم السلطان.

في دنقلة العجوز وقرّي، طلعت سلالات ملكية عربية من رعية ملك سنار كما ذكره الرحالة.

في عام ١٥٢٣ مر الرحالة اليهودي داوود روبيني على سوبة في طريقه من سنار إلى مصر ووجد المدينة قد انهارت وتداعت تماما. ومجموعة من الرهبان الفرنسيسكان الذين مروا على سوبة في طريقهم من مصر إلى سنار ... وبعد ذلك إلى قندر، لم يذكروا سوبة رغم أنهم مكثوا عند عودتهم ثلاث سنوات بالعيلفون. وذكروا الحروب القائمة بين ملك دنقلة العجوز والقبائل التي تسكن في الصحارى شرق وغرب النيل.

دنقلة: الكنائس والآثار

على أهل السودان أن يعرفوا أن دنقلة العجوز كانت عاصمة مملكة نوبية والتي كانت مستقلة إلى ما يقرب من ألف عام. الكثيرون ممن زاروها في القرن التاسع عشر وفي بداية العشرين خمّنوا أنها تزخر بالكنوز تحت أنقاضها ... يفوق الخيال. وعندما بدأت الحفريات الأثرية عام ١٩٦٤ فرح الناس بالاكتشافات العظيمة والكنوز المطمورة تحت

[317] الفحل الفكي الطاهر، تاريخ وأصول العرب بالسودان، الخرطوم ١٩٧٦، ص ٢٢-٢٣. أخذ المؤلف رواية خراب سوبة "عن محمد ود نمر الذي أخذه عن الفكي محمد عبد الرزاق الذي أخذه من مذكرات القاضي ذراع الذي نقله من دفتر ملوكي ببيت الملك إدريس ود الفحل ... ١٢)". ومحمد ود نمر هو سليل ملك شندي الأخير، ١٨٢١م.

[318] ملاحظة المحقق: حيث يقول باللهجة السودانية: "أحلف بسوبا والجد والحبوبة، اللي يطفح الحجر ويغطس الكركعوبة". وهذا القسم عند ... العنج بضواحي الروصيرص وهم أحفاد العنج المسيحيين وهذا القسم لا يحنث به أحد.

الأنقاض:

أمّا عن العمال المحليين المشاركين في العمل الأثري، فلم تكن هذه مسألة تنافس بحثا عن هدايا تذكارية أو تحف غريبة لكي يضعوها في بيوتهم؛ ولكن قبل كل شيء، كان اجتهادا يهدف إلى اكتشاف تاريخ المدينة والمملكة حوله غير معروف بعدُ، وإلى معرفة الدرجة العالية من ثقافة الأجداد، الذين عاشوا وعملوا في عهد مختلف جدا عن عهدهم.

وفي عام ١٩٦٤م عينت حكومة السودان المركز البولندي لآثار البحر الأبيض المتوسط التابع لجامعة وارسو ليقوم بالحفر في منطقة دنقلة العجوز، بعد أن نجح فريقهم في استكشاف موقع فرص، عاصمة نوبادية القديمة، وظفر بكنوز فنية ولولاهم لكتب عليها أن تكون مطمورة إلى الأبد تحت مياه بحيرة النوبة. وتملأ حاليا التحف الرائعة المنقذة الدورَ العالي لمتحف السودان القومي وكذلك صالة فرص لمتحف وارسو القومي.

في نوفمبر ١٩٦٤م وصل أول فريق للبعثة البولندية لدنقلة ليقوم بالمسح والاستعدادات تحت إدارة بروفيسور ميخالوسكي (K. Michalowski). والدكتور أوستراسز (A. Ostrasz) عهد إليه بالقيام بالأعمال الأولية، فحرّب الأرض بالخنادق في الأماكن التي كان من المتوقع وجود العجائب بها.

وفي عام ١٩٦٦م تولى قيادة عمليات الحفر الدكتور ستيفان جاكوبيلسكي (Stefan Jakobielski) واستمر في عمله حتى اليوم.

ونريد أن نقدم ههنا وصفا بسيطا لاكتشافات دنقلة بدون الطموح إلى تقديم تقرير علمي دقيق أو تاريخ متسلسل زمنيا للاكتشافات. بالعكس، نفضل أن نقدم للقارئ قصة الكنائس والآثار التي جمّلت مدينة من القرون الوسطى في منطقة النيل الأوسط، وفي الوقت نفسه إظهار فئة من الناس المستفادة والحرفيين الماهرين والعمال الذين ينبغي أن يشعر الجيل الحالي بالفخر بهم.

وأثناء ثلاث فترات (١٩٦٥-١٩٦٨م) غرز فريق العلماء البولنديين معازقهم في الرمال حول الكُتل من الجرانيت البارزة فوق الأرض، واكتشفوا كنيسة ذات خمسة أروقة (٢٩× ٢٤,٥٠ مترا) ومعها أعمدة الجرانيت لا تزال قائمة. وسموها بالكنيسة ذات الأعمدة من جرانيت. وسرعان ما أدرك علماء الآثار الشبه بين هذه الكنيسة وكاتدرائية ذات الخمسة أروقة الموجودة بفرص، وظنوا أن بعض المعماريين من دنقلة ذهبوا للعمل بفرص.

في غضون الأربعين سنة التي تلت، تم اكتشاف الكثير من الكنائس والمباني. وكان كل اكتشاف تتبعه أسئلة عديدة عن كيف ومتى ولماذا تم بناء المبنى المكتشف. أي هل الكنائس والكاتدرائيات بنيت أولا بدنقلة؟ ثم تأتي الإجابات تباعا. اليوم يسهل ترتيب هذه الكنائس تاريخيا.

نبدأ بذكر الكاتدرائيات، ثم نذكر الكنائس التي على شاكلتها أي التي تحمل سماتها. على الأرجح أن أول كاتدرائية هي "كنيسة الرصيف الحجري" مع مراعاة أن أول أسقف تم تعيينه لدنقلة في ٥٧٣م. وقد دلت الحفريات

لاحقا أن هذه الكنيسة كانت قد بنيت على موقع مبني سابق مجهول (لذلك سموه "مبنى X"). والأرجح أن الكاتدرائية كانت أول كنيسة في دنقلة وقد دمرها الفيضان. ولهذا رفع الرصيف بمتر واحد. ونسبة لشكلها العر... فقد افترض علماء الآثار أنها النموذج الذي بنيت عليه "الكاتدرائية ذات الثلاثة أروقة" بفرص حيث كان الأسقف الأول أبتيوس في القرن السادس والربع الأول من القرن السابع.

بعد إبرام اتفاقية البقط (٦٥٢م) بدأت مرحلة إعادة البناء لإصلاح المباني خارج حصون، وقد شملت الكنائس المدمرة أثناء حصار العرب لدنقلة.

الكاتدرائية الثانية تم بناءها على هيئة الأولى حسب ذوق العصر الذي يفضل أن تغطى الكنائس بقباب. لاحقا في النصف الأول من القرن التاسع تم في نفس الموقع بناء صرح جديد أطلق عليه اسم "الكنيسة بشكل صليب" (مدونة تحت EC II).

تعد "الكنيسة بشكل صليب" أكبر أثر تذكاري بدنقلة قد بناه زكريا الملك تعبيرا عن فرحته وشكره لله على عودة ابنه قرقي (جرجة) الأول من بغداد (٨٣٦ م). ومساحة هذه الكنيسة التذكارية ٣٣,٤٠ مترا مضروبة في ٢٣,٦٠ مترا. وقد تم صنع رصيفها من الطوب الأحمر وليس لها مثيل. وفي صدر الكنيسة عثر على سردابين خصص كل منهما على هيكل عظمي لرجل. والأرجح أن السردابين بُنيا في الكنيسة الأولى لشخصيتين مهمتين مرتبطتين بقيادة العمل لتحول المقرة إلى المسيحية. ورغم الإصلاحات وعمل تجديد "المبنى X" و"الكنيسة بشكل صليب" لاحقا، بقي السردابان في المكانين الأصليين.

ومن المفترض أن تكون الكاتدرائية الثالثة هي "الكنيسة ذات الأعمدة الجرانيتية"، وهي بنيت في حوالي نهاية القرن السابع، وفي مكان كنيسة سابقة بذات المقاييس (٢٩×٢٤,٥٠ مترا). وهي كنيسة ذات خمسة أروقة بشكل صليبي، فتمتد أربع أجنحة من الوسط إلى كل اتجاه. وقد شكلت هذه الكنيسة أيضا نموذجا بنيت عليه كاتدرائية ذات خمسة أروقة بفرص. ولاحظ الخبراء أن "الكنيسة ذات الأعمدة الجرانيتية" ليس لها مثيل في العمارة البيزنطية وقد نفذ المعماريون هذه الكنائس آخذين في الحسبان الذوق المحلي، والذي أصبح سمة لبناء العديد من كنائس أخرى في بلاد النوبة.

في هذه الكنيسة وجدت لوحة تذكارية حجرية على قبر يؤانس أوقوستو (Yoannes Augustou)، والذي توفي سنة ٨٨٣م في العام ٦٥ من عمره. وكان القبر تحت رصيف جنب جُرن المعمودية.

في حوالي سنة ١٠٠٠ أصبح من المألوف بناء الكنائس مع سقف مقبب وقباب، كما حدث "بالكنيسة ذات الأعمدة الجرانيتية". وبَنَوْا أعمدة كبيرة بطوب على الشكل الهندسي شبه المنحرف لدعم قبة في مركز الكنيسة المجدد. وقد وصف أبو صالح دنقلة:

"وهي مدينة عظيمة على شاطئ بحر النيل المبارك، وبها كنائس كثيرة وآدر كبار [أي أديار كبيرة] وشوارع متسعة. ودار الملك شاهقة البنا بقباب عدة مبنية بالطوب الأحمر، تحاكي أبنية العراق مما كان اقترحه رفائيل ملك النوبة إلى آخر سنة ال...

وتسعين وثلثمائة للعرب [الموافق ١٠٠٦م]"[٣١٩].

وقد كانت هذه الكنيسة قائمة حتى دمرها المماليك في ١٢٧٦م. كما ذكر أعلاه، وقد بنيت هذه الكاتدرائيات في موقع الكنائس المبنية في وقت سابق، التي ربما كانت أول كنائس في دنقلة. ودعا علماء الآثار واحدة منها بالكنيسة القديمة، وكنيسة أخرى بالمبنى X (لأنه لأول وهلة لم يعرفوا هويته). وكانت هاتان الكنيستان قريبتين من بعضهما البعض وشكلتا مجمعا من المباني الدينية لمدة حوالي 800 عاما. و"الكنيسة القديمة" (٢٧×١٩ مترا) تاريخ بناءها بعد وقت قصير من عام ٥٥٠م، في بداية المسيحية في دنقلة.

ومن الكنائس الأخرى الملحوظة التي تم العثور عليها داخل المدينة وحولها، الأبرز هي "كنيسة الفسيفساء ١" التي سميت كذلك لاشتمالها على الفسيفساء. وهي صغيرة (١٦,٧٠×١٠ مترا) ذات ثلاثة أروقة وتستخدم من قبل السكان الذين يسكنون بالقرب من القبور الصخرية للملوك الأوائل. بنيت حوالي ٥٥٠م. وقد كان حرفيو الفسيفساء فنانين حقا إذ أخذوا الصخور السوداء والبيضاء من الصحراء وغرسوها في جبس، ولما كان هذا الرصيف هشا، فقد أصلحوه بأبلطة الطين النضيج وبالطوب الأحمر. وبعد البقط، عند الازدهار في العملية المعمارية استبدلت الأعمدة بالدعامات لتقوية قبة على الكنيسة.

ثمة كنيسة صغيرة أخرى (مدونة تحت EDC، ١٣×١١ مترا) تعود إلى القرن السابع وهي ذات جناح واحد مما هو نادر في بلاد النوبة. وعلى رأس تأسيسها بني صرح آخر قبل بداية القرن العاشر، "الكنيسة على كوم د(D)" (١٩,٥×١٢ مترا) التي أنشئت حسب الخطة المعروفة بـ"صليب على مستطيل" مع سقف مدعم تقليديا على أربعة أعمدة جرانيتية والجدران من كتل الحجر الرملي ومن طوب أحمر. ومنذ ذلك الوقت، على ما يبدو، أصبح من المألوف بناء الكنائس ذات الدعامات في ضواحي المدينة.

التاريخ يكشف أن النصف الثاني من القرن الثالث عشر لم يكن زمنا يتسم بالانهيارات الاقتصادية والسياسية فحسب، بل وبانعدام الأمن كذلك. وأصبح الطوب الطيني مادة البناء السائدة؛ وتم ترميم الحصون القديمة حول دنقلة والتي أهملت في "الفترة الذهبية". وكل الكنائس الجديدة أصبحت من الحجم الصغير. وفي القرن الثالث عشر بنيت الكنيسة المدونة بالكنيسة الشمالية(NC) وتم بناء "برج الكنيسة" على واحد من أبراج الحصون.

ورغم هزيمة أهل دنقلة من قبل المماليك، لم يمنعهم ذلك من الاستمرار في البناء وإصلاح بعض الآثار التذكارية القديمة. وقد أصبحت إحداها (مدونة تحت "المبنى ٣، ١") كنيسة ("المبنى ٣، ٢"). ولكن تم تدميرها مرة أخرى في عام ١٢٨٦م من قبل المماليك أثناء الحملة التي تمت في عهد الملك شيمامون. إلا أنها رُمِّمت بسرعة لأداء الطقوس الدينية. وفيها تم العثور على بورتريه لواحد من أساقفة دنقلة. وعندما تم إصلاح الكنيسة خلال "الفترة المتأخرة" جُبست مع الطين ورسمت أيضا. بالفعل، يمكن مشاهدة قطع من لوحات الحواريين وميلاد المسيح على

[٣١٩] تاريخ أبو صالح الأرمني، في مسعد، ص ١٣٩. (cf. OS, p. 326)

الجدران، وخصوصيتها هي أنّ هذه اللوحات تمثل الأسلوب الدنقلاوي للفترة المذكورة. ويعتقد أن هذه الكنيسة ظلت مستخدمة حتى نهاية الجماعة المسيحية في دنقلة، وحافظ الفنانون الدنقلاويون على مستوى عال في عملهم، واستفادوا من أفضل المواد المتاحة وعرضوا درجة عالية من المهارة والاحتراف. وبعد أن طمرت الرمال رصيف الكنيسة أصبحت مسكنا للمدنيين.

إن ما يسمى مسجد دنقلة والذي يشرف من على تلة، ربما لم يستخدم كمسجد أبدا. رغم ما تحمله اللوحة الحجرية التي تذكر افتتاحه سنة ١٣١٧م كمسجد من قبل عبد الله (برشمبو)، أول ملك مسلم لدنقلة، تم بناؤه في الأصل في القرن العاشر كقصر لاستقبالات ضيوف الملك. وفي جدرانه الداخلية صور القديسين والتي يمكن رؤيتها الآن، خصوصا على جدران الدّرج، حتى ولو بُيِّضت حين التحول إلى مسجد، ولم تكن سوى الحجرة العليا فحسب تستخدم للعبادة الإسلامية أحيانا بالرغم من وجود الصور على الجدران. واستخدم الطابق الأرضي – علوه ستة أمتار والمسقوف بقباب بشكل البرميل - كمخزن لاحقا. ولعله المكان الذي يستضاف فيه الحجاج المسلمون في رحلتهم لمكة، كما ذكر ابن فضل الله العمري (١٣٠٠-١٣٤٩م)[٣٢٠]، أحد الكتاب العرب.

فرص: أفضل اللوحات النوبية التي تم المحافظة عليها

لقد ذكر أبو صالح الأرمني أن "بُجراس" (أي فرص) كانت مدينة عامرة بالسكان وهي عاصمة مريس ومكان إقامة "جوسار"، وهو أبرخص نوبادية و"اللابس العاصبة والقرنين والسوار الذهب"[٣٢١]. وقد أكدت بعض الصور الموجودة في الكنائس النوبية هذا الوصف من شارة الأبرخص. وقد يكون "جوسار" اسما نوبيا مشوه في الكتابة العربية وكان مسكن الأبرخص إما في إبريم أو فرص أو أدة.

في حوالي ٩٢٧م دمرت النار الكاتدرائية ذات الخمسة أروقة بفرص، وسرعان ما حل محلها كنيسة تم تدشينها في ٩٣٠م. وقد بنيت هذه الكنيسة على الطراز النوبي عرفت باسم "الكنيسة على المنحدر الجنوبي". بالإضافة إلى هذا، تم ترميم الكاتدرائية القديمة وإعادة رسم جدرانها، وهذه اللوحات الجدارية من أروع ما رسم في بلاد النوبة إضافة للأسلوب المستخدم الذي كان أكثر تفصيلا، فقد جاء إلهام جديد من الخارج، على الأرجح من سوريا.

تولى خمسة عشر أسقفا على التوالي الكرسي الأسقفي بفرص بين ٨٠٠ و١٠٠٠م، وحمل أربعة منهم لقب "مطران": أبّا كيروس (٨٦٦-٩٠٢م)، أبا إيلياس (٩٢٦-٩٥٣م)، آرون (٩٥٣-٩٧٢م) وبيتروس[٣٢٢] (٩٧٦-٩٩٩م).

تحدد الكنائس المبنية والمرمّمة في فرص خلال هذه الفترة النموذج (الكلاسيكي النوبي) الذي كان يتبع ما يقرب من

[٣٢٠] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في مسعد، ص٢٤٣. (cf. OS, p. 511)

[٣٢١] تاريخ أبو صالح الأرمني، في مسعد، ص١٣٦. (cf. OS, p. 323)

[٣٢٢] ملاحظة المحقق. أي بطرس باللغة اللاتينية.

جميع الكنائس الأخرى في النوبة السفلى. في أيامنا هذه، بعد الاكتشافات الأخيرة في دنقلة، يبدو أن العديد من الكنائس الكبرى بدنقلة أصبحت نموذجا لبناء الكنائس في جميع أنحاء النوبة.

وقد دلت آثار الدير المتاخم للكاتدرائية والأديرة الرائعة الأخرى بقربه على وجود طبقة مستنيرة في العلوم الدينية والدنيوية. وبالفعل، كما أطلق بروفسور ميتشلوسكي (K. Michalowski)، رئيس بعثة الاستكشاف الأثرية البولندية، فإن "فرص هي مركز الإشعاع الفني والثقافي للنوبة المسيحية"[٣٢٣]. عملت تلك البعثة الأثرية في فرص ما بين ١٩٦٠ و١٩٦٤م. ولكن الاكتشافات الأخيرة لكنوز دنقلة العجوز الفنّية والتاريخية تنافس موقف فرص المتميز.

وأثبت اكتشاف أفران الخزف بعدد مهول من آنية بغرب فرص (١٩٦١) أن هذه المدينة كانت تنتج أجود خزف على الإطلاق في بلاد النوبة أثناء العهد المسيحي. أما اللوحات التي تم اكتشافها في كاتدرائية فرص – وهي إما محفوظة في متحف السودان القومي أو في المتحف الوطني بوارسو- فتمثل أفضل فترة كلاسيكية مرّت بها بلاد النوبة.

فيلة

كانت جزيرة فيلة في معظم الأوقات تقع داخل الحدود المصرية، بيد أنها كانت تمثل ملتقى النوبة بالشعوب الأخرى. فقد وجدت مستعمرة نوبية ههنا. أثناء القرن العاشر عندما احتل النوبيون جزءا من صعيد مصر، كانت فيلة تحت قبضة النوبيين. وقد قدّم المقريزي وصفا لفيلة على عهدة الأسواني:

"بلاق [فيلة] آخر حصن للمسلمين، وهي جزيرة تقرب الجنادل، يحيط بها النيل، فيها بلدٌ كبير يسكنه خلقٌ كثير من الناس، وبها نخل عظيم ومنبر في مسجد جامع. وإليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين من أسوان. بينها وبين قرية تعرف بالقصر – وهي أول بلد النوبة– ميلٌ واحد. وبينها وبين أسوان أربعة أميال، ومن أسوان إلى هذا موضع جنادل في البحر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة. ودلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك. وبالقصر مسلحة وباب إلى بلاد النوبة"[٣٢٤].

كتب الإدريسي مائتي عام بعد الأسواني أن لسكان فيلة بيوتا دائمة وموارد جيدة. يستوردون القمح إلا أن الدُّخن والشعير كانت متوفرة ببلادهم. يجتمع بهذه المدينة التجار الذين يأتون من الحبشة وبلاد النوبة، وكذلك التجار المصريون في أيام السلم.

[323] K. Michalowski, Faras Centre Artistique de la Nubie Chrétienne, Leiden, 1966.

[٣٢٤] المقريزي، المواعظ، في مسعد ص ٣٠٠. (cf. OS, p. 637)

وذكر ابن حوقل أن هناك قبائل تسكن غرب النيل وهي تخضع لملك النوبة بدنقلة. ولكنه يصف إقليمهم بغموض يصعب معه التعرف عليهم:

"ومن غربي هذا النيل الأبيض أمة يعرفون بالجبليين في طاعة ملك دنقلة وهو ملك المقرة ومريس. ومريس فهي من حد أسوان إلى آخر بلد المقرة، وبين علوة وبين الأمة المعروفة بالجبليين مفازة ذات رمال إلى بلد أمْقل وهو ناحية كبيرة ذات قرى لا تحصر وأمم مختلفة ولغات كثيرة متباينة لا يُحاط بها ولا يُبلغ غايتهم يعرفون بالأحديين، وفيهم معادن الذهب الجيد والتبر الخالص والحديد، متّصلين بالمغرب إلى ما لا يُعرف منتهاه، زيّهم زيّ المغاربة، أرباب جمال وخيل براذين غير تامة الخلق لقصرها وفرط لبودها، وسلاحهم فيه درق كدرق المغاربة بيضٌ وحراتٌ، وسيوفهم أيضا غير تامة، وفيهم جند يلبسون السراويلات المقتصة الطوال، ونعالهم كنعال المغاربة. وهم على النصرانية وهم في طاعة ملك علوة، وبينهم وبين ملك علوة خمس مراحل: ثلاث منها مفازة [...] ومُلك المقرة تحت مُلك علوة"[٣٢٥].

يشير ابن حوقل فيما سبق إلى قبيلتين (أو مجموعتين من القبائل) باسمين وهي ليست من أسمائهم القبلية: الجبليون والأحديون. أما الجبليون فهم يقطنون منطقة غرب النيل الأبيض الجبلية. أما الأحديون فيسكنون في إقليم غير محدد ينتج الذهب الخالص وخام الحديد. يقول الكاتب أن حدوده الغربية مجهولة. ولكن يمكن أن نشير بصورة غير قاطعة أن الجبليين هم سكان منطقة جبال النوبة بجنوب كردفان. أما بالنسبة للأحديين فيمكن صرف النظر عن عبارة ابن حوقل والتعامل معها كشيء خيالي أو زائف. وكونهم مسيحيين وفاقا لشهادة ابن حوقل، فهذا يعني أن لهم اتصالات وثيقة بأهل وادي النيل. أبانت البحوث اللغوية وجود صلات لسانية بين اللغات الموجودة في دارفور (بيرقد والميدوب والتنجور) وجنوب كردفان (الدلنج والدير) واللغات النوبية التي لا تزال تستخدم اليوم في وادي النيل[٣٢٦].

وهناك إشارة مدهشة في "كتاب الطبقات" لود ضيف الله، وهي اللفظة "*الكنيسة الرقطاء*" التي تلمّح إلى مكان منطقة الدلنج. وقد لاحظ الدكتور يوسف فضل حسن أن "إذا صح هذا التفسير، فهذا النص يعتبر من الأخبار النادرة التي تشير إلى نشأة المسيحية في تلك الجهة"[٣٢٧].

مهما يكن مكان أو موقع الجبليين والأحديين فليس هناك ثمة شك في انتشار التأثير المسيحي وإن كان مقترنا بالعقيدة الأرثوذكسية غرب وادي النيل.

[٣٢٥] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، في مسعد، ص ٧٥-٧٦. (cf. OS, p. 165-166)

[326] Cf. H. Bell, An extinct Nubian language in Kordofan, SNR, 54, 1973, p. 73-80.

[٣٢٧] يوسف فضل حسن، في ملاحظته ١٤، ود ضيف الله، كتاب الطبقات، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم ١٩٧٤، ص ٦٤.

الفصل الرابع عشر

صورة الكنيسة النوبية

يخبرنا المؤرخون قليلا عن الكنيسة النوبية في حقبة العصور الوسطى. وإنه قد تم جمع كمية كبيرة ومقدرة من المعلومات بواسطة علم الآثار. إضافة إلى أن الحفريات والدراسات المتعلقة بالنوبة في الفترة التي سبقت ارتفاع مناسيب بحيرة النوبة (في السودان، بحيرة ناصر في مصر) كشفت عن العديد من الحقائق غير المتوقعة.

ومن المأمول أن الحفريات الإضافية، التي لا تزال مستمرة في وسط النوبة (سد الحماداب)، ستسفر عن نتائج مدهشة. وهذه الحفريات من شأنها أن تساعدنا في تكوين فكرة أصدق عن حياة وثقافة النوبة المسيحية.

ومن الإنتاج الفني للفترة المسيحية (اللوحات، والمنحوتات، وتصاميم الكنائس، والمخطوطات، والأوعية الفخارية، والخ) نستطيع اليوم أن نفهم التطور المادي والثقافي الذي وصله النوبة في العصور الوسطى.

وكانت الكنيسة النوبية تحت رعاية الملك، وعليه ارتبط ازدهارها بازدهار الملوك. وتحت حكم الملك قرقي الأول وخلفائه حققت النوبة الكثير من النجاحات في الميدان السياسي. وامتدت سلطة ملوك دنقلة وسوبة بعيدا عن عواصمهم إلى الغرب والجنوب والشرق. وطالما تمتعت المملكة النوبية بعلاقات سلمية مع جيرانها، خاصة مع مصر، ولا شك أن الكنيسة أيضا قد استفادت من هذا الوضع.

ويمكن أن تؤخذ فرص ودنقلة كعلامات للرخاء (النسبي) في أجزاء أخرى كثيرة من الريف النوبي.

وبدأ النوبة تصوير ملوكهم في الكنائس بإتباعهم للطراز البيزنطي. ومن وجهة نظر المؤرخين، فإن أهم لوحة هي تلك التي تصور الملك جورج (جرجة) الثاني في كنيسة "سونقي تينو" (Sonqi Tino) (الجنوب الغربي). وتم تصوير الملك، وهو واقف تحت حماية المسيح عمانوئيل. وكان الملك يرتدي كل العلامات الدالة على السلطة الملكية، بما في ذلك تاج ذهبي مطعم بأحجار كريمة، وفي أعلاه قرنين تتدلى منهما سلسلتين في آخر كل منهما جرس صغير. ورغم أن عباءته بالية ومتهرئة، إلا أنها تحمل رسم النسر ذو الرأسين، تماما مثل الأباطرة البيزنطيين. في كاتدرائية فرص الملك نفسه يرتدي تاجا تعلوه "نجمة داود" السداسية[٣٢٨].

وفي عهد الملك قرقي الأول كان هناك عدد كبير من الكنائس قد بنيت في النوبة. والدراسة[٣٢٩] عن ١١٨ كنيسة موجودة بين الشلال ودال –قبل بناء السد العالي– قد أظهرت أن هندسة الكنائس في النوبة تطورت من النماذج

[٣٢٨] ملاحظة المؤلف: واستخدمت السلالة الملكية الأيثيوبيةُ هذا الشعارَ حتى العصر الحديث.

[329] Cf. W.Y. Adams, Architectural Evolution of the Nubian Church, 500-1400 AD, JARCE, IV, 1965, p. 87-139.

الأحنية (من نوع الباسيليكا، 550م) إلى النماذج النوبية، التي تم تقسيمها إلى النوبي المبكر (٦٥٠-٨٠٠م)، النوبي الكلاسيكي (٧٥٠-١٢٥٠م) والنوبي المتأخر (١١٥٠-١٤٠٠م).

وقد تم بناء ما يقرب من نصف هذه الكنائس، أو إعادة بنائها وفقا للطراز النوبي الكلاسيكي. كما لوحظ أن نصف هذه الكنائس كانت تقع داخل نطاق ٦٠ كيلومترا من فرص. والسمة الرئيسية للطراز الكلاسيكي ما يسمى بـ "الممر الشرقي" وهو ممر بين الجدار الخارجي والهيكل ليتمكن الشماس من الذهاب من الغرفة الجنوبية (فيها حوض المعمودية)، إلى الغرفة الشمالية (أي الموهف، prothesis) دون عبور الهيكل. ومن المميزات الأخرى للطراز النوبي الكلاسيكي، واحدة منها هي المساحة حول المذبح (الهيكل) وتمديدها نحو صحن الكنيسة، وتم فصل الهيكل عن الصحن المركزي بحجاب[٣٣٠] من الطوب، إضافة لبناء منبر أكبر للكهنة. قد لا يكون هذا أكثر من فرضية تشير إلى أن التطورات الجديدة استخدمت من أجل تكييف الهيكل للاحتفالات الليتورجية عندما غيرت الكنيسة النوبية (أو بعض الكنائس في النوبة) من طائفة الروم الملكيين الكاثوليك إلى القبطية أو العكس بالعكس.

وفيما يتعلق بالفنون البصرية والصناعية، اتفق الخبراء على أن الفنانين النوبيين استوحوا فنونهم من النماذج البيزنطية احتراما للذوق الأصلي. في علوة لم تبق أي مخلفات للتأكد من معرفة النوعية والنطاق: في الهندسة المعمارية والرسم والفخار.

أساقفة فرص

حتى هنا فقد ذكرنا سبعة أساقفة من فرص. الآن نزيد أسماء الأساقفة الذين احتلوا كرسي فرص في فترتي العصر الذهبي والانحطاط النوبي، والمدونة ضمن قائمة وجدت في الكاتدرائية.

٨. إغناطيوس (Ignatios) (٧٦٦-٨٠٢م)

٩. يؤانس (Yoannes) (حتى٨٠٩م)

١٠. يؤانس الثاني. لم يذكر تاريخ توليه الحكم ولا تاريخ وفاته بالقائمة.

١١. مركوس (Markos) اعتلى العرش لمدة اثني عشر عاما.

١٢. خائيل (ميخائيل) (Khael) يعتقد أنه توفي في ٨٢٧م، قبل تتويج خلفه.

١٣. ثوماس (Thomas) (٨٢٧-٨٦٢م) اكتشف جريفيث (Griffith) نصب تذكاري له سنة ١٩١١.

١٤. إيسو (Yesu) (٨٦٢-٨٦٦م).

١٥. أنبا كيروس (Kyros) (٨٦٦-٩٠٢م) وكان أول من يحمل لقب "مطران بخورس" وتظهر صورته أنه كان نوبيا.

[٣٣٠] ملاحظة المحقق: يسمى هذا الحجاب "حامل الأيقونات" أو "أيقونوستاسز".

١٦. أندراوس (Andreas) (٩٠٢-٩٠٣م).

١٧. أنبا كولوثوس (قولُتس) (٩٠٣-٩٢٣م) ودفن بالقرب من مدخل الكاتدرائية. لهذا السبب تم عزل الباب بحائط في عام ٩٢٣م.

١٨. أنبا اسطفانوس (Stephanos) (٩٢٣-٩٢٦م) وكان قبره بجانب قبر كولوثوس.

١٩. أنبا إيلياس (٩٢٦-٩٥٢م).

٢٠. أنبا آرون (٩٥٢-٩٧٢م).

٢١. أنبا بيتروس ميتروب (.Petros Metrop) (ميتروب أي مطران) (٩٧٦-٩٩٩م) وصورته في الكاتدرائية تحمل النقش باللغة القبطية: "حياة طويلة لأبا بيترو مطران بخورس".

٢٢. أنبا يؤانس الثالث (Yoannes) (٩٩٧-١٠٠٥م) صورته موجودة في متحف وارسو الوطني. تم العثور على نُصُبِه التّذكاري، مكتوب باليونانية، في قبة ضريحه.

٢٣. ترك فراغ بين الاسمين السابق والتالي. ويبدو أن الفراغ ترك عمدا ليملأه باسم الأسقف الذي لقي حتفه في إبريم، لكن اسمه لم يدرج في القائمة.

٢٤. أنبا ميركوريوس (Merkurios) (١٠٣٦/١٠٣٧-١٠٥٦م) تم العثور على صورته في الكاتدرائية. وفي النقش على النصب التذكاري يدعى بـ: "ابن يؤانس، أسقف بخورس".

٢٥. أنبا بيتروس (Petros) الثاني، أسقف بخورس (١٠٥٨-١٠٦٢م) كان هناك سنتين شاغرتين بينه وبين سلفه. و دفن في قبر يؤانس الثالث.

٢٦. أنبا جورجيوس (Georgios) (١٠٦٢-١٠٩٧م) كان نوبي الأصل. وهو أيضا دفن في قبر يؤانس الثالث. تحفظ صورته في متحف السودان القومي.

٢٧. أنبا خائيل (ميخائيل) (Khael) الثاني (١٠٩٧-١١٢٤م) دفن في قبر يوانس. وأطلق عليه اللقب: أسقف بخورس وابن الأسقف تيميكلوس (Timekleos)".

٢٨. أنبا إيوسو (Yesu) الثاني (١١٢٤-١١٧٥م). إنه أطول فترة أسقفية مسجلة لأساقفة بخورس. وعُيِّن بعده أساقفة آخرون، ولكن أسماؤهم، لم تسجل في القائمة عدا اسمين غير مقروءين تقريبا، ربما لأن الكاتدرائية لم تعد تستخدم.

استعادة ولاية الملكية(الرومية) في فرص؟

قام جميع الكراسي الأسقفية في النوبة بتحويل ولائهم من بطريركية الملكية (الرومية) إلى البطريركية اليعقوبية تقريبا في الفترة ما بين عام ٥٣٧ و٦٣١م، كما ذكره يوتيخيوس، بطريرك الإسكندرية الملكيين الكاثوليك. إلا أنه توجد قائمة

من الأساقفة ينتمون للكنيسة الملكية الرومية. وهذه القائمة تم تجميعها بواسطة يوسف المصري في عام ١٢١٧م. ويثبت القائمة استنادا لوثيقة يعود تاريخها إلى وقت يونيخيوس المتوفى في سنة ٩٣٩م. هذه الوثيقة سجلت وجود كرسي مطراني في محافظة مريس المنتمية إلى الملكيين (أي إلى الكنيسة البيزنطية، التي كانت في ذلك الوقت كاثوليكية). وتذكر أيضا "مقام مطران النوبة" دون ذكر اسمه. ويبدو مبرّرا تحديد الموقع في مدينة بخورس (فرص) لأن الأدلة الأثرية الموجودة تشير إلى أن مطرانا تابعا إلى الكنيسة الملكية قد عاد إلى فرص حوالي نهاية القرن العاشر.

اشتكى ميخائيل السوري بخصوص الإغريقيين الخلقيدونيين (أي مسيحيي الكنيسة الملكية) في عام ١١٢٦م، أنهم كانوا يسببون المشاكل لليعقوبيين في جميع أنحاء سوريا، وأرمينيا ومصر وفي بعض الأحيان حتى في النوبة. ويعلم أن الإغريق لم يتخلوا عن أملهم في إعادة إقامة ولايتهم على المناطق التي كانت تحت إمرتهم فيما مضى[331].

واعترف ساويرس –وهو كاتب سيرة البطريرك القبطي– بصفة ضمنية بوجود المسيحيين الملكيين الذين يصلون حسب الطقوس البيزنطية في النوبة في نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر. في السيرة الذاتية للبطريرك زكريا (١٠٠٣-١٠٣١م) إنه خلال فترة بطريركيته، أمر الإمبراطور البيزنطي بالقبض على يوحنا بطريرك أنطاكية وبإحضاره إلى القسطنطينية. وعندما وقف البطريرك أمام الإمبراطور، هذا دعا البطريرك إلى التخلي عن اعترافه باليعقوبية وأن يتبع الشعائر البيزنطية. وردّ عليه يوحنا بالآتي:

"يا سيدنا الملك الرب يحفظ مملكتك وسلطانك [...] وليس يجوز لسلطانك أن يلزم أحد [أحدا] بأن يترك دينه، كما إن لنا ملكين وهما ملك الحبشة وملك النوبة وما يلزمو [يلزمون] أحد [أحدا] من أهل ملتكم المقيمين عندهم أن ينتقلوا عن أمانتهم [إيمانهم][332]".

في قائمة أساقفة فرص السابقة نعثر على اسم بيتروس الأول (٩٧٦-٩٩٩م) الذي كان يطلق عليه لقب "ميتروب." أي مطران (Petros Metrop.). وفي نفس القائمة يمكن العثور على يؤانس الثالث (٩٩٧-١٠٠٥م) "أسقف بخورس، أرثدوكس"، وكان نوبيا واحتل كرسي بخورس منذ عام ٩٩٧م، أي قبل عامين من وفاة بيتروس.

وهنا يبرز السؤال: لماذا كان هناك أسقفان بين ٩٩٧ و٩٩٩م لنفس الكرسي؟ لأنه من المعروف أن الكنائس الشرقية غير معتادة على وجود اثنين من الأساقفة في آن واحد لنفس الكرسي. والجواب الذي طرحه بعض أهل العلم أن يؤانس تم تعيينه كأسقف للملكيين الخلقدونيين بفرص في عام ٩٩٧م. وسبب النجاح في احتلال كرسي فرص الأسقفي، ربما يعزي إلى الحالة السياسية السائدة في مصر في ذلك الوقت. وكان للملك الفاطمي عبد العزيز زوجة مسيحية ملكية يونانية (أو محظية)، ومن هنا مال لصالح الإغريق، كما ذكر العديد من المؤرخين.

"وفي أيامه [البطريرك فيلوثاوس ٩٨١-١٠٠٦م] أخذت الملكية كنيسة السيدة من اليعاقبة وتعرف الآن عندهم بكنيسة البطرك

[331] Cf. OS, p. 321. Chronique de Michel le Syrien. Patriarche Jacobite d'Antioch (1166-1199) (ed./transl. Jean-Baptiste Chabot), III, Paris, 1899-1905, p. 226.

[332] تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع، ج٣، م١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ٧٠٠-٧٠١. (cf. OS, p. 208)

وسببه أن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه ارميس [أي أرمياء] صيّره بطركا على بيت المقدس والآخر أرسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخوالة ابنته وتقدما في مملكته وأن أرسانيوس طلب الكنيسة من العزيز فأمر أن تعطى له[333]".

بقي بيتروس في فرص كمطران يعقوبي حتى وفاته. من بعده، كان خلفه يوانس (Yoannes) بمفرده في الحكم. مات يوانس في ٢١ سبتمبر ١٠٠٥م. وقد خلفه ماريانوس (Marianos) الذي عُين أسقفا في ١٠٠٣م، أي قبل عامين من تولي كرسي فرص. وصورته الرائعة في كاتدرائية فرص تبين أنه "ابن يوانس مطران بخورس" و"أرثوذوكس". وتوفي في ١٠٣١ بإبريم. واكتشفت لوحة قبره هناك في ١٩٦٦. ويمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان ماريانوس مطرانا بين ١٠٠٣ و١٠٠٥ في مكان آخر أو شارك الكرسي مع المطران يوانس. أما اللقب "ابن يوانس" قد يعني أنه كان تلميذا أثيرا، ويتشارك معه في الإيمان بالأرثوذكسية. وينطبق الشيء نفسه على الأسقف ميركوريوس (Merkurios، ١٠٣١-١٠٥٢) "ابن يوانس". وهنالك علماء آخرون يرون أن كلا ماريانوس وميركوريوس، هما ابنا يوانس قبل أن يصبح أسقفا[334] كما أنهم ساقوا بعض الحجج لإثبات أنه لا يوجد أي تغيير من الحكم القبطي إلى الملكي في فرص.

الليتورجية النوبية

لم يتبق الشيء الكثير فيما يتعلق بكتب الصلاة، والتراتيل الدينية، والقداس من الكنيسة النوبية القديمة. عليه ليس من الممكن تكوين فكرة واضحة عن الليتورجية النوبية. ومع ذلك وعن طريق اللوحات والمخطوطات والأنصاب التذكارية، يمكن تكوين بعض المعرفة عن طريق عبادة النوبة. ويمكن الافتراض أنه ما دامت الكنيسة النوبية تتلقي من كنيسة القسطنطينية، مذهبها ونظام الصلاة، فعليه النوبية المسيحية لا تختلف في العقيدة والممارسة الطقسية عن الكنيسة البيزنطية.

في بداية الفترة المسيحية في النوبة تم تحويل العديد من المعابد الوثنية إلى كنائس لعبادة الدين الجديد. وتم احتفال تدشينها عن طريق نحت الصليب على مدخل المعبد الوثني السابق، أو إقامة صليب خشبي على عمود في ساحة الكنيسة.

وبدأ النوبيون بناء الكنائس الخاصة بهم. وكان الهيكل مخصصا للكهنة المقيمين للقداس. وقد أظهرت الحفريات أن أقدم الكنائس في النوبة يمكن أن تضم جماعة كبيرة نسبيا. في وقت لاحق، أصبحت الكنائس التي شيدت من

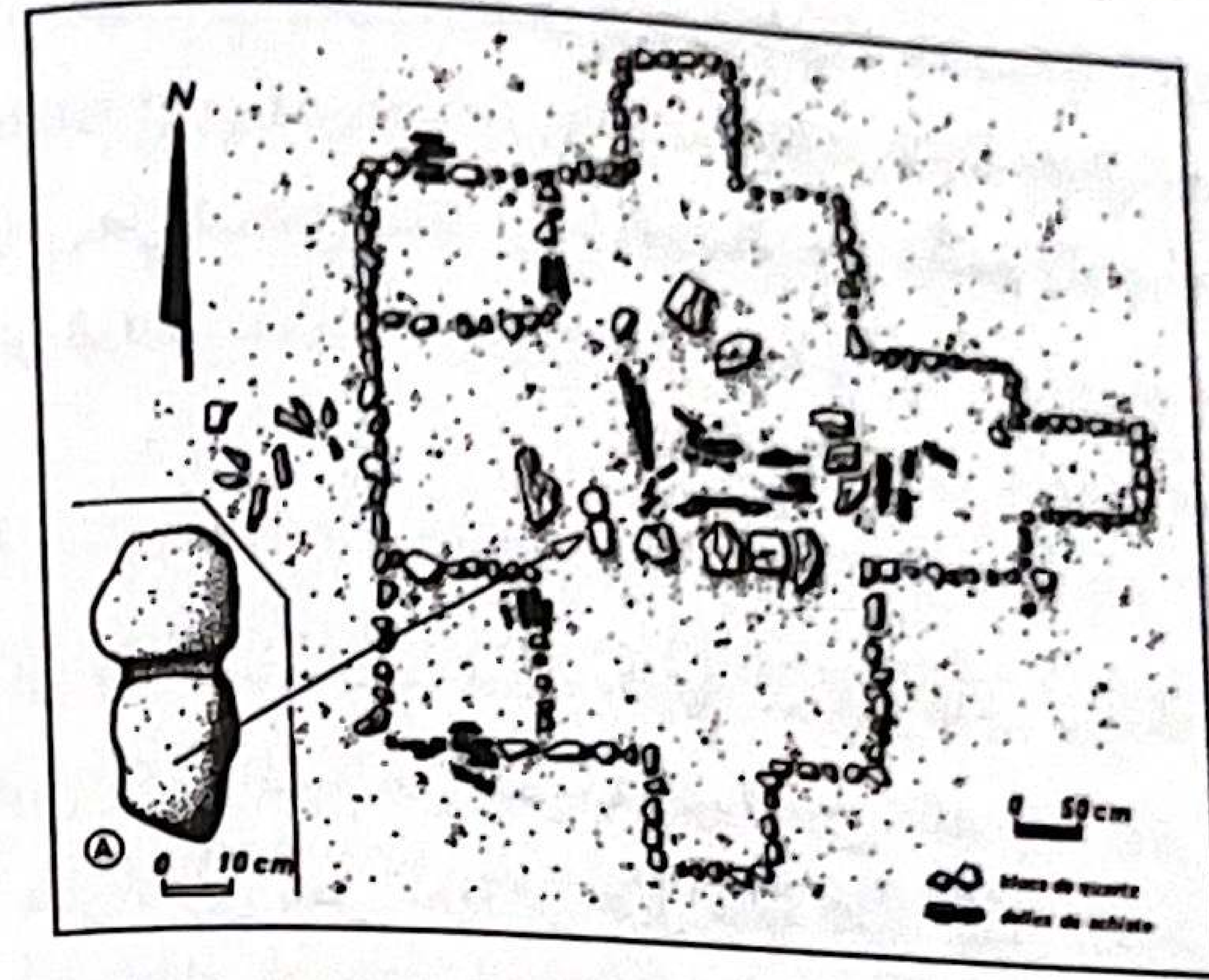
[333] جرجس بن العميد المكين، تاريخ المسلمين في:
Ed. and Latin transl.: Thomae Erpenii, Historia Saracenica, Leiden 1625, book 3, ch. 5, p.247.

[334] Cf. M. KRAUSE, Bischof Johannes III von Faras und seine beide Nachfolger, Etudes Nubiennes, Cairo 1978, p. 153-164.

قبل النوبيين أصغر حجما، لدرجة أن المساحة الداخلية بالكاد تسع الكهنة وبعض الآخرين فقط. ويقوم معظم الناس خارج الكنيسة، كما هو الحال اليوم في العديد من الكنائس بأثيوبيا.

في الفترة المسيحية في وقت متأخر، وعندما كانت سلامة المقرة السياسية في خطر، تم بناء معظم كنائس القرى داخل التحصينات. فمن المحتمل أنه في نهاية الفترة المسيحية أصبحت الكنيسة تتكون من خطوط من الحجارة موضوعة على الأرض الواقعة في العراء خارج القرية. وقد تم العثور على مثيل واحد على الأقل في جينيس (Ginis) الشرقية، شمال عبري (Abri).

الحجارة هناك تتبع خطة كنيسة نوبية، ويتم توضيح الجدران بخط من الحجارة الصغيرة، ويوضح الباب بلوح حجري من نفس نوع الحجارة المستخدمة في أبواب المباني الكاملة.



خطة بشكل الصليب لكنيسة بجينيس الشرقية. من:
La prospéction archéologique de la vallée du Nil au sud de la cataracte de Dal, 5, p. 108; Courtesy of A.Vila.

المعمودية[٣٣٥] والدفن

جلبت المسيحية معها عقيدة جديدة على النوبة تتعلق بما بعد الموت، وبالتالي سببت ثورة في التقاليد الوثنية القديمة المتعلقة بالميلاد والممات.

[٣٣٥] ملاحظة المحقق: يحدد "التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية" (عدد ١٢١٣-١٢١٤) المعمودية كالآتي: "المعمودية المقدسة هي ركيزة الحياة المسيحية كلها ورتاج الحياة في الروح، والباب الذي يوصل إلى الأسرار الأخرى. فبالمعمودية نُعتق من الخطيئة ونولد ثانية ميلاد أبناء الله، ونصير أعضاء للمسيح، ونندمج في الكنيسة ونصبح شركاء في رسالتها...يُسمّى "معمودية" نظرا إلى الطقس الأساسي الذي يتحقق به: فالتعميد هو "التغطيس" أو "التغويص" في الماء. "فالتغطيس" في الماء يرمز إلى دفن الموعوظ في موت المسيح وخروجه، بالقيامة معه (راجع: رو ٦: ٣- ٤؛ كو ٢: ١٢)، خليقة جديدة (٢كو ٥: ١٥؛ غل ٦: ١٥)".

في الكنائس النوبية القديمة كان هنالك جرن مخصص للتعميد في شكل حوض مربع، مطلي الجدران وبه ثلاث درجات تقود للأسفل وثلاث درجات أخرى للخروج منه. وكان المرشح للمعمودية يتجه للأسفل نحو الماء الموجود بالحوض، ومن ثم يخرج منه عن طريق العتبات الثلاث الأخرى في الجهة المعاكسة.

في كنيسة "الغزالي" (خور أبو دوم) وأماكن أخرى (على سبيل المثال سرّة غرب) وجد أن هنالك أحواض فخارية لتكون أجران المعمودية بدلا عن تلك التي كانت محفورة في أرضية الكنيسة.

في كنيسة بانقانارتي السفلى، كانت المعمودية تتم برشّ الماء حسب طقوس الكنائس الشرقية.

المسيحيون، بسبب إيمانهم الجديد بجنة روحية والخلود، أقلعوا عن التقاليد القديمة المتمثلة في وضع الطعام والشراب والأثاثات (الأسلحة للرجال والمرايا والعقود للنساء، وإلخ) داخل المقبرة، ليكمل المتوفى رحلته. مع ذلك، فإن اكتشاف مدافن لبعض المسيحيين المتأخرين في الفترة ما بين القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر أوضحت أن هنالك بعض التقاليد التي سادت قبل المسيحية، قد بقت طوال القرون المسيحية. وفي وقتنا الحالي نشاهد في النوبة بعض القرويين، وهم مسلمون، يصبون الماء على القبور في أعياد المسلمين، إضافة لتزيين القبور بجريد النخل. أما فيما يتعلق ببقايا الملح التي وجدت في قبور المسيحيين، فإن هذا كان تقليدا قديما الذي اكتسب معنى جديد في العهد المسيحي.[٣٣٦]

وتغير أيضا التقليد القديم فيما يتعلق بالدفن تجاه النيل، أيا كان اتجاه النهر، فتم إبداله بالطريقة المسيحية متجهًا من الشرق نحو الغرب. وكان هذا الوضع يهدف إلى أن المتوفى ينظر مباشرة نحو طلوع الشمس، رمز المسيح، يوم القيامة.

بعض مدافن المسيحيين تختلف عن تلك التي كانت قبل المسيحية، لأنها تحتوى على أكثر من قبر واحد، سواء كانت وضعيتها جنبا إلى جنب أو في طبقة عليا. وفي قرى حمّور عباسية بالقرب من دنقلة العجوز، توجد قبور للمسيحيين بالقرب من مدافن الفترة التي سبقت المسيحية. ويعود تاريخها كلها لبداية انتشار المسيحية في النوبة بصورة رسمية(حوالي ٥٥٠م). وفي الآونة الأخيرة تم اختيار مواقع المدافن قرب الكنائس أو الأديرة.

مع مراعاة الطقس الحار، لم يكن هناك وقت كاف بعد الوفاة لأداء طقوس الدفن الرسمية. ولكن هذه الطقوس كانت تعتبر هامة ويحرص على أدائها في تلك الأيام خاصة وفقا للتقاليد. ونجد أن قبور عامة الناس تغطي بصليب

[٣٣٦] ملاحظة المحقق: ورد في الكتاب المقدس: "ويتكلم (يسوع المسيح) عن الأمور المختصّة بملكوت الله. وفيما هو يأكل ملحا معهم (synalizómenos) أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم" (أعمال الرسل ١: ٤). وتعني الكليمة اليونانية الأصلية (synalizómenos): "أكلون ملحا معا"، حتى لو تترجم عادة لتناول الطعام. في العهد القديم للكتاب المقدس، يقصد التعبير "أكل الملح معا" أو "أكل الخبز معا" إلى إبرام عهد (راجع سفر العدد ١٨ : ١٩؛ وسفر أخبار الأيام الثاني ١٣: ٥). ويعتبر الملح ضمان الدوام، إذ كان مستخدما لمنع الفساد، وهذا نتيجة الوفاة. بالتالي، يعني "أكل ملح مع يسوع" تجديد العهد مع الله، وتطهير النفس (مرقس٩: ٤٩ ومتى ١٣ :٥) والمشاركة في الحياة الأبدية. يمكن التعمق في هذا الموضوع في:
JOSEPH RATZINGER BENEDICTO XVI, Jesús de Nazaret. Desde la entrada en Jerusalén hasta la Resurrección, Madrid 2011, p. 314-316.

من الطين، أو تغطي من الأعلى بالرمال. وعلى بعض المقابر البسيطة تنقش بعض الكلمات بالتمني: على سبيل المثال (phos) أي "نور" باليونانية، و(zoe) أي حياة، أو ينحت عليها بعض الصلبان من الخزف. وفي أواخر العهد المسيحي كانت تتم إضافة بعض العبارات السحرية للقبور. واستثنائيا لعلية القوم، على سبيل المثال -الملوك، والأساقفة، أو مشاهير الرهبان- الذين يتم دفنهم في الكنائس أو في حجرات الدفن، بنيت لاحقا من فوقها مصطبة بشكل صليب منخفض. وفي الجانب الغربي من المصطبة، يتم نحت محراب صغير ليحوي مصباحا -رمز الضوء والحياة الأبدية- ويتم وضع نُصب تذكاري على المصطبة كتب عليه اسم الميت وتضرع وابتهال لله الرحيم، ويكتب ذلك بصيغة تقليدية باللغة اليونانية أو القبطية أو النوبية القديمة.

ويتم وضع الحصى على قبور الرجال التي تمثل الصلوات من أجل الأموات[٣٣٧]. ولكن لا يتم وضع الحصى على قبور الأطفال لأنهم لا يحتاجون لإقامة شعائر تكفيرية.

وفي رأي الدكتور زوراوسكي (Zurawski)، هذه الصيغ وأشياء أخرى وجدت في مقابر آخر العهد المسيحي، ربما تكون نتاج المعتقدات في الفترة التي سبقت المسيحية أضيف إليها ضعف الاعتقاد المسيحي، في الفترة التي ساد فيها الجهل بالديانة المسيحية. وعلى الأرجح، هذا يعزي لقلة الكهنة -تحديدا الأساقفة- القادمين من مصر. ويعرف أن صلاح الدين، سلطان مصر (١١٧٢م) صعّب العلاقات بين مصر والنوبة، ولاحقا بعض خلفائه مثل السلطان محمد بن قلاوون، أصدر أوامر مشددة بعدم سفر الأساقفة من مصر إلى النوبة. وكانت هذه هي فترة التدهور السياسي في النوبة وكذلك فترة انحطاط الفن والثقافة.

في كنيسة "سونقي تينو" عثر على قطعة صحن، وهو تحفة غاية في الروعة والصنعة؛ والنقش على الحوائط باليونانية، يدل على أنه كان صحنا للقربان. بالفعل، كان الخبز الإفخاريستي (القربان الأقدس) مختوما إلى جانب الحرفين اليونانية "IX" (أي يسوع المسيح). أما الكأس الزجاجي الجميل الذي وجد في كاتدرائية فرص، فهو يقف شاهدا على استخدام أواني خاصة لإقامة القداس الإلهي. كما وجدت بعض المباخر البرونزية مزينة ببعض النقوش والرسوم التي صنعت بعناية فائقة.

لم توجد أي تماثيل في الكنائس النوبية، وذلك حسب تقاليد المسيحيين الشرقيين. الديكور الوحيد المستخدم لتزيين الحوائط الداخلية يتكون من بعض اللوحات، التي يوضع أسفلها مصابيح زيتية يتم وضعها أمام اللوحات بواسطة الكهنة أو بواسطة أي فرد من المؤمنين.

---

[٣٣٧] ملاحظة المحقق: يستمر تقليد "وضع الحصى" حتى الآن في مدافن الأقباط حيث يأخذ الكاهن ترابا ويرميه علة المقبرة قائلا: يا ابن آدم أنت تراب وإلى التراب تعود. ثم تغطي المقبرة بالتراب، ويوضع الحصى على شكل صليب.

الديكور باللوحات

ربما يعتبر هذا الشكل من أفضل أشكال الزخرفة الفنية لداخل الكنائس. ولم يتم أي بحث حول ما إذا كانت اللوحات في الكنائس النوبية مرتبة وفقا لأي هدف محدد، على سبيل المثال: لتصبح ملخص مصور للعقيدة المسيحية كرد فعل ضد سياسة تحطيم الأيقونات في القرن التاسع في اليونان. وجميع العقائد الأساسية للديانة المسيحية يتم التعبير عنها بصورة غير مباشرة عن طريق اللوحات الجدارية الموجودة في الكنائس النوبية. وفي معظم الكنائس نجد أن الباطوكراطور (Pantokrator) أي صورة "يسوع المسيح القادر على كل شيء الجالس في مجده كضابط الكل"، تستخدم لشغل داخل القبة فوق المذبح. يجلس السيد المسيح على عرش مزخرف، ويقف الرسل الإثنا عشر معه، ستة منهم عن اليمين وستة عن اليسار، وفي بعض الأحيان تكون أسماؤهم موضحة ومكتوبة. وفي العادة يكون على قمصانهم الحرفين اليونانيين "γ" (قاما) و "η" (إيتا)[٣٣٨]. وأبرز اللوحات الجدارية هي "ميلاد المسيح" و"إنزال الصليب" اللاتي تمثلان العقائد المسيحية.

"ميلاد المسيح"

في كل الكنائس النوبية التي وجدت بها بقايا لوحات، لوحظ أن لوحة "ميلاد المسيح" تحتل الحائط الأيمن من المدخل الشمالي، الذي يبدو أنه مخصص للنساء. وفي هذه اللوحة تظهر مريم العذراء في عظمة وبهاء متكئة على سرير في نهايته عرش، ودون وجود أي علامة من علامات التعب والإرهاق بعد الولادة البطولية، وهي تحمل تاجا على رأسها. وحجمها أكبر بكثير من كل الشخصيات المصورة معها[٣٣٩]. كل الأشخاص والمميزات في هذه الصورة ورد ذكرها في الإنجيل لارتباطها بولادة يسوع (عيسى في القرآن) ويظهر في الصورة كل من: يوسف (زوج مريم)، الرعاة، والمجوس الثلاثة، والملائكة، والنجمة. وهناك أيضا رؤساء الملائكة الثلاثة: جبرائيل واقفا أمام العذراء، وميخائيل ورافائيل يقفان وراءها. لا توجد فروق في أي مشهد من مشاهد "ميلاد المسيح" فيما يتعلق بعدد الشخصيات وأماكنهم وأسمائهم. الرعاة دائما اثنان (واحد يدعى أرنيَس (Arnias) والآخر ليكوتيس (Lekotes)، وهذا التوضيح فقط في اللوحات النوبية: ولا يرد ذكر الأسماء في أي مكان آخر، مما يعني أن هنالك مصدر إلهام مشترك من بعض الترجمات البيزنطية لبعض الأبوكريفا الشرقية[٣٤٠].

---

[٣٣٨] ملاحظة المحقق: يمكن أن يكون معنى الحرفين على قمصان الرسل التالي: لبعض الأعداد في الكتاب المقدس معنى خاص. تم عزي العدد ٨٨٨ ليسوع المسيح (cf.Irenaeus, Against Heresies, 1.15.2; Hippolytus, The refutation of all heresies, 6: 45) والقيامة أو الحياة الجديدة، والعدد ٣ للحرف "γ"، والعدد ٨ للحرف"η". بالتالي، يمكننا تفسير الحرفين المذكورين بيسوع المسيح (ثلاث ("γ") مرات ثمانية ("η")).

[٣٣٩] ملاحظة: نجد هذه القاعدة في الفن القبطي أيضا مما يعبر عن تأثير الثقافة القبطية في الفن النوبي.

[٣٤٠] ملاحظة المحقق: بعد أن ثبتت الكنيسة الأناجيل الأربعة المكتوبة في النصف الثاني للقرن الأول من قبل مرقس، ومتى، ولوقا، ويوحنا، كالنصوص القانونية التي أوحى الله بها، تم كتابة أناجيل أخرى. ويطلق على هذه الأناجيل المنحولة كلمة أبوكريفا Apocrypha اليونانية التي تعني"خفي، باطني، مجهول".

وأسماء المجوس الثلاثة[٣٤١] هي ميلشيون (Melchion)، باتيتورا (Batytora) وتادّاسيا (Taddasia). والاسم الأول يتفق مع اسم ملكيور (Melchior)، أحد الحكماء الثلاثة في كل من التقاليد الشرقية والغربية اللاحقة والاسم الثاني يبدو أنه تحريف للاسم الفارسي باتيزارا (Patyzara)، والذي يوجد في بعض التقاليد الشرقية، ويمكن أن يتطابق مع بلتازار (Balthasar) من التقاليد الغربية. واسم الثالث، ليس له مثيل في أي من الفن أو الأدب البيزنطي أو الغربي. يبدو من أصل إثيوبي، ففي واحدة من القصص الأبوكريفية، أحد المجوس يأتي من أثيوبيا، ويقابل الأخرين بأعجوبة في القدس، ويقدم ذهبا وبخورا.

ومن الجدير بالذكر أن جميع هذه العناصر المختلفة لمشهد "ميلاد المسيح" النوبي تتفق مع التقاليد القديمة والأساطير[٣٤٢] التي نشأت في بلاد فارس، ومن هناك انتشرت إلى سوريا وإلى الكنائس المتحدثة باليونانية ومن ثم إلى الغرب. إن انتشار التقاليد الشرقية في النوبة وظهورها في اللوحات الجدارية، هذا موضوع هام للبحث.

وفي لوحات أخرى نجد أن مريم العذراء مرسومة والطفل على ذراعها الأيسر (Madonna Eleousa) أو ترضع طفلها (Madonna Galakto-trophouse)، أو تحمي بعض الأشخاص النوبيين: الملك، الملكة، الأسقف. وفي الجانب الأعلى من جهة اليسار، بالقرب من رأس مريم، نجد دائما كتابة باليونانية: *Agia Maria Theotokos* (أي القديسة مريم أم الله)؛ وفي جانب الطفل نجد الكلمات الآتية:

(Yesou Christou Yios Theou Soter) أي "يسوع المسيح ابن الله المخلِّص".

إنزال يسوع (الجُلْجُثَة)[٣٤٣]

تتكون لوحة "الجلجثة" من إنزال جسد المسيح من على الصليب وغيرها من اللحظات العديدة بعد وفاته: دفنه وهبوطه إلى الجحيم ليسحق الشيطان تحت أقدامه، وقيامته، و"المريمات الثلاث"[٣٤٤] اللاتي أسرعن إلى قبر يسوع، وصعود المسيح إلى السماء. اللوحة الجدارية ذات قيمة وقد وجدت في كاتدرائية فرص، وتحوي جميع العناصر الأساسية من العقيدة المسيحية فيما يتعلق بسر الخلاص. ومن الجدير بالذكر أن هذا التكوين النوبي يشبه اللوحات

---

[٣٤١] ملاحظة المحقق: ورد المجوس الثلاثة أو الملوك أو الحكماء الثلاثة في إنجيل متى (إصحاح ٢). بسبب ذكر ثلاث هدايا افترض أنهم ثلاث أشخاص بالرغم من أن الإنجيل لا يذكر عددهم. ولا يمدنا متى بتفاصيل كثيرة عن أولئك المجوس، إلا أنهم جاءوا من "المشرق" (٢: ١ و ٢)، وهي عبارة غامضة لا تحدد بلداً معيناً، وهكذا تترك المجال واسعاً للتخمين.
تلعب زيارة المجوس لبيت لحم دوراً هاما في إنجيل متى، فمن البداية تعلن حقيقة شخصية الطفل الوليد باعتباره "مسيا إسرائيل" الذي طال انتظاره تحقيقاً للنبوات العديدة. (عد ٢٤: ١٧؛ إش ٦٠: ١- ٣؛ ميخا ٥: ٢؛ المزامير ٦٨: ٢٩؛ ٧٢: ١٠).
وبالإضافة إلي إثبات أن يسوع هو المسيا الذي طال انتظاره، فإن قصة المجوس- كجزء من مقدمة إنجيل متى- تقدم عدة مواضيع بارزة تعود للظهور في الأصحاحات التالية. فهي تؤكد أولا أن يسوع المسيح لم يأت لليهود فقط بل للأمم أيضا (ممثلين في "المجوس من المشرق" (إنجيل متى ٢٨: ١٩، وأيضا ٨: ١١و ١٢، ١٢: ٢١).

[342] Cf. U. Monneret de Villard, Le leggende orientali sui Magi evangelici, Città del Vaticano 1952.

[٣٤٣] ملاحظة المحقق: "جلجثة" كلمة آرامية بمعنى جمجمة واسم الجبل الذي صُلِب يسوع المسيح فيه (راجع متى ٢٧: ٣٣؛ مرقس ١٥: ٢٢؛ لوقا ٢٣: ٣٣؛ يوحنا ١٩: ١٧).

[٣٤٤] ملاحظة المحقق: "المريمات الثلاث" أي النساء اللاتي ذهبن إلى قبر يسوع ليدهننه، وهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة (مرقس ١٦: ١).

التي تجسد نفس الموضوع بالعديد من الكنائس اليونانية القديمة، وكذلك فسيفساء سقف باسيليكا القديس مرقس في البندقية.

الصليب المقدس

وكان من بين الأمور التي فاجأت المسافرين الغربيين الذين قابلوا النوبيين في القدس أو في مصر، هو وجود علامة الصليب على جباه النوبيين. ورأى الغربيون أن هذه العلامة كانت توضع على جبين الأطفال الصغار بقطعة من الحديد ساخنة كبديل للمعمودية[٣٤٥]. ودليل آخر ربما كان أقوى دليل على تبجيل النوبيين للصليب المقدس، لا مثيل لها في أي بلد آخر بما في ذلك إثيوبيا، هو الEncomium أي مديح الصليب أو تمجيده. هذا هو شكل من أشكال الصلاة أو الدعاء، تم تأليفها من قبل شخص يوناني في القرن الخامس. وكان هذا الثناء يستخدم في النوبة أولا باللغة اليونانية ومن ثم باللغة النوبية. وأصبحت النسخة الأصلية مترعة بعبارات تمجيد صليب المسيح. وتم اكتشاف مخطوطة كاملة تحتوي على الثناء باللغة اليونانية في قرية "سرّة" غرب إدفو (مصر). ومخطوطات أخرى، باللغتين اليونانية والنوبية، تم العثور عليها في النوبة. وهذه الوثائق القيمة هي من بين الوثائق القليلة الموجودة باللغة النوبية.

والEncomium (مديح الصليب) عادة ما يبدأ بمقدمة يتصور فيها الكاتبُ السيدَ المسيحَ الذي يتحدث مع الاثني عشر رسولا عن الدين . وعندما يكون الموضوع الصليب، بدأ يسوع بإخبار تلاميذه عن فضائله.

"هذا ما قاله ربنا يسوع المسيح عن آلامه والصعود إلى المجد، ومن ثم تحدث عن الصليب المبارك والمجيد، وبينما كان يلقي الدرس على رسله [...] سأل بطرس: «يا ربنا وإلهنا، نحن نرغب في أن تجعلنا نعرف سر الصليب المجيد، تحديدا عندما تحكم بالعدل، وأنت تحمل معك رمز الصليب المجيد، من أجل هذا، وعندما نستمع لذلك في حضرة الصليب، سوف نقوم بنشر ذلك في كل أنحاء العالم.» وأجاب المخلص وقال: [محذوف... تعليقا مطولا عن متى ٢٥: ٣١-٤١][٣٤٦]. «أيها الأحباء، إذا كنتم حقا ترغبون في معرفة قوة الصليب، استمعوا إلى قوته:

الصليب هو الأمل للمسيحيين.

الصليب هو قيامة الأموات.

الصليب هو الصراط لمن ضلوا.

الصليب هو الدليل للمكفوفين.

الصليب هو العصا للأعرج.

الصليب هو مرضعة للرضع.

الصليب هو ما يقوي الضعيف.

---

[٣٤٥] ملاحظة المحقق: :كان رشم الصليب طقسا مختلفا عن المعمودية.

[٣٤٦] ملاحظة المؤلف: نقلنا هنا بعض الجمل فقط من النص الكامل الذي يشمل ٤٦ جملة لتمجيد الصليب.

الصليب هو الطبيب للمرضى.

الصليب هو الكمال للكهنة [...]

الصليب هو الذي يذل الاعتزاز.

الصليب هو كرامة الملوك [...]

الصليب هو أمل الذين تعرضوا للسرقة.

[...] الصليب هو سقيا للبذور.

[...] الصليب هو حجر الزاوية لأركان الدنيا الأربع.

[...] الصليب هو أساس الكنائس.

[...] الصليب هو عثرة الوثنيين.

[...] الصليب هو تحية المداعبة[٣٤٧] ».

أما في التقليد الغربي يرتبط الصليب عموما مع فكرة الآلام -تلك المعاناة التي يجب على الجميع تحملها كشرط لضمان النصر النهائي- فيظهر الصليب في النوبة دائما كرمز للانتصار (على الموت) الذي تم بالفعل. وتبدو الأذرع الأربع للصليب في جميع اللوحات مصنوعة بعناية ومرصعة بالجواهر مع باقات من الزهور. وفي نهاية كل ذراع أجراس معلقة بين كل ذراع وأخرى. وبدلا من جسد المسيح المصلوب، هناك صورة صغيرة تصور المسيح في الوسط، يمسك بيد الكتاب (الذي يمثل كلمة الله) والأخرى مرفوعة ليبارك بها.

مثال آخر نموذجي من التقوى للصليب في الكنائس النوبية، هو صورة الثالوث الأقدس[٣٤٨]. ويتم تمثيل الأشخاص الثلاثة، في شكل ثلاثة وجوه بشرية متطابقة تماما وكلها تشبه المسيح. لتبين أن الثالوث الأقدس في السماء، الثلاثة وجوه تحتل الجزء العلوي من اللوحة، وطبقة من الغيوم في منتصف اللوحة تفصل السماء عن الأرض؛ وتم تمثيل الأرض بواسطة ثلاثة صلبان، مقطوعة الرأس، وتقف على سطح الأرض. واللوحة تشير إلى العلاقة بين الخالق والكون، أو بين الثالوث الأقدس وخلاص البشرية. ومع ذلك يظل هذا محض افتراض. وما يدهش حقا في هذه اللوحة هو أنها وجدت في جميع الكنائس التي تم اكتشاف لوحات بها.

---

[٣٤٧] يجد النص الأصلي في:
F.LL. GRIFFITH, The Nubian texts of the Christian period, Akademie der Wissenschaften, Berlin 1913, n.8, p. 47-50.

[٣٤٨] ملاحظة المحقق: "الكنيسة تستعمل اللفظة "جوهر" (يعبّر عنها أحيانا بال "إنّية" أو "الطبيعة") للدلالة على الكائن الإلهي في وحدته، واللفظة "شخص" أو "أقنوم" الدلالة على الأب، والابن، والروح القدس في التميُّز الحقيقي في ما بينهم، واللفظة "علاقة" للدلالة على واقع أن تميزهم يقوم مرجعيّة بعضهم إلى بعض.
الثالوث واحد. إننا لا نعترف بثلاثة آلهة، بل بإلهٍ واحد بثلاثة أقانيم: "الثالوث الأحاديّ الجوهر". فالأقانيم الإلهية لا يتقاسمون الألوهية الواحدة، ولكن كل واحد منهم هو الله كاملا...الأقانيم الإلهية متميزون تميُّزا حقيقيا في ما بينهم...الأقانيم الإلهية ذوو علاقة بعضهم ببعض. فالتميُّز الحقيقي القائم بين الأقانيم ولا يُقسّم الوحدة الإلهية، يقوم فقط في العلاقات التي تُرجع بعضهم إلى بعض". (من التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، عدد ٢٥٢- ٢٥٥).

الفتية الثلاثة في أتون النار

في كل كنيسة من الكنائس النوبية نجد لوحة الفتية الثلاثة في أتون النار (في بابل) مع رئيس الملائكة ميخائيل في هامتهم. والسبب في شعبية هذا الموضوع لا يزال مجهولا[٣٤٩]. ومما يشير إلى أهمية اللوحة الجدارية أنه تم العثور عليها في الجهة اليسرى من المدخل الجنوبي، الذي كان مدخلا مخصصا للرجال. وتم تصوير الشبان الثلاثة واقفين وسط اللهب؛ ورئيس الملائكة ميخائيل يحمل عصا تنتهي بشكل صليب[٣٥٠]، وأجنحته ترسل نحوهم ريحا لتبعد عنهم النار. جميع الملابس الخارجية والداخلية للشبان الثلاثة والتي ورد ذكرها في الكتاب المقدس (عباءة و سروال وغطاء للرأس)، وهي تبدو بحالة جيدة ولم تتلف جراء الحريق.

لوحات الملوك

قد تم التحدث بالفعل عن صور الملك قرقي الأول وجرجة الثاني داخل الكنائس. وربما يمكن أن يكون تفسير هذا هو حقيقة أن كل ملك نوبي كانت تتم رسامته كاهنا، وبالتالي يمكنه إقامة القداس جنبا إلى جنب مع الأسقف والكهنة. وحول مشاركة الملوك في القداس، قال أبو صالح على أساس شهود سابقين:

"وجميعهم [ملوك النوبة] كهنة يقدسون على الهياكل مادام الملك منهم لم يقتل بيده، فإذا قتل لم يبق له قداس، ولم يزل [أي يزل] كذلك، أعني الملك بغير القداس، وإذا دخل إلى حجاب الهيكل ينزع عنه تاج الملك، ويقف مكشوف الرأس إلى أن يتقرب الشعب جميعه، ولم يبق منهم أحد بغير قربان فيتقرب آخر الشعب إذا أرد أن يتقرب"[٣٥١].

ومع ذلك يبدو أن هذه العادة لم يكن يتم المحافظة عليها بصورة دائمة.

الملائكة والقديسين

من اللوحات وغيرها من البقايا الأثرية، ويبدو أن النوبيين كانوا وبصورة عامة يبجلون الملائكة وميخائيل على وجه الخصوص.

وتحتوي الكنائس النوبية على صور النساك المصريين المشهورين، على سبيل المثال أنوفريوس (Onouphrios) وأبا آرون. والرموز التقليدية المتعلقة بالناسك، هي نخل باثني عشر غصنا جنب مُصلى. ونجد أيضا صور الشهداء غالبا: جرجس (جورج)، ثيودور (تادروس، Theodore, Tadros)، فيكتور (Victor)، مركوريوس (Merkurios)، إيبيماتشوس (Epimachos).

---

[٣٤٩] ملاحظة المحقق: اقرأ رواية الفتية الثلاثة في سفر دانيال (إصحاح ٣) للكتاب المقدس. ومن الممكن أن سبب أهميتها هو وجود ميخائيل الملاك لأن النوبيين كانوا يبجلونه على وجه الخصوص.

[٣٥٠] ملاحظة المحقق: وتنتهي أيضا حربة مار جرجس في شكل صليب في كثير من لوحات قبطية تصوره وهو يقتل التنين.

[٣٥١] تاريخ ابي صالح الأرمني، في مسعد، ص ١٤٤. (cf. OS, p. 333)

وبصرف النظر عن مريم العذراء، نجد أن القديسات من النساء اللاتي تم تصويرهن، هي آنا (Anna) والدة مريم، وقديسة لم يكشف عن اسمها. ويفترض علماء الآثار أن هذه هي "الست داميانا" شهيدة من أصل مصري. وتتناقض هذه الفرضية مع الفن التقليدي من التصاوير النوبية، لأن الأشخاص الذين ليسوا من أصل نوبي، يرسمون دومًا بوجوه بيضاء، في حين أن النوبيين (الملوك والملكات، والأساقفة، والأبرخص، والأمراء وغيرهم) يستخدم ذلك لرسم وجوههم لون بني فاتح أو بني داكن. وبما أن القديسة غير المعروفة والتي أطلق عليها علماء الآثار "الست داميانة"، لكنها تحمل وجها بنيا، يمكن استخلاص الاستنتاج بأنها كانت من أصل نوبي. ونقترح افتراضا أنها قد تكون إفيجنيا (Ephigenia)، وهي عذراء نوبية وشهيدة، وفقا لأسطورة القرون الوسطى. ووضع على رأسها تاج يبدو أنه تاج من الشوك. ولا يمكننا أن نكون على يقين من أن الصورة تمثل قديسا.

توجد صورة القديس "أبو نُفَر" الناسك في كاتدرائية فرص وفي غيرها من الكنائس النوبية. والسبب يعودُ إلى أن هذا القِدّيس كان ساكنا في جهات مدينة فرص وبالطبع لَعِبَ دَورا في نَشرِ الدين المسيحي بين الجيران.

فيوجد في كاتدرائية فَرص صُورة للقديس القبطي "أبا آرون" أو"هارون" الذي –حسب المؤرّخين– سبق أن عاش في جزيرة فِيلة، ثمّ تَوَدّى (استقام) قُرب مَدينة فرص.

ويمكن أن تقال كلمة واحدة عن الأسماء التي استخدمها النوبيون خلال الفترة المسيحية. نجد أن الملوك والشخصيات الهامة الأخرى، ورجال الكنيسة كانوا يحملون أسماء من أصل غير نوبي، يوناني عادة أو أسماء من الكتاب المقدس (جورجيوس[٣٥٢]، زكريا، يؤانس، مركوس، سيمون، ماريا ومارتا). أما العوام فيحمل بعضهم أسماء مركبة، جزء أجنبي وجزء نوبي، على سبيل المثال: ستاوروسي (Staurosi)[٣٥٣]، يسوكودا (Yesukuda)، إبسايك (Ibsayak)، سالومونيكو (Salomoniku)، أنجيلوسكو (Angelosko)، ماريابسا (Mariapsa) وغيرها. والبعض الآخر يحملون أسماء نوبية خالصة، وبعضها من بقايا الآلهة الوثنية: على سبيل المثال بوويسي (Powesi، إيزيس)، أدور (Ador، هاتور)؛ شينكو (Shenku)، كاتيكودا (Katikuda)، كودانبيس (Kudanbes)، نيوتي (Nyuti)، مارافيا (Marafia). ويبدو أن الملوك والكهنة والأساقفة أيضا، مصادفة لاعتلائهم أو رسامتهم في حالة الكهنة والأساقفة, قد اتخذوا أسماء أخرى وفقا للتقليد الذي لا يزال قائما في الكنيسة القبطية.

النقوش الجنائزية

معظم النقوش الجنائزية التي تم العثور عليها، كانت مكتوبة باليونانية، وغالبا بأخطاء لغوية كثيرة. وهذا يعني أن قاطع الحجارة وعلى الأرجح أيضًا الشخص الذي حضّر النص، لا يعرفان اليونانية بشكل صحيح، وقاما بنسخها

[٣٥٢] ملاحظة المحقق: جورجيوس هو اسم من أصل يوناني بمعنى "فلاح". ليس هذا الاسم موجودا في الكتاب المقدس. والأسماء الأخرى كلها موجودة.

[٣٥٣] ملاحظة المحقق: معنى الكلمة ستاوروس (σταυρός) باليونانية والقبطية هو صليب.

من النقوش والنصوص القديمة. ولكن هناك بعض الرسومات التي استخدمت فيها القبطية أو النوبية. وسبق أن قلنا إن أصل النقش الجنائزي من أصل بيزنطي، وعلى الأرجح تكون هذه العادة قد وصلت إلى النوبة عن طريق مصر. الصيغة هي صلاة موجهة إلى الله الخالق ورب جميع الكائنات الحية. ومن ثم السؤال أن يكون رحيما على الشخص المدفون، وربما يحقق له الدخول في "دار السعادة، والضوء والسلام، في حضن إبراهيم وإسحق ويعقوب"، كما وجدت في كتب الصلاة في جميع الكنائس في كل من الشرق والغرب. وعادة ما يتم تسجيل تاريخ الوفاة في نهاية النقش وفقا لتقويم عصر الشهداء المصريين الذي يبدأ سنة ٢٨٤م. وتم كتابة معظم النقوش الجنائزية –حتى على كسرة من إناء خزفي– بالحروف اليونانية، ما عدا، ربما في نوباديا. إنما في علوة فهي تقريبا كلها مكتوبة باليونانية. ولم يتم العثور على لوحات جنائزية عربية في علوة.

في حالة شخصيات كنسية، يتم وضع الصلبان والرموز الدينية الأخرى وأيضا بعض الأواني الفخارية في القبر.

أقدم مقابر تقع في جبل الغدّار وبقربه، في ضواحي دنقلة. معظم القبور القديمة في مقبرة جبل الغدّار، يعود تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس، وتحتوي على مدافن المسيحيين جنبا إلى جنب مع المسلمين. وكانت المقبرة المسيحية بالقرب من الكنيسة عادة، خصوصا إذا كانت الكنيسة مشهورة لسبب معين. قد يكون هذا الحساب لتقليد المسلم المعاصر من وجود الأشخاص المتوفين مدفونين بالقرب من القبة (الضريح) من رجالهم المحليين المقدسين المشهورين.

كثيرا ما كان النوبيون يبنون جثوة من حجر بشكل صليب على القبور. وكان هذا الشكل أكثر تواترا مع جثوات بنيت لتكون معالم صغيرة، كل واحد من الطوب المحروق والبيضاء. وتم العثور على بعض المعالم البارزة بالقرب من كنيسة سونقي تينو. وبُنِيَ في كثير من الأحيان محراب صغير في أحد أطراف المعلم، فيه مصباح خزف وأحيانا نصب تذكاري. وكان المصباح منقوشا باسم أحد القديسين باليونانية. وتم اكتشاف العديد من الأمثلة من هذه المقابر في فرص وسكنيا (Sakinya).

الرموز المسيحية

وتم العثور على العديد من الرموز المسيحية في النوبة. لا يزال بعضها لم يعرف معناه بعد والبعض الآخر مفهوم. هناك، على سبيل المثال، حمامة التغلب عليها من الصليب. وتوجد أيضا رمز السمك، والطاووس، والنسر في الكنائس، وكذلك العلامة التجارية لصناعة الفخار أو الزخارف.

وتسبق علامة الصليب جميع النقوش المنحوتة على الصخور، أو على ألواح حجرية، والوثائق المكتوبة، والتوقيعات، بغض النظر عما إذا كان الكاتب أسقفًا أو راهبًا، أو كاهنًا أو شماسًا أو مجرد مؤمن مسيحي. ومن بين الرموز والوثائق التي وجدت هناك ما يسمى ب"خاتم سليمان" في شكل نجمة ذات خمس أطراف، وكذلك "نجمة داود" السداسية الأطراف.

الفصل الخامس عشر

النوبة والأيوبيون

لم يضع ظهور صلاح الدين الأيوبي حدا للفاطميين وغطرسة القوات النوبية في مصر فحسب، وإنما وجه ضربة للكنيسة النوبية وذلك بقطع الطريق بينها وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط ومنعها من أي اتصالات أخرى.

وتراجعت هيبة الخلفاء الفاطميين وسط اشتباكات مسلحة بين الوزراء الذين يناضلون من أجل السلطة. ونشر الخوف من غزو وشيك على مصر من قبل الصليبيين قلقا في مصر وبقية العالم الإسلامي.

في عام ١١٦٣م، في الوقت الذي كان يستعد فيه الصليبيون لتجديد هجماتهم على مصر، أرسل الملك نور الدين من الموصل فرقة من جيشه الكردي لمساعدة الخليفة الفاطمي العاضد في مصر لصد هجوم الصليبيين. وكان القائد العام لقوة الكرد "أسد الدين شيركوه". وكان بين جنوده ابن أخته صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وكان عمره حينئذ عشرين سنة. وكان على ما يبدو شابًا بدون طموح، ولكن مع ذلك مسلم سني قوي مصمم على القضاء على الشيعة. عندما توفي شيركوه في ١١٦٩م، عيّن العاضدُ صلاحَ الدين برتبة وزير مع اللقب التشريفي "الملك الناصر".

وسرعان ما بدأ صلاح الدين العمل بصمت لتحقيق خطته ذات الشقين، لوقف بدعة الفاطميين، وخلق مملكة لنفسه في مصر مستقلة عن نور الدين.

واستاء النوبيون بالقصر الفاطمي من هيمنة صلاح الدين والأكراد. لهذا السبب اعتزم بعض مسؤولي البلاط التخلص من صلاح الدين الأيوبي. وبعد اشتباك بين النوبيين والأكراد في الشوارع، أمر صلاح الدين جميع الجنود النوبيين بالانسحاب إلى صعيد مصر، بعيدا عن البلاط الملكي.

وبفضل الانتصارات ضد الصليبيين في دمياط، وغزة، وإيلات وغيرها من الأماكن، ازدادت شعبية صلاح الدين بين المسلمين المصريين، الذين كانوا مقسمين إلى جزئين سنة وشيعة. وعندما ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة يوم ١١ سبتمبر ١١٧١م بدلا من اسم الخليفة العاضد لم يواجه بأية معارضة من الشعب.

في يوليو ١١٧٢م، كتب مُفَوَّض القصر، وهو نوبي، رسالة إلى الصليبيين. وفيها أوضح خطته للتخلص من صلاح الدين الأيوبي. واقترح أن يتقدم الصليبيون من ساحل البحر الأبيض المتوسط (دمياط) باتجاه القاهرة. وبالتأكيد فإن صلاح الدين الأيوبي سيزحف بقواته لمحاربة الصليبيين، وفي ذلك الوقت تقوم القوات المكونة من السود بالقصر بمهاجمة جيش صلاح الدين من الخلف. وعليه لن يترك لصلاح الدين الأيوبي أي مفر بين الجبهتين.

ووقعت الرسالة في يد صلاح الدين وتمكن من التعرف على الرجل الذي كان العقل المدبر للخطة. وأخفى مشاعره لبعض الوقت حتى أحس المفوض أنه خارج نطاق الخطر، وذهب إلى واحدة من قصوره خارج القاهرة. وذهب جنود صلاح الدين هناك، وقتلوه وأحضروا رأسه لسيدهم.

وغضب السود الذين كانوا بالفسطاط بسبب مقتل مفوض الخلافة، من منطلق الغيرة ولأن المفوض كان واحدا منهم، ووقف في صفهم وساندهم. وتجمعوا لاحقا وشكلوا جيشا ضخما من الرجال عددهم خمسون ألفًا وبدأوا الحرب ضد جنود صلاح الدين الأيوبي، ولكن جنود صلاح الدين تجمعوا ونازلوهم في معركة في الميدان الواقع بين القصرين. وهناك نشبت معركة رهيبة من كلا الجانبين. يحكي المقريزي:

"وكان العاضد في هذه الوقعة يشرف من المنظرة، فلما رأى أهل القصر كسرت السودان وعساكر مصر، رموا على الغُز [أي الأكراد] من أعلى القصر بالنشّاب والحجارة حتى أنكوا فيهم وكفّوهم عن القتال وكادوا ينهزمون. فأمر حينئذ صلاح الدين النفّاطين بإحراق المنظرة، فأحضر شمس الدين النفّاطين وأخذوا في تطبيب قارورة النفط وصوّبوا بها على المنظرة التي فيها العاضد، فخاف العاضد على نفسه، وفتح باب المنظرة زعيم الخلافة، أحد الأستاذين، وقال بصوت عالٍ: أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة ويقول: دونكم والعبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم. فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا، فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقفيتهم إلى أن وصلوا إلى السيوفيين، فقتل منهم كثيرا وأسر منهم كثيرا، وامتنعوا هناك على الغز بمكان، فأحرق عليهم [...]

ومرّوا إلى العبيد، فصاروا كلّما دخلوا مكانا أحرق عليهم وقُتلوا فيه[٣٥٤]".

وتم إشعال النيران في ربع المنصورة التي يقطنها معظم النوبيين في القاهرة. سدت الطرق ولم يترك لهم مفر. وصاروا يتصايحون ويسألون عن جوازات مرور[٣٥٥]. وتم منحهم ذلك لكنهم في الجيزة بدأوا في جمع الأسلحة والمؤن لبدء المعركة مرة أخرى. وهناك تم تدميرهم بالكامل. بعد هذه الحادثة تراجعت قوة العاضد إلى لا شيء.

بعد أيام قليلة من هذه المعركة، توفي العاضد وأصبح صلاح الدين حاكم مصر ويحمل لقب "السلطان".

وانسحب ما تبقي من السود الذين نجوا من مذبحة القاهرة إلى صعيد مصر. وهناك استمروا في مقاومة صلاح الدين ولكن دون جدوى، وذلك لإعادة السلطة إلى الفاطميين. وتقدم ملك النوبة نفسه مع الجيش، ولكنه تأخر بعض الشيء، متجها نحو صعيد مصر لدعم الفاطميين، ولكن دعمه لم يسفر عن شيء.

شمس الدولة يُغيْر على النوبة

وتسبب الجهد المبذول من جانب ملك النوبة لإنقاذ الخليفة الفاطمي، في أن يقوم صلاح الدين الأيوبي

[٣٥٤] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، في مسعد، ص ٣١٦-٣١٧. (cf. OS, p. 664-665)

[٣٥٥] يعطي ابن الأثير صورة قاسية لحرق ربع المنصورة، وحرق النساء والأطفال حتى الموت. راجع كتاب الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦، م١١، ص ٣٤٥-٣٤٧.

بإرسال بعثة عقابية ضد النوبة. عين عليها شقيقه شمس الدولة توران شاه لقيادة جيش ضخم لقهر النوبة.

وابن الأثير، وهو نفسه كردي ومستتير حول صلاح الدين، قال إن صلاح الدين لديه سبب آخر لاحتلال النوبة. وكان يريد النوبة لنفسه وعائلته، حيازة يمكن أن يتراجع نحوها إذا فكر نور الدين في التوجه نحو مصر وحرمانه من حكمه لها.

وتقدم شمس الدولة في النوبة حتى إبريم. هناك خاض معركة ضارية للاستيلاء على القلعة المسورة. القاضي الفاضل، مستشار صلاح الدين، وصف تلك المعركة في أسلوبه البهي المعتاد. نقتبس منه التالي:

"وكانوا [النوبة] جمّة حامية من بني حام كالجراد أرجلا، إلا أن الله حطمها بسُليمانه، مع مَن انضمّ إليهم من العلو واطراف"[٣٥٦].

الحساب التاريخي الرصين لابن الأثير فيما يلي نصه:

"في هذه السنة [٥٦٧هـ/١٢٧٢-١٢٧٣م] في جمادى الأولى سار شمس الدولة تورانشاه ابن [توران شاه بن] أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلد النوبة فوصل إلى أول بلادهم ليتغلب عليه ويتملكه. وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر وأخذها منهم فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد؛ فإن قووا على منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد إلى افتحوها، فجهز شمس الدولة وسار إلى أسوان ومنها إلى بلد النوبة، فنازل قلعة اسمها إبريم فحصرها وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي قوة لأنهم ليس لهم جُنة[٣٥٧] تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها فملكها وأقام بها، ولم ير للبلاد دخلا يُرغب فيه وتُحتمل المشقة لأجله، وقوتهم الذرة، فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع معاشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة، تركها وعاد إلى مصر بما غنم، وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري"[٣٥٨].

السبب الأساسي وراء هزيمة النوبيين ظهر بشكل واضح في النص السابق: هو أنه لم يكن لديهم دروع لحماية أنفسهم ضد السهام وغيرها من الأسلحة. وأن النوبيين في الماضي استخدموا الدروع، ولكن لا يملكون أيا منها الآن. نحن لا نعرف ما سبب هذا التغيير في تسلح النوبيين.

ويبدو أن غزوة توران شاه قد خلفت الفوضى والدمار في أعقابها. والكاتب المعاصر أبو صالح دوّن التفاصيل التالية حول الدمار في إبريم:

"وفيها [أي في إبريم] الزاد والعدد والسلاح وساروا [جيش توران شاه] إليها ولما تعدت عليهم [أي على النوبيين] تركوها خراب بعد أن فتحوها وسبوا مَنْ بها مِن النوبة وذكر أن عدتهم سبعمائة ألف نفس من الرجال والنساء والفتيان والصغار ووجد بها سبعمائة خنزير وأمر [شمس الدولة] بحرق الصليب الذي على قبة هذه البيعة [أي الكنيسة] وأن يؤذن على علوها ونهبوا

---

[٣٥٦] القاضي الفاضل في: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، دار الكتاب الخديوية، القاهرة ١٩١٥، ص٥١٠. (OS, p. 357-358)

[٣٥٧] ملاحظة المحقق: جُنّة أي حماية.

[٣٥٨] ابن الأثير، كتاب الكامل في التاريخ، في مسعد، ص ١٧٣؛ بيروت ١٩٦٦، ج١١، ص ٣٨٦- ٣٨٧. (OS, p. 357-358)

جميع ما بهذه الناحية ونهبوا حاصل البيعة وقتلوا الخنازير ووجد بها أسقف فعاقبه فلم يجد عنده شيء يقرّبه حينئذ سباه مع السبي وركز بها في القلعة وهيَ على جبل عال حصينة جدا وترك بها عدة من الخيل وجعل عندهم الزاد والسلاح والعُدد والآلات ووجد بها قطن كثير فحمله إلى قوص وباعه بجملة كبيرة"[٣٥٩].

عدد السجناء الكبير الذي ذكره أبو صالح، هو بالتأكيد مبالغة أو خطأ طباعي، ولكن لا شك في الدمار اللاحق الذي لحق بإبريم.

مزيدٌ من الغارات

اكتشف شمس الدولة أن النوبة ليست مناسبة لسكن الأيوبيين الأغنياء. ومن مصر ذهب إلى اليمن، التي أخضعها لسيطرته في نفس العام. وغادر الأراضي النوبية التي غزاها ومنحها كإقطاعية لأحد أصحابه من الأكراد المعروف باسم إبراهيم الكردي. هذا الرجل مع أتباعه نفذ غارات كثيرة في المنطقة المحيطة بإبريم لمدة عامين تقريبا. القوات الكردية ارتضت البقاء في النوبة، وجمعوا ثروات طائلة. خلال غارة في محيط دندان (اليوم أدندان) مقابل مدينة فرص، غرق إبراهيم وبعض من رجاله أثناء السباحة في نهر النيل. وانسحب بقية رجاله إلى إبريم، وجمعوا كل ثروتهم وعادوا إلى مصر.

وطالب الملك النوبي بإرجاع قصر إبريم. وبعث رسولا إلى شمس الدولة وطلب هدنة وأرسل كهدية رجلا وخادمة. وقام شمس الدولة بإعطاء الرسول كرد قوس وسهام، وهذا يعني بالتالي أن الحرب وحدها يمكن أن تقرر بينه وبين ملك النوبة. كما بعث رسولا من عنده اسمه مسعود الحلبي لمرافقة رسول الملك إلى دنقلا وللتحسس على الظروف والأوضاع هناك. أبو شامة كتب ما يلي:

"قال مسعود: فوجدت بلادا ضيّقة، ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار، منه إدامهم. ووصف مَلِكهم بأوصاف منها [أن] قال: خرج علينا يوما وهو عريان، قد ركب فرسا عريا [أي عاريا]، وقد التفّ في ثوب أطلس، وهو أقرع، ليس على رأسه شعر. قال: فأتيت فسلّمت عليه فضحك وتغاشى، وأمر بأن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني. قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص"[٣٦٠].

عزل النوبة

بعد الحملة العقابية، لم يهتم الأيوبيون بغزو النوبة. ولكنهم أبقوا عيونهم مفتوحة على كل الاتصالات بين النوبة وساحل البحر المتوسط. ومضى قرن من الزمان قبل أن يستنهض النوبة همتهم ويستجمعوا قواهم لمحاربة مصر. وطوال تلك الفترة لم تستفق النوبة من الضربة التي وجهها لها الأيوبيون.

---

[٣٥٩] تاريخ ابي صالح الأرمني (ed. Evetts)، أكسفرد ١٨٩٣، ص١٢٢ (الموفق ٩٦ب لمخطوطة باريس). (cf. OS, p. 328)

[٣٦٠] ابو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، في مسعد، ص١٨٠. (cf. OS, p. 370)

وخلاف الحملة التي قام بها شمس الدولة لم يسجل المؤرخون إلا القليل من المعلومات عن النوبة طوال فترة الأيوبيين. يقولون إنه ظهر على الساحة أناس يدعون دَمادِم عبروا النوبة من بعض الأراضي الأخرى في المناطق الداخلية في عام ١٢٢٠. وكان غزوهم للنوبة مثل غزو التتار لديار الإسلام.

من هم هؤلاء الدمادم؟ ومن أي اتجاه هاجموا النوبة؟ وإلى أي مدى اخترقوا النوبة فعليا؟ ونجد أن المعلومات التي قدمها المؤرخون العرب تحتوي على بعض التناقضات. أبو الفداء يقول:

"ومن أممهم [أي أمم السودان]: الدمادم. وبلادهم على النيل فوق بلاد الزنج. والدمادم تتر السودان، فإنهم خرجوا عليه وقتلوا فيهم كما جرى للتتر مع المسلمين، وهم مهملون في أديانهم، ولهم أوثان وأوضاع مختلفة. وفي بلادهم الزرافات. وفي أرض الدمادم يفترق النيل إلى جهة مصر وإلى الزنج"[361]

ويقول نفس الكاتب نقلا عن ابن سعيد، أن الدمادم لهم بلدة أو قرية تسمى دمدمة، "التي خرج منها الدمادم على بلاد النوبة...وفيه قلحور"[362]

من هذا يبدو أن الدمادم كانت قبيلة أراضيها تقع إلى الجنوب من النوبة، وبعبارة أخرى هي منطقة تقع في وسط أو جنوب السودان الحالي. وورد ذكر دمادم أيضا بواسطة المسعودي حوالي ثلاثمائة سنة قبل ١٢٢٠م. ويقال إنهم كانوا يعيشون بالقرب من الزغاوة في الغرب. أما المقريزي، واستنادا إلى علماء الأنساب، فيزعم أن الدمادم جاؤوا من الواحات الغربية المتاخمة لأراضي الزغاوة.

ويبدو بالتالي أن أبو الفداء لم يكن يتحدث عن نفس الدمادم الذين تحدث عنهم المسعودي. ربما يتم الاتفاق على تصريحاتهم إذا اعتمدنا على فرضية أن بعض القبائل في الداخل، على سبيل المثال قبيلة لوو، بدأت في القرون ما بين الحادي عشر والثالث عشر مغادرة أوطانهم التقليدية في جنوب السودان، وتقسموا ومضوا قدما في اتجاهات مختلفة. البعض منهم ربما اتجه شمالا ودخل "الأراضي النوبية" أو الأراضي التي كان من المفترض أن تكون تحت سيطرة النوبة.

وفرضية أخرى هي أن المؤرخين أعطوا نفس الاسم (ربما تشوه عند تعريبه) إلى مجموعتين مختلفتين، واحدة تحركت من الغرب في وقت المسعودي (٩٥٦م)، والأخرى تحركت من الجنوب حوالي ١٢٢٠م، كما ذكر أبو الفداء. ومع ذلك، لا يمكن اعتبار أي من الفرضيتين بوصفها الحل النهائي للمسألة.

عنصر إضافي بشأن النوبة خلال الفترة الأيوبية، هو أن البطريرك القبطي كيرلس الثالث بن لَقْلق قد أكد بعض قوانين الكنيسة القبطية. ومن بينها كان هنالك قانون يمنع أبناء المحظيات والعبيد من قبولهم في الخدمة الكهنوتية بما فيهم الذين تم ترحيلهم من الحبشة والنوبة. ويمكن أن يستدل من هذا أنه في الماضي بعض "النوبيين" أو أبناء النساء

---

[361] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، في مسعد، ص ٢١١؛ في: دار المعارف ج١، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٢٣. (cf. OS, p. 465)

[362] المرجع نفسه.

النوبيات تم رسامتهم كهنة في مصر.

السلطان الملك الكامل (١٢١٨-١٢٣٨م) منع أحد من الأساقفة، الذي كان البطريرك القبطي قد نصّبه على النوبة، من مغادرة مصر والتوجه نحو كرسيه في بلاد النوبة.

في عهد السلطان نفسه هاجم الصليبيون وفرضوا حصارا على دمياط (١٢١٨م). وقد سجل كاتب سيرة البطريرك أن السلطان أعطى أوامره بإلقاء القبض على شخصين مهمين. أحدهما يدعى جوهر النوبي. وكان كلاهما



منظر الكاتدرائية بقصر إبريم التي هدمها جنود توران شاه في حملته إلى النوبة (١٢٧٢م).

الفصل السادس عشر

النوبة والرحالة الأوروبيون

عدد من الكتاب والرحالة القادمين من الغرب والصليبيين والحجاج إلى القدس، دوّن عن رحلاتهم في الفترة من القرن الثاني عشر حتى القرن الرابع عشر. وذكروا أسماء الجماعات المسيحية التي قابلوها في القدس ومصر. البعض منهم يدعو جميع المسيحيين الأساود "الأحباش"، في حين أن آخرين استخدموا اسم"النوبيين"، دون الالتفات إلى الاختلافات بين المجموعتين من الناحية العرقية وبلدانهم التي أتوا منها. ولكن بعض الكتاب كانوا يميزون وبصورة صحيحة بين الأحباش والنوبيين كجماعتين مختلفتين عن بعضها البعض. وبما أن معظم إفاداتهم تقوم على سماع القول علينا أن نقبلها مع بعض التحفظات.

كتب "البيرتس آكوينسيس" (Albertus Aquensis) تاريخ الحملة الصليبية الأولى (*Historia Hierosolymitana*)[٣٦٣] في الفترة ما بين ١١٢٨م و١١٥١م (أو ١١٠٠ و١١١٨ وفقا لآخرين). وذكر أنه من بين المحاربين المسلمين أيضا مقاتلين من الأثيوبيين، الذين سماهم "أزوبارت" (Azopart)، حيث يبدو أن هذه الكلمة تشويه لكلمة حدارب. نحن نميل إلى الاعتقاد بأن بعض المقاتلين من قبائل البجا، انضمت إلى قوات المسلمين في فلسطين. نورد بعض المقاطع أدناه:

"عرق أسود يعيش في أراضي أثيوبيا واسمه الشائع 'أزوبارت' (Azopart) احتشد في عسقلان جنبا إلى جنب مع غيرهم من المسلمين [١٠٩٩م]. اعتاد الأزوبارت على القتال بركبة واحدة على الأرض، لذا تم تثبيتهم على خط الجبهة. وعندما بدأ الهجوم، يطلقون على الإفرنج وابلا من السهام. وفي الوقت نفسه، يطلقون صيحات مرعبة ورهيبة من أجل تخويف الخيول والفرسان، وبالتالي إخراجهم من ساحة المعركة. كان الأزوبارت ذوو لون داكن وملامح مخيفة، وكانوا يحملون سياطا يربطون في نهايتها كرة من الحديد، ليضربوا بها الخيول على رؤوسها.

[...] في يوم الجمعة [١٢ أغسطس ١٠٩٩م] نشبت المعركة بين 20,000 من المسيحيين و٣٠٠,٠٠٠ من ال(saracens)، أي الوثنيين، العرب والعشارين والأثيوبيين"[٣٦٤].

"بينما كان المسيحيون في اجتماع، أُبلِغ الملك "بالدوين" بأن الأزوبارت، الجنس المقيت (gens foedisisma)، يختبئون في حفر تحت الأرض في الصحراء بين عسقلان وبابل [أي القاهرة] على استعداد لمهاجمة وقتل الحجاج في طريقهم إلى القدس"[٣٦٥].

وأول كاتب أوروبي[٣٦٦] يورد ذكر النوبيين كان ثيودريكوس (Theodericus، ربما كان أسقفا على ورزبورغ، Würzburg) الذي كان يعيش في فلسطين في ١١٦٩-١١٧٣م. وقال إنه وجد المجتمع النوبي متميزا عن اليعاقبة، ورغم أن كلا منهما يتبع نفس العقيدة.

جاء ريتشارد دي كلوني (Richard de Cluny) (أو ريتشارد دي بواتيير،Richard de Poitiers، ١١٧٢م) لأفريقيا من فرنسا، بحثا عن المسيحيين المحليين. وقال إنه لم يجد واحدا في ليبيا وتونس والجزائر. ولكن قيل له أن هناك شعبا مسيحيا في النوبة إلى الجنوب من مصر. والذي كان صحيحا في ذلك الوقت. كما كتب أن ملكهم كان يقاتل ضد السلطان صلاح الدين وأضاف أن الملك كان كاهنا.

في عام ١١٧٥م، دون أرنولد من كولونيا (Arnold of Cologne) أن الإمبراطور الألماني فريدريك أرسله إلى مصر ورأى أشياء غريبة كثيرة في قصر السلطان، مثل الببغاوات التي قيل إنها تجلب من النوبة. وواصل المؤلف قائلا:

"وتقطع المسافة بين النوبة ومصر في عشرين يوما. والنوبة بكل المقاييس دولة مسيحية. ويحكمها ملك ما، ولكن الناس لديهم القليل من التعليمات ومعظم أراضيهم صحراء".

لذلك لدينا ثلاثة مصادر غربية تعود للفترة ما بين ١١٧٠-١١٧٥م والتي تشهد أن النوبيين كانوا مسيحيين آنذاك. وبعض الكتاب في وقت لاحق يكررون القول نفسه، والذي يعتبر في وقتهم معلومة غير حديثة.

في يوليو ١٢٠٣م، التقى البارون الفرنسي روبرت دي كلاري (Robert de Clari)، بملك أسود بالقسطنطينية في قصر الإمبراطور البيزنطي، حيث أقام الإمبراطور وليمة عظيمة تكريما لهذا الملك الأسود. وتحدث البارون روبرت معه بمساعدة مترجم، واستفسر منه عن بلاده.

وأخبره الملك بأنه يعيش في القدس التي تبعد مائة مرحلة عن موطنه الأصلي. وعندما غادر بلاده كان مع ستين من الموظفين والخدم في حاشيته، ولكن عندما وصل إلى القدس تبقى منهم عشرة فقط. وذكر أنه جاء إلى القسطنطينية برفقة اثنين من الخدم. وعلاوة على ذلك، قال إنه كان يعتزم الذهاب لأداء مناسك الحج في مدينة روما العظيمة وإلى كنيسة القديس يعقوب وضريحه بكومبوستيلا في إسبانيا. وإذا عاد بمشيئة الله سالما من هذه الرحلة، قال إنه لن يعود إلى بلده، ولكن سيبقي في القدس في انتظار يوم القيامة.

ولاحظ الكاتب علامة الصليب الموشوم على جبين الملك الأسود. وأعرب عن اعتقاده الخاطئ بأن الصليب قد تم وشمه بمكواة ساخنة.

---

[٣٦٣] راجع النص الأصلي باللاتينية أو بالفرانسية:
Récueil des Historiens des Croisades. Historiens Occidentaux, t. IV, Paris 1879.
وتجد بعض الفقرات في:
YOUSOUF KAMAL, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, Cairo 1951, t. III, 3.(s.v. Albert D'Aix).
[364] Hist. Hier., T.1, lib VI, p. 360,366.

[365] T. 1, lib VII, p. 428-429.

[٣٦٦] معظم المعلومات حول الرحالة المذكورين أدناه مأخوذة من:
ENRICO CERULLI, Etiopi in Palestine, Rome 1943, 2 vols; ANNE-DOROTHEE VON DEN BRINKEN, Die Nationes Christianorum Orientalium in Verständnis der Lateinischen Historiographie, Köln 1973, p. 243-262 (Die Nubier); YOUSOUF KAMAL, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.

ولا يمكن أن يقال وبصورة قاطعة ما إذا كان هذا الملك من النوبة أو من الحبشة. ولكن بعض الكتاب اعتقدوا أنه يجب أن يكون من النوبة، لأن الأحباش ينتمون إلى اليعقوبية، في حين أن البيزنطيين كانوا "ملكيين (ملكانيين)" ويعارضون اليعاقبة. والسجلات لا تحتوي على ذكر تبادل للزيارات بين ملوك الحبشة والأباطرة البيزنطيين.

وزار الفرنسي ألبريك دي تروى فونتاين (Alberic de Trois Fontaines) القدس في ١٢٠٥م. وكتب أن النوبيين كانوا مسيحيين وأن طقسهم الخاص بهم يحتل المركز السابع بين الطقوس الشرقية[٣٦٧]. ومع ذلك كانوا أكثر حرصا من أي كنيسة شرقية أخرى من أجل الوحدة مع الكنيسة اللاتينية. وكان لديهم ملك. وجزء من الشعب يخضعون لملكهم، الذي كان يعرف ببريستر جون (Prester John)، بينما الآخرون يخضعون لسلطان المسلمين.

الراهب بورتشارد (Burchardus) دي جبل سيون قضى عشر سنوات في فلسطين، وذكر أن من بين الحجاج الآخرين رهبانا من النوبة (حوالي ١٢٧٠-١٢٨٠م). في القاهرة رأى ملكا نوبيًا سجينا[٣٦٨].

كتب شاعر ألماني القصيدة "Ernestus"[٣٦٩] التي وصف فيها مغامرات إرنيستوس (Ernestus)، دوق بافاريا، الذي ذهب للحج إلى القدس حول 1205م. وفي يوم ما –لم يرد ذكر المكان– رأى إرنيستوس سفينة تدفعها العاصفة، مزدحمة بذوي الوجوه السوداء ("adusti Mauri") وقال إنهم كانوا:

"يعبدون المسيح بن العذراء [...] وبلدنا أوبيا [Ubia، بدلا من "Nubia" أي النوبة]؛ التي كان يسميها القدماء مروي وبينما كنا في الطريق لأغراض تجارية جرفتنا عاصفة حدت بنا إلى شواطئكم [...] لدينا أناس مبتدئون ومحبون للسلام وبعضهم لا يزال يحافظ على الطقوس الوثنية [...] وفي بعض الأحيان يقومون بشن حروب. وهم يعتقدون أن الشياطين تتحول حول المذابح الوثنية".

وأخبرهم الدوق أنه ينوي الذهاب إلى القدس وقرروا مرافقته. ولا يمكن للمرء أن يعتمد ملحمة كدليل تاريخي ولكن في سياق روايات الحجاج، يمكن الوثوق بها في أن الدوق قد قابل التجار النوبيين في البحر الأبيض المتوسط في ١٢٠٥م.

وكتب جاكس دي فيتري (Jaques de Vitry) أسقف عكا (أكري) الكاثوليك في فلسطين عام ١٢١٦م

---

[٣٦٧] ملاحظة المحقق: الطقوس الشرقية هي الطقس الإسكندري، الأنطاكي، الأرمني، الكلداني، السوري-الأنطكي والبزنطي. كل واحد منها يُظهر الإيمان حسب الثقافة المحلية. ومن الجدير بالذكر أن المسيحية المشرقية هو مصطلح يدلل به على العقيدة التي تؤمن بها الكنائس المسيحية الأرثوذكسية الشرقية (الكنائس الشرقيّة القبطيّة والأرمنيّة والسريانيّة)، والتي لا تعترف إلا بشرعية المجامع المسكونية الثلاث الأولى (نيقية، قسطنطينية، أفسس)، وتعرف برفضها القاطع للعقيدة التي أقرها مجمع خلقيدونية (٤٥١م). وتعرف هذه الكنائس أيضا بالكنائس الشرقية القديمة، ولكن يجب التمييز بينها وبين الكنائس الشرقية الأرثوذكسية. فعلا، في عام ١٠٥٤م انفصلت الكنيسة البيزنطية (أي الرومية أو ما تسمى أيضاً باليونانية) والسلافية عن اللاتينية (أي الغربية). وانتشرت هذه الكنائس الشرقية في روسيا وبلاد البلقان واليونان وعموم الشرق الأدنى وهذه هي الكنائس الشرقية الأرثوذكسية. أما المسيحيون التابعين للكنيسة الأرثوذكسية والساكنين في البلاد العربية فيطلق عليهم اسم الروم الأرثوذكس بسبب أنهم يتبعون الطقوس الدينية اليونانية البيزنطية.

[368] Cf. Burchard, Descriptio; in Laurent (ed.), Peregrinatores.

[369] J. Kraus, Die Anfänge des Christentums in Nubien, Wien 1931, p. 1. Cf. Anne-Dorothee von Den Brinken, Die Nationes Christianorum Orientalium in Verständnis der Lateinischen Historiographie, Köln 1973, p. 248.

"تاريخ الشرق"[٣٧٠]، حيث دون الكثير من الأمور التي شاهدها بأم عينه. وقال إن جميع النوبيين كانوا مسيحيين، وأن موطنهم يقع جنوب مصر. كانوا ينتمون إلى اليعقوبية. وإنهم انفصلوا عن الكنيسة الواحدة الحقيقية قبل وقت طويل، وذلك بسبب بعض الأخطاء في معتقداتهم بشأن الختان، وسر الاعتراف، والتعميد عن طريق الوشم بالنار. من أخطائهم هي أنهم لا يعترفون بخطاياهم للكاهن ولكن فقط إلى الله مباشرة. ويعملونه في الخفاء فكانوا يضعون بالقرب منهم موقد فحم معتقدين أن خطاياهم ستتبخر مع الدخان[٣٧١].

أوليفير دي كولونيا (Olivier of Cologne)، الذي كتب في ١٢٢٩- ١٢٤٤م، دوّن في "تاريخ دمياط" أن الشائعات انتشرت في جميع أنحاء الشرق الأدنى في عهد صلاح الدين الأيوبي. وادعى بعض الناس النبوءة التي كانت تزعم أن المسلمين سوف يحصلون على القدس (وهذا حدث في ١١٨٧م على يد صلاح الدين الأيوبي)، وأن الصليبيين سوف يحتلون دمياط (وحدث ذلك في ١٢١٨م) وأخيرا أن ملكا من النوبة سوف يحتل الحجاز والأماكن المقدسة للمسلمين. ولكن جزء النبوءة الأخير لم يتحقق. النُقّاد يرون أن مصدر هذه النبوءة المزعومة هو شخص لم يكن مسلما ولا مسيحيا ولا يهوديا. مع ذلك، انتشرت النبوءة بين المسيحيين في الشرق والغرب. فذكرها الكثير من الكتاب الغربيين، حتى في وقت متأخر كالقرن ١٥، عندما تلاشت المملكة المسيحية في دنقلا من الوجود.

وذكر أوليفير أيضا أن النوبيين (أو الأثيوبيين) يختلفون عن اليعاقبة بوشمهم الصليب على جبينهم. هذه العلامة لا تعتبر بديلا عن التعميد بالماء. ويعترفون بالطبيعتين في المسيح، ولكن ربما كانوا قد أساؤوا فهم كلمة "طبيعة" بأنها تعني "شخص"[٣٧٢].

وذكر متّى الباريسي (Matthieu de Paris) عام ١٢٤٠م، أن النوبيين كانوا مستقلين عن الحكم الإسلامي.

ويُذكَر أيضا أن راهبا يدعى فاسينباتشي (Vasinpace) سافر إلى النوبة حوالي ١٢٦٨م. وذهب كممثل للبابا يحمل رسالة خاصة، ثم عاد من النوبة. ولكن لم يعرف شيئا عن نتائج مهمته، ولا في الواقع عن أي بلد كتب بالضبط. وجدير بالذكر لو أن ما يقال عنه صحيح، عليه فهو الراهب الغربي الوحيد الذي قام بزيارة النوبة ويحمل رسالة بابوية.

وويليام آدمز (William Adams)[٣٧٣] عام ١٣١٧م عدة بلدان شرق أوسطية وكذلك سُقُطرى. وفي كتابه

---

[370] Jacques de Vitry, Historia Orientalis, LXXV, ed. Moschus.

[٣٧١] ملاحظة المؤلف: وذكر أبو صالح أن هذه العادة موجودة في إثيوبيا. "إذا أخطأ أحدهم (الحبشة) يأخذ بيده بخور من هذه الإصناف مما يبخر به على الهياكل عندهم... ويعترف بخطيته عليه ويطرحه في المجمرة وأيضا الورد اليابس" (تاريخ الشيخ أبي صلح الأرمني تذكر فيه أخبار من نواحي مصر وأقطاعها، أوكسفرد ١٨٩٤، ص١٣٣، fol. 105b).(cf. OS, p. 339) ولعل هذه العادة نفسها موجودة أيضا في النوبة كما تمت ملاحظتها في سونكى تينو.

[٣٧٢] ملاحظة المحقق: اختلف المسيحيون في فهم الكلمة اليونانية "فيسيس" في مجمع خلقيدونية المسكوني (٤٥١م)، فاعتبر اليعاقبة معناها "شخص" والمسيحيون الآخرون معناها "طبيعة"، وبالتالي، ليسوع المسيح طبيعتان، أي الإلهية والبشرية.

[٣٧٣] ملاحظة المحقق: راجع:

CARLO CONTI ROSSINI, "Sulle missioni dominicane in Etiopie nel secolo XIV", Reale Accedemia d'Italia.

"حول الطريقة لإزالة المسلمين" (De modo Sarracenos extirpandi) يقول إن أثيوبيا بلد مسيحي تضم خمس ممالك، واحدة منها النوبة، التي تتاخم مصر وكانت قوية جدا لدرجة أنها في وقت ماض ألحقت الهزيمة بسلطان مصر. وهنالك نبوءة بين النوبيين أنهم يوما ما سوف يعبرون الجبال ويغزون الحجاز ومكة المكرمة.

وزار الأخوان الإيرلنديان سايمون سيميونيس (Simon Symeonis) وهوغو إلومينيتور (Hugo Illuminator) القدس عام ١٣٢٣م ولاحظا وجود الصليب الموشوم على الجبهة باعتباره علامة فارقة لتميز النوبيين عن الأثيوبيين.

"في المدن المذكورة أعلاه، الرجال والنساء، حتى المرضعات منهن، والشباب وكبار السن من الرجال كانوا يعرضون للبيع مثل الحيوانات، وخاصة الهنود [أي الأثيوبيين] والنوبيين، الذين كانوا مثل الغربان في سواد اللون. والسبب في ذلك هو أنهم كانوا في حالة حرب مستمرة مع العرب والنوبيين. وبعد أن يتم القبض عليهم، إما يفديهم أو يهربون[٣٧٤]".

ويعقوب دي فيرونا (Jacopo da Verona، ١٣٣٥م) يقول إن النوبيين (Nubiani) والأحباش (Jabeni) هم رجال أتقياء جدا، لكنهم يتلقون "ثلاث تعميدات": عن طريق الختان ووشم الصليب والماء[٣٧٥]. وفي كنيسة بيت لحم فإنهم يمتلكون واحدا من المذابح الثلاثة، على الجانب الأيسر. وجاكوبو هو أول مَن تحدث عن الحي النوبي في القدس.

نيكّولو دا بوقيبونسي (Niccolò da Poggibonsi) تحدث عن المسيحيين من "الهند" (India) و"تيوبيا" (Tiopia)، والأخيرة هي بالتأكيد الحبشة؛ أما بالنسبة لأولئك من "الهند" فيبدو أنهم نوبيون لأن اسم "الهند" كان في ذلك الحين ينطبق أيضا على بلاد النوبة. وقال عنهم نيكّولو "إنهم سود مثل الأثيوبيين". ونجد أن عدد الأثيوبيين أكثر من الهنود قليلي العدد. في يوم السبت المقدس،

"[...] على جانب واحد من ساحة القيامة يقف الإغريق، و"مسيحيو الحزام" (Christiani de cinctura)[٣٧٦]".

Rendiconti della classe di scienze morali e storiche, ser.7, I(1940), 71-98; Kenneth M. Setton(Ed.), A history of the Crusades: The Impact of the Crusades on the Near East, The University of Wisconsin 1985, p. 513.

374 Symon Semeonis, Itinerarium Symonis Semeonis ab Hybernia ad Terram Sanctam, XXXIV; ed. M. Esposito, Scriptores Latini Hiberniae, 4 (Dublin: Dublin Institute for Advanced Studies, 1960), p. 58.

375 Andrew Jotischky in, Rosamund Allen(ed.), Eastward bound: travels and travellers, 1050-1550, Manchester University Press 2004, p. 95-96. Cf. James of Verona, Liber peregrinationis fratris Jacobi da Verona (ed. Röhricht in Revue de Lorient Latin, 3, 1895, p. 155-303. Cerulli, Etiopi..., p. 131-132. 217. 225. Verena Böll, Andreu Martínez D'Alòs-Moner, Eugenia Sokolinskaia (eds.), Ethiopia and the missions: historical and anthropological insights, Lit Verlag Münster 2005, p. 33.

٣٧٦ ملاحظة المحقق: ليس استخدام التعبير هذا واضحا، فيطلق حينئذ على القبط أو الأرثذوكس اليونانيين أو اليعاقبة، لأنهم كانوا يلبسون حزاما فوق الجلابية. بالعكس، كان المسلمون يلبسون قطعة من القماش حول الوسط [illegible]

Andrew Jotischky, p. 93. Symo[illegible], XXXIV-XXXV; ed. Esposito, p. 58. Niccolo da Poggibonsi, Libro d'Oltramare, CIX, CXCI, ed. B[illegible]rafia dei Francescani), Jerusalem: 1945, p. 65. 113.

والنساطرة[٣٧٧]، وعلى الجانب الآخر النوبيون (Nubini) واليعاقبة والجورجيون واللاتينيون. ويقيم النوبيون قداسهم على المذبح وراء القبر المقدس، بعد وقت قصير من انتهاء قداس الأثيوبيين.

هؤلاء الناس [النوبيون] مثلنا، نحن اللاتينيون، ولكن سلطان بابل [أي القاهرة] لا يسمح لأي لاتيني بالعبور إلى بلادهم خوفا من أنهم قد يشنوا حربا عليه. ولكن أولئك الأثيوبيون يعبرون مصر إلى القدس ويحملون الصليب من خلال أراضي المسلمين كلها، وهذا استثناء لم يمنح لأية شعوب أخرى غير الإثيوبيين خوفا من ملكهم.

[...] في القاهرة هنالك العديد من الأعراق: أولا، المسيحيون من اللاتينيين، رغم قلة عددهم، ونجد بجانبهم اليونانيين والنوبيين (Nubini) [...] كل هذه الأعراق يعدون مسيحيين، على الرغم من أننا لا نعتقد أنهم مسيحيون حقيقيون، لكنهم يطلقون على أنفسهم أنهم أكثر مسيحية منا، اللاتينيين الفرانجية[٣٧٨]".

وزار لودولف فون سودهيم (Ludolf von Sudheim, L. de Suchem) فلسطين في ١٣٣٦م، وقام بالكتابة عن رحلته في وقت لاحق[٣٧٩]. كما استقى بعض المعلومات من "كتاب المجوس الثلاثة". وما يأتي من ملاحظاته الشخصية يعود إلى ١٣٣٦م، في حين أن بعض القصص الوهمية وغيرها من التفاصيل تأتي من مصادر أخرى. وقام بملاحظة كل من الرهبان الأحباش والنوبيين في مصر.

وقام يوحانس فون هيلديس (Johannes von Hildsheim) بعد ١٣٥١م بكتابة "كتاب المجوس الثلاثة"، حيث نسب إليهم العديد من القصص المبالغ فيها، وذلك كله لرفع مكانة رُفات المجوس الثلاثة التي يعتقد أنه تم حفظه في مدينة كولونيا. ويقول إن أحد المجوس الثلاثة كان من النوبة. استقى الكاتب الكثير من رواياته من قصص الحجاج والأساطير الشرقية[٣٨٠].

فيليب دو ميزير (Philippe de Mezières، توفى ١٤٠٥م)، فارس في بلاط ملك قبرص، رجع في وقت لاحق إلى فرنسا وكتب كتابين. في كتبه كلمة "لنوبة" تعني في الواقع أثيوبيا/الحبشة، بينما الكلمة "إثيوبيا" تشير إلى

---

٣٧٧ ملاحظة المحقق: النسطورية هي مذهب مسيحي يقول بأن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنهما بالطبيعتين وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع، فبحسب النسطورية لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح، بل هناك مجرد صلة بين إنسان والألوهية، وبالتالي لا يجوز إطلاق اسم والدة الإله على السيدة مريم العذراء كما تفعل الكنائس المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية. رُبِط تأسيس هذا المذهب بالأسقف نسطور (٣٨٦م- ٤٥١م) بطريرك القسطنطينية، تم إقصاء هذه الفلسفة الخاصة بطبيعة المسيح ومنعها من قبل آباء الكنيسة في مجمع أفسس في عام ٤٣١م، وأدى الصراع حول هذه النظرية إلى الصدع النسطوري، الذي فصل قسما من الكنيسة السريانية الشرقية (شرق نهر الفرات) عن باقي الكنائس المسيحية في ذلك الوقت.

378 Cf. Niccolo da Poggibonsi, CLXXVII, p. 105. Cf. Andrew Jotischky, p. 93.

379 Cf. Ludolf von Sachsen, Ludolphus de Sudheim, De Itinere Terre Sancte, in : Archives de l'Orient latin. vol. 2: 305-377. Paris: Ernest Leroux, 1884.

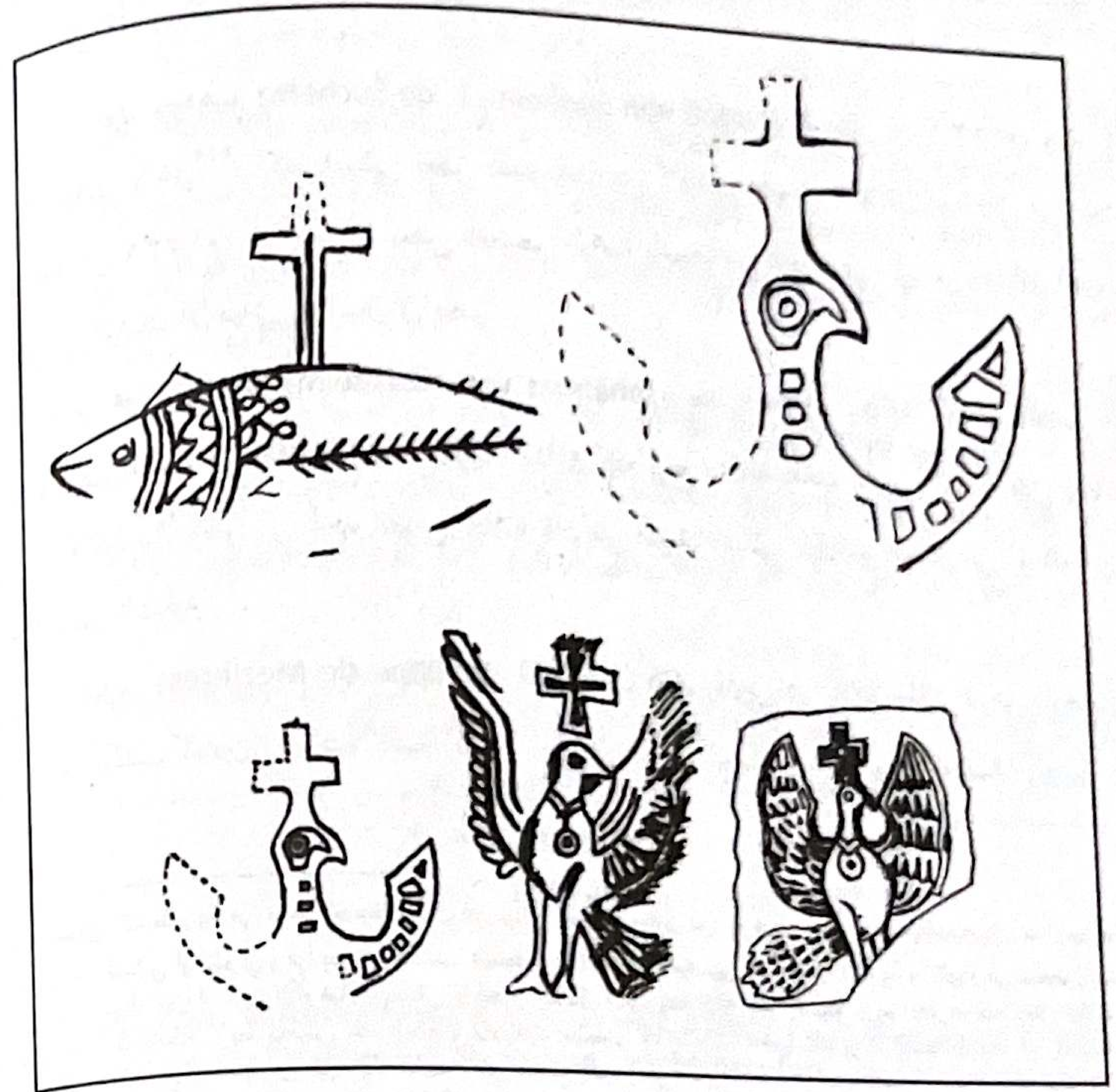
380 Joannes of Hildesheim, Three Kings of Cologne : an early English translation of the "Historia Trium Regum"; edited from the MSS., together with the Latin text, by C. Horstmann, ed. Millwood, N.Y: Kraus Reprint, 1988.

للمزيد يمكن الرجوع إلى: Cerulli, op. cit., p. 142-43; Monneret de Villard, Le Leggende Oriental sui Magi Evangilici, Città del Vaticano 1952, p.186-200.

النوبة. كما قام برواية العديد من القصص الخرافية، ولكنه ذكر أيضا أن "أثيوبيا" (أي النوبة) كانت تحت حكم ملك أفريقي مسلم، وهذا كان صحيحا في ذلك الوقت[٣٨١].

وقام دينو فريسكوبالدي (Dino Frescobaldi) من فلورنسا بالحج في ١٣٨٤م. وفي روايته ذكر أن "النوبيون" (nubini) هم من بين المسيحيين الشرقيين.

وهنالك مسافرون آخرون من أوروبا في القرن الرابع عشر ذكروا النوبة، ولكن اهتمامهم انصب على التحالف العسكري المحتمل بين الصليبيين والنوبيين.



بعض الرموز المسيحية في النوبة

[381] Cf. Philippe de Mézières, Le songe du vieil pelerin, Cambridge University Press 1969.

الفصل السابع عشر

بداية النهاية

في الربع الأخير من القرن الثالث عشر، أشعل ملك نوبي شرارة الحرب التي استمرت لنصف قرن من الزمان وتسببت في انهيار الحضارة النوبية.

أضف إلى ذلك الشقاق بين أفراد العائلة المالكة الذي أدى إلى التدخل الأجنبي، وبالتالي إلى فقدان الاستقلال، باستثناء إمارة قاصرة مسيحية حافظت على الألقاب القديمة حتى انقراض المسيحية في مناطق مختلفة من النوبة.

والشخصان اللذان لعبا دورا رئيسيا في الأحداث التي تسببت في سقوط النوبة، هما السلطان بيبرس وداوود الملك النوبي.

السلطان الظاهر بيبرس

في سنة ١٢٦٠م قام أحد المماليك الذين تميزوا في ميدان الحرب بانقلاب تولى به عرش مصر وأعلن نفسه سلطانا وهو المعروف باسم ركن الدين بيبرس الملك الظاهر. وفي عهده (٦٥٩ – ٦٧٦هـ – ١٢٦٠ – ١٢٧٨م) ساءت العلاقات بين مصر والنوبة من سيء إلى أسوأ. وعاش السلطان في جو من التهديد المستمر بالغزو من قبل الصليبيين أو التتار من الشرق. وإذا بدأ الغزو كان من المتوقع هجوم النوبة على الحدود الجنوبية لمصر.

في سنة ١٢٦٤م دفعت النوبة ضريبة البقط المعتادة والوفد النوبي الذي حملها إلى القاهرة أعلن إسلامه. وفي عام ١٢٦٥م، كانت هنالك مشكلة في سواكن في أعقاب فرار الحاكم المحلي. وبعث بيبرس بعض القوات لاستعادة النظام وسيادة مصر. في نفس العام زحف والي قوص وسار نحو النوبة. ولم يعرف سبب الهجوم، ولكن كتب المؤرخون، وربما بالغوا في أن والي قوص سار من أسوان "حتى قارب دنقلة من بلاد النوبة، وقتل وأسر ثم عاد"[٣٨٢].

في عام ١٢٦٨م، قام الملك داوود من دنقلا بإرسال هدايا لبيبرس الملك الظاهر. وأبلغ الوفد النوبي السلطان أن داوود قام بخلع خاله الملك "أبو العز مرتسكر"، على أساس أنه كان أعمى، وأنه يستطيع أن يدعي الخلافة المشروعة بصفته من جانب الأم. وكان قد نفى أيضا اثنين من أبناء الملك المخلوع للأبواب. وربما كان هدف البعثة معرفة مشاعر بيبرس نحو النوبة. ورد عليهم بيبرس بأن يجلبوا له البقط.

[٣٨٢] المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، في مسعد، ص٣٣١؛ وفي: محمد مصطفى زيادة (محقق) م ١، ج ٢، القاهرة ١٩٣٩، ص ٦٠٨. (cf. OS, p. 679)

وفي عام 1272، الملك داوود هجم فجأة على عيذاب وقتل العديد من الناس في تلك القرية الصغيرة التي كانت ميناء مشغولا على مدار الساعة. وكان من بين القتلى الوالي والقاضي وابن حالي مدير الجمارك وأولاده[383]. وأخذ النوبيون الكثير من الغنائم وعددا من السجناء المسلمين، واستخدمهم داوود لبناء كنيسة تذكارية في دنقلا.

وفي عام ١٢٧٥م، الموافق سنة ٦٧٤هـ، داهم النوبيون أسوان بقيادة الملك داوود. إنهم أحرقوا العديد من السواقي، وبالتالي شلوا الزراعة، ونهبوا الأسواق والمستودعات، وقتلوا كثيرا من الناس وأخذوا آخرين سجناء. وقام والي قوص بمطاردة الغزاة حتى بلادهم وقبض على الأبرخص في قلعته، ولكن الملك نجا.

هل كان الملك داوود الذي هاجم أسوان، هو نفسه الذي كان قد أمر بمداهمة عيذاب قبل ثلاث سنوات؟ لا يمكن إعطاء إجابة قاطعة، كما أن هناك بعض التناقضات في السجلات التاريخية. وابن عبد الظاهر، كاتب سيرة الظاهر بيبرس، نقل عن رسالة من الملك الأثيوبي يكونو أملاك (Yekuno Amlak, 1272) يقول فيها "إن الملك داوود قد توفي وقد ملك ولده[384]".

وإذا قبلنا ما ذكر على أنه صحيح، فيجب أن نعتمد ملكين بالاسم نفسه، بمعنى: داوود الأول(الأب)، وداوود الثاني (الابن)؛ الأول هو الذي أمر بتنفيذ غارة على عيذاب، والأخير أغار على أسوان. وهنالك مؤرخون آخرون يتحدثون فقط عن "الملك داوود" المشارك في كل من الغارتين.

ولا يمكن التفكير في أن هجمات داوود على عيذاب وأسوان كانت لمجرد غرض النهب. ولربما كانت هذه الغارات ردا على غارات مماثلة من الجانب الآخر. أو قد يتصور المرء أيضا أن يد الصليبيين كانت وراء هذه القضية. وفي سنة ١٢٧٤م، قد عقد في مدينة ليون بفرنسا المجمع المسكوني السابع. وحضره ألف من رجال الكنيسة والملوك من المسيحية كلها. وكان القرار الرئيسي الذي تم التوصل إليه في المجمع أن تكون الحملة الصليبية التي أعلنت أنه سيشارك فيها جميع الملوك والأمراء المسيحيين. وكانت هناك أيضا وفود من الإمبراطور البيزنطي ومن حاكم التتار. وقد دعيت هذه من قبل البابا غريغوريوس العاشر (Gregorius X)، وهو خبير في شؤون الشرق، لأنه كان المبعوث البابوي إلى الشرق سابقا[385].

من المحتمل جدا أن السلطان بيبرس علم بما يدبر في الخفاء. إذا كان الأمر كذلك، فإن هدف بيبرس كان هو تدمير قوات العدو قبل أن يتمكنوا من التوحد ضده. ولا يمكن استبعاد فرضية وجود تحالف سري بين الصليبيين والملك النوبي.

مهما كان سبب هاتين الغارتين، فالواقع أن تدمير عيذاب وجه ضربة للتجارة القادمة من الهند إلى البحر

---

[383] راجع: المفضل بن أبي الفضائل المصري، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، PO 14، ص ٣٧٥.

[384] المرجع نفسه، ص ٣٨٤. (cf. OS 495)

[385] راجع:
G.VANTINI, Sur l'Eventualité de rapports entre le Concile de Lyon (1274) et la Nubie, Etudes Nubiennes, Colloque de Chantilly, 1978, p. 337-345.

الأبيض المتوسط عبر مصر، وتسبب في خسائر فادحة لخزينة السلطان.

الملك داوود

وفي دنقلا نشب خلاف بين الملك داوود وابن عمه (أو ابن أخته) على تولي العرش[386]. وذهب ابن عم الملك داوود، الذي يدعى شكندة، إلى القاهرة واشتكى لسلطان مصر أن ابن عمه انتزع العرش منه، وكان العقل المدبر لهجوم عيذاب. ووجد السلطان الشكوى فرصة سانحة للتدخل في النوبة لمصلحته. ووعد شكندة بالدعم شريطة أن يحكم في النوبة ممثلا له. ووافق شكندة على هذا الشرط وجميع الشروط الأخرى التي طرحت عليه.

وتم إرسال جيش لغزو النوبة ليتم تنصيب شكندة ملكا على عرش دنقلا. وضمت البعثة ٣٠٠ من الفرسان المماليك، ومشاة من جيوش أمراء المقاطعات. وانضم إلى الحملة الأعراب البدو المتمركزين بصعيد مصر بأعداد كبيرة كمساعدين. وفي قيادة جيش الحملة تم تنصيب الأميرين آقسنقر الفارقاني وعز الدين الأفرم، أما شكندة فسبقهم لإعداد أماكن التوقف. وكانت أوامر السلطان واضحة أنه بمجرد أن يغزو الجيش النوبة، ينبغي تنصيب شكندة ملكا.

وغادرت البعثة القاهرة في يناير ١٢٧٦م. وسارت على ضفتي نهر النيل للاستفادة من القوارب كلما أمكن ذلك. ووصلوا دنقلا في ٣١ مارس من نفس العام. وحاول النوبيون جاهدين الصمود في وجه الجيش المملوكي.

"فخرجوا في مستهل شعبان من هذه السنة وتوجهوا، ولما قربوا من بلاد السودان، خرجوا إليهم النجب الصهب وفي أيديهم الحراب وليس معهم غير أكسية سود تسمى الدكاديك[387]".

واشتبك النوبيون والمماليك في معركتين بأدا (داوّ) وعلى جزيرة ميخائيل (مينارتي بالقرب من وادي حلفا)، وتم سحق النوبيين وهزيمتهم، ولم يرد ذكر لرماة السهام النوبيين الذين نالوا إعجاب الأعداء والكتاب العرب في الماضي. وتم خوض المعركة الحاسمة في دنقلا.

"فهاوشوهم القتال فهربوا وقُتِلَ منهم كثيرون وأُسِرَ أكثر مِمَّن قتل حتى بلغ عدد الذين قتلوا وأُسِروا عشرة آلاف نفر[388]".

واصل الجيش تقدمه حتى لحق بالملك داوود. واستمرت المذابح حتى قُتِل الجميع. ولم ينج أحد سوى أولئك

---

[386] ليست واضحة المصادر حول العلاقة بين شكندة والملك داوود. فيقول مفضل إن شكندة "ابن عمّه داوود" (مفضل، PO 14، ص ٣٩٨؛ cf. OS, p. 497). وابن الفرات يقول إنه "ابن أخت ملك النوبة مرتسكر".(تاريخ الدول والملوك، في مسعد، ص ٢٦٠؛ تاريخ ابن الفرات (تحرير قسطنطين رزيق)، بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢، م٧، ص ٤٥. cf. OS, p. 531)؛ والمقريزي يقول إنه "ابن أخت متملّك النوبة" (المقريزي، المواعظ، في مسعد، ص ٣٠٧؛ (ed. G. Wiet)، م٢، ٣، الفصل ٣٦، باريس ١٩١١-١٩٢٧، ص ٢٩٧؛ cf. OS, 648). إذا اعتبرنا ملكين، داوود الأول والثاني، سيكون شكندة ابنا لعم داوود الثاني، وبالتالي ابن لأخت داوود الأول؛ وعلى هذا النحو، له الحق في أن يدعى شرعية أن يؤول العرش له. أما إذا كان هنالك ملك واحد فقط يدعى داوود، فإن والدة شكندة هي شقيقة الملك الراحل مرتشكر. ولكن داوود أيضا، كان ابن شقيق الملك الراحل من جانب والدته.

[387] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مسعد، ص ٢١٨-٢١٩؛ ومخطوطة رقم ٥٤٩، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٣ ، ج ٢٨، ص ٢٥٩. (cf. OS, p. 471)

[388] المفضل، PO 14، ص ٣٩٩. (cf. OS, p. 498)

الذين ألقوا بأنفسهم في النهر. وقال شاعر صادف أن يكون في الحملة:

"يا يوم دنقلة وقتل عبيدها
من كل ناحية وكل مكان
من كل نوبي يقول لأمه
نوحي فقد دقوا قفا السودان[٣٨٩]".

ونجا الملك داوود على رأس الهاربين وعبر النيل وصولا للضفة الغربية، وهناك احتمى في واحدة من القلاع التابعة له. وطارده المماليك لمدة ثلاثة أيام. وعندما شعر بأن العدو كان في أعقابه، غادر القلعة وأخذ معه والدته وأخته وابنة أخيه. وفي وقت لاحق، عندما تمت ملاحقته من قبل الأعداء، استطاع الفرار مع ابنه فقط، وبحث له عن ملجأ في مملكة الأبواب. أما نساء الأسرة الملكية وشنكو، شقيق داوود، فقد وقعوا في الأسر وتم سجنهم.

وهدم المماليك المباني، بما في ذلك الكنيسة التي كان داوود قد بناها في دنقلا لتخليد ذكرى نصره على أهل عيذاب.

"وكان داود قد بنى مكانا سماه عيذاب، عمّره على أكتاف المسلمين وفيه منازل وكنائس وميدان، صوّر فيه قتلى المسلمين بعيذاب وأسراهم بأسوان، فمحيت تلك التصاوير منه وخرّب[٣٩٠]".

وتوج شكندة في دنقلا وجلس على عرش داوود، وتم وضع التاج الذهبي على رأسه. وبعد ذلك أعلن، وبحضور جميع الناس، واجباته تجاه السلطان[٣٩١].

"والله، والله، والله [...] إنني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه لسلطان الملك الظاهر ركن الدُّنيا والدين بيبرس [...] وإنني مادمت نائبه لا أقطع ما قرر عليّ في كل سنة تمضي: وهو ما تفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يحصل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصا من كل حقي، والنصف الآخر يرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها، وأن يكون علي في كل سنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاث ومن إناث الفهود خمس ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة.

وإنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا وأن تفرد بلاد العلي والجبل [أي مارس] خاصا للسلطان. وإنه مهما كان لداود [الثاني] ملك النوبة ولأخيه شنكو ولأمه ولأقاربه ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة أحمله إلى الباب العالي مع من يرصد لذلك [...]

وإنني لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة، ومن وجدته منهم إلا أرسلته إلى الباب السلطاني.

ومهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن

---

[٣٨٩] تاريخ ابن الفرات في مسعد، ص ٢٦٧؛ بيروت، ٧، ص٥١؛ والمقريزي، كتاب السلوك، في مسعد، ص ٣٣٧؛ تحقيق مصطفى زيادة، ص ٧٥٠. (cf. OS, p. 538, 688)

[٣٩٠] النويري، نهاية الأرب، في مسعد، ص٢٢٠؛ مخطوطة رقم ٥٤٩، ص ٢٥٩ب.

[٣٩١] من صيغة اليمين الطويلة لشكندة، نقلنا المقاطع التي تحتوي على بنود الاتفاق من مفضل (PO 14، ص ٤٠٠-٤٠٣). ووردت الصيغة أيضا في النويري (مسعد، ص ٢٢٠-٢٢١؛ مخطوطة رقم ٥٤٩، ٢٥٩ب) (cf.OS,p. 499-501) (cf. OS, p. 472-474).

مصالحه. وإنني ولي من ولي السلطان وعدو من عاداه والله على ما نقول وكيل".

وأقسم شكندة قسما آخر يلزمه بالمثول أمام جلالة السلطان عندما يطلبه خلال النهار أوالليل دون أي تأخير.

وهكذا انتهى استقلال النوبة.

ومن أهم الواجبات الملزمة التي فرضها السلطان على الملك النوبي، هي منع البدو العرب من دخول النوبة. ومن خلال هذه الاحتياطات كان هدف السلطان هو منع تحالف العرب مع ملك النوبة ضد مصر.

وتم ألزم النوبيون، أو على الأقل النبلاء، بطاعة شكندة فقط طالما بقي مطيعا لجلالة السلطان. كما تعهدوا بعدم الاتصال مع داوود أو أن يسعوا إلى الاحتماء في الأراضي الخاضعة لسيطرته، وتقديم تقرير إلى السلطان عن أي شائعة متعلقة بالأمن. وقبلوا أيضا بدفع ضريبة دينار واحد طوال حياتهم ودون تأخير.

وكانت هزيمة الملك داوود وتتويج شكندة نكسةً كبيرة للكنيسة النوبية أيضا. وتلقى النوبيون خيارا: إما اعتناق الإسلام أو دفع الجزية أو القتل. واختار النوبة دفع الجزية[٣٩٢]. واعتنق العديد منهم الإسلام بعد وقت قصير، وذلك من أجل تخفيف العبء المالي عن أنفسهم.

"كان الغزو ضربة قاضية لوجود النوبة المسيحية المستقلة، وأصبحت نهايتها مسألة وقت لا غير. وكان النوبة يمثلون سدا منيعا أعاق تغلغل العرب في بلاد النوبة لعدة قرون، ولكن هذا السد يتهاوي الآن[٣٩٣]".

وتم نهب جميع الأواني الثمينة المعثور عليها في كنيسة "أسوس" (Osus, Isus, Jesus)[٣٩٤]: صليب ذهبي بقيمة ٤٦٦٥,٥ دينارا وفضيات بقيمة ٨٦٦٠ دينارا.

وقضت قوات المماليك سبعة عشر يوما في دنقلا، ومن ثم توجهت إلى مصر ودخلت القاهرة يوم ٢ يونيو ١٢٧٦. وكانوا يحملون معهم أسرى الحرب الذين بلغ عددهم عشرة آلاف أسير، وتم بيعهم في سوق القاهرة بسعر ثلاثة دراهم لكل أسير. وكان من بين السجناء عشرون أميرا من الأسرة المالكة بدنقلا. وتم التحفظ عليهم في القلعة كرهائن، فلربما تكون هناك حاجة لهم مستقبلا.

ويوم ٢٧ يونيو وصل الملك داوود مكبلا بالأغلال. وكان معه شقيقه سنكو (شنكوى) وابن شقيقه. وتم تسليم الملك داوود من قبل ملك الأبواب إلى المماليك. ومن الواضح أن السبب الأساسي هو الخوف من غضب السلطان إلى جانب الرغبة في كسب وده ورضاه. ولكن الأسباب المحتملة الأخرى قد تكون انتقاما من بعض المفسدين والخوف من أن يصبح داوود ضيفا مزعجا.

---

[٣٩٢] انظر: النويري، في مسعد، ص ٢١٩؛ مخطوطة رقم ٥٤٩، ٢٥٩ب؛ (cf. OS, p. 472).

[393] Yusuf Fadl, The Arabs in the Sudan, Edimburgh 1967, p. 111.

[٣٩٤] ملاحظة المحقق: أي كنيسة يسوع.

الملك شكندة

وحكم شكندة فترة أقل من سنة واحدة. ولم يكن سكان دنقلا راضين عنه. وكذلك لم يكن السلطان متأكدا من ولائه له. وعليه فقد دس له العيون وتحديدا شخص يدعى سلامة من منطقة الأبواب، وهو عضو من طائفة "الحشاشين"[٣٩٥]. وكان سلامة مكلفا بقتل الملك بمجرد أن ينحرف عن التزاماته. كما تم تعيين حشاش آخر وهو أجنبي لمرافقة سلامة. وبعد وقت قليل افترق سلامة عن زميله متحججا ببعض الذرائع. وكسب الحشاش الثاني ثقة الملك. وفي يوم ما كان الاثنان بمفردهما في الحديقة، وقام الحشاش بقتل شكندة. وتوفي الظاهر بيبرس بعد تلك الحادثة بوقت قليل وخلفه على العرش السلطان الملك المنصور قلاوون.

الملك بارك

بعد اغتيال الملك شكندة، توج الملك "بارك" بدنقلا وفقا لتقاليد النوبة. وحدث هذا في بداية عهد قلاوون (١٢٧٩- ١٢٩٠م). غير أن "بارك" قُتِل بعد قليل بأمر السلطان قلاوون.

الملك شمامون

وتم تنصيب شمامون (أو سمامون)[٣٩٦] ملكا في ١٢٧٩م بأمر من قلاوون. "وكان ذا دهاء ومكر وبأس بالنسبة إلى أمثاله"[٣٩٧]. وعند اعتلائه، التزم شمامون بالتزامات مشابهة للتي أقسم عليها شكندة. لكنه لم يحفظها، وسرعان ما أدرك السلطان أن "شمامون" لم يكن أفضل من الملوك السابقين من ناحية الولاء.

وفي أكتوبر ١٢٨٦م تم تقديم شكوتين إلى السلطان ضد شمامون. وكانت واحدة مقدمة بواسطة سفير أدور، ملك الأبواب؛ والأخرى بواسطة سفير قلاوون الخاص، الذي أراد شمامون قتله، لولا تدخل النبلاء لإنقاذ المملكة من الخراب والدمار الشامل. وفي ذلك الشهر نفسه، أرسل شمامون إلى القاهرة وفدا يحمل هدية رائعة للسلطان: ١٩٠ عبدا، و٢٠٠ من الأبقار الحلوب. وبعد ثلاثة أشهر (فبراير ١٢٨٧م) بعث السلطان سفيرا إلى الأبواب وآخر لدنقلا، ومهمتهم تتلخص في تقديم تقرير عن الحالة لتوطئة بعض الحملات العسكرية.

وفي العام التالي، غادرت حملة عسكرية القاهرة في طريقها إلى النوبة. لم يرد أي سبب لذلك من قبل المؤرخين.

[٣٩٥] ملاحظة المحقق: طائفة الحشاشين، هي طائفة إسماعيلية نزارية مشرقية، انفصلت عن الفاطميين في القرن الثامن الميلادي لتدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله ومن جاء من نسله، واشتهرت ما بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر، وكانت معاقلهم الأساسية في بلاد فارس وأيضاً في الشام بعد أن هاجر إليها بعضهم من إيران. أسس الطائفة الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة آلموت في فارس مركزًا لنشر دعوته وترسيخ أركان دولته (من ويكيبيديا).

[٣٩٦] ملاحظة المحقق: ربما يأتي اسم شمامون من شمشون الذي يوجد في سفر القضاة (الاصحاحات ١٣-١٦) للكتاب المقدس.

[٣٩٧] النويري، في مسعد، ص ٢٢٤؛ مخطوطة رقم ٥٤٩، ص٢٧٣ب. (cf. OS, p. 478)

ولكن بالتأكيد شيء خطير جدا قد حدث هناك، وحمل السلطان مسؤولية ما حدث لشمامون.

اول حملة ضد شمامون[٣٩٨]

وتألفت الحملة العقابية (يناير ١٢٨٧م) من جيوش العديد من الأمراء، الأمير علم الدين سنجر المسروري، المعروف باسم الخياط، وكان القائد العام، والأمير عز الدين الكوراني، والأمير عز الدين أيدمر السيفي، والي قوص، الذي اصطحب معه بعض جنود السلطان الخاصة الرقيق (المماليك). وانضمت القوات غير النظامية من البدو العرب للجيش، وكانوا من أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد الشريف، وأولاد شيبان، وأولاد كنز، وحزب من البرلس وآخر من بني هلال. وسار الخياط مع نصف الجيش على طول الضفة الغربية، وعز الدين أيدمر السيفي سار مع النصف الآخر على طول الضفة الشرقية.

وأعطى الملك شمامون أوامر لجورايس[٣٩٩]، صاحب الجبل، بإخلاء البلاد قبل تقدم الجيش المملوكي، مرحلة بعد مرحلة، وتجمُّع القوات في دنقلا. وهنالك تم خوض المعركة الحاسمة وهزم شمامون وقتل كثير من رجاله، بينما كان للمسلمين فقط ستة عشر مصابا. وفر جورايس مع ابن أخت الملك. كما فر شمامون أيضا إلى المناطق الداخلية من البلاد. وواصل المماليك مطاردته لخمسة عشر يوما، ولكن دون جدوى، ومن ثم عادوا إلى دنقلا.

ووصل إلى هناك من القاهرة أمير لم يذكر اسمه تم تعيينه بواسطة قلاوون ليصبح الملك الجديد للنوبة. وكان ابن واحدة من أخوات شمامون، وتم تتويجه شريطة أن يعلن ولاءه للسلطان. وتم إعادة جورايس إلى مكتبه بعد أن أقسم يمين الولاء للملك الجديد. وكلف حامية مملوكية كحارس شخصي لكل من الملك الجديد وجورايس. ومن ثم، عاد الجيش إلى مصر مع غنيمة وفيرة من: العبيد والخيول والثيران والملابس. ووصلوا إلى القاهرة يوم ١٠ أغسطس ١٢٨٨م.

وسرعان ما غادرت الجيوش النوبة متجهة إلى القاهرة، وعاد شمامون إلى دنقلا وطرد الحامية المملوكية واستعاد البلاد. وهرب الملك وجورايس إلى القاهرة ليقدما تقريرا عن الوضع. فقرر السلطان إرسال حملة أخرى.

الحملة الثانية ضد شمامون

وغادرت البعثة الثانية القاهرة في ٢٥ أكتوبر ١٢٨٩م. وشملت الحملة مفارز من جيوش أمراء المقاطعات، وأربعين ألفًا من البدو العرب المتمركزين في صعيد مصر، برفقة الملك النوبي وجورايس. ويحمل أسطولاً مكونًا من ٥٠٠ قارب المعدات، واللوازم، وزرود، وآلات رمي اللهب. وفي أسوان مات الملك ودُفِن هناك. وتم تعيين آخر من

[٣٩٨] ملاحظة المحقق: يلخص الأب فانتيني هنا رواية النويري (في مسعد، ص٢٢٣- ٢٢٨).

[٣٩٩] ملاحظة المحقق: "من مشتقات اسم مار جرجس".

أبناء شقيقة داوود، وكان اسمه بدمة (بودما)، وكان من بين الرهائن الذين تم الاحتفاظ بهم في القاهرة من قبل السلطان ليكون ملكا على دنقلا. ووصل إلى أسوان راكبا مع خيول البريد قبل مغادرة الجيش، الذي سار على ضفتي النيل نحو دنقلا. وتم إرسال جورايس يرافقه أولاد كنز، لاستعادة ثقة السكان وإكمال الاستعدادات للجيش المتقدم.

وفي المريس، التي كان جورايس حاكما عليها، جاء جميع شيوخ القبائل وسكان القرى يقبلون الأرض أمام الأمراء، وتم إعطاؤهم الأمان، ومن ثم ذهبوا إلى قراهم. ولكن في بقية أنحاء البلدان فر كافة السكان طاعة لأوامر شمامون. ونهب الجيش كل ما يمكن حمله، وقتلوا كل من وجدوه، وأحرقوا المنازل والسواقي حتى دنقلا. وعندما دخلوا هذه المدينة، وجدوا أنها مهجورة: إلا من شيخ كبير وامرأة عجوز. وسألهما الأمراء عن الملك (شمامون) فقالا أنه قد ذهب إلى جزيرة تبعد مسيرة خمسة عشر يوما من دنقلا (ربما جزيرة مقرات قبالة أبي حمد).

وتم إرسال فصيل من الجيش في محاولة للقبض على الملك. ولم يرافقهم أي "مركب لتوعّر البحر بالأحجار[400]" (الشلال الرابع؟). وعندما وصل الجنود إلى الجهة المقابلة للجزيرة، قاموا بإرسال رسالة إلى شمامون ووعدوه بالأمان إذا خرج لهم، لكنه رفض. ومن ثم عاد الجيش أدراجه. وانتشرت شائعات بأن الجيش قد ذهب إلى إحضار القوارب القاذفة للهب لإلقاء القبض على الملك. عندها هرب الملك لمنطقة الأبواب التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام من تلك الجزيرة.

و"السواكرة[401]"، أي أمراء النوبة، كما يطلق عليهم في لغتهم، إضافة للكهنة وأسقف دنقلا تخلوا عن الملك وعادوا إدراجهم إلى دنقلا. وأخذوا "معهم الصليب الفضة الذي يحمل على رأس الملك، وتاج المملكة[402]" وأقسموا بالولاء وطلبوا الأمان. ومنحه عز الدين "وخلع على أكبارهم، ورجعوا معه إلى دنقلة وهم في جمع كثير[403]". وتم تنظيم حفلة كبيرة للتتويج "بدمة" وبدأ الحفل بوليمة في كنيسة أسوس[404]، ومن ثم كان التتويج. وأدى "بدمة" يمين الولاء للسلطان وأقسم الشعب بالولاء للملك الجديد.

وأمر الأمير عز الدين أيبك الأفرم أن يوزع الشعير والدقيق على سكان دنقلا. ثم غادر إلى القاهرة في بداية مارس ١٢٩٠م، ووصل إلى هناك في ١٥ أبريل. وكان الجيش المنتصر موضع ترحيب. وذهب السلطان الأشرف (ممثلا والده قلاوون) إلى استقبال الأمير. وتم إرسال ثلاثمائة ناقة من القاهرة لنقل أسرى الحرب. وسار عدد من أمراء النوبة، الذين تم أخذهم كرهائن على ظهور الهُجن وهم يحملون الرماح في أيديهم؛ وكان فيل واحد يتبعهم

---

[400] النويري، في مسعد، ص ٢٢٦؛ مخطوطة القاهرة رقم ٥٤٩، ص ٢٧٤أ. (cf. OS, p. 481)

[401] ملاحظة المؤلف: تبدو الكلمة "سواكرة" جمع سوكري.

[402] النويري، في مسعد، ص ٢٢٧؛ مخطوطة القاهرة، ص ٢٧٤أ. (cf. OS, p. 482)

[403] المرجع نفسه.

[404] تم هدم "كنيسة أسوس"، وفقا لبعض السلطات، في عهد شكندة. ربما المؤرخ الذي كتب استنادا إلى الشائعات قد أخطأ. لأن هنالك عدة كنائس في دنقلا. أو "هدمها" قد يكون غلو وشائعة، أو إعادة البناء بشكل عاجل بأمر من الملك شمامون.

وورائه كان الحمالون يحملون كمية من أنياب الفيل. وكان العساكر في أحسن زي، ويحملون كميات ضخمة من هذه السلع المنهوبة حسب أوامر الأمير حسام الدين[405]. ويبدو واضحا أن النهب كان واحدا من المقاصد الرئيسية لهذه الحملة.

وكتب الملك "بدمة" إلى القاهرة معلنا أن السكان عادوا إلى ديارهم. وكتب ملك الأبواب "أدُر" إلى القاهرة رسالة اعتذر فيها عن عدم تمكنه من مقابلة الأمير عندما دخل أرضه. والسبب الذي منعه من ذلك، أنه كان في حملة ضد الملك آني. وذكر أيضا أنه تم التغلب على دولة الأنج من قبل ملك حسود (لم يذكر اسمه، ربما آني نفسه؟)، الذي استولى على السلطة، وأنه (أي أدر) كان يبذل قصارى جهده للإطاحة به. وإذا نجح في تجريده، فإن جميع "بلاد السودان" ستخضع للسلطان وسيكونون تحت طاعته.

"ودخل في قلوب أهل البلاد [التي للسودان] من عساكر مولانا السلطان رعبٌ عظيم، لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط، إلا إن كان جيش الإسكندر ذي القرنين. ولم يُعدم من العسكر المنصور غير نفر واحد قُتل في سبيل الله، وآخر غرق[406]".

ولا أحد يستطيع أن يقول بالضبط مَن هم شعب الأنج وأين بلادهم. إلا أن التقاليد السودانية تشير إلى أنهم سكان سوبا قبل تدمير هذه المدينة أخيرا في سنة ١٥٠٠م[407]. وفي وقت أدر، يبدو أن واحدا من الملوك قد احتل عرش سوبا، أو على الأقل، غزل أرض الأنج. وأدر، ملك الأبواب، تدخل لاستعادة النظام.

هذا التقرير هو المعلومات الوحيدة التي نملكها حول الوضع في علوة في القرن الثالث عشر. وقام المماليك بمطاردة شمامون حتى حدود الأبواب. أما الحكايات عن الجيش المملوكي وتسليحهم، وآلات رمي اللهب وأجهزة أخرى فإنها كلها سببت الكثير من الرهبة والخوف بين الشعوب التي تعيش في الأبواب وما يليها.

شمامون ملك بلا منازع

وبمجرد أن غادر الجيش المملوكي دنقلا، رجع شمامون مرة أخرى. ودخل المدينة ليلا، وقرع على باب كل "سوكري" (أي أمير). وجميعهم ميزوا صوته وخرجوا لمقابلته، وقاموا بتقبيل الأرض أمامه وأقسموا له يمين الولاء[408]. وبحلول الفجر، كسب شمامون كل قادة النوبة إلى صفه. ثم ذهب مع جنوده إلى القصر الملكي وقام بطرد الحامية المملوكية، وأخطر بيبرس العزي، قائد الحرس الشخصي المملوكي، أن يعود بسلام إلى سيده (السلطان). ومن ثم

---

[405] راجع: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون، في مسعد، ص ٢٠٣؛ مخطوطة باريس ١٧٠٤ (=مخطوطة القاهرة رقم ٢٢٢٦)، ص ٣١٣. (OS, p. 430)

[406] ابن عبد الظاهر، في مسعد، ص٢٠٢-٢٠٣؛ مخطوطة باريس ، ص ٣١٢. (OS, p. 429)

[407] Cf. A.E.D. PENN, Traditional Stories of the Abdullab tribe, SNR, XVIII, 1934, p. 60-61.
وملاحظة المحقق: راجع: سيد حسن محمد خليل، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية، جامعة الخرطوم ١٩٦٩.

[408] ملاحظة المحقق: تقبيل الأرض أمام الملك كان عادة منتشرة وسط جميع أفراد الشعب، وهي صنع مطانية، والمطانية هي سجود، وكلمة مطانية تعني إعادة النية، وكانت المطانية دليل تسامح كل فرد نحو الآخر.

القي القبض على "بدمة" وجورايس،

و"جريمة بدمة [بودما]" على ما يبدو، هو أنه استولى على العرش عندما صرح شمامون أنه هو الملك الشرعي الوحيد. وقتل شمامون بدمة (بودما) بطريقة وحشية. وتم تقطيع جلد الثور إلى سيور، وتم ربطه بها بعد أن جرد من ثيابه، وبقي هناك حتى مات عندما جفت السيور. أما جورايس فقد أعدم أيضا.

وكتب شمامون إلى السلطان قلاوون (أوائل ١٢٩٠م) وطلب العفو على ما قام به. ووعد بأنه لن يقدم البقط فحسب، بل معها هدايا إضافية. وفي هذه الأثناء، قدم للسلطان هدية من العبيد والأبقار. ووصلت الهدية قبل وقت قصير من وفاة قلاوون. ولكن، في ذلك الحين كان لدى قلاوون مخاوف أخرى خلاف الشؤون النوبية، لأن الصليبيين قاموا ببناء معاقل في فلسطين. وعليه ترك النوبة لإدارة شؤونها بنفسها. وتوفي قلاوون في نفس السنة، وخلفه ابنه الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣م).

وفي عام ١٢٩٢م أدرك شمامون أنه كان متأخرا فيما يتعلق بتسليم البقط. وقدم اعتذاره للسلطان وبرر التأخير:

"لأجل خرابها [النوبة]، وما كان شملها من الخراب؛ بسبب دخول العساكر الإسلامية إليها كرّة بعد كرة بعد كرة. واحتاج بصاحب الأبواب الملك أدر؛ وأنه قد زاد بلاده خرابا إلى خرابها [...] فما قُبلت منه معذره[409]".

وتم إرسال سفراء جدد إلى دنقلا للضغط على الملك بإنذار نهائي. وفي بادئ الأمر، كان رد فعل شمامون هو تجاهل التهديد، لكنه "حصل الالتفات إلى والدته وأخواته وعمته وأهله المقيمين رهائن في الأبواب الشريفة بدور الضيافة[410]". لذلك بعث بشقيقه "البرسي" وبنبيل اسمه فارس الدولة جورايس "الذي كان رتبة نائبا في بلاد الجبل وغيرها من تلك البلد"، كسفراء إلى السلطان. وناشد بتواضع أن يرحم وطلب أن يقبل اعتذاره. وأضاف أن ملك الأبواب سيصل قريبا القاهرة، وطلب من السلطان أن يلقى بالا إلى أقواله. أما الهدية التي أرسلها شمامون في هذه المناسبة، فكانت تضم ٢٠٠ من العبيد، ٢٠٠ من الجمال والهجن، ١٠٠ قنطار من الشب، ٢٠٠ أردب من التمور الجافة، ١٥٠٠ رطل من حجر المطاحن، و٤ من إناث الفهود وأسود كبيرة، بالإضافة إلى الكثير من السلع. وقد قبلت كل الهدايا وقبل الاعتذار كذلك.

وتقدم الملك شمامون إلى السلطان بطلب، وهو أن يتم الإفراج عن والدته والسيدات الأخريات من الأسرة المالكة في الاعتقال بالقاهرة وإعادتهن إلى دنقلا، لأن "ملوك النوبة ما يدبرهم إلا النساء[411]".

وقد يستخلص من هذه الكلمات أن "والدة الملك"، وربما أيضا السيدات الأخريات من الأسرة الملكية، لهن رأي في تسيير الشؤون العامة. نحن لا نعرف ماذا كان دورهن بالضبط، ولكن بعد أن شهدت الكنداكة المروية وجود بعض السلطة في المملكة، ونحن هنا ندرك أن نفس التقليد تم الحفاظ عليه في النوبة على الرغم من مرور عدة

[409] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، في مسعد، ص ٢٠٤. (cf. OS, p. 431)
[410] المرجع نفسه.
[411] المرجع نفسه، ص٢٠٥. (cf. OS, p. 431)

قرون، والتغيير في الدين.

وابلغ السلطان شمامون أن سيدات النوبة الملكيات بخير، وأنهن يتلقين مخصصاتهن في موعدها المحدد ويمطرن بالهدايا[412]. ولم يتم معرفة أي شيء من المؤرخين عمّا إذا كان قد تم الإفراج عليهن في وقت لاحق. وتوفي شمامون في عهد السلطان زين الدين كتبغا (١٢٩٤-١٢٩٦م).

[412] انظر المرجع نفسه.

الفصل الثامن عشر

الاتصالات بين النوبة والصليبيين

في عام ١٣٠٤م وصل إلى القاهرة الملك النوبي الذي يدعى "أمي" (أو أياي). وقد جاء لتسليم البقط وتقديم هدايا أخرى للسلطان محمد ناصر بن قلاوون؛ وقدّم الملك أيضا تقريرا له عن حكمه في النوبة. ولم يورد المؤرخون تاريخ توليه السلطة، وما إذا كان الخلف المباشر لشمامون، أو أن هنالك أي ملوك حكموا بينهما.

ومن أقوال المؤرخين، يمكن استخلاص نتيجة مفادها أن التدخل المملوكي في الشؤون النوبية كان ينمو باستمرار، في حين أن قوة النوبة كانت تتدهور عاما بعد عام.

وطلب الملك "أمي" من السلطان المساعدة ضد عدو لم يكشف عن اسمه. وربما يكون واحدا من أمراء العائلة المالكة الدنقلاوية الذين فروا إلى المناطق الداخلية من البلاد، أو بعض من زعماء القبائل الذين أرادوا الاستفادة من الأوقات الصعبة والمشاكل في دنقلا لتحرير أنفسهم من الحكم النوبي. وقام السلطان بإرسال وحدة تابعة لجيش المماليك تحت قيادة الأمير سيف الدين طقصبا، حاكم قوص. والمقريزي يقول الآتي عن هذه الحملة.

"قدم أياي متملك دنقلة من بلاد النوبة بهدية ما بين جمال وأبقار ورقيق وشب وسُنباذج وطلب عسكرا فانزل بدار الضيافة، وعين معه الأمير سيف الدين طقصبا والي قوص وجماعة الوافدية، وعدة من أجناده الحلقة نحو ثلاثمائة فارس، ومن أجناد الولاة بالوجه القبلي ومن العربان جماعة كبيرة.

فاجتمعوا من البر والبحر بقوص، وسار بهم طقصبا مع أياي ملك النوبة.

وفيها عاد الأمير قطصبا معه العسكر من بلاد النوبة إلى قوص، بعد غيبتهم تسعة أشهر، ومقاساة أهوال في محاربة السودان وقلة الزاد[٤١٣]".

واغتيل الملك "أمي" عام ١٣١١م، وخلفه شقيقه كرنبس (أو كدنبس) وفقا للمقريزي وبعض الكتاب الآخرين. كر ابن خلدون أن الملك "آي" توفي سنة ٧١٦هـ (الموافق ١٣١٦م)[٤١٤].

في هذه الأثناء كان الصليبيون يهدفون إلى تشكيل تحالف مع النوبيين. خططوا لمهاجمة مصر على جبهتين. م أنفسهم سيكونون على الجبهة الشمالية، بواسطة أساطيل من البحر الأبيض المتوسط. ومن الجبهة الجنوبية كون جيوش من الحبشة والنوبة. وهذه إستراتيجية قديمة.

ولم يكن لدى الصليبيين أي فكرة عن القوة العسكرية التي يمكن أن يسيرها النوبيون على الجبهة الجنوبية. ومن

[٤١٣] المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، في مسعد، ص ٣٤٠-٣٤١؛ زيادة، م٢، ص ٧-٨ و٢٩. (OS, p. 690-691)

[٤١٤] راجع: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدا والخبر، في مسعد، ص٢٨٠؛ بيروت ١٩٦٠-١٩٦٧، ج٥، ص ٩٢٢.

الوثائق التاريخية، من الواضح أن الصليبيين والنوبيين سعوا جاهدين للاتصال والتوصل إلى بعض الترتيبات لتنظيم أنشطتهم وتحديد موعد لخوض الحرب ضد سلطان مصر. لهذا السبب، أمر السلطان أن تتم مراقبتهم عن كثب لمنع مثل هذه الاتصالات بين النوبيين والصليبيين.

وفي متحف السودان القومي تحفة أثرية تؤكد العلاقة بين بعض الدول الغربية والنوبة. وهي تمثال خشبي صغير لصليبي غربي كان يرتدي حُلّة كاملة من المدرعات مع زرد نموذجي والصليب على صدره. ويطأ بقدمه رأس إنسان. واكتشف هذا النحت الخشبي في أتيري، في بطن الحجر (الشلال الثاني). على الرغم من أننا لا نعرف شيئا عن تاريخ هذا التمثال الصغير، وأين تم صنعه، ومتى تم إحضاره إلى النوبة، ولكن وجوده في الأراضي النوبية يؤكد أن النوبيين كانوا على اتصال مع الصليبيين.

وأوضح دليل على الاتصالات السرية بين الجانبين التي يمكن العثور عليها في كتاب الراهب هيتوم (Hethum, Hayton)، شقيق ملك أرمينيا. في عام ١٣٠٧م ذهب هيتوم إلى فرنسا حيث البابا كان يقيم في ذلك الوقت. وقدم هيتوم له تقريرا تحت عنوان "زهرة الشرق" (La fleur d'Orient)[٤١٥] حول الوضع في الشرق الأدنى. واقترح أن يكتب البابا رسالة إلى الملك المسيحي في النوبة. ويمكن أن ترسل هذه الرسالة إلى ملك أرمينيا، شقيق هيتوم، والذي كان يعيش في جزيرة قبرص حينئذ. وسيتعهد الملك بترجمتها وإرسالها بواسطة رسول أمين لملك النوبة. وأضاف الراهب أنه متأكد تماما أن ملك النوبة سيستنهض الهمم ويعلن الحرب ضد السلطان لشرف الإيمان المسيحي.

ومن غير المعروف ما إذا كان البابا قد قبل اقتراح الراهب وكتب مثل هذه الرسالة. ومع ذلك، يتضح أن الصليبيين حاولوا تكوين تحالف مع المسيحيين في جنوب مصر. ولم يكن الصليبيون على بينة من الظروف الفعلية للنوبة آنذاك. وقد يكون من الجائز أن اتجه الكثيرون منهم، مع مفهوم ضبابي عن الجغرافيا خلطوا بين النوبة (مملكة دنقلا) والحبشة[٤١٦]. في الوقت نفسه تقريبا، كان مارين سانودو (Marin Sanudo) من البندقية، مثل هايتوم مشغولا بوضع إستراتيجية لتطويق مصر عن طريق البر والبحر حتى يضعَ السلطان في وضع حرج عن طريق حملة متعددة الاتجاهات. وبدأ في تدوين كتابه في ١٣٠٦م، وقدم خطته إلى البابا في عام ١٣١٠م. ومن ثم قام بتعديله في عام ١٣٢٠م. وكتب حول ما يمكن أن يحدث إذا استنهض النوبة همتهم وقاموا بمهاجمة السلطان على حدود بلاده الجنوبية. ولكنه أضاف أن القوة العسكرية للنوبيين كانت منخفضة جدا، هذا إن كانت موجودة في الأصل. وقال إن النوبيين، بالتالي سيحتاجون إلى مساعدة من القوات الغربية. والنوبة لا يستطيعون بمفردهم بناء قوة عسكرية كبيرة على الجبهة الجنوبية. وكانت معلومات مارين سانودو دقيقة ومضبوطة تماما. فمن أين حصل عليها؟ قد يكون مصدره تجار جنوة. لأن سلطات المدينة هذه قامت بمساعدة السلطان قلاوون وعقدت معاهدة معه.

[415] Récueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens, p. 247.

[٤١٦] في الحبشة كان الملك أمدا سيون (١٣١٤-١٣٤٤م) حارب المسلمين بنجاح في بلاده. وانتشرت أخبار حروبه في جميع أنحاء الشرق والغرب.

وبالمقابل أذن السلطان لتجار حنوة منذ ١٢٨٩م بالذهاب والتجارة في دنقلا.

الملك كدنبس (الفترة الأولى)

وذهب كدنبس إلى القاهرة سريعا بعد اعتلائه العرش لتقديم البقط، والتي لم يتم تسليمها منذ عدة سنوات لإعلان روح العصيان على السلطان.

في ١٣١٥-١٣١٦م، أرسل السلطان محمد ناصر بن قلاوون جيشا كبيرا إلى النوبة لإسقاط كدنبس ورافق الجيش أمير نوبي. وكان القصد أنه ينبغي أن يأخذ مكان الملك المخلوع كدنبس. وكان هذا الأمير النوبي مسلما، وهو ابن أخت الملك المتوفي داوود، ولكنه نما وترعرع في بلاط السلطان، وأصبح مسلما واتخذ اسما له، عبد الله برشمبو (وفقا لابن خلدون: عبد الله نشلي). ويذكر أنه كان مسلما صالحا.

استعد كدنبس لمقاومة حضور عبد الله برشمبو. وبعث على الفور إلى السلطان نجل شقيقته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز، وطلب أن يمن عليه السلطان بأن يعينه ملكا. وقال: "إذا كان يقصد مولانا السلطان أن يولّي البلاد لمسلم، فهذا مسلم، وهو ابن أختي، والملك ينتقل إليه بعدي"[417]. وصل كنز الدولة إلى بلاط السلطان ولكن لم تتم الموافقة على طلبه. وأعطى السلطان أوامره بمنع كنز الدولة من العودة إلى بلده. لذا بقي في القصر بينما الجيش المرافق لعبد الله توجه نحو النوبة.

اعتمد كدنبس إستراتيجية النوبة المعتادة وهي التراجع إلى المناطق الداخلية من البلاد، من أجل جرّ قوات العدو إلى أن يتجاوزوا حدودهم وأن إمداداتهم ستنفد.

الملك برشمبو

وعندما وصل الجيش إلى دنقلا، قام كدنبس وشقيقه أبرام (أبراهام) بإخلاء المدينة والتوجه نحو الأبواب. وسعى كدنبس للحصول على حماية الحاكم. ولكن ملك الأبواب قبض عليه وحبسه في جزيرة وكتب لقائد الجيش المصري أنه قد ألقى القبض على كدنبس وشقيقه، وأبقاهما تحت الحراسة. وطلب أن يرسل إليه شخصا ليتمكن من تسليمهما. وذهبت مجموعة من الضباط لاستلام السجينين وجلبوهما مصفدين بالأغلال إلى قصر السلطان.

أصبح عبد الله برشمبو ملك دنقلا، وعندما رسخ ملكه عادت قوة الجيش إلى القاهرة (١٣١٧م).

وأشار ابن خلدون إلى ذلك الوقت، وكتب أن العديد من النوبيين أصبحوا مسلمين منذ عهد الملك شكندة، وأن الجزية لا تجمع منهم[418].

[417] النويري، في مسعد، ص ٢٢٩؛ مخطوطة القاهرة، ص٩٥. (cf. OS, p. 484)

[418] راجع: ابن خلدون، في مسعد، ص ٢٨٠؛ بيروت ١٩٦٠-١٩٦٧، م٥، ص ٩٢٢. (cf. OS, p. 562)

في ١٦ ربيع عام ٧١٧هـ (الموافق ٢٩ مايو ١٣١٧م)، في فترة حكم عبد الله في دنقلا، تم تحويل قاعة العرش في القصر الملكي إلى مسجد. ولا يزال حجر الرخام التذكاري واضحا في القصر. ذلك البناء لم يكن كنيسة، على عكس ما كان يعتقد بعض المؤرخين حتى وقت قريب[419].

الحملة على التاكا

في عهد برشمبو، وقع حادث يبين كيف أن الأمن قد ضعف، وأن الاستقرار قد تزعزع وكيف أن العرب قد بدأوا يحكمون مناطق من السودان ويتدخلون في شؤون النوبة وشرق السودان. وفيما يلي ملخص لما قاله النويري حول هذه المسألة[420].

وكان بعض العربان يقطعون الطريق بين ميناء عيذاب وقوص ويسرحون هناك. الجرائم التي كانوا يرتكبونها والضرر الذي كانوا يقومون به، أصبح يشكل خطرا على السلطان، لأنهم قبضوا على رسول بعث به ملك اليمن للسلطان عن طريق البحر الأحمر، وسلبوه من كل الهدايا التي كان يحملها، وعندما سمع السلطان عن هذا، أرسل جيشا متدربا لدحرهم. وأمر الجيش بمطاردة هؤلاء البدو أينما ذهبوا وبتسوية المسألة بصورة قاطعة وللأبد. عليه انطلق الجيش في ملاحقتهم، من مكان إلى آخر، حتى وصلوا إلى سواكن. ثم فر العربان الرحل إلى المناطق الداخلية في إقليم التاكا، وتبعهم الجيش حتى فنيت أزوادهم والماء منهم. ولكن المطر نزل فأنقذهم من الموت عطشا، وعندما وصلوا بالقرب من كسلا (روى النويري أنهم رأوا أمامهم جبلا يسمى "جبل كسلان") والتقى الجيش بأهل البلاد من قبيلة الحلنقا[421] واشتبكوا معهم. ولم يكن هدف الجيش محاربة الحلنقا، بل القضاء على العربان الذين اختفوا تماما.

ومن ثم، أراد الجيش أن يرجع إلى مصر، فعاد من طريق نهر عطبرة حتى دخل مملكة الأبواب، واستقبلهم ملك الأبواب ولكنه استضافهم ليوم واحد فقط. وقدم لهم قليلا من الذرة و"مائتي رأس بقر وأغنام"، غير أن أفراد الجيش نهبوا كل شيء وجدوه أمامهم وتوجهوا إلى دنقلا حيث قابلهم الملك برشمبو وضايفهم تمام الضيافة وزوّدهم، ثم رجعوا إلى مصر[422].

[419] ملاحظة المؤلف: الحفريات التي أجريت في قصر دنقلا (١٩٧٤-١٩٧٥م) وقد أظهرت بوضوح أن المبنى كان في الأصل جزءا من القصر الملكي ولم يكن قط كنيسة.

[420] ملاحظة المحقق: راجع: النويري، في مسعد، ص ٢٣٠-٢٣٥.

[421] ملاحظة المحقق: "هلنكة" في نص مسعد.

[422] راجع: النويري، في مسعد، ص ٢٣٥. (cf. OS, p. 492)

عندما وصل كدنبس وأبرام إلى القاهرة، أفرج السلطان عن كنز الدولة الذي استأذن في العودة إلى أسوان، موطنه، وأدعى أن لديه سواقي وأنه عليه أن يدفع ضريبة الأراضي للسلطان. وذهب كنز إلى أسوان، ولكن ما لبث أن سلك طريقه إلى دنقلا للاستيلاء على العرش، وعندما وصل إلى داوّ (أدا)، أول منطقة داخل حدود النوبة، تلقاه الأهالي عن طيبة خاطر وقدموا له التحية: "موشَي، موشَي". وهي تحية حصرية للملوك، وضموا قوائمهم لقوائه وأعلنوا ولاءهم له.

وقام عبد الله برشمبو بتغيير عادات الأرض، وكان يعامل رعاياه بقسوة، وأصبح لا يحظى بشعبية. وتقدم كنز نحو دنقلا وخرج برشمبو للقائه. والتقى الجيشان في معركة. وقُتِل برشمبو بواسطة رجاله. وحكم كنز الدولة في مكانه، لكنه رفض قبول التاج، احتراما لخاله كدنبس، الذي كان يسبقه في الحق في العرش.

وعندما بلغ نبأ الهزيمة هذه القاهرة في شوال ٧١٧ هـ (الموافق يناير ١٣١٨م)، أمر السلطان بإطلاق سراح أبرام، شقيق كدنبس، على أن يذهب إلى النوبة. وأراده السلطان أن يلقي القبض على ابن أخيه كنز وإرساله إلى القاهرة، كما أنه وعد أبرام أنه إذا تمكن من القيام بذلك، فإنه سيتم الإفراج عن أخيه كدنبس أيضا، ولكن أطلق سراحه في وقت لاحق قبل أن يكمل أبرام مهمته.

إن السلطان لم يوافق على حكم كنز في دنقلا بسبب علاقاته الجيدة مع العربان وارتباطه بسكان المريس، وهذا يشكل خطرا على السلطان في المستقبل، وبالإضافة إلى ذلك، كان كنز من أصل عربي، وفي الأفكار والمشاعر وكان واحدا مع العرب الذين لجأوا إلى صعيد مصر لأنهم كرهوا الحكم المملوكي. فإذا أصبح رجل كهذا ملكا على عرش دنقلا وله كل هذا التأثير في المريس وعلى العربان بشكل عام، فإنه يمكن أن تكون مملكة قوية تستطيع في يوم ما أن تعارض حكم السلطان المصري.

الملك أبرام–أبرهام

وعندما وصل أبرام إلى دنقلا، رحب به كنز ابن أخيه، وسلمه السلطة، ودخل في خدمته. وتعهدا معا لإحلال السلام في المنطقة بعد أسوان. وعندما اقتربا من داوّ، قام أبرام بالقبض على ابن أخيه واعتزم إرساله إلى القاهرة. ولكن أبرام مرض وتوفي بعد ثلاثة أيام.

والتف النوبيون حول كنز الدولة وأعلنوه ملكا. وقبل التاج هذه المرة وبدأ في حكم البلاد كمملكة مستقلة. وقدم العرب دعمهم له، وطلبوا أيضا مساعدته ضد أعدائهم. وأرسل إلى السلطان وفدا يطلب إليه الاعتراف به كحاكم شرعي، ولكن السلطان رفض.

الملك كدنبس(الفترة الثانية)

وأسلم كدنبس أثناء فترة احتجازه كرهينة في بلاط السلطان. ولكنه ربما فعل ذلك للحصول على الحرية[٤٢٣].

وعندما سمع السلطان الناصر بن قلاوون أن كنز أصبح ملك دنقلا بدلا عن أبرام، عقد العزم على التخلص منه مهما كان الثمن. وقام بإرسال كدنبس إلى النوبة مع أوامر ليحل محل كنز الدولة كملك على دنقلا. لذا سلك كدنبس طريقه إلى دنقلا مع جيش السلطان.

في نوفمبر ١٣٢٣م تقدم نحو دنقلا، وفر كنز نحو منطقة الأبواب. وهناك لم يتمكن الجيش من إلقاء القبض عليه. في أغسطس في العام التالي، عاد الجيش المملوكي إلى مصر تاركين كدنبس على العرش. وتقدم كنز مرة أخرى، طاردا عمه من العرش. وهرب كدنبس إلى أسوان حيث كان ينتظر الحصول على مساعدة تأتيه من السلطان. ولكنه ظل معزولا ومنتظرا حتى سنة ١٣٢٦م لوصول الجيش السلطاني الذي لن يأتي. فقد كان السلطان حينئذ أكثر قلقا مع البوادر الأولى لظهور الخطر من أوروبا. وعليه فقد اعترف بكنز الدولة كملك شرعي للنوبة، بغض النظر عما يمكن أن يحدث هناك.

ولا يعرف الشيء الكثير عن كدنبس بعد فراره إلى أسوان. إنه على ما يبدو، كان آخر ملوك المسيحية جلوسا على عرش المقرة، وتوفي على الأرجح في عام ١٣٢٦م، على الرغم من أن بعض المسيحيين من سلالته، حاولوا احتلال دنقلا في وقت لاحق، بحلول نهاية ذلك القرن.

إن انتشار قوة المسلمين في الشرق الأدنى قطع المسيحيين في أوروبا عن أولئك الذين لا يزالون في أفريقيا، أي في مصر، والنوبة وأثيوبيا. هذا الانتشار أعاق نمو الكنائس الأفريقية المنشأة في المناطق الداخلية من أفريقيا التي، حتى ذلك الحين، حافظت على صلة حيوية مع كنائس الدول بمنطقة البحر الأبيض المتوسط[٤٢٤].



الملك النوبي تحت حماية الثالوث الأقدس.

[٤٢٣] راجع: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدا والخبر، في مسعد، ص٢٨٠؛ بيروت، ص٩٢٢.

[424] Cf. Yousuf Fadl Hasan, op. cit., p. 154.

الفصل التاسع عشر

النوبة في عهد بني كنز

أعقب ظهور سلالة كنز في دنقلا الفوضى وعدم الاستقرار. والعديد من المشايخ العرب كانوا منافسين لكنز على العرش. واختفت علامات الهيمنة المصرية تدريجيا. وبحلول نهاية القرن الرابع عشر لم يظهر السلاطين مزيدا من الاهتمام بالنوبة. وأصبح هذا البلد ملجأ لا يمكن الوصول إليه للأمراء الذين هبطوا في العار. بالفعل، آخر سلطان لمصر، طومان باي، كان على استعداد للهرب إلى النوبة قبل الفتح التركي بواسطة القائد سليم الأول، وهذا ما يمكننا جمعه من معلومات متناثرة سجلها المؤرخون المعاصرون.

وابن بطوطة الذي زار عيذاب ثلاث مرات بين ١٣٢٦م و١٣٤٨م قال:

"وثلث المدينة للملك الناصر [ابن القلاوون]، وثلثاها لملك البجاة، وهو يعرف الحدربي. وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني، شهير البركة[٤٢٥]".

وفي ذلك الوقت كان ملك البجة في حالة حرب مع سلطان مصر وأغرق قوارب تابعة للأتراك (المماليك). وابن بطوطة استقى معلوماته حول دنقلا من الأقاويل فحسب.

"ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة، وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة وهي أكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين، أسلم على أيام الملك الناصر[٤٢٦]".

وابن فضل الله العمري (ت. ١٣٤٩م)، واحد من الكتاب العرب الأكثر معرفة في القرن الرابع عشر، قام بتدوين معلومات قيمة عن النوبة واستقى معلوماته من شهود عيان.

"وحدّثني غير واحد [أي أكثر من شخص] ممن دخل [أي دخلوا] النوبة أن دنقلة مدينة ممتدة على النيل، وأهلها في شظف من العيش؛ على أنهم أصلح من كثير ممن سواهم من السودان.

وبها مسجد جامع تأوي إليه الغرباء. ويجيء رسل الملك إليهم تستدعيهم إليه. فإذا جاؤوا أضافهم ووهبهم وأكرمهم هو وأمراؤه.

وأكبر عطيّاتهم: إما عبدا وجارية، وأما أكثر عطياتهم، فهي كداديك وهي أكسية غلاظ، غالبها سود. واللحوم والألبان والسمك عندهم كثيرة، والحبوب قليلة إلا الذرة. وأفخر أطبختهم ما يعمل باللوبيا بورقها وعرقها.

[٤٢٥] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، في مسعد، ص ٢٥٤؛ رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٩٦٤، ص٥٢. (cf. OS, p. 520)

[٤٢٦] ابن بطوطة، في مسعد، ص ٢٥٧؛ رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٩٦٤، ص٨٦٠. (cf. OS, p. 523)

ولهم انهمال [أي انهماك] على السكر بالمزر [أي نبيذ الذرة]، ولهم ميل شديد إلى الطرب.

وحدّثني أحمد بن المعظّمي، وكان قد دخل مع أبيه إلى هذه البلاد وما وراءها في الرسليّه مرات: أن ملوك السودان يتخذون كلابا معلمة، تنام على التخوت حولهم هي كالحراس لهم.

والنوبة لهم قتال، وبأسهم بينهم، على ضعف قواهم وقلة بأسهم[٤٢٧]".

ومن بين مدن النوبة، ابن فضل الله يعتقد كوشا، ومن ثم بلدتي علوة وبيلاق. أما بقية معلوماته الجغرافية ففيها الكثير من الخلط.

وفي كتابه "التعريف للمصطلح الشريف"، وهو كتاب دليل لأمناء السفارة، يقول ابن فضل إن ملك دنقلا يخضع لملك مصر. ويجب عليه أن يدفع إلى ملك مصر "حملا مقرّرا به كل سنة[٤٢٨]" (إتاوة)[٤٢٩]، الذي فرضت عليه في العصور القديمة.

وتتألف الجزية في وقت ابن فضل الله من "العبيد، والإماء، والحراب، والوحوش النوبية[٤٣٠]". و"يخطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر[٤٣١]".

ويصف ابن فضل الله البروتوكول البهي للمراسلات الرسمية مع ملك دنقلا.

"صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل الكبير، الغازي، المجاهد، المؤيد، الأوحد، العضد، مجد الإسلام، زين الأنام، فخر المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين.

هذا إذا كان مسلما؛ وإن لم يكن مسلما فمكاتبته كمكاتبة صاحب سيس [أرمينيا]، ولا يعلم له السلطان بخطه[٤٣٢]".

ويقول القلقشندي (ت.١٤١٨م)، نقلا عن ابن فضل الله، إن إذا كان ملك دنقلا مسيحيا فتلقب بالألقاب التالية: "النائب الجليل، المبجّل، الموقّر، الأسد[٤٣٣]، الباسل [...] النائب المقيم بدنقلة[٤٣٤]".

ولاحظ القلقشندي، الذي كان في وقت ما أمينا لديوان الإنشاء للسلطان، أنه لم يجد أي أثر للمراسلات بين السلطان والملك النوبي. ويضيف أن في حينه ملك دنقلا لم يدفع أي جزية إلى السلطان. وفي وقت ابن فضل الله، راسل ديوان الإنشاء للسلطان رجلا اسمه سَمُرَة بن مالك، وهو شيخ "الحوارية" (حدارب). ويضيف ابن فضل الله أن

[٤٢٧] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في مسعد، ص ٢٤٣-٢٤٤؛ ج٢، رقم ٥٥٩، دار الكتاب المصرية، القاهرة ١٩٢٤، ص٤٩٣. (cf. OS, p. 511-512)

[٤٢٨] ملاحظة المحقق: راجع: التعريف للمصطلح الشريف، في مسعد، ص ٢٤٦؛ القاهرة ١٨٨٤، ص٢٩. (OS, p. 514)

[٤٢٩] ملاحظة المحقق: راجع: القلقشندي، في مسعد، ص ٢٨٨، ٢٩٠.

[٤٣٠] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، في مسعد ٢٨٨؛ دار الكتب المصرية، ج٥، القاهرة ١٩٠٦، ص ٢٧٨؛ (cf. OS, p. 575)

[٤٣١] ابن فضل الله العمري، التعريف للمصطلح الشريف، في مسعد، ص ٢٤٦؛ القاهرة ١٨٨٤، ص٢٩. (OS, p. 515)

[٤٣٢] ابن فضل الله العمري، التعريف للمصطلح الشريف، في مسعد، ص ٢٤٦؛ القاهرة ١٨٨٤، ص٢٩. (cf. OS, p. 514)

[٤٣٣] ملاحظة المحقق: لقب الأسد يلقب به ملوك النوبة، كما أنه لقب ملوك الحبشة، ويرجع هذا اللقب إلى الاعتقاد بأن ملكة سبأ ذهبت إلى سليمان الحكيم الذي تزوج بها وأنجب منها ابنا. هو الأسد الخارج من سبط يهوذا حسب "كتاب المجد لملوك أثيوبيا" (الأب فيلوثاوس فرج). ونذكر أن قبل الفترة المسيحية النوبة كانوا يعبدون "أبادماك" الذي تم تصويره كجندي برأس الأسد.

[٤٣٤] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٦، دار الكتب الخديوية، القاهرة ١٩١٥، ص١٨٠. (cf. OS, p. 576). وقد استخدم اللقب "المقيم بدنقلة" للمرة الأولى للملك شكندا (النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مسعد، ص ٢٢١؛ مخطوطة رقم ٥٤٩، دار الكتب المصرية، ج٢٨، ٢٥٩ب. (cf. OS, p. 474)

هذا الشيخ، "هو ذو عدد جمّ وشوكة مكينة، يغزو الحبشة وأمم السودان"[435]. وكتب سلطان مصر لولاة صعيد مصر لمساعدة سمرة عند خروجه في غارة. كما "عقد له لواء وشرّف بالتشريف وقلّد [...] وكُتب له منشور بما يفتح من البلاد وتقليد بأمرة العربان القبلية مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته وتركز رايته. ورسم المكاتبة إليه: السامي الأمير"[436].

ولاحظ القلقشندي أن هذا الوضع لم يعد قائما حينه، لأن العرب الهوارة، القادمين من البحيرات، استقروا في جميع أنحاء مصر العليا.

الوصايا للبطاركة

وشاهد القلقشندي في حينه الخوف الذي انتشر على نطاق واسع، وأن الاتصالات بين النوبيين والمسيحيين من أوروبا قد تصبح خطرا على مصر. عندما يتم إرسال رسالة رسمية من ديوان الإنشاء لبطريرك "النصارى الملكانية"، ذكر القلقشندي، أنه يجب على الكاتب دائما إضافة بعض التوصيات لتذكير البطريرك أن عليه أن يبتعد عن أي أجنبي قد يصل من الخارج، حتى من رسالة تم إرسالها بالحمام الزاجل. ومن ناحية أخرى، فإن البطريرك القبطي ينبغي أن ينصح بتجنب كل الاتصالات مع الناس القادمين من الحدود الجنوبية. ونقلنا القطع التالية من كتاب القلقشندي الذي يستنسخ وثائق رسمية من محفوظات الديوان.

"وهذه نسخة توقيع لبطرك الملكية [...] فلا يخلهم من تبجيل وحسن تأهيل وتتقدم إلى من بالثغور من جماعتك بأن لا يدخل أحد منهم في أمر موبق ولا في مشكل موثق ولا يميلون كل الميل إلى غريب من جنسهم وليكن الحذر لغدهم من يومهم وليومهم من أمسهم ولا يشاكلون رسولا يرد ولا قاصدا يفد"[437].

وقام القلقشندي بنسخ التالي من كتاب ابن فضل الله:

"وهذه وصية لبطرك الملَكية أوردها في 'التعريف' [...] وإياه ثم إياه أن يُؤوي إليها من الغرباء القادمين عليه مَن يُريب، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب، (ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد عليه من أحد من الملوك،) ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشي على مثل هذا السلوك، وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق، أو تلقي ما يُلقيه جناح غراب منه فإنه بالبين ينعق"[438].

"وهذه وصية لبطرك اليعاقبة [...] ويسقط منه قولنا: «وليتجنَّب البحر وإيّاه من اقتحامه فإنه يغرَق» وثانية هذه الكلمة إذا كان مُلكُ اليعاقبة مغلغِلا [في الجنوب] ولا بحر، ويبدل قولنا: «وليتجنّب ما لعلّه ينوب، وليتوق ما يأتيه سرا من تلقاء الحبشة

[435] العمري، التعريف، في مسعد، ص ٢٤٧؛ القاهرة ١٨٨٤، ص ٧٧. (cf. OS, p. 515)

[436] المرجع نفسه.

[437] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م، ج ١١، ص ٣٩٢- ٣٩٣. (cf. OS, p. 581)

[438] المرجع نفسه، ص ٣٩٤-٣٩٥. (cf. OS, p. 581)

حتى إذا قدر فلا يشمّ أنفاس الجنوب؛ وليعلم أن تلك المادّة وإن كثرت مقصرة، ولا يحفل بسوودد السودان»"[439].

وقدم القلقشندي قائمة من شيوخ القبائل الذين كانوا يتراسلون مع بلاط السلطان. ومن بينهم يذكر "شريف: شيخ النمانمة، بأبواب النوبة أيضا، ومكاتبته مستجدة حينئذ"[440] (١٣٦٢م). وهنالك وثيقة محفوظة الآن في القاهرة، يعود تاريخها إلى عام١٣٣٣م، ورد فيها ذكر ملك دنقلا، الأمير أبو عبد الله كنز الدولة[441].

الدوّ، محاولة لاستعادة عاصمة المملكة النوبية

ويعطي المقريزي أخبارا متفرقة متنوعة حول النوبة في القرن الرابع عشر في كتابه "كتاب السلوك". وفي ديسمبر ١٣٢٤م-يناير ١٣٢٥م (محرم ٧٢٥هـ) التقت مجموعة من السفراء من ثمانية ملوك، بما في ذلك ملك النوبة، في بلاط السلطان. وكان كنز الدولة الملك النوبي آنذاك"[442].

وفي ١٣٣٧م ومرة أخرى في ١٣٤٠م، أرسل محمد بن قلاوون بعثة إلى النوبة لاختيار أفضل الماشية (الأغنام والأوز) لتربيتها في مزرعته الخاصة بالقصر. وعين بعض الأسرى المسيحيين وعددا من النوبيين للاعتناء بها[443]. في عام ١٣٦٥م، أرسل ملك دنقلا سفارةً إلى السلطان لإبلاغه بأن ابن شقيق الملك قد ثار ضده. ولم تعط الأخبار اسمَ ملك دنقلا في ذلك الوقت، ولا اسم ابن أخته. ومع ذلك، قد ذكر بعض المؤرخين أسماء الرجال الذين أرسلهم الملوك كسفراء: ركن الدين كربس (كرنبس، أو كدنبس؟)، الحاج ياقوت، الذي عمل كمترجم، وشخص آخر يدعى أرجون ملوك فارس الدين. وكتبوا أن ابن شقيق الملك، بمساعدة من بني الجعد، قد صمم على التمرد ومهاجمة العاصمة (دنقلا) عند وفاة الملك. وقد اختار الشعب ابن شقيق الملك المتوفي لخلافته، وتنفيذ كافة حقوق التتويج. وانسحب الملك الجديد لداو، مكان جيد التحصين، ربما كان في الانتظار للحصول على المساعدة من مصر[444].

واغتصب ابن أخت الملك المرحوم عرش دنقلا. لكنه لم يكن يثق تماما ببني جعد، وبعد دخوله المدينة، حاول طردهم بعيدا عنها. ودعا جميع أمراء القبيلة إلى وليمة في قصر الملك. وقام برسم خطة سرية لتكديس الحطب في جميع المباني المجاورة لبيت الضيوف. وأمر أتباعه، عندما يحضر جميع زعماء القبيلة، بأن يحاصروا الأبواب والنوافذ بالخشب ويضرّموا النار فيه. وتم تنفيذ الخطة بمهارة. ومن الذين حاولوا الخروج من القصر، قتلوا منهم تسعة عشر أميرا وهرب آخرون. وبعد ارتكاب هذا الفعل البغيض، قام الملك الغاصب بنهب مخازن دنقلا. وأخذ كل ما وجده

[439] المرجع نفسه، ص ٤٠٤- ٤٠٥. (cf. OS, p. 582)

[440] المرجع نفسه، ج٨، ص٦.

[441] S.C. Munro-Hay, Kings and kingdoms of ancient Nubia, University of Khartoum, p. 30.

[442] ملاحظة المحقق: راجع المقريزي، كتاب السلوك، زيادة، ٢، ١، ص٢٥٩. (cf. OS, p. 696)

[443] ملاحظة المحقق: راجع المرجع نفسه، ص٥٣١-٥٣٢. (cf. OS, p. 696)

[444] ملاحظة المحقق: راجع المقريزي، كتاب السلوك، في مسعد، ص ٣٤٦-٣٥٤. (cf. OS, p. 698)

في طريقه من كنوز وأموال، وهرب إلى داو. وهناك تصالح مع الملك (عمه) بشرط أن يكون هذا الأخير هو ملك دنقلا في حين ينبغي الاعتراف به نائبا له.

هنا نقرأ لأول مرة في المصادر العربية، أن داو أصبحت مقر إقامة ملك النوبة. ويبدو أن داو (دو، الداو، أدوى، اليوم جبل أدّة) تتوافق مع مملكة دوتاوو، وتم التعرف عليها من الوثائق النوبية.

وتقول الأخبار أن الملك وابن أخيه طلبا من السلطان الحصول على مساعدة عسكرية من أجل طرد العرب من دنقلا، حتى يتمكنا من العودة إلى عاصمتهم. ووعدا أن يرسلا له مبلغا معينا من المال. وبعث لهما السلطان ٣٠٠٠ من الفرسان تحت قيادة أقتمر عبد الغني، حاجب الحجاب"[445]. وتمكنت الحملة من التنصيب على عرش دنقلا سليل العائلة المالكة القديمة، الذي لم يكن واحدا من بني كنز. وعوقب العرب وبني كنز بشدة لأنهم خلعوا الملك الشرعي. من هذا، يمكن أن نستنتج أن الدافع الرئيسي للسلطان لإحداث هذا التغيير، هو رغبته في تعزيز نفوذ المماليك في دنقلا.

وتقدم حاجب الحجاب مرحلة بعد مرحلة. ووصل إلى قوص وقابل بني كنز. وطلب منهم أن يطيعوا السلطان ووافقوا على ذلك. في حين أن الجيش السلطاني كان يحر ببطء في النيل نحو الشلال الأول، تقدم بعض العربان نحو داو وفرضوا حصارا على الملك النوبي هناك. وسرعان ما سمع حاجب الحجاب بذلك، فأرسل قوة لإنقاذ الملك. وتمكّن هؤلاء الجنود من القبض على زعيم بني العكارمة وبني كنز، وطردوا العرب الآخرين الذين لجأوا لجزيرة ميخائيل. وفي الاشتباكات التي تلت ذلك، تم قتل الكثير من العرب وغرق عدد كبير منهم؛ وتمّ أسْر غيرهم مع نسائهم وأطفالهم. ومع ذلك، فإن جيش المماليك لم يتجه نحو دنقلا، خوفا من مواجهة مع بني جعد. ووافق حاجب الحجاب على قرار الملك النوبي على البقاء في داو. وعاد أقتمر إلى مصر، وأخذ معه عددا كبيرا من الأسرى وهدايا مقدمة من الملك النوبي إلى السلطان.

حالة من الفوضى

في عام ١٣٩٦م، خلال انتفاضة بني كنز في أسوان، سعى الحاكم المملوكي لنيل حماية الملك النوبي ناصر. لم يوضح ابن الفرات إذا كان هذا الملك النوبي يقيم في دنقلا أو في داو. فمن الممكن أن إقامته كانت في داو.

وحدث في العام اللاحق الوضع المعاكس: ذهب الملك الناصر من النوبة إلى القاهرة لطلب المساعدة من السلطان، الذي أمر محافظ أسوان بالامتثال للطلب. ومؤرخو هذه الفترة (نهاية القرن الرابع عشر) لم يقولوا شيئا عن الوضع في النوبة. والاستثناء هو ابن خلدون، الذي وصف حالة الفوضى التي أعقبت دخول العرب الرحل في النوبة واختلاطهم مع السكان الأصليين.

[445] ملاحظة مسعد: "حاجب الحجاب وظيفة كان صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك" (السلوك، تحقيق زيادة، ج١، قسم ٣، ص٨٠٧ حاشية ٣) وانظر (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩، ج٥، ص٤٤٩).

"ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وملئوها [أي ملؤوها] عبثا وفسادا. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا، ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت، وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض، فصاروا شيعا لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وإنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر [ك] شأن بوادي الأعراب. ولم يبق لبلادهم رسم للملك"[446].

وأشار ابن خلدون (ت. ١٤٠٦) إلى واحد، على الأقل، من الأسباب التي أدت إلى الاضمحلال المطلق في النوبة. ويضيف أن أمراء النوبيين، لهم وجهات نظر مختلفة. واتخذوا قرارات معاكسة للتعامل مع الوضع، وبالتالي أدوا لتقسيم البلاد. وهذه الحالة من الفوضى، التي بدأت في بداية القرن الرابع عشر، كانت لا تزال سائدة في النوبة عندما كتب عنها المؤرخ العربي الكبير نحو العام ١٤٠٠م.

وقام الباكوي (المتوفي عام ١٤١٣م) بنقل معلومات عفا عليها الزمن عندما كتب أن النوبيين مسيحيون ويحكمهم ملك يدعى "كابيل"[447]. ولكن ما تبقي من معلوماته الجغرافية عن النوبة فهو صحيح.

ويؤكد مصدر مستقل وجودَ حرب وإمارات مسيحية في بعض أجزاء النوبة قبل فترة وجيزة من ١٣٤٠م. هذا المصدر هو سيرة القديس إوستاث (Eustathe)، وهو راهب وقديس مشهور في الكنيسة الأثيوبية[448]. وحجّ هذا الراهب إلى القدس في عام ١٣٣٨م ومر من خلال النوبة. هناك كان في استقباله الملك المسيحي الذي لم يكشف عن اسمه، وهو "رجل فاضل وأرثوذكسي [أي قبطي]"[449]. وذكر كاتب السيرة أن هذا الملك كان في رحلة الحرب ضد المسلمين.

وابن إياس (١٤٤٨-١٥٤٢م) آخر مؤرخ عربي في القرون الوسطى، سجل بعض الأحداث في مصر التي كان السود متورطين فيها.

وفي عام ١٤٤٢م، تآمرت مجموعة من "العبيد السود" بالثورة على رئيسهم، ونصبوا سلطانا عليهم، ووزير، وأمير كبير ودوادار (وزير الدولة) خاص بهم. وتسببت الانتفاضة في الكثير من الضرر للسكان. وبعث سلطان القاهرة بجيش قام بإخماد الثورة وتشتيت المتمردين.

[446] ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في مسعد، ص ٢٨٠- ٢٨١؛ ج٥، بيروت ١٩٦٠-١٩٦٧، ص ٩٢٢-٩٢٣.

[447] راجع: الباكوي، تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار في: Paris, Bibl. Nat., MS 2246,fol. 5r.

[448] راجع النص الأصلي بالأمهرية بترجمة باللاتينية:
Gadla Ewostatewos (Acta S. Eustathii), B. Turaiev, CSCO Script. Aeth. 15, 1955.
ويُنسب إلى هذا القديس عدد من العجائب أن يشك فيها الجميع بحكمة؛ ولكن نجد في سيرته التفاصيل الجغرافية والزمنية التي لا يمكن أن تخترع. على سبيل المثال رحلته إلى القدس عبر النوبة التي كانت واحدة من أكثر الطرق شيوعا في الاستخدام آنذاك؛ ووصفه لوالدة الملك التي كانت تغسل أقدام الحجاج الذاهبين إلى القدس؛ والمثال الأخير هو المقابلة في القاهرة بين إوستاث (Eustathe) والبطريرك القبطي بنيامين (Benjamin) الثاني (المتوفي عام ١٣٣٩م) الذي كان على الكرسي البطريركي بالفعل في ذلك الوقت.

[449] راجع النص بالإنجليزية في (OS, p. 516-518).

"أسر سلطانهم ومسك منهم جماعة وهرب الباقون ورجعوا [الجيش] إلى القاهرة فرسم السلطان ونادي في القاهرة بان كل من كان له عبد كبير يطلع به إلى باب السلسلة ويقبض ثمنه اثني عشر دينارا فامتثل الناس ذلك فاشترى منهم السلطان جماعة وارسلهم إلى بلاد ابن عثمان [أي الأتراك] ورسم ببيعهم هناك. فتوجه رأسهم في مركب وهم في الخشب وباعوهم هناك وقطع جادرة العبيد الشاتر من مصر وخمدت تلك الفتنة التي كانت بين العبيد انتهى [...]"[450].

وفي عام ١٤٧٨م طارد إلى بلاد النوبة وزيرُ الدولة ابنَ عمر، وهذا زعيم عربي من بني عمر، وقبض عليه. وفي عام ١٤٨٦م كاشف منفلوط فر ولجأ إلى النوبة، وأرسل السلطان قوة لاعتقاله. وأصبحت سواكن مكان حبس الضباط الذين فقدوا ثقة السلطان.

وفي شهر ذي الحجة (الموافق يناير ١٥١٨م)، وردت الأخبار من صعيد مصر أن الأمير علي بن عمر ذهب في غارة ضد ملك "صاحب النوبة"[451].

وبحلول ذلك الوقت (حوالي ١٥١٧م)، وضع السلطان التركي سليم نهاية لحكم سلالة المماليك في مصر، والجزء الشمالي من النوبة حتى الشلال الثالث خضع لسيطرة الأتراك. وبسط ملوك الفونج من سنار هيمنتهم على بقية البلاد. دخلت النوبة عصر الظلام حسب وقائع التاريخ.

[450] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع في الدهور، بولاق ١٣١١هـ، ج٢، ص٢٨. (cf. OS, p. 781)

[451] راجع المرجع نفسه، ج٣، ص١٨٤. (cf. OS, p. 783)

الفصل العشرون

أفول نجم المسيحية في بلاد النوبة

نلاحظ أن سقوط كدنبس وتنصيب واحد من بني كنز على عرش دنقلا، لا يعني الاختفاء المفاجئ للمسيحية في النوبة. ويذكر سيتي "ملكَ دوتاوو" مستندٌ مكتوبٌ بالنوبية القديمة يعود تاريخه لعام ١٠٤٧ لعهد الشهداء (الموافق ١٣٣١م)، اكتشف بواسطة البعثة الفرنسية في إدفو في عام ١٩٣٠م. ويذكر ورق البرد[452] الملكَ تيتي من دوتاوو أيضا. ويتحدث نقش موجود في إبريم عن "السنة الخامسة من حكم الملك جبرائيل". ونجد في ثلاث كتابات جدارية بجبل أدّة الأسماء التالية: "يويل (Ioel) ملك الملوك بدوتاوو" و"الملك تينوسي (Tienossi) من إلينات (Ilenat)" وملك آخر "كودلانيل" (Kudlannel) الذي زار كنيسة برفقة "الملك إبيماجوس" (Epimachus). وتم التعرف على أسماء ملوك آخرين من الذين لم يحكموا دنقلا من مصادر أثرية عديدة.

وتشير جميع هذه الوثائق إلى وجود عدد من الممالك أو الإمارات الصغيرة التي يحكمها ملوك مسيحيون بعد سقوط عرش دنقلا لعائلة كنز المسلمة.

وفي وثائق تم اكتشافها في الفترة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٦م بإبريم، فيها نجد ذكر الملوك، والأساقفة وغيرهم من المسؤولين في المملكة الذين يحملون أسماء مسيحية في وقت متأخر كعام ١٤٦٤م. فقط بعد نشر جميع هذه الوثائق، سيكون من الممكن التعمق في دراسة الإمارات المسيحية التي بقيت على قيد الحياة بعد المملكة المسيحية في دنقلا. واكتشفت وثائق أخرى في الآونة الأخيرة بإبريم تورد قائمة لملوك دوتاوو وأسماء مرافقي مواكبهم وألقابهم حتى منتصف القرن السادس عشر.

وتعود رسالة من يويل (جويل)، ملك دوتاوو، إلى عام ١٤٦٤م؛ والكتابة على حائط بأدة أوردت ذكره أيضا، الذي كان الملك في ١٤٨٤م، وعلى الأرجح هو الشخص نفسه. وأصبحت مملكة دنقلا الصغيرة تابعة لملك الفونج في وقت ما بين ١٥٠٠م و١٦٠٠م.

ودوتاوو هي حتى الآن أشهر هذه الإمارات. و"دوتاوو" كلمة نوبية، وعلى ما يبدو على مقطعين "دو" و"تاوو"، بمعنى دو أو داو السفلى. ومن الأرجح أن هذه المملكة كان مركزها في الداو (جبل أدة).

وخلافا للرأي الذي يفترض أن هذه الإمارات نشأت نتيجة لسقوط عرش دنقلا المسيحي، الوثائق التي وجدت بإبريم تثبت أن مملكة دوتاوو، كانت موجودة بالفعل في منتصف القرن الثاني عشر على الأقل، أي أكثر من ١٥٠

[452] يُجد بمتحف برلين: P 11277.

عاما قبل انهيار دنقلا (١٣٢٣م)"[453]. وقد يفترض أن موسسي مملكة دوتاوو، فضلا عن الإمارات الأخرى، هم من سلالة العائلة المالكة من دنقلا. وفي الواقع أنهم واصلوا حمل ألقاب ملوك دنقلا. ويجوز لأحد أن يفترض بسهولة أن الشقاق بين أفراد العائلة المالكة أدى إلى تذمر بعض الأمراء وإنشاء ممالك مستقلة لأنفسهم. ومع هذا ذكر أن ملكا توج في دنقلا (١٣٦٥م)، وذهب للإقامة في داو (دوتاوو؟). ولكن علينا أن نعترف بأن القصة الحقيقية لأصل الممالك هذه الصغيرة، لا تزال مجهولة بالنسبة لنا.

وبعد طرد بني جعد من دنقلا، تم تأسيس مملكة صغيرة في دنقلا، بما في ذلك المدينة وجزء قليل من القرى حولها. أما بالنسبة لملوك مملكة دنقلا هذه، فقط واحد منهم يعرف باسمه، وهو "بابير" (ПАПЕР)[454]. ويوجد هذا الاسم منقوش على واحد من الجدران في بانقانارتري.

ويبدو أن بعض الكهنة بقوا في دنقلا، بما في ذلك المطران، والذي توجد صورته، وهي واحدة من المعالم الأثرية للقلعة. واستمر تدمير المزيد من الكنائس ونهبها. ولكن على العكس من ذلك، استمر دير كبير لبعض الوقت.

علوة

لم يسجل أي حدث في مملكة علوة منذ آخر حملة للمماليك ضد دنقلا (١٢٨٩م). ومن المعروف أن البدو العرب جاءوا واحتلوا بعض الأراضي في علوة بسبب وفرة المراعي. وحاول ملوك سوبا مقاومة هذه الغارات حتى أصبح العرب القوة الساحقة. وعلى ذلك، المسيحيون في تلك المملكة، تم عزلهم تماما عن الكنيسة في مصر.

ووفقا لبعض تقاليد لقبيلة العبدلاب، عندما لم تعد سوبا عاصمة لعلوة، قامت مجموعة منهم بقيادة عبد الله جمعة، باحتلال المدينة حوالي ١٥٠٠م. وبعد بعض الوقت، تقدم ملوك الفونج من سنار وأخضعوا العبدلاب. من ذلك الحين، كان زعيم (ملك؟) العبدلاب يقيم في مكان يسمى قَرّي، بالقرب من السبلوقة (في الشلال السادس). ومن هناك حكم الجزء الشمالي من مملكة علوة، باعتبارها تابعة لملوك سنار.

وفيما يتعلق بوجود جماعات محلية مسيحية في علوة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، لا توجد معلومات مؤكدة"[455]. مع ذلك، اثنان من المصادر غير العربية، تحتوي على بعض المعلومات الثمينة عن علوة والنوبة، والتي يمكن قبولها مع بعض التحفظات.

[453] Cf. J.M. Plumley, New light on the kingdom of Dotawo, in Etudes Nubiennes (Colloque Chantilly), Cairo 1978, p. 231-241.

[454] Note of the editor: cf. Adam Łajtar, Banganarti 2004 Inscriptions, in Polish Archaeology in the Mediterranean, XVI, Reports 2004, p. 310.

[455] Cf. Neville B. Chittick, The last Christian stronghold in the Sudan, KUSH 11(1963), p. 264-272.

الفارس البرتغالي (Alvares)

وفي سنة ١٥٢٠م سافر فرانسيسكو الفارس البرتغالي عن طريق سواكن إلى مصوع، إلى بلاط الإمبراطور الأثيوبي. ومكث في أثيوبيا منذ ١٥٢٠م حتى ١٥٢٧م. وبعد عودته إلى بلده، كتب تقريرا فيما عن أسفاره حيث سجل المعلومات التي سمعها حول النوبة"[456].

وفي طريقه إلى أكسوم، شهد الفاريس الإعلان الرسمي للحرب من قبل "بحر نقش" (النحاشي، Barnagais في النص الأصلي وهو حاكم ولاية البحر في إريتريا-تيغراي) ضد النوبة (Nobiis في النص الأصلي). ومن الجدير بالذكر أن الفارس يسمي بكلمة "Nobiis" سكان منطقة التاكا "الذين كانوا يعدون مسيرة خمسة أو ستة أيام من حدود إقليم 'بحر نقش'"[457].

كما يقول الفارس أن الأراضي النوبية تبدأ بعد مسيرة "خمسة أو ستة أيام" من أرض النحاشي، ويبدو أن الأثيوبيين يعتبرون "النوبة" الأراضي كلها بداية من كسلا، أو بالقرب من الحدود الدولية في يومنا هذا بين السودان واريتريا/إثيوبيا. ويذكر أن النوبة لهم حوالي خمسمائة جنديا يرابطون في منطقة الحدود، ومنهم فرسان كثيرو المهارة والشجاعة. والحرب التي أعلنها "بحر نقش" لم يخوضوها أبدا لأن الملك كان غير قادر على تجميع جيشه[458].

لما تكلم عن بلونس (Bellonos، الآن بيلين في مقاطعة كرن) يقول الفارس:

"في الجهات الشمالية –المنطقة الواقعة عند الحدود المشتركة بين إريتريا والسودان حاليا– توجد أمة تدعى بلونس وهي من أصل أثيوبي يجاورون أمة يسميها نوبييس [وهم النوبة] ويقولون عنها أن أمة النوبة كانوا مسيحيين فيما مضى تحت رئاسة روما [يعنون بها القسطنطينية]"[459].

وذكر يوحنا السوري، واحد من مرافقي الفارس، الذي كان في النوبة، ما يلي:

"وفيها [أي في النوبة] مائة وخمسون من الكنائس التي لا تزال تحتوي على الصلبان وصور السيدة مريم البتول وشخصيات أخرى رسمت على الجدران وهذه اللوحات قديمة"[460].

وأفاد أيضا أن السكان فقدوا إيمانهم، ولكن لم يصبحوا بعد مسلمين. وأضاف أنهم "يرغبون في اعتناق المسيحية"[461].

ويقال إن الكنائس كانت داخل القصور، وهذا صحيح في كثير من الأماكن من النوبة السفلى، حيث، خلال

[456] Cf. C.F. Beckingham-G.W. Huntingford, The prester John of the Indies, 2 vols, The Hakluyt Society, London 1958.

[457] C.F. Beckingham-G.W. Huntingford, vol. 1, ch. 30, p. 130.

[458] راجع المرجع نفسه.

[459] C.F. Beckingham-G.W. Huntingford, vol. 1, ch. 138, p. 461.

[460] المرجع نفسه.

[461] المرجع نفسه.

الفترة المسيحية في وقت متأخر، حرب المماليك والسطو شكّلا خطرا دائما.

وتقدم شهادة ألفارس دليلا واضحا على أن اختفاء المسيحية من النوبة يرجع إلى عدم وجود الزعماء الدينيين (أي الأساقفة والكهنة).

"بينما كنا في بلد الكاهن يوحنا (Prester John) [أي أثيوبيا]، حضر ستة رجال من ذلك البلد [أي النوبة] كسفراء للكاهن وتوسلوا له أن يرسل لهم الكهنة والرهبان ليعلموهم مبادئ الدين المسيحي؛ ولكنه فضل ألا يرسل لهم [...] ويقولون إنهم في العصور القديمة كانوا يتلقون كل شيء من روما [أي من القسطنطينية]، وإنه مر وقت طويل جدا منذ أن توفي المطران الأخير، الذي كانوا قد حصلوا عليه من روما [أي من القسطنطينية]، وبسبب حروب المسلمين، لم يستطيعوا الحصول على آخر وهكذا خسروا كل ما لديهم من الكهنة ومسيحيتهم، وهكذا تم نسيان الإيمان المسيحي[٤٦٢]".

إذا كان ما أفاد به ألفارس صحيحا، عليه نحن في جهل تام عن مشايخ النوبة الذين بادروا بإرسال سفراء إلى أثيوبيا من أجل إحياء الإيمان المسيحي في النوبة! الإمبراطور الأثيوبي رفض الطلب، ربما ليس لأنه هو نفسه يعاني من نقص في الكهنة في بلاده، ولكن قبل كل شيء، لأنه من حق بطريرك الإسكندرية أن يرسل المطران إلى النوبة. وفيما يتعلق بالكنائس داخل أماكن محصنة ولوحات الصليب والعذراء والقديسين، فقد أثبتت الحفريات في كنائس النوبة السفلى صحة ما أدلى به ألفارس.

فليس من المستغرب أن ألفارس وجد التقاليد في أثيوبيا عن المسيحية النوبية صحيحة جزئيا ومشوهة جزئيا. ويجب أن نتذكر أن العديد من الأثيوبيين، خصوصا الرهبان، قد زاروا النوبة في طريقهم إلى القدس.

داوود روبيني (David Reubeni)

في عام ١٥٢٢م عبر الرحالة اليهودي الشهير داوود روبيني مملكة الفونج. وزار سوبا، ثم ذهب إلى مصر، ووصل أخيرا إلى إيطاليا حيث التقى البابا في ١٥٢٤م. من هناك، ذهب إلى إسبانيا لتقديم تقريره إلى ملكها. وكان لتقريره أهمية كبيرة بالنسبة للتاريخ السياسي لمملكة الفونج ونموها تحت عمارة دنقس، أول ملك للفونج ومؤسس سنار كعاصمة (حوالي ٩١٠هـ-١٥٠٤م).

وصار ملوك الفونج يسيطرون على كل البلاد من الشلال الثالث وكل أراضي مملكة علوة السابقة. هناك أوقفتهم الحامية البوسنية التي بعث بها السلطان التركي. وتحدث روبيني إلى البابا وإلى ملك إسبانيا حول إمكانية توحيد قوى الغرب المسيحي في حملة حربية ضد الأتراك. وقال إن الأتراك كانوا يهددون مملكة من المفترض أن تكون في شبه الجزيرة العربية، حكمت من قبل ملك وهمي اسمه يوسف، والذي أدعى روبيني أنه أخاه[٤٦٣].

٤٦٢ المرجع نفسه. ملاحظة المحقق: نذكر أن المطران هو الذي يرسم كل كاهن.

463 Cf. S.Hillelson, David Reubeni. An early visitor to Sennar, SNR, XVI, 1933, p. 56-66.

شفق المسيحية

على أساس من الأدلة التاريخية والأثرية، يمكننا أن نقول إن هناك مسيحيين في بعض المناطق في المملكة لسنوات عديدة بعد أن مر عرش دنقلا من المسيحيين إلى المسلمين.

وفي بعض المناطق اختفت المسيحية بسرعة، حتى قبل سقوط آخر حاكم مسيحي في دنقلا. واستقر المسلمون في المريس ابتداء من الفترة الفاطمية وما تلاها. بالمثل كان هناك العديد من النوبيين في جيوش الخلفاء الفاطميين في مصر، وكان هناك اختراق تدريجي وسلمي للإسلام خلال أربعة أو خمسة قرون. وكان بعض المسلمين يقيمون في سوبا في منتصف القرن العاشر. وآخرون استقروا في دنقلا في وقت البطريرك كريستودولس (Christodoulos)(١٠٤٦-١٠٧٧م). وفي العصر المملوكي قبائل عربية معينة، مثل جهينة، ربيعة وغيرهم توغلوا في السودان بحثا عن المراعي.

ولا توجد أي سجلات تاريخية رسمية عن أنه كان هنالك عنف واضطهاد ديني على النوبيين المسيحيين من قبل المسلمين[٤٦٤]. وعليه يمكننا أن نستنتج أن اختفاء الكنيسة النوبية يعزي أساسا إلى ضعف داخلي.

وفي عام ١٣٧٢م توج المطران تيموثاوس في إبريم مع لقب "أسقف بخورس [أي فرس] وإبريم"، كما هو مكتوب في لفة من ورق تحتوي على تنصيبه والتي اكتشفت في إبريم عام ١٩٦٥م. وتوفي هذا الأسقف بعد وقت قصير من وصوله.

والأدلة الأثرية التي عثر عليها في جزيرة كولب في الطرف الجنوبي من الشلال الثاني تعزز هذا الظن. وفي هذه الجزيرة الصخرية والتي يتعذر الوصول إليها، هناك منازل تحمل نقوش على عتبة باب المدخل[٤٦٥]. وفي كنيسة صغيرة بالجزيرة تم العثور على طبقتين من اللوحات الجدارية التي تم إزالتها في وقت لاحق. أما لوحات الطبقة الداخلية فتوجد حاليا في متحف السودان القومي وتعود أسلوبيا إلى وقت متأخر من الفترة المسيحية. أما الطبقة الخارجية مع لوحاتها، فمن الواضح أنها أكثر حداثة، على الرغم من أنه لم يتم تعيين تاريخ محدد لتنفيذها.

وقد تم اكتشاف العديد من الأماكن المحصنة الصغيرة على ضفاف النيل على طول الشلال الثاني، وبعضها مخفي جيدا بين الصخور أو بني بمهارة على المنحدرات لتكون منيعة على المعتدين. وتم بناؤها لتوفير المأوى للأغنام والماشية، وربما للسكان من القرى المجاورة. ووجدت طبقة سميكة من روث، بما في ذلك فضلات الأغنام والماعز، وهذا يثبت أن تلك الأماكن استخدمت لفترة طويلة أو فترات متباعدة. ووجد أيضا فخار بسيط غير مزخرف.

٤٦٤ ملاحظة المؤلف: يمكن أن يكون الاستثناء مرسوم سلطان ناصر بن قلاوون (١٢٩٨م)، حيث أنه أمر بإغلاق جميع الكنائس "في جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات" (تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، ج٨، ص١٠٩؛ OS, p. 737). على الرغم من أن المؤرخ يقول إن عددا كبيرا من المسيحيين اعتنق الإسلام، لا نعرف المعنى من ذكر النوبة هنا. ويثبت تكرار مراسيم مماثلة أنها غير فعالة.

٤٦٥ ملاحظة المؤلف: ورأى المؤلف بنفسه هذه النقوش خلال زيارة لكلوبنارتي (Kulubnarti) في عام ١٩٧٠م بناء على دعوة من قبل الأستاذ آدمز (W.Y.Adams).

ويمكن أن يعود تاريخ هذه الأماكن المحصنة إلى أواخر القرن الخامس عشر وحتى إلى وقت لاحق. هذه الأماكن ليست في حد ذاتها دليلا على وجود المسيحيين في المنطقة، إلا أنها تشير إلى أن سكان النوبة من الشلال الثاني عاشوا لفترة طويلة في موقف دفاعي ضد العصابات واللصوص من غير النوبيين.

والفرنسي الجزويت[466] سيكار (Sicard)، الذي زار مصر في ١٧١٤م، ذكر أن المطران القبطي في نقادة، كان تحت ولايته فقط (Qift) وإبريم. والحفاظ على هذا اللقب (أي مطران إبريم)، حتى مع افتراض أن المسيحيين لم يعد لهم وجود هناك، ويبدو أن هذا يشير إلى أن اختفاء المسيحية كان حدثا لا يزال ماثلا في ذاكرة الكنيسة المصرية.

وهناك قصة غريبة جدا حول بعض الناس من جزيرة تقاسي، التي تقع مقابل دنقلا العجوز. وفي عام ١٧٤٢م، زار بعض مواطني تقاسي[467] القاهرة وأخبروا الرهبان الفرنسيسكان بالقاهرة بوجود المسيحيين في جزيرتهم. ومن خطاب النائب الرسولي إلى كاردينال بلوقا (Card. L. Belluga) بتاريخ ٢٣ يناير ١٧٤٢م، ننقل ترجمة ما يلي:

"قبل بضعة أيام، روى لي خادمي من تقاسي (Berberine) الذي يعيش في بيتي، قصةً سببت لي دهشة كبيرة. ذلك أن في بلده، في مملكة النوبة، لا يزال هناك مسيحيون. على الرغم من المضايقات التي تعرضوا لها من قبل الأتراك الذين حاولوا إجبارهم على الإسلام، وظلوا مسيحيين حتى لو كلفهم ذلك حياتهم. ويمتلكون ديرا (دون الرهبان) وداخله كنيسة جميلة مزينة بلوحات على الجدران وكذلك على القماش. وفي تلك الكنيسة فتحوا قبرا وعثروا فيه على سبعة رهبان لم يتعفنوا، وعليهم من ملابسهم. وبالقرب منهم تم العثور على أسلحة مثل الرماح والسيوف. ثلاثة منهم يجلسون على مقاعد حجرية، واثنان منهم يجلسان على الأرض ومستندان على الجدار، واثنان مستلقيان على الأرض ورؤوسهم مستريحة على أيديهم، ويبدون كأنهم ليسوا أمواتٍ. هذه القصة نفسها تمت روايتها لمبشرينا عند مرورهم[468] خلال النوبة في طريقهم إلى إثيوبيا، كما قال لي الأب بينديتو دا تيانو (Benedetto da Teano)، الذي عاد من تلك البلدان. ليس هناك شك حول الحقيقة نفسها، بل تأكيدها من قبل الكثير من شهود العيان، من أماكن مختلفة وأوقات عديدة. في تلك الكنيسة اجتمع المسيحيون لأداء الأقسام. أولئك الذين يحنثون باليمين يموتون بعد ذلك بوقت قصير. كل هذا قيل لي من قبل خادمي، الذي كان شاهد عيان، وإذا كنا نرغب في الذهاب إلى هناك، وقال إنه سيكون دليلا لنا[469]".

وأرسل هذا النائب الرسولي باللغة اللاتينية إلى "مجمع لانتشار الإيمان" (Propaganda Fide) يوم ٢٨ سبتمبر ١٧٤٢م.

"كيف فقد النوبة الإيمان المسيحي؟ إنما فقط لعدم وجود رعاة [أي الكهنة والأساقفة]، وهذا حدث منذ وقت ليس ببعيد بحسب ما نعلم من التاريخ. في واقع الأمر، في مملكة النوبة توجد حتى الآن آثار المسيحية. فهناك الأديرة والكنائس المهدمة والسكان المحليون الذين يطلق عليهم اسم "بربريني" (Barbarini)، كانوا يستخدمون أسماء القديسين مثلا، ويضعون علامة الصليب على المنازل والسفن؛ ويحافظون على مراسم معينة لتعميد الرضع. أحد الخدم البربرينيين طلب مني أن أعطيه واحدا

[466] ملاحظة المحقق: الجزويت أو اليسوعيون، هي جمعية كاثوليكية أسسها القديس الإسباني إغناطيوس من لويولا عام ١٥٤٠م.
[467] في النص الأصلي: berberini.
[468] يشير إلى الرهبان الفرنسيسكان الذين سافروا عبر النوبة إلى سنار وإثيوبيا في الفترة ما بين ١٦٩٩ و١٧٠١م.
[469] GABRIELE GIAMBERARDINI, Lettere dei Prefetti Apostolici dell'Alto Egitto nel sec. XVIII, Cairo 1960, p. 101.

اثنين من الصلبان الصغيرة لإرسالها إلى أخته في تنقوس [أي تنقاسي في إقليم دنقلا العجوز]، التي تأمل، بمساعدة هذه العلامة، أن واحد من أبنائها، على الأقل، سيعيش[470]".

فقد نتعامل مع هذه المعلومات مع بعض التحفظات، ولكن ليس لدينا أي سبب لرفضها تماما.

الأسباب التي أدت إلى أفول نجم الكنيسة النوبية

ساهمت عوامل مختلفة، بعضها معروف وبعضها لا يزال مجهولا، بدرجات مختلفة في سقوط الكنيسة النوبية. وهنا نعدد بعض الأسباب التي يبدو أنها حقيقية وهي مأخوذة من بعض المصادر الأدبية والأثرية.

ولا يوجد ذكر في السجلات التاريخية عن أي معهد في النوبة لتدريب القسس المحليين. وقد تم تعيين الأساقفة من قبل الملوك ورسامتهم من قبل بطاركة الإسكندرية للملكيين أو الأقباط. ومن المحتمل أن الكهنة والشمامسة، أيضا كانوا يفدون من الخارج، ولذا يجهلون غالبا اللغة المحلية تماما. وعليه نستنتج أنه بالإضافة إلى التعليم القليل الذي يمكن استخلاصه من احتفال القداس الإلهي باليونانية أو القبطية، لم تتم أية تعاليم سليمة للسكان المحليين في العقائد والأخلاق.

وعندما فشل إمداد رجال الدين من الخارج، لم يكن هناك أحد في النوبة قادر على تحمل المسؤولية الدينية تجاه السكان. وحدث هذا أكثر من مرة. وكان هناك أيضا بعض رجال الدين من أصل نوبي كما يظهر من الصور والوثائق، ولكن عددهم بالتأكيد كان قليلا، وخاصة فيما يتعلق بالكهنة والشمامسة؛ وغير معلوم إذا كانوا قد حصلوا على التعليم المناسب أم لا. ويبدو أنه من الصعب أن نعتقد أن التعليم للشعب المسيحي كان عميقا.

واعتمدت الكنيسة النوبية بصورة واضحة على سلطة العرش. وعندما تدهور هذا العمود عانت الكنيسة بشكل واضح.

وعلمنا من بعض النقوش أن بعض الأساقفة والكهنة والشمامسة، فقط كانوا مسؤولين مدنيين مع القليل من الرعاية أو عدمها تجاه واجباتهم الكهنوتية الرئيسية. إذا كانت هذه هي الحالة، فبالتأكيد هذا يعتبر واحد من أهم أسباب اضمحلال واختفاء المسيحية في نهاية المطاف. وإجمالي عدد رجال الدين غير كاف بالتأكيد بالمقارنة مع عدد القرى والمسافات التي تفصل بينها.

وهكذا، تم التبشير بسطحية في كثير من أنحاء المملكة. ولم يصل إلى المناطق الواقعة بعيدا عن وادي النيل. ويبدو أن المسيحية كانت متأصلة في الأسرة المالكة وأصحاب النفوذ في الدولة، إلا أن الشعب في الأرياف لم يدرك المسيحية على تمام حقيقتها وتربي تربية سطحية محدودة للتزيين بالرموز الخارجية وحفظ بعض الصيغ. وهذا خلق مساحة لكثير من الممارسات الخرافية القديمة التي ظلت المعتقدات المسيحية.

[470] المرجع نفسه.

وفي الأديرة لم يهتم الرهبان كثيرا بالتعليم الديني لأنهم اشتغلوا بالأعمال اليدوية. والرهبان الموهوبون بالمعر
كانوا حالات استثنائية. ومع هذا، فمن الجدير بالثناء عملهم على ترجمة الكتاب المقدس، والمواعظ وغيرها من
الكتب من اللغات الأجنبية.

ومن بين العوامل الخارجية التي يمكن ذكرها، الاضطراب السياسي والخلافات التي نشأت داخل الأسرة الحاكمة
في دنقلا، وربما في البلاطات الملكية الأخرى. وقد أدى هذا إلى زيادة الفصائل والثورات، وحتى الانتفاضات
والانقلابات. وعندما ناشد الملوك السلطان المصري للمساعدة، كان السلطان حريصا على التدخل في شؤونهم
للدفاع عن مصالحه الخاصة.

ولاسيما المشاكل الداخلية في النوبة من ١٢٧٥م حتى ١٣٢٠م التي أدت إلى سلسلة من الحروب بين النوبيين
والمماليك. وكانت النتيجة هزيمة النوبيين، وإفقارهم، وزيادة مكانة المماليك وتدخلهم.

ويذكر ابن خلدون أن واحدا من أهم أسباب التدهور في النوبة هو قدوم البدو العرب وتزاوجهم مع بنات أكابر
النوبة مما جعل العرب يتملكون جميع الحقوق التي كانت لدى النوبة ويتوارثونها عن طريق الأم. وذكر أن الجزية
أصبحت ثقيلة على أهالي النوبة بعد الانهزامات. فتخلص منها النوبيون بإشهار إسلامهم.

الفصل الحادي والعشرون

تراث النوبة المسيحية

الآن يجب أن يطرح سؤال أخير: ما تأثير العشرة قرون للمسيحية على النوبة اليوم؟ هل بقي في تقاليد السودان المعاصر شيء من الحضارة المسيحية النوبية القديمة؟

بقيت على قيد الحياة بعض التقاليد السودانية حتى عقود قليلة مضت، وتقف شاهدا على ماضي النوبة المسيحي. ولكن، يجب أن يوضع في الاعتبار أن التطور الاجتماعي قد غطى كثيرا من مدن وقرى نوبة العصور الوسطى. ولهذا كثير من التقاليد المذكورة أدناه ربما اختفت تماما.

"أربعون الولادة"

في كثير من المناطق النيلية الواقعة بين وادي حلفا والخرطوم، لا يجوز للمرأة الوالدة – أو بتعبير أدق كان يسمح لها حتى وقت قريب– أن تخرج من البيت قبل مرور أربعين يوما. وفي عشية اليوم الأربعين، تبدأ الاحتفالات الخاصة تكريما للمولود. وفي القرى النيلية، تحمل الوالدة الطفل إلى النيل من أجل تنفيذ الغسل وفقا للطقوس التقليدية.

ويعتقد السكان المحليون أن كل أنواع الشر سوف تصيب أي امرأة تهمل هذه الطقوس. وترافق الأم إلى النهر نساء أخر يحملن أغصان النخيل، ويغنين الأغاني الشعبية. وتغسل الوالدة وجهها ويديها وقدميها، وتقوم بغسل وجه الوليد ورجليه بينما تطلق رفيقاتها زغاريد الفرح التقليدية. ويعرف هذا الحفل تحت اسم "يوم الأربعين".

وهذه العادات مماثلة للطقوس التي يقوم بها المسيحيون عند تعميد الطفل بالغطاس. فمن الممكن أن يكون لدينا هنا آثار بعض العادات المسيحية الأخرى، مثل "دخول النساء إلى الكنيسة". ومن الجدير بالذكر أن تقليد الأربعين يوما بعد الولادة – على النحو المنصوص عليه في الكتاب المقدس (سفر لاويين ١٢: ٤) – ما زالت بعض الكنائس الشرقية تحتفظ به.

"المارية"

هنالك احتفال يعرف باسم "مارية" في بعض القرى ما بين وادي حلفا ودار السكوت ودار المحس حتى المناطق بالقرب من دنقلا. بعد يومين أو ثلاثة أيام من مولد الطفل، تقوم النساء بحمله إلى النهر ليتم غسل وجهه ويديه

وقدميه. وعلى رأس الموكب تأتي القابلة وتحمل الطفل المولود. وتحمل امرأة أخرى طبقا مصنوعا من الأعشاب، وبه [illegible] أدوات الولادة والنفايات المجموعة بعد كنس البيت. ويضاف إلى ذلك قرص من الخبز. ويتم إلقاء الطبق ومحتوياته في النهر. وتقوم النساء بأخذ بعض الماء معهن إلى المنزل، ويحفظنها في وعاء لبضعة أيام، وبعد ذلك يتم طرحه [illegible]

ويذكر بعض المواطنين أن في بعض القرى لا يزال سكانها في هذه المناسبة يغطسون الطفل في ماء النيل قائلين "اغطس غطاس حنا" (وهو يوحنا المعمدان)[٤٧١]. ويعيد هذا الطقس إلى أذهاننا رتبة المعمودية. وبنفس المناسبة [illegible] الناس ضحية ويحرصون على ألا يكسروا أي عظم منها. ثم تلطخ واجهة المنزل باليد المغمورة بالدم. تذكرنا هذه [illegible] الطقوس بذبح الحمل الفصحي في العهد القديم[٤٧٢].

وفي بعض المناطق اعتاد الناس أن يدعوا صبيا حسن الأخلاق -أو فتاة، إذا كان الطفل المولود فتاة- ويقدموا [illegible] بعض البلح ليتناوله. وبعد ذلك عليه أن يلمس لسانه شفتي الوليد، بحيث يتذوق الرضيع حلاوة التمر. ويأملون [illegible] يؤدي هذا التلامس إلى انتقال الأخلاق الحسنة إلى المولود الجديد. ويمكننا أن نرى في هذا الحفل أثرا من عادة [illegible] الكنيسة التي تطلب أن يحضر العرّاب (الأشبين) لمعمودية الطفل ويلتزم بأن يضمن له تربية مسيحية في حالة وفاة [illegible] الوالدين أو غيابهما، أو ربما "إعطاء الملح"، أي طقس إعطاء الطفل "ملح الحكمة" ليتذوقه[٤٧٣].

ولوحظت عادة أخرى في المنطقة المعروفة ببطن الحجر بالقرب من الشلال الثاني، ربما تعود إلى العصر [illegible] المسيحية. إذا كانت الولادة صعبة فإن النساء يصحن بصوت عال مرارا وتكرارا باللغة النوبية "مارية" (مريم) [illegible] العالم الدكتور كرونينبرق (A. Kronenberg)، الذي نفذ عملية مسح أنثروبولوجية للمنطقة، يرى أن هذه الصلاة [illegible] الصاخبة هي شكل من أشكال التضرع لمريم العذراء لمساعدة المرأة في الوضع[٤٧٤]. وفي بعض المناطق القديمة تقوم [illegible] النساء المسنات بالدعاء للملائكة الذين يسمونهم "أنقلسري" (Angelesri)[٤٧٥]. ولكن الأهالي يعتبرونهم [illegible] أرواح نهر النيل.

الأطباق والعين الشريرة

ومن المتعارف عليه بين جميع النوبيين دون استثناء تزيين خارج منازلهم بالأطباق. ويتم تثبيتها على الجدار فوق [illegible] الباب. ولفت مواطن مطلع من دنقلا، اسمه إبراهيم أحمد إبراهيم، انتباهنا إلى حقيقة أن هذه الأطباق بغض النظر [illegible] عن عددها وطريقة وضعها، دوما يتم ترتيبها في شكل صليب. والغرض وراء ذلك هو درء العين الشريرة[٤٧٦].

٤٧١ حصل المؤلف هذه المعلومات من خطاب شخصي من الراحل أنبا دانيال، مطران الأقباط الأرثوذكس للخرطوم وأوغندا.

٤٧٢ ملاحظة المحقق: راجع سفر الخروج ١٢ في الكتاب المقدس.

٤٧٣ يذكر الأب فيلوثاوس فرج أن الملح هو رمز المؤمن، فيسوع قال: "أنتم ملح الأرض" (متى ٥: ١٢). وفي العهد القديم كان الملح رمز العهد [illegible] مع الله: "وكل قربان من تقادمك بالملح تُملّحه، ولا تُخل تقدمتك من ملح عهد إلهك" (لاويين ٢: ١٣).

٤٧٤ حصل المؤلف هذه المعلومات من خطاب شخصي من العالم المذكور.

٤٧٥ ملاحظة المحقق: تأتي الكلمة (Angelesri) من الكلمة اليونانية (Angelos)، ومعنها مَلَك أو ملاك.

[476] Cf. J. GWIN GRIFFITH, The use of plates and saucers to decorate houses in Lower Nubia, SNR, XXI, 1938, I, p.

الطقوس في جبال النوبة ودارفور

عندما يتم ذبح الماعز لأي احتفال ديني، فإن دماء الحيوانات المذبوحة تلطخ على مدخل الأكواخ[٤٧٧]. وفي بعض المناطق في جبال النوبة في حالة المرض الخطير الذي يسبب الألم، يقوم أهل الشخص المريض برسم علامة الصليب على صدره بروث البقر. وكذلك لو أخذت الأم طفلها إلى مكان لم تذهب إليه من قبل، فإنها تقوم برسم علامة الصليب على جبينها، ومن ثم على جبين الطفل.

والأب جينارو مارتيني (Gennaro Martini)، مبشر كاثوليكي في الدلنج في عام ١٨٧٣م، كتب أن النوبة الذين قام بسؤالهم عن أصلهم، قالوا إن أسلافهم قد أتوا من النيل قبل أن يصل العرب إلى السودان[٤٧٨].

ما يثير الدهشة هنا هو أن عرفا مماثلا لوحظ استخدامه في "عين فرح" ٣٠ ميلا غرب كتم في شمال دارفور. في يوم ما في عام ١٩٢٨م، ذهب السيد دوبوي (Dupuis) هناك برفقة الملك حسن كنحوك، زعيم التنجر، القبيلة المحلية. ومعهم ابن الملك، وهو صبي صغير، وخادم اسمه إبراهيم. وصل إبراهيم والصبي إلى العين أولا. فلما وصل السيد دوبوي، رأى إبراهيمَ يمارس طقوسا غريبة. وتساءل دوبوي عما تعنيه. وقال له إبراهيم إن هذه الطقوس واجب أي شخص يحضر إلى عين فرح للمرة الأولى. وطلب منه الزائر تكرار ما قام به ليتمكن من رؤيتها بوضوح. واقتلع إبراهيم عددا قليلا من النباتات من مياه العين، وبها قام بلمس جبهة الصبي، ورقبته، وكتفه، وباطن قدميه. وكان الغرض من هذا طرد الأرواح الشريرة. وسأل السيد دوبوي إبراهيم ماذا سيفعل إذا كان الولد لا يرتدي القميص. وقال إنه سيقوم بلمس صدر الصبي ورسم إشارة الصليب عليه. وسمى هذه العملية "ببرشام" في لغته الخاصة. وفي رأي السيد دوبوي، هذه الطقوس تعود إلى تقاليد مسيحية تجمع ذكر معمودية والإكرام لجراحات المسيح[٤٧٩].

في أنقاض مبنى قديم في "عين فرح"، تم العثور على شظيتين من الفخار، واحدة مزينة بسمكة والأخرى بحمامة وصليب متغلب عليها. في البداية اعتقد آركل (Arkell) أن هذه الآثار تعود إلى عهد الأسرة الإسلامية التي حكمت دارفور بعد ١٥٠٠م، ولكن في وقت لاحق اكتشف أنها بقايا الوجود المسيحي، وربما من واحد

217-220.

[477] Cf. SNR, 7, 1924, p. 125.

[478] Cf. SNR, 42, 1961, p. 122.
ملاحظة المحقق: والقديس دانيال كمبوني يذكر الشهادة نفسها من قبل قائد قبيلة اسمه "كاكوم" الذي دعى المرسلين للحضور بينهم في جبال النوبة. ويتحدث عن مشابهة لغة النوبة بلغة سكان جبال النوبة.
(cf. Report to the Committee of the Marienverein, 15.10.1875, Comboni Writings 3976.)

[479] Cf. SNR, XII, 1929, p. 112-113.

مسافر[480].

طقوس الزواج في التنجر

وهناك احتفالات أخرى عند أهالي قبيلة التنجر في شمال دارفور بمناسبة الزفاف وموسم الأمطار. يتوجه العروسان مع زعيم القرية إلى الصخرة المقدسة وهي عبارة عن صخرة تظهر على رأس تل. وهناك يذبحون ضحية ويرسم الزعيم بدم الضحية إشارة صليب واضحة على الصخرة ثم على جبهة العروسين – ومن الممكن أن يستعمل قليلا من الدهن بدل الدم. ثم يقود الزوجين إلى نبع ماء ("عين سيرا") في بستان للنخيل. ويأخذ الزعيم قليلا من الطين ويمسح جبهة العروسين وكتفيهما من الأمام ومن الخلف وصرتهما وركبتيهما وأخيرا يربط برزمة من الأعشاب عنقيهما ومعصميهما وقدميهما وهكذا يتم الاحتفال.

ونستطيع القول أن هذه الرتبة ترتبط بطقس الإكليل في حفلة الزواج عند المسيحيين الشرقيين نظرا إلى أننا لا نجد مثيلا لها عند القبائل الأخرى. ويتكرر هذا الحفل عندما يرزق الزوجين بطفلهما الأول. غير أن المسحات المختلفة لا ترسم على الوليد بل على الوالدة. وفي اليوم السابع من الولادة يكحل الطفل ويرسم على جبهته علامة الصليب بالكحل أيضا وهذه العادة ما زالت تمارس في مناطق أخرى من السودان.

ويعلق ماكمايكل (MacMichael) عن هذه الاحتفالات والأخرى المماثلة التي يقوم بها التنجر بالآتي:

"ويعتقد أن التنجر جلبوا معهم من النوبة المسيحية طقوسا تذكارية معينة، ولا سيما رسم الصليب، ورغم أن الفور لم يتنصروا، ولكن تم استخدام حجرهم المقدس من قبل القادمين الجدد[481]".

جبل ميدوب

أما الأهالي في جبال ميدوب فإنهم يذهبون إلى الصخرة المقدسة لتنصيب ملكهم الجديد ويذبح كاهنهم ("وارنديلو") ضحية ويرسم بدمها إشارة صليب على جبهة الملك وعلى الصخرة، ثم يقوم الملك الجديد بنفس الحركة على جبينه وعلى الصخرة.

وإذا حان موسم الأمطار يصعد الملك إلى تل مع وفد من الأهالي ويذبحون عنزة في قريتهم الكبرى التي تدعى "تورتي". وبعد تنظيف القربة يملؤونها بماء يستقونها من عين اسمها "أنيورو" لا من عين أخرى. ثم يحملون القربة إلى الملك. ويأخذ الملك قليلا من الماء في كوب ويحمله بموكب مهيب إلى كوخ (قطية) تحفظ فيها "النقارة المقدسة"

---

480 A.J. ARKELL, A Christian Church and Monastery at Ain Farah, Darfur, KUSH VII, 1979, p. 115-119.
ونجد في هذه المقالة صورا للشظيتين من الفخار.
ملاحظة المحقق: تذكر أن المسيحيين الأولين استخدموا السمكة كرمز لتحقيقهم لأن حروف الكلمة باليونانية تعني "يسوع المسيح ابن الله"، والحمامة كرمز للروح القدس.

481 SNR, 3, 1(1922), p. 31-31.

ويكرر في طريقه هذا الدعاء: "ليمنحنا الله المطر، يا رب جد علينا بأمطار غزيرة" ويرش بالماء. وعندما يصل إلى الكوخ يدور حوله ويرشه بالماء ثم يفتح الكوخ ويخرج "النقارة" ويضعها على فروة ويرشها بالماء ثم يعيدها إلى مكانها. في تلك الليلة ينام الملك وأتباعه بجوار الكوخ ويرش الملك جميع الحاضرين بالماء ووجوههم نحو المشرق. وإذا بقي شيء من الماء يوزع على من في بيوتهم مرضى أو يمسحونهم بالماء على وجههم – ثم يعود الموكب من التل إلى القرية ويعتقد الأهالي أن هذه الرتبة ستأتي بالأمطار لا محالة[482].

وذكرنا سابقا ما كتب سليم الأسواني عن "الأحديين"، وبعض من الذين التقى بهم في دنقلا. قالوا له إن بلادهم تبعد ثلاثة أشهر من دنقلا. ووصفوا له شعائرهم واقتناعهم أن صلاتهم على قمة الجبل تساعد على هطول المطر. وهنا نجد أن سكان جبل ميدوب يمارسون شعائر مماثلة حتى يومنا هذا. كما أن بلادهم تقع على بعد ثلاثة شهور من النيل، ويزعمون أن أسلافهم حضروا إلى وطنهم الحالي من دنقلا، الأرجح أن الأحاديين الذين ذكرهم الأسواني هم أنفسهم الميدوب، أو أهالي قبيلة مجاورة.

وهناك قبيلتا "برتي" و"برقد" بدارفور فإن لديهما نفس الطقوس التي لدى الميدوب ويعتقد أهاليهما أن موطنهم الأصلي كان في وادي النيل بضواحي دنقلة ويثبت هذا القول الشبه بين لغتيهما واللغات النوبية بوادي النيل.

وجد بعض الطوب الأحمر في سلم "قلعة دورشيد" بعين فرح وكان قياسه ٣٤×٥٧ سنتيمتر (الارتفاع ليس من قبل ماكمايكل). وتم العثور على طوب آخر من نفس الحجم في المسجد وأكبر بيوت عين فرح، وفي الأنقاض القديمة بجبل فوجا (Foga، أو جبل زانكور،Zankor)، بالإضافة إلى اثني عشر عمودا وكمية من الفخار. ومن الجدير بالذكر أن السكان المحليين يطلقون على فوجا اسم "جبل الكنيسة". يثبت هذا أن النوبيين كانوا يصنعون الطوب الأحمر بهذا الحجم ويستخدمونه في العصور القديمة[483].

على طول النيل الأزرق

نجد على ضفاف النيل الأزرق قبيلة تسمى "همج" بضواحي الروصيرص وهم أحفاد الهمج المسيحيين الذين سبق أن سكنوا مدينة سوبا في العصور السالفة. ونجد في منطقتهم بعض القرى المدعوة "سوبا" وقد يكون هذا تخليدا لمدينة أجدادهم. ومن أقدس أيمانهم:

"أحلف بسوبا / دار الجد والجبوبة
اللي يطفح الحجر / ويغطس الكركعوبة[484]".

ولديهم صيغة أخرى للحلف وهي أن يقف الحالف على كوم من النفايات المحروقة – وقد يكون هذا تذكارا

---

482 Cf. H. ALFRED MACMICHAEL, A season Festival at Jebel Meidob, SNR, II, 1919, p. 91-f.
483 Cf. SNR 3, 1(1920), p. 24-32.
484 S. HILLELSON, SNR XIII, 1930, p. 256.

مدينة سوبا المدمرة – ويقدم له قليل من مسحوق الملح والرماد والدقيق من الذرة ويذوقها ثم يلتقط من الأرض قطعة صغيرة من الخشب ويكسرها فوق رأسه ثم يؤدي القسم. ولا نستطيع أن نجد تفسيرا لهذه الطقوس إلا إكرام الأهالي لمدينة سوبا العظمى.

في جبل قولي، في منتصف الطريق بين الروصيرص والرنك، والمناطق المجاورة الأخرى، عبادة "حبوبة سوبا" ما زالت هذه العادة مستمرة. وهي تقوم على الاعتقاد بأن روح امرأة عجوز(؟)، حبوبة سوبا، تعيش بالقرب من صخور معينة في محيط القرية. ويقدّم الناس القرابين لحبوبة سوبا في مناسبات معينة (الزواج والولادة) بحسب طقوس تقليدية محددة[485]. يصعب على المرء أن يفسر لماذا وكيف تم الحفاظ على اسم سوبا وتبجيله في المناطق البعيدة بخمسمائة كم إلى الجنوب من مدينة سوبا القديمة. ويبدو أن المعتقدات الخرافية شوهت المعرفة غير الواضحة التي يعيها أسلافهم حول عاصمة الملك الذي وصلت بعثاته إلى المناطق النائية من النيل الأزرق.

واعتاد أهل الهمج أن يرسموا بفحم الحطب إشارة الصليب على جبين المولود الجديد. وإذا مرض أحد الفتيان أو أصابه الإعياء يؤخذ قليل من التراب ويرسم على صدره علامة الصليب.

وفي المناطق التي تسكنها قبائل "الأنقسنة" وغيرها نجد أيضا بعض القرى المدعوة "سوبا".

في الصحارى

في عام ١٨٢٨م اكتشف ويلكنسون (Wilkinson) بقايا كنيسة في مكان يسمى وادي أبو درج في أقصى الجزء الشمالي من بلاد البجا.

وهناك آثار أخرى في موضع خور نوبت، غرب بورتسودان، قد تعود إلى عصر النوبة المسيحية والدليل على ذلك وجود الطوب الأحمر في مكان صحراوي. والجدير بالذكر أن الطوب الأحمر ميزة الإنشاء المعماري النوبي المسيحي. ولكن لم يتم فحص هذه الآثار علميا[486].

وإن صح هذا القول فإنه يطابق تماما ما ورد في كتاب "حدود العالم" عن وجود بعض الأديرة في الصحراء النوبية غرب النيل. وفيما يتعلق بهذا الموقع جدير بالذكر أن الإدريسي وغيره من الكتاب العرب قالوا أن هنالك شعب اسمه البليون، وقيل إنه فرع من البجا، وأنهم كانوا مسيحيين. وهنالك تقاليد بجاوية لا تزال منتشرة تقول أن هذه الأنقاض تعود إلى سلالة ملوك "الرومي". فقد كانوا يملكون خور توبت، ولكن لقوا حتفهم أو اختفوا في المعارك.

---

[485] حصل المؤلف هذه المعلومات من محاضرة من قبل ديلميت (M. Christian Delmet) بمتحف المقتنيات التراثية، الخرطوم، ٢٩ أكتوبر ١٩٨٠.

[486] Cf. SANDARS&OWEN, Note on Ancient Villages in Khor Nubt and Khor Omek, SNR, XXXII, 1951, p. 326-331; B. RACHEWILTZ, Missione archeologico-etnologica tra i Bega (31 marzo-19 giugno 1967), AFRICA, XXIII, 1, marzo 1968, p. 3-18.

وتم العثور على نقوش باليونانية أو القبطية في واحة سليمة، على درب الأربعين. وشوهت في وقت لاحق بإضافة نقوش أخرى باللغة العربية. ووُجد أيضا اثنين من النقوش اليونانية أو القبطية في جبل عودون في صحراء بيوضة على بعد حوالي ٥٠ ميلا جنوب غرب كورتي. وقد تم فك شفرة واحدة منها: "القديس ميناس" (Agios Menas)[٤٨٧].

إن الاكتشافات المذكورة تقع في عدة مناطق صحراوية يصعب على الإنسان المعاصر أن يعيش فيها. ويدفعنا هذا الأمر إلى إيجاد فروض جديدة حول تاريخ السودان وجغرافيته في الماضي ويشجعنا على متابعة الدراسة للظروف التاريخية والجغرافية والمناخية والاقتصادية لهذا البلد، والتي لا نعلم عنها حتى الآن إلا الشيء اليسير. لا نستطيع أن نستنتج أن سكنات المسيحيين موجودة في كل مكان حيث تم العثور على بقايا نقوش مسيحية أو أطلال أخرى في الصحارى. ومهما كان عدد المسيحيين واعتقادهم، فإنهم كانوا يسكنون مناطق أوسع بكثير مما نعتقد. وتاريخهم جزء من تاريخ هذا الوطن الكبير وهو يستحق البحث والدراسة.

---

[487] Cf. SNR, IV, 1920, p. 293.

الفصل الثاني والعشرون[488]

أحدث الاكتشافات في دنقلة العجوز

يبدو أن الاسم "دنقلة" ذو أصل نوبي ويدل على أن المدينة قد بُنِيَت على تل. ورد هذا الاسم لأول مرة في كتاب سيرة ذاتية للشماس "يوحنا القبطي" سنة ٧٧٠م حول سيرة البطريرك "ميخائيل". أما المؤرخ "يوحنا الأفسسي" سنة ٥٨٠م وهو أول من كتب عن الممالك النوبية المسيحية فقد ذكر أسماء الممالك باللغة السريانية – "نابادس وماكوريا وألودُس" أي نوباضيا والمقرة وعلوة – دون أن يذكر عواصمها. وكانت دنقلة العجوز – عاصمة مملكة المقرة – تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وهي مبنية على رأس تل مُرتفع على سهل رملي يتميز بتلال صغيرة معروفة للسكان المحليين باسم "كوم".

أهل دنقلة "أصلح من كثير ممن سواهم من السودان"

وكان المؤرخ "عبد الله سليم الأسواني" – الذي زار المدينة سنة ٩٧٠م – أول من ترك وصفًا كافيًا من النواحي الجغرافية والسياسية والاجتماعية عن دنقلة وسائر بلاد النوبة[489]، وكتب مؤرخ آخر اسمه "أبو المكارم" في حوالي سنة ١٢٠٠م عن دنقلة وقال إن "بها كنائس كثيرة وآدكيار [أي أديار] وشوارع متسعة ودار الملك شاهقة البناء بقباب عديدة مبنية بالطوب الأحمر وهى مثل أبنية العراق[490]". هذا، ومن الجدير بالذكر أن الاكتشافات الحديثة قد أثبتت هذه الأقوال، والانطباعات القديمة.

ولكن بعد انهيار العرش المسيحي في المقرة وهجرة السكان على مر العقود في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تدهورت حالة المدينة، فذكر "ابن فضل الله العمري" (حوالي سنة ١٣٤٢م) أن مستوى معيشة السكان مُنْحطّ ويدفعون "جملا [أي جعلا] مقررًا لصاحب مصر. وهذه الأتاوة، لا ذهب فيها ولا فضة، بل هي عدد من العبيد والإماء والحراب والوحش النوبية". غير أنه يضيف قائلاً: "هم أصلح من كثير ممن سواهم من السودان[491]".

[488] ملاحظة المحقق: سيجد القارئ في الفصول التالية المعلومات الأخيرة التي كتبها الأب فانتيني قبل موته وبعد إصدار " Rediscovering Christian Nubia" في عام ٢٠٠٩، بالإضافة إلى ترجمة الفصل الأخير (Addenda) للكتاب المذكور والذي يقدم سردا قصيرا جدا ومبسطا حول الاكتشافات الحديثة في كثير من المواقع في النوبة السودانية لم تكن معروفة سابقا.

[489] راجع: ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص ٩١-١١٤.

[490] مخطوط تاريخ أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن "١٢" بالوجه القبلى، Fol 92a.

[491] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في مسعد، ص٢٤٣؛ الجزء الثاني، رقم ٥٥٩ معارف عامة، بدار الكتب المصرية، ص ٤٩٢.

مثلا، وقد ورد في كتاب "السلوك" للمقريزي أنه في سنة ١٣٦٦م كانت مدينة دنقلة كثيرة الخرائب "ووقع الإتفاق، على أن يكون كرسي ملك النوبة بقلعة الدو [أي جبل أدة اليوم] [...] ولأنه يخاف من عرب بني جعد"[492] على دنقلة انتقامًا من مقتل كثيرين منهم نتيجة حيلة دبرها ملك دنقلة (الكنزي).

وفي أواخر القرن السابع عشر مر على دنقلة الطبيبُ الفرنسي "شارل بونسي" مع وفد من الرهبان، وكتب أن مباني مدينة دنقلة ذات أساليب معمارية رديئة والشوارع نصف مطروحة بسبب السيول المنحدرة من الجبل، وقد لاحظ الأسوار التي تُحصّن المدينة، وقال إنها تمنع العرب الرُّحّل في الصحراء ورعاياهم من دخول المدينة، وهكذا تدهورت حالة عاصمة المملكة القديمة المشهورة حتى لم يعد هناك إنسان يعيش فيها في بداية القرن التاسع عشر – كما قال الرحالة البريطاني "سكنس" الذي مر عليها في سنة ١٨٢٢م.

الحملة لاكتشاف التحف الأثرية ولإنقاذها

كما ذكرنا في الفصل الثالث عشر، في سنة ١٩٦٤م وفدت إلى دنقلة العجوز بعثة علماء الآثار من وارسو (فرسافيا) البولندية تحت قيادة البروفسور "ميخالوفسكي" (Michalowski)، بعد أن حفروا الآثار القديمة في فرص، ضمن الحملة الدولية لإنقاذ الآثار المحتمل غرقها في مياه النيل من جراء إقامة السد العالي بالنوبة المصرية، وكان ذلك بدعوة وتصديق من مصلحة الآثار السودانية.

فلما بدأ الخبراء البولنديون وجماعة عمالهم التنقيب حول بعض الحجارة الظاهرة على الرمال عمقوا الحفر فظهر عامود قائم ثم ثانٍ وثالث وكان دليلاً أكيدًا على وجود بقايا خرب بالكنيسة ولما تم التنفيذ في المكان شاهدوا ستة عشر عامودًا قائمًا مُنَظّمًا في أربعة صفوف فسموها "كنيسة أعمدة الجرانيت" وكان ذلك الاكتشاف مشجعًا جدًا ومحفّزًا لبداية حفريات أخرى كلها مثيرة من ناحية التحف العجيبة التي لم يعرف أحد شيئًا عنها. وواصل العمل في التنقيب والإصلاح ولا يزال البحث التاريخي والفني في المكتشفات منذ سنة ١٩٦٤م إلى اليوم يأتي بمفاجآت جديدة.

دنقلة مدينة مُحصنة

ومن أهم المفاجآت اكتشاف أسوار ضخمة تحيط بالمدينة من كل جانب كالقلعة فلم يتوقع أحد وجودها مما جعل الخبراء يتساءلون عن الزمن والسبب لتحصين مدينة دنقلة. فرأى الخبير الدكتور قودلفسكي (Wlodzimierz Godlewski) أن الغرض من تحصين المدينة شمالاً وشرقًا وجنوبًا، هو الدفاع عنها من الغزاة القادمين من الصحراء

[492] المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، في مسعد، ص ٣٥٠.

شرق النيل وكثيرًا ما كان التهديد من قبائل البجا.

أما زمن بناء الأسوار فمن المحتمل أنه يعود إلى أواخر القرن الرابع لما انهارت قدرة المملكة المروية التي سبق أن سيطرت على القبائل المتنوعة الساكنة في وادي النيل. ويثبت من لوحة حجرية أثيوبية أن ملوك أكسوم قد غزوا أرض البطانة عدة مرات وفي منتصف القرن الرابع الميلادي نزل الملك "عيزانا" من أكسوم وغزا الكثير من قبائل السودان شرق النيل حتى فم نهر عطبرا، ثم توجه شمالاً وحارب النوبة الحُمْر، ثم جنوبًا ضد النوبة السود.

ويتفق خبراء الآثار والتاريخ على أن سقوط مدينة مروي كان حوالي سنة ٣٥٠م ونتيجة الغزوات من أعالي أثيوبيا. لذلك بدأ النوبيون القاطنون في جهات دنقلة يتولون الحكم في المنطقة دفاعًا عن أراضي الوادي الذي كانوا قد سكنوا فيه منذ بدء المملكة المروية وإقامة مملكة خاصّة بهم سُمّيت ماكوريا لدى المؤرخين اليونانيين – أو المقُرّة لدى العرب. كما نشأت ممالك أخرى في الوادي بين الشلال الأول والثاني صارت معروفة باسم مقابر ملوكهم الموجودة في "بلانة" و"قسطل" ومن بين مراكزها الكبرى في تلك المنطقة – المعروفة اليوم بالنوبة السفلى – كان "قصر إبريم" و"باخورس" (اليوم يُدْعَى فرص) الواقع على الحدود الحديثة بين جمهورية مصر العربية وجمهورية السودان.

أما دخول المسيحية إلى الممالك النوبية – وفي مملكة المقرة وفي دنقلة على وجه خاص فقد اتضح من المكتشفات الحديثة أن بعض الرهبان أو القساوسة من الأقباط قد سبقوا النشاط التبشيري البيزنطي الذي وصل إلى مملكة "نوباديا" سنة ٥٤٣م وفي مملكة "علوة" سنة ٥٨٠م كما ورد في تاريخ الكنيسة للمؤرخ "يوحنا الأفسسي" الذي عظَّم نشاط المبشرين الأقباط وتجاهل ما حدث في المملكة الوسطى وهي "المقرة[٤٩٣]". والحفريات التي أجريت في دنقلة أعادت إلى النور بقايا أثرية لكنيسة تُدْعَى "الكنيسة القديمة" ويعود زمان بنائها إلى أوائل القرن السادس قبل قدوم الوفود البيزنطية.

هذا، ولكنه يبدو من قدم المكتوبات في دنقلة أن الثقافة اليونانية قد لعبت دورًا مهمًا في دنقلة كما أن تخطيط أكبر الكنائس في العاصمة – التي شيدت في أوائل القرن السابع – يتبع الأسلوب المعماري البيزنطي فيُرَجِّح الخبراء أن ذلك يعود إلى حضور بعض المهندسين اليونانيين إلى دنقلة بسبب العلاقات السياسية والاقتصادية بين الممالك النوبية والإمبراطورية البيزنطية. وقد ذكر أحد المؤرخين وصول مبعوثين من مملكة المقرة إلى القسطنطينية سنة ٥٧٣م طلبوا من الإمبراطور يوستينوس إرسال بعض المبشرين إلى مملكتهم. وفيما يختص بأغراض تلك البعثة، رأى الدكتور قودلفسكي أن المبعوث من المقرة طلب إلى الإمبراطور (يوستينوس) أن يتوسط لدى البطريرك الإسكندري اليوناني كي يعين أسقفًا مقيمًا في دُنْقُلة بدرجة متروبوليت- أي رئيس الأساقفة لكيلا يذهب قسس المقرة إلى الإسكندرية لينالوا الرسامة الأسقفية من البطريرك القبطي الأرثوذكسي.

٤٩٣ انظر الفصل الثالث لهذا الكتاب.

وفي أواخر نفس القرن السادس حسب ما رأى الدكتور قودلفسكي كانت مملكة المقرة قوية بين الممالك النوبية وكانت تتبادل علاقات طيبة مع الإمبراطورية البيزنطية.

"كوم ها" حصيلة آثار مفاجئة ودير الثالوث الأقدس

هذا، وفي سنة ١٩٨٩م – بعد أن واصلت البعثة البولندية المذكورة نشاطها للبحث عن آثار قيمة لكنها في الغالب حجرية وأسوار كنائس سبق أن تم تدميرها في القرن الرابع عشر – حفر العمال تلاً رمليًا أسماه العلماء "كوم ها". واكتشفوا بمجموعة من عمارات كبيرة كثيرة الغرف والخلايا فأدركوا في الحال أنها دير رهبان لم تزل أسوارها قائمة ومصورة بأكثر من مائة صورة ومئات من الكتابات فأصبح ذلك الاكتشاف حصيلة جديدة من آثار نادرة وموضوع دراسات جديدة عن فن التصوير النوبي في العصر المسيحي المتأخر. ولذلك أهمية خاصة لأنه لا سابق لها في مدينة دنقلة. ومجموعة العمارات تحتوي على كنيسة خاصة بمباني دير الرهبان ومبانٍ أخرى منفصلة للحجاج وبعض المباني الإضافية المتصلة بكنيسة الدير.

وإليكم فيما يلي بعض المعلومات نشرها الدكتور ياكوبيلسكي (S.Jakobielski)، مدير بعثة حفريات في دنقلة[٤٩٤]. كنيسة الدير طولها ٣١ مترًا في ١٣ مترًا عرضًا وهي أحد أقدم نماذج التخطيط المعماري النوبي في بناء الكنائس الذي يتكون من ثلاث أروقة. والرواق الشرقي ينقسم إلى ثلاث وحدات: واحد في الوسط بشكل هلالي فوقه قبة – وهو مثل المحراب في المسجد[٤٩٥]–، مع ممر ضيق وراءه وذلك لربط غرفتين يتوسطهما المحراب؛ والجزء الغربي فهو ثلاثي أيضا، فيتكون من درج في الركن الجنوبي الغربي، ومدخلين جانبين يؤديان إلى الممرات، الجنوبي للرجال، والشمالي للنساء؛ وصحن الكنيسة مقسم إلى ممرات بواسطة صفوف من أعمدة الجرانيت، وهذه استبدلت في وقت لاحق، في الجزء الأوسط من صحن الكنيسة، بدعامات حجرية ضخمة. وكان الجزء الأوسط لسقف قبة، والبقية منه تستند على أعمدة. والرصيف الأصلي مصنوع من ألواح الطين. وعندما تمت إعادة بناء في القرن الثامن وكانت مغطاة بالبلاط الجديد الذي حفظ الأول سليما. وفي وقت ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تم بناء غرف منفصلة جديدة داخل الكنيسة، وطلاء جدرانها وتم تزيينها بالرسوم واللوحات. وشظايا من الجص تبين مكونات لوحة لميلاد المسيح والمجوس.

وبنيت الكنيسة الأصلية في القرن السابع، حسبما يستنتج من لوحة جنائزية تم تثبيتها في الرصيف العلوي، مكتوب عليها بالقبطية، ويذكر بها اسم الأسقف يوسف، الذي توفي في عام 668م. والنقش مثير للاهتمام بصورة

494 Cf. S. Jakobielski, Old Dongola, 1991-1992, PAM IV,Warsaw 1993, p. 98-110; S.Jakobielski, The North-West Church at Old Dongola, Coptic Studies, ed.W.Godlewski, Warsaw 1990, p. 165-174.

٤٩٥ ملاحظة المحقق: المحراب موجود [illegible] القبطية منذ أيام القديمة ويسمى حضن الأب، وقد قام الفنان القبطي بإدخال المحراب إلى الجوامع في أيام الخليفة الأموي الول[illegible] (٧٠٥-٧١٥م).

خاصة لأنه يلمح إلى أن يوسف لم يكن أسقف دنقلا، ولكن أحد الذين جاءوا من الخارج (أسوان)، ومن الأرجح أنه كان مؤسس الدير، وتوفي هناك. وفيما يلي النص:

"إنك الآن (مقيم) مع (الله) الذي في الدير السماوي حيث تنير الشمس هذا البلد الذي أتيت إليه وفيه مت. صَلِّ من أجل حظيرتك التي احترمتها ومن أجل البلاد التي توفيت فيها ولاسيما هذا المكان الذي فيه رفاتك".

وهذه اللوحة هي دليل على الوجود القبطي المبكر وتأثيره في دنقلا، وذلك بعد وقت قصير من الغارات العربية بعد إبرام اتفاقية البقط، وفي عهد الملك ميركوريوس، "قسطنطين الجديد" (حوالي ٦٩٠م).

ومبنى دير الرهبان الذي يتكون من ثماني عَشْرَة غرفة على طابقين لم يتم البحث فيه بعد (أي حتى سنة ٢٠٠٦). ويعود تأسيسه إلى فجر العصر المسيحي في دنقلة (قبل القرن السابع) لكنه أعيد إصلاحه وتوسيعه عدة مرات حسبما يبدو من الصور والكتابات العائد تواريخها إلى ما بين سنة ١٠٠٠ و١٢٠٠م. وكان ذلك هو العصر الذهبي للثقافة والفنون النوبية. فاستمر الدير مسكونًا وفاعلاً حتى الأعوام النهائية لمملكة دنقلة المسيحية في عصر الملك شمامون (١٢٨٨ – ١٣٠٥م) الذي واجه غزوات متتالية من المماليك الذين دمروا كثيرًا من المباني في العاصمة.

هذا، والمباني الأخرى الموجودة قرب الدير في الجهة الشمالية الغربية مكونة من أربعين غرفة وأسوارها من طوب أحمر مكلسة وبحالة جيدة ثم فيها أعجب ما تم اكتشافه في دنقلة في الأعوام الحديثة. إذ أُتيَ بأكبر حصيلة من الصور غير المتوقع وجودها وبما أن صورة الثالوث الأقدس تكثر عن غيرها فقد أطلق المكتشفون على هذا الدير اسم "دير الثالوث الأقدس"، ولكن الاسم الأصلي يبدو أنه دير أنطونيوس الكبير، تيمنا باسم القديس المصري الشهير. ومحتمل أن يكون ابتداء بناء هذا الدير في عصر الملك "جرجة الثاني" في القرن العاشر الميلادي. ثم أضيف إليه مبانٍ وخلايا متعددة على مر الزمان ولاسيما في زمن المطران (جورجيوس) رئيس الأساقفة والذي سبق أن كان رئيس الدير نفسه. توفي هذا المطران سنة ١١١٣م ودفن في مقبرة تحت أرضية الدير وجدرانها المقوّسة مكلسة تكليسًا جيدًا عليها كتابات تذكارية مختلفة باللغات القبطية واليونانية والنوبية القديمة. وكثيرًا ما نجد الصور في دير الثالوث الأقدس مثل الصور في كاتدرائية "فرص" وعموم الكنائس بالنوبة – فهي صور السيد المسيح والعذراء والرسل والملائكة والملوك وبعض الأساقفة.

إضافة إلى "دير الثالوث الأقدس" –كما يُسَمُّونه – والذي تمَّ اكتشافه على "كوم ها" سنة ١٩٨٩ يُقالُ إنَّه كان في مكان الكوم المشار إليه بالحرف "د"[496] ديرًا آخر وهذا أقدم من الأوَّل، مما يستنتج منه أن عددًا من الرُهبان من مِصْرَ قد سبقوا البعثة من القُسطَنطينية التي تَسَلْسَلَتْ فَعَملتَ في التبشير بين الأهالي. إنَّ هذا الاكتشاف يُقَوِّي الافتراض الذي أَتَى بِه المؤرِّخ يوحنا البِيكْلاري الذي قال إن أهل المقرة قبلوا المسيحية في نفس

[496] ملاحظة المحقق: وصف المؤلف "الكنيسة على كوم د" في الفصل الثالث عشر.

السنة التي اهتدى إليها أهل الغرامنتيين (GARAMANTES) وهُم سُكّان الصحراء الواقعة غَرْبَ المقرّة وغرب وادي النيل. هذا ومن الناحية التاريخية يبدو أن الدير في كوم "د" أقدم من الدير في كوم (H) (هـ) وقد أُصيب بأضرارٍ كبيرة بسبب الفَيضَانات في الوادي.

أمّا الدير في "كوم هـ" فقد تحصَّن بعد الغزوات لكنّ الحصون لم تكن قوية على نحوٍ كافٍ لِمُواجهة هجمات المماليك أولاً في القرن الثالث عشر ثم الهجمات المتكرّرة من البجا فيما بعد. هذا، ويضيف ليون الأفريقي (أو الحسن بن محمد الوزّان الفاسي) الذي زار البلاد قائلاً إن ملك النُّوبة مُشْتَبك في حروب مع دارفور وكردفان والبجا والبشارين وهُم كانوا يأخذون ضريبة من ملك النوبة[497].

فامتدَّ مبنى الدير بمبنى إضافي ليكون ملجأ للفقراء والمرضى وغيرهم من المحتاجين القادمين من بعيد طالبين المعافاة أو أنواعًا من المساعدات الروحانية بشفاعة الرهبان المشهورين لقداسة حياتهم.

وفي مجمع المباني كانت "الوحدة الجنوبية" المنفصلة غرفة صغيرة، ملحق بها كنيسة صغيرة، على الأرجح لراهب واحد كان يعيش هناك ودفن في قبر تحتها. في وقت لاحق، أصبحت مكانا للحج حتى الفترة المسيحية الأخيرة (القرن الثالث عشر).

وكان المبنى الشمالي مجمعا للغرف، ولم يتم بعدُ فحصه بصورة كاملة من قبل علماء الآثار، وربما كان نزلا للحجاج حتى فترة المسيحية الأخيرة. أما الركن الشمالي الشرقي من الدير فكان يضم اثنين من غرف التخزين، وفرنين [لصناعة الخبز] وبعض الغرف الأخرى المستخدمة لأغراض غير معروفة.

لوحات دنقلا لا تقل عن لوحات فرص

وعلى عكس الكنائس في النبتة (فرص)، فإن الكنائس التي تم حفرها في موقع دنقلا العجوز تقريبا لم توجد بها أي لوحات، باستثناء القلة التي جمعت من الحطام. والسبب في ذلك هو تدمير الكنائس من قبل جيوش المماليك عندما دخلوا البلدة (١٢٧٦-١٣٢٥م)، كما ذكر المؤرخون من قبل. وفي مبنى مدني واحد فقط، ويعتقد أنه لشخص من علية القوم، وأظهر الجزء السفلى من الجدران شظايا لوحات، ولكن يمكن تبين ملامحها وتذوقها. ووجدت لوحات متفرقة أخرى فيما يسمى "مسجد دنقلا"، والذي كان في الواقع قصر ملكي.

مفاجأة مذهلة حدثت في أواخر التسعينات عندما كشفت الحفريات في تل "كوم ها" عن كنيسة دير قديم مع شظايا جداريات، وبعض النقوش والكتابات على الجدران، وكلها محفوظة بشكل جيد. حتى الآن (أي عام ٢٠٠٥م)، تم اكتشاف حوالي ١٢٠ لوحة بالإضافة لآلاف القطع الصغيرة من الجص الملون بين الحطام. ويمثل العديد منها الثالوث الأقدس. وقادت هذه اللوحات إلى جانب النقوش وغيرها علماء الآثار للنظر في دنقلا كمركز

[497] ترجم للعربية كتابه "وصف أفريقيا" في عام ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م على يد د.عبد الرحمن حميدة.

للثقافة والفن النوبي، وهي، بأي حال من الأحوال، لا تقل في الأهمية عن فرص.

وبصورة استثنائية، تم العثور على بعض من لوحات دنقلا في واحد من البيوت ويعود تاريخها إلى الفترة الابتدائية. وأثبتت التحليلات الدقيقة والدراسات بأن اللوحات الموجودة بالمنازل تنتمي إلى أفراد من الطبقة الغنية بالمدينة، ويعود تاريخها إلى حقبة مبكرة من الرسم النوبي (٧٥٠-٨٥٠م). في حين أن اللوحات المذكورة أعلاه التي تم العثور عليها في الدير، فضلا عن شظايا وجدت في كنيستين وتلك الموجودة في "المسجد"، كلها تنتمي إلى العصر المتأخر (١٠٥٠-١٣٠٠م). ولم تنج أي لوحة من اللوحات النوبية للفترة الكلاسيكية (٩٠٠-١١٥٠م) بالكنائس التي كانت تزين بالتأكيد وفقا للتقاليد النوبية المسيحية.

فهي ذات أهمية خاصة لأنها توثق للوحة النوبية في الفترات الأخيرة (١١٥٠-١٤٠٠م) وهي تتألف، أساسا، من الجداريات في مبنى إضافي للدير، وجزئيا فيما يسمى "مسجد دنقلا". وكل المواضيع تقريبا كانت مستقاة من العهد القديم والعهد الجديد كما الثالوث الأقدس، ميلاد المسيح، مريم العذراء والرسل؛ ونجد أيضا لوحات الملوك والأساقفة.

تفرد لوحات دنقلا

وحصيلة الصور بدنقلة تحوي بعض الصور الفريدة التي لا مثيل لها في أماكن نوبية أخرى وهي -على سبيل المثال- صورة تعميد المسيح في نهر الأردن، وصورة شفاء رجل أعمى في بركة سلوام[٤٩٨]، قصة النبي بلعام (عدد ٢٢: ٢١-٢٣)، القديس ميناس[٤٩٩] يرتدي الزي العسكري، وصورة ميخائيل الملاك الضخمة (ارتفاعه أربعة أمتار) وهو يسند الثالوث الأقدس. وإضافة إلى أسماء الملائكة المعروفة من صفحات الكتاب المقدس توجد في دنقلة أسماء ملائكة أخرى بسبب التقاليد المشبوهة – أوريال ويائيل وأناليال وزادكيال[٥٠٠].

ويتبع النمط الفني الدنقلوي تقليدَ فرص. ونجد ثلاث صور للمسيح مع وجوه متطابقة، وهو يمسك بكتاب باليد اليسرى، ويضع اليد اليمنى على كتف الشخص المحمى. وتظهر الصورة المحورية من أمام، وتميل الأخريان إلى الصورة المركزية قليلا. وفي صورة غير مسبوقة، يتوّج الثالوث الأقدس الملكَ، بينما واحد من الأقانيم الثلاثة يقوم بوضع التاج على رأس الملك، ويمسك الملك تاجا آخر بيده اليمنى. وهذا التفصيل يبدو أنه قد تم استعارته من التقليد البيزنطي في أن سلطة الإمبراطور تأتي مباشرة من الله. ويكتب يوحنا الشماس (٧٨٠م) أن الملك قرياقوس من دنقلا هو "ملك المقرة الحبشي الأرثوذكسي، وهو الملك العظيم الذي نزل عليه التاج من السماء[٥٠١]". ونجد

[٤٩٨] ملاحظة المحقق: انظر الفصل التاسع لإنجيل يوحنا.
[٤٩٩] ملاحظة الأب فيلوثاوس فرج: أي مار مينا.
[٥٠٠] ملاحظة الأب فيلوثاوس فرج: هذه أسماء مذكورة في كتاب السبحة القبطي.
[501] PO 5, p. 145. Cf. OS, p. 44-45.

الفكرة نفسها وفي قصة قرقي (جرجة الأول)، والذي توج في الكنيسة قبل مغادرته متوجها إلى بغداد للتفاوض حول السلام مع الخليفة.

وهناك صورة فريدة أخرى اسمها (Prothesis) تقدم صعود روح الإنسان إلى السماء عند وفاته على ظهر حصان بينما يحرس بعض الملائكة جثمانه راقدًا على سريره. وبالإضافة إلى جدارية عملاقة لرئيس الملائكة ميخائيل، على النحو المبين أعلاه، هناك لوحات أخرى في وقت متأخر، والتي تم العثور عليها في برج الكنيسة جنبا إلى جنب مع لوحة ضخمة لشخصية غير معروفة.

أما بالنسبة للأسلوب، على ما يبدو، "تثبت هذه الاكتشافات نظرية توحيد الاتجاهات الفنية في المملكة النوبية بأسرها والعلاقات الوثيقة بين النبتة والمقرة [...] وأيضا ارتباط الفن النوبي بالفن في مناطق أخرى من الثقافة المسيحية[٥٠٢]". وتظهر أيضا أن الفنانين النوبيين على الرغم من أنهم يستوحون النماذج البيزنطية والأناجيل غير القانونية (Apocrypha)، تمكنوا من تقديم مزيد من التفاصيل الخاصة بهم في لوحاتهم. على سبيل المثال: للرجل الأعمى ملامح إفريقية كاللون الداكن، والأنف الكبير والعينين الواسعتين؛ ولاثنين من الرعاة في صورة ميلاد المسيح لون داكن، ويرتديان ملابس مثل البدو النوبيين بدلا من جلود الأغنام، كما في الفن البيزنطي.

في صورة ميلاد المسيح بدنقلا – والتي تتابع عن كثب نماذج من فرص – هناك اثنان من التفاصيل الفريدة: يقف أشعياء على حافة اللوحة على الجانب الأيسر ويجري جنديان فوق المهد ويمسكان بالرماح. ويفترض أنهما يمثلان الجنود الذاهبين إلى بيت لحم لقتل الأطفال[٥٠٣]. وفي لوحة مريم العذراء وهي ترضع ابنها (Galaktotrophousa)، يقف هذا على ركبتها ويمسك بيده الثدي، في حين أن الأم تعمل على المغزل، وهذه مهنة شائعة جدا بين النساء النوبيات.

وفي الملحق الجنوبي الغربي من الدير صورتان جداريتان فريدتان. في الأولى نجد مريم العذراء مع الطفل ومجموعة من الراقصين بالقرب منهما، ربما يحتفلون بحفلة. وتصور لوحة أخرى أكثر تعقيدا اثنين من رجال الأعمال على ما يبدو أجانب، ويرتديان اللباس العربي ويجلسان على سرير سودانية تقليدية (أنقريب)، وغيرهم من الأشخاص بالقرب من الحيوانات. ونجد وراءهما شخصا يبدو أنه خادم أسود، وآخر يذبح خروفا.

وعلّقت الخبيرة التي درست هذه اللوحة (M.Martens-Czarneska) على أنها رسمت بواسطة نفس الشخص الذي قام بالرسم في الملحق الشمالي، ويعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر. ويمكن تتبع السمات المميزة لهذه اللوحة على أنها تحاكي الفن البيزنطي فضلا عن الفن الإسلامي. وتشفّ الجوانب الفولكلورية عن التأثير الثقافي الأفريقي القوي، "مما أدى إلى تطوير ثقافة نوبية أصلية".

[٥٠٣] انظر الكتاب المقدس (متى ٢: ١٦).

[502] M. Martens-Czarneska, Dongola Studien, 2001, p. 257.

وفك علماء الآثار معنى النقوشات – معظمها باليونانية ولكن أيضا بالنوبية القديمة –على جدران الدير والملحق. تغطي جدران السرداب، حيث دفن المطران جورجيوس (+1113)، بنصوص يونانية ونوبية قديمة، والتي يحتوي بعضها على صيغ سحرية. وفي نفس السرداب دفن خمسة أشخاص آخرين، على الأرجح الأساقفة، علماء جورجيوس المؤسس. وتم العثور على عشر أساقفة آخرين مدفونين في اثنين من السراديب الأخرى. واحد من النقوش يذكر "بيتروس أبرحص نوباديا" الذي توفي عام 798م.

ويحتوي نقش آخر على آيات من المزمور ٩٧(٩٦) باليونانية والنوبية القديمة متتاليا. ويوجد أيضا نقش قانون الإيمان باليونانية، لكنه لا يذكر بالضبط صيغة المجمع المسكوني بنيقية (٣٢٥م). وبلا شك، فإن الكثير من النقوش، ولا سيما المكتوبة باليونانية، تشهد على وجود نخبة مثقفة تعيش في دنقلا والمراكز الأخرى في أواخر العصر المسيحي، وبالنظر إلى أن المقرة كانت لها علاقات ثقافية مع بلدان البحر الأبيض المتوسط آنذاك.

ال"رفائيليون" في بنقانرتي

وكانت حَمْلَة الاكتشافات في مَدِينة دُنقُلَة العَجُوز وفي ضواحيها تتقدَّم منذ سنة ١٩٦٥ كلّ سنة لمدة بين ٣ – ٤ شهور فلَم تتحصَّلْ على اكتشافات مَقْبَرَة مَلكية. ورُبَّما كان عُلماء الآثار المنقِّبون يتساءلون: أين دُفِنَ ملوك هذه المملكة؟

وفي يوم من أيام سنة ٢٠٠٢ وبَعد إرصَادات مُتعدِّدة في المِنطَقَةِ عَلى بُعد ٩ كيلومترات جنوب العاصمة، لاحظ المنقبون بقايا أسوار ضخمة كَقَصْرٍ مُحصَّن في وَسَطِ الصحراء وبشَكْلٍ مُربعٍ طُول كُلِّ جانبٍ حوالي ١٠٠ متر وفي وَسَطِهِ تَلاً رَمْلِيًا – أي كوم في اللغة المحلية. والبعثةُ العِلميّة التي تولَّت العَمَل لحَفر الكوم اسمها "مركز ميخالوفسكي لدراسة الآثار في مَنَاطِق البَحر الأبيض المتوسِّط" التَابِعَة لجامِعة فارسافيا – ولا شك أنها تخليد للبروفسور ميخالوفسكي المتوفي الذي بَدَأ الأعمالَ لاكتشافِ كل الآثار من فَرص ودُنقُلَة العَجُوز. فَقَرَّر مُديرُ البعْثَة الدكتور زورفسكي (Zurawski) البُولَنْدِي حَفرَ ذَلِكَ الكوم وكان اسم المكان أبقانرتي – أي جزيرةُ الجَرَاد – لأنه كان آخر مجاري الضائقة من نَهْرِ النيل التي تفْصِلُ المِنطَقَة عن المجرى الرئيسي للنيل.

واكتشف الباحثون جدران كنيسة يصل طولها إلى ثلاثة أمتار لاحظوا بقايا منطقة مسورة (٨٠مx١٠٠م)، مع جدران سميكة ١-٣ م، والعديد من الأبراج المستديرة وبوابة دفاعية. وتملأ عدة مبانٍ من الطوب اللبن المسافةَ بين الكنيسة والأسوار الدفاعية.

وخارج الجانب الشرقي من المخفر، تم حفر مبنى وتعرفوا عليه على أنه كان نزلا للحجاج (xenodochion)، وذلك بحسب العديد من النقوش داخل الكنيسة. ويبدو أن تاريخ الجدران يعود للقرن الحادي عشر وربما كانت تستخدم لحماية الكنيسة.

وفي الواقع، تم اكتشاف كنيستين هناك: "الكنيسة العليا" قد شُيِّدَت فَوق السُّفْلى عندما أخذ سقفها يَنْهارُ وذلك في حوالي القَرنِ الحادي عشر حِمايةً للمُحتَويات التي في السُّفْلَى. وهذه ما زالت بشكل جيد حتى عمق 4 أمتار ويعود تاريخ بنائها إلى ما بين القرنين السادس والسابع. والكنيسة العليا أصغر من السفلى وبشكل مربّع تمامًا كل جانب منها طوله ٢٥ مترًا. والكنيستان مخصصتان لرفائيل رئيس الملائكة وزينت بالجداريات ذات الجودة العالية على الجدران الداخلية، وفي بعض الأماكن مع طبقة ثانية من الجص. أما الجدران بدون لوحات، فتغطي بأكثر من ٩٠٠ نقش.

الصور

وفي الكنيسة السفلى، تم العثور على لوحة رائعة ل"الهبوط إلى الليمبو"[٥٠٤]. أما في الكنيسة العليا التي سماها "رافائيليون"، فوجد الباحثون سبعين من الجداريات وأكثر من ٩٠٠ نقش مكتوب على الجدران بدون لوحات من قبل الحجاج، مما يثبت أن المكان كان مركزا للحج. وكان هذا الاكتشاف سببا في أن يصبح "بانقارتي" واحدا من المواقع الأثرية الأكثر أهمية في السودان.

وكان على طُولِ الجانب الشرقي للكنيسة العُليا سبعة مَعَابِد والجِدار الخَلفي في كل مَعبَد كان مُصَوَّرًا بصورة ملك ومبنيا على سرداب الكنيسة السفلى. وتم حفر أحد السراديب وعثر على اثنين من الهياكل العظمية لرجلين. على الأقل، واحد من الهيكلين كان للملك، الذي وجدت صورته في المصلى فوق السرداب مما يشير إلى أن "الرفائليون" كان ضريح مُلوك دُنقُلة وذويهم.

وفعلا في الأصل، الجِدار الخَلفي في كل مَعبَد كان مُصَوَّرًا بصورة ملك مُرْتَدٍ مَلابِسه الفاخرة مع كل رموز مَركَزِهِ وعلى رأسه التاج وفي يدِهِ اليُمنى الصولجان وفي يده اليُسرى تاج آخر وفقا لبعض التقاليد للأباطرة البيزنطيين إشارةً على أن تاجِهم مع سُلطتِهِم الملكية يأتيهم من الله مُباشرةً. وفي بنقانرتي تَظهَر صُورة الملك واقفا تحت حِمَاية الملاك رفائيل الواقف وراءه.

وفي واحدة من المعابد توجد كتابة ابتهالية مُوَجَّهَة للملك تقول له: "مِن شَبَكَةِ الشيطان خلِّصنا يا رفائيل". والملاك يضع يده اليُسرى على الكَتفِ الأَيسَر لكلِ ملِكٍ ويُسلم في يدِ المَلكِ اليمنَى شيئًا يشبه كنيسة أو صندوق ذخائر.

ويرى الدكتور زورافْسكي مدير الحفريات في بنقانرتي أن هذه الكنيسة لا مثيل لها بين كل الكنائس في النوبة بالنسبة لطريقة بنائها. فيجعلها نوع الطُّوب الأَحمَر لتَشْييدها ككنيسة وضَريح ملكي والصور على جُدرانها من بين

[٥٠٤] ملاحظة المحقق: كان "الليمبو" مفهوما استخدمه علماء اللاهوت المسيحيون في العصور الوسطى ليضعوا فيه أولئك الذين، على الرغم من خطاياهم، لقوا حتفهم في صداقة الله قبل يسوع المسيح ولم يتمكنوا من دخول الجنة حتى قيامته. ويتشابه هذا المفهوم فكرة البرزخ الإسلامية.

أجمل ما عُمِلَ في فن المعمار في النوبة على الإطلاق.

ولفت زورافسكي[505] انتباه الزائر إلى شكل الصولجان الذي في يد الملك اليُمنى. إنه يُشبه عمود ذهبي على رأسه صورة السيد المسيح جالسا عليه. وكذلك في صُور ملوك آخرين في بنقانرتي. ومن الجدير بالذكر أن صور الملوك حسب الأسلوب التصويري "الكلاسيكي"، أي ما بين سنة ٩٥٠م وسنة ١١٥٠م، كانت تُمثِّلُهُ واقفا تحت حماية السّيد المسيح أو السيدة العذراء أو أحدِ الملائكة. أما في بنقانرتي فصارَ الأسلوب تصوير صورة الملك يتوسّط الرُسُل الاثني عشر وكان هذا التغيير أيضًا وِفقا لأسلوب ملوك القُسطَنطِينية المحاطين بكل مظاهر الفَخرِ والسُلطة.

ومما يدُلُّ على اهتمام النوبة باحترام ملوكهم وبتكريمهم لاحظ الخبراء المكتشفون أن في بعض المعابد بني جدار ثان منفصل عن الجدار المقوّس حيث كانت صورة ملكٍ أَقْدَم فلم يرغب الفنان تكليس الجدار الأسبق لكيلا يغطّي ويَمْسَخ صورةَ ملكٍ سابق[506]. وتم إلى اليوم اكتشاف الصور لستة عشر ملِكًا.

ويبدو من الملاحظات الدقيقة أن آخر مَلِك مَدفُون في بنقانرتي تُوجد صُورته في الجدار المقوّس في الطرف الشرقي في مَمشى الكنيسة الأوسط. اللوحة الجدارية تحت حماية الملاك رافائيل في الناحية الوسطى يبدو أنها آخر جدارية نفذت في بانقنارتي، في نهاية القرن الثالث عشر أو، على الأرجح، في أوائل القرن الرابع عشر. وإذا كان الأمر كذلك، سيكون واحدا من أواخر ملوك المسيحية في دنقلا.

المنقوشات والكتابات

وأكثر من ٩٥٠ كتابة بالحِبْر أو مَنقُوشات تذكارية وبعضها بإمضاء الكاتب كانت ظاهرة في أسوار خارج الصور. والكتابات والمنقُوشات بَعضها باللغة اليونانية وهي الأغلبية وبعضها بالقبطية وبعضها باللغة النوبية القديمة أو حتى بمزيج خاص من لغتين. ونقش معظمها الحجاج الأتقياء الذين زاروا المكان في الفترة ما بين ١٢٠٠م و١٣٥٠م. وهذا يشهد على تبجيلهم للملاك رافائيل أو نحو الملوك المدفونين هناك. وبشكل غير مباشر، هم دليل على بقاء فئة من المثقفين والمتدينين من الناس في الفترة المسيحية الأخيرة، حتى بعد أن استولى العرب على عرش دنقلا.

ونجد على سلَّم الدهليز صورة شخصين (واحد منهما دمر جزئيا) يحملان أدوات طبية وهما القديسان الأخوان كُوسما ودَميانوس، اللذان كانا طبيبين مشهورين مبجلين تبجيلا عظيما في الكنائس الشرقية.

وهذا دليلٌ إضافي على أن بانقنارتي كانت مركزا للحج في وادي النيل حيث كان الناس يتوقعون معجزات

[505] Cf. BOGDAN ZURAWSKI, Banganarti. Sudan Dongola Reach Survey 2003, in: Polish Archaeology in the Mediterranean XV, 2003, Polish Centre of Mediterranean Archaelogy, Warsaw 2004, p. 231-243.

[506] ملاحظة المحقق: لا يزال تقليد وضع صور الملوك في الكنائس قائما في أثيوبيا، ورغم سطوة مانقستو الشيوعي لم يحاول أن يرفع صور الإمبراطور هيلا سلاسي من الكنائس.

الشفاء. والملاك رفائيل أيضا يرتبط بالشفاء، كما هو مذكور في الكتاب المقدس في سفر طوبيا[507]. وتوجد في كنيسة بنقانرتي صورة شفاء بعض الناس الذين وَرَدَت أسْمَاءُهم في الكتاب المقدّس بشفاعة الملاك رفائيل. ويشير أيضا وجود صورة الملاك رفائيل في المصليات الملكية إلى أن الملوك كانوا يعتبرونه شفيعا حاميا لسلالة المقرة، على الأقل بعد الوفاة.

والكتابة الأخرى التي أثارت أشد العجب هي كتابة ملكٍ نوبي اسمه داوود يبْتَهِلُ من الله أن يُخلِّصَهُ من خطَر لم يُذكر نوعه وربّما كان الملكُ داوود الهاربُ من دُنقُلة أثناء الغَزْوَة المملوكية الأولى سنة ١٢٧٦م – كما ورد في كتب التاريخ وإليك نص الكتابة: "أيها القائد للنفوس وأيها السيد الذي جَعَلْتَ رفائيل مُعينًا لأي إنسان له مرض في قلبه. إنك اعْتِياديًا أمَرْتَهُ وإذا كان هُو دَائِمًا يَطْلُب مساعدتك عِندَمَا رأى هذا الماء يرتفع، اجعلنا نحيا على هذه الأرض الخالية من فظاظة الشرير. وتَعَال فانْظُر نَفْسَكَ واسْمَعْ لَنا جَمِيعًا".

وهناك أيضاً ثلاث كتابات منقوشة على لوحات رخامية وهي في حالة جيدة. الأولى تَذْكُر اسمَ "مَرْقُس هَجيمون" – أي رئيس له منصب في الدير – المتوفي سنة ٧٨٦ م فلا يوجد إلا واحدة هي أقدم منها في كل جهات دنقلة، وهي ظاهرة في أرضية الكنيسة. والثانية من ناحية الأقدمية هي البلاطة الحجرية الأثرية لسيدة نبيلة ولكنَّها مجهولة وهي مكتوبة بلُغة يونانية مُمتَازة من ناحية الأسلوب اللُّغوي ويَعُود زمانها إلى القرن الثامن الميلادي. فتشير إلى وُجُود بَعض الناس غير مُتآلفين باللغة اليونانية الممتازة في دُنقلة آنذاك.

والثالثة هي بلاطة أثرية مكتوبة لتخليد أحد الملوك لكنَّه لم يَتِم ذِكْرُ اسمه إلا الحرف الأول وهو "د" عبارة عن داوود. وبما أنه كان هناك ملكان – على الأقل – باسم داوود فيُمْكن أن يكون الملك داوود الأول أو الملك داوود الثاني وفي هذه الحالة لا شك أنه هو الملك داوود الثاني المتوفي ما بين ١٢٦٠ وسنة ١٢٧٠م. وهذا يقود إلى الافتراض بأن حاشية من النبلاء من رجال المملكة أو من الكنيسة كانت تتبع الملك أيْنما ذهب.

وبين النقوش والكتابات على الجدران تظهر أسماء أشخاص يحملون ألقابا نوبية مثل: eipirshil, dong, pared, thegma ، والتي لم تكن موجودة في وقت سابق بين الألقاب اليونانية (meizon, meizoteros, archipresbiteros...) للفترة الكلاسيكية. ويسمى أحد الوظائف "إيبيرشيل (eipirshil) للملك (basileus) سيتي". ويُذكر سيتي، ملك دوتاوا، في وثيقتين تعودان إلى ١٣٣١-١٣٣٤م.

وعلق الخبير اللغوي لاجتار (A.Łajtar)[508]، الذي كان عضوا في البعثة البولندية أن النقوش كتبها أساسا الناس

[507] ملاحظة المحقق: انظر: طوبيا ١١. سفر طوبيا هو واحد من الأسفار القانونية الثانية، أي التي تعترف بها الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية، ولكن لا تعترف به الطوائف البروتستانتية.

[508] Cf. A.ŁAJTAR: Inscriptions from Banganarti, season 2003, Polish Archaeology in the Mediterranean 15, p. 253–60; Banganarti 2004. Inscriptions, Polish Archaeology in the Mediterranean 16, p. 309–13; Late Christian Nubia through visitors' inscriptions from the Upper Church at Banganarti, in: W. GODLEWSKI – A. ŁAJTAR (eds.), Between the Cataracts. Proceedings of the 11th Conference for Nubian Studies, Warsaw University, 27 August–2 September 2006, I [= Polish Archaeology in the Mediterranean Supplement Series 2.1], Warsaw, pp.

الذين عملوا بالكنيسة في فترتها الأخيرة (أي في العقدين الأخيرين للقرن الثالث عشر والنصف الأول للقرن الرابع عشر). ويحضر الزوار من جميع فئات المجتمع: الكنسية والملكية والريفية... ويدل بعض النقوش على وجود صراعات في مملكة المقرة. فعلى أحدها يذكر الحرب. ونقش آخر باللغة الكاتالانية يبين أيضا إمكانية زيارة البعض من أوروبا إلى كنيسة بانقنارتي.

هذا وأهمية مقابر ملوك دنقلة مع حوالي ألف كتابة وصور الملوك والأسلوب المعماري للضريح ومُدَّة وجوده تقريبا منذ دخول دنقلة ومملكتها في المسيحية وحتى منتصفِ القرن الخامِس عشر الميلادي، تجعلُ من بنقانرتي واحدَة من أهم الأماكن التاريخية في النوبة المسيحية.

321–331; The Greek of late Christian inscriptions from Nubia – the evidence from Banganarti and other sites, in: W. Godlewski – A. Łajtar (eds.), Between the Cataracts. Proceedings of the 11th Conference of Nubian Studies, Warsaw University, 27 August – 2 September 2006, II.2: Session Papers [= Polish Archaeology in the Mediterranean Supplement Series 2.2/2], Warsaw, p. 759–763.

الفصل الثالث والعشرون

أماكن أخرى تمت فيها اكتشافات مُتنوعة

نقدم هنا مزيدا من المعلومات حول الاكتشافات الحديثة في سرد قصير جدا ومبسط. هذه القائمة لا تشمل جميع المواقع الأثرية الجديدة، ولكن مجرد اختيار قصير، يشير إلى درجة النوبيين الثقافية في العصور الوسطى.

قصر إبريم

كان قصر إبريم – اليوم ضمن حدود الجمهورية المصرية – مقر الإقامة الرسمي لأبرخص نوباديا وللأساقفة، بالإضافة إلى فرص، وواحدا من أهم المراكز في مملكة نوباديا. كشفت الحفريات التي أجريت ما بين ١٩٦٣م و١٩٧٨م من قبل جمعية الكشوف المصرية بقيادة البروفيسور الراحل مايكل جاكسون بلوملي (M.J.Plumley)، وعثرت على مجموعة متنوعة من البرديات والمخطوطات يعود تاريخها إلى قرون عديدة قبل الميلاد، وهذه فتحت فصلا جديدا في تاريخ النوبة.

ويبدأ تاريخ إبريم في فترة الفراعنة المصريين (حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد) ويستمر خلال عهد الملوك الكوشيين (٥٠٠–٧٠٠ قبل الميلاد)، وأخلافهم المرويين (٣٥٠–٥٠٠ ق.م)، وصعود وسقوط ممالك النوبة المسيحية (حوالي ٤٠٠–١٥٠٠ م). ووثائق أخرى تغطي الفترة التي أسلم فيها النوبة والاحتلال العثماني وحتى ١٨٢٠م.

وعُثِر على بعض المخطوطات والبرديات تحت رصيف الكاتدرائية، وبعضها في مجموعة المنازل "X". وتكمن أهميتها في أنها تتعامل مع الحياة اليومية للسكان المحليين طوال خمسة عشر قرنا. وتوفر هذه الوثائق الأدلة الدامغة على تغلغل المسيحية في النوبة قبل وصول بعثة الملك البيزنطي (٥٤٣م) لنوباديا بقرن واحد على الأقل. وكان هؤلاء المرسلون حتى وقت قريب يُعتَقَد أن لهم الفضل في تبشير النوبة. وتؤكد وثائق إبريم أيضا بقاء المسيحية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كتب الكتبة النوبيون في إبريم، نيابة عن الأبرخص النوبي، رسائل باليونانية والنوبية القديمة والعربية أيضا، في فترات متعاقبة وفقا للغة المخاطبين.

وجدت مخلفات المنسوجات من الفترة المروية حتى الفترة البوسنوية ووجدت معها أحذية وأدوات لصناعة الغزل والنسيج، وحتى أنابيب التبغ المستخدمة من قبل البوسنويين، بدلا من المشروبات الكحولية، والتي كانت منتشرة بصورة واسعة ومفضلة بين غير المسلمين.

يبدو اسم "إبريم" أنه مستمد ربما من الاسم الروماني "بريميس" أو برمنيس (Primis, Primnis)، رغم إنه كان للموقع أسماء أخرى في فترات قديمة سابقة. بنت سلالة الفراعنة الثامنة عشرة قلعة صغيرة على نقطة إستراتيجية - أعلى المنحدر- وتطل على نهر النيل من زاوية حادة. وبني الملك الكوشي "تهراقا" في القرن السابع قبل الميلاد معبدا أصلحه البطالمة والمرويون عدة مرات. وحوّله المسيحيون إلى كنيسة سماها علماء الآثار "كنيسة المعبد" وبنيت في الأصل من الطوب اللبن. وعندما تم هدم تلك الكنيسة، بنيت كاتدرائية ذات ثلاثة ممرات من الحجارة المربعة نحو ٦٠٠ ميلادي - وهي الكنيسة النوبية الوحيدة المبنية من الحجر بالكامل. وعانت من الدمار والنار من جانب غارة توران شاه الأيوبي في عام ١١٧٢/١١٧٣م، الذي دمر المكتبة ولم يترك سوى فتات الوثائق المتفحمة، باستثناء تلك التي دفنت (أو أخفيت؟) تحت الأرض.

وأثمن الوثائق الخطية المكتشفة في قصر إبريم بشأن التاريخ المسيحي في نوباديا، هي مخطوطة باليونانية تحتوي على آيات من إنجيل مرقس، وكتبت بخط يدوي راق، سمة من سمات القرن الخامس. يفترض أنها جلبت من بيزنطة، وربما بواسطة الكهنة الأولين الذين جاؤوا إلى إبريم. والوثائق النفيسة الأخرى هي رسائل تشير إلى الأحداث التاريخية في النوبة السفلى في القرن الخامس.

وذكرنا فيما سبق اكتشاف الرِقّ وورق البردي الخاص بالخطابات بين بعض الملوك البليميين مثل "فونين"، الذي كتب للملك "أبورني" ملك النوبادس وورد في ذلك الخطاب اسم "موسس"[٥٠٩] أي موسى ابن فونين مما يدل على تسلل بعض النفوذ المسيحي في حاشية ملك البليميين وذلك في القرن الخامس الميلادي.

ونذكر هنا ثلاثَ رسائل باللغة النوبية القديمة قد تبودلت بين زعيم محلي (phylarchos) اسمه طنطاني وبعض الشخصيات الأخرى. فالخطاب الأول إلى طنطاني كتبه راهب مصري يسترحم الزعيم طنطاني من أجل بعض الأسرى الذين تم القبض عليهم أثناء الحرب، ويطلب إليه أن يعاملهم معاملة رحيمة كأنَّهم إخوة وفي ختام الخطاب يسلم عليه قائلاً: "ليحفظك المسيح يا أخي الحبيب". وخطاب آخر وصل إلى طنطاني من رجل مفترض أن يكون رئيسًا لدى البليميين.

وأخيرًا رجل اسمه "فيفنتيوس" وهو من رجال الإدارة السياسية كتب إلى طنطاني خطابًا يفوضه به أن يمثله بدلاً من الحاكم لصعيد مصر في محادثات سياسية مع طنطاني في مدينة أسوان. وهذا الخطاب باللغة القبطية والتاريخ لتلك الرسالة منذ سنة ٤٥٠م – يعني أكثر من مائة عام قبل وصول البعثات البيزنطية لدعوة الملك النوبي إلى اعتناق الديانة المسيحية.

وإضافة إلى هذا الرِقّ هناك مخطوط آخر في رق كامل وهو خطاب الملك زكرياس قُرقي (أو جورجي) الثالث (وهو ابن الملك قرقي الشهير وتاريخه سنة ٩٢٥ م). وهذه من أقدم المخطوطات العائدة إلى عصر المسيحية التي تم

---

[٥٠٩] ملاحظة المحقق: "موسس" هو الترجمة القبطية واليونانية لاسم موسى.



إعادة التجميع الافتراضي لضريح بانقانارتي.



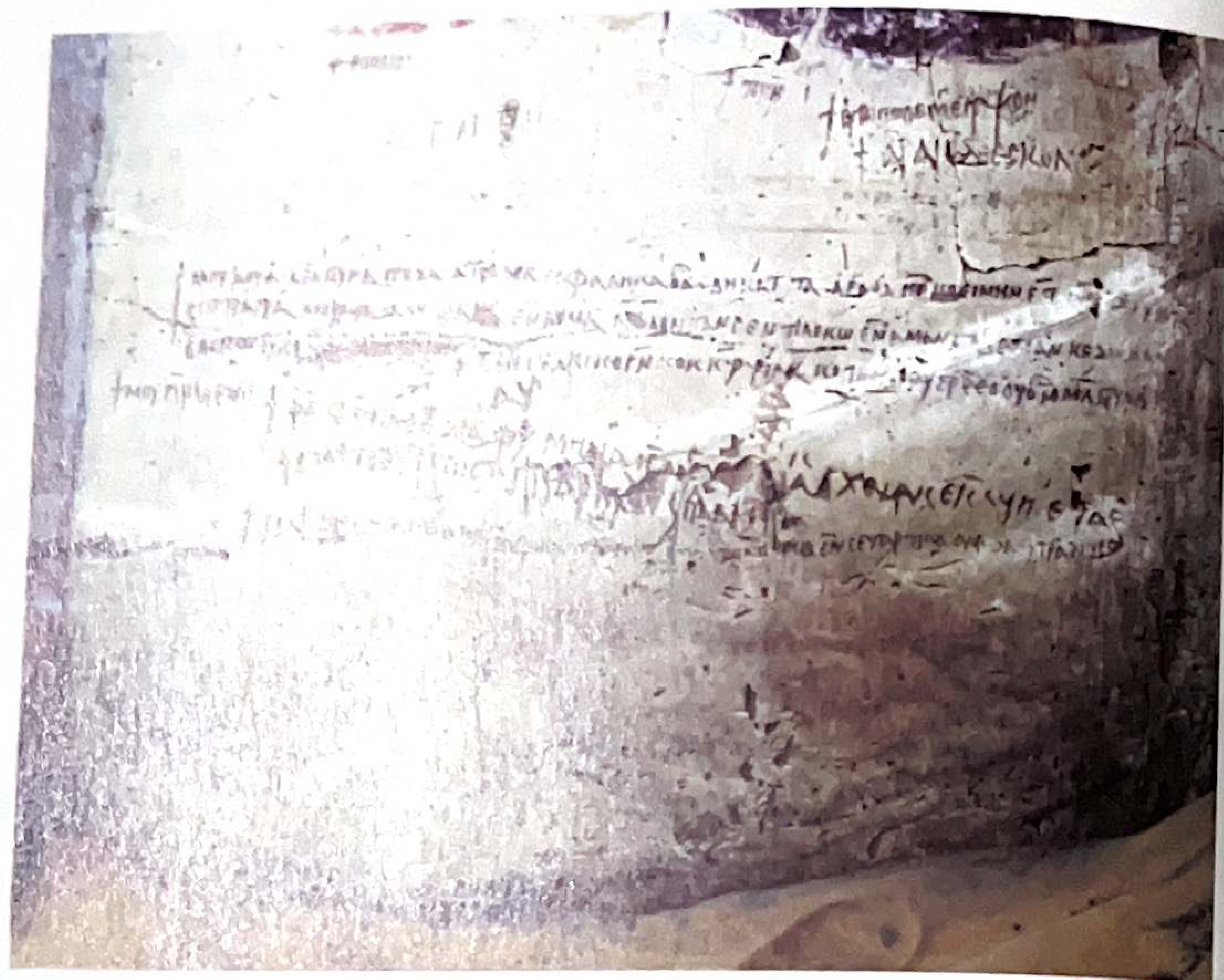
تمثل الرسم المصلى ٤ (Chapel 4).

وجدت هذه السفن المقدسة ببانقانارتي.

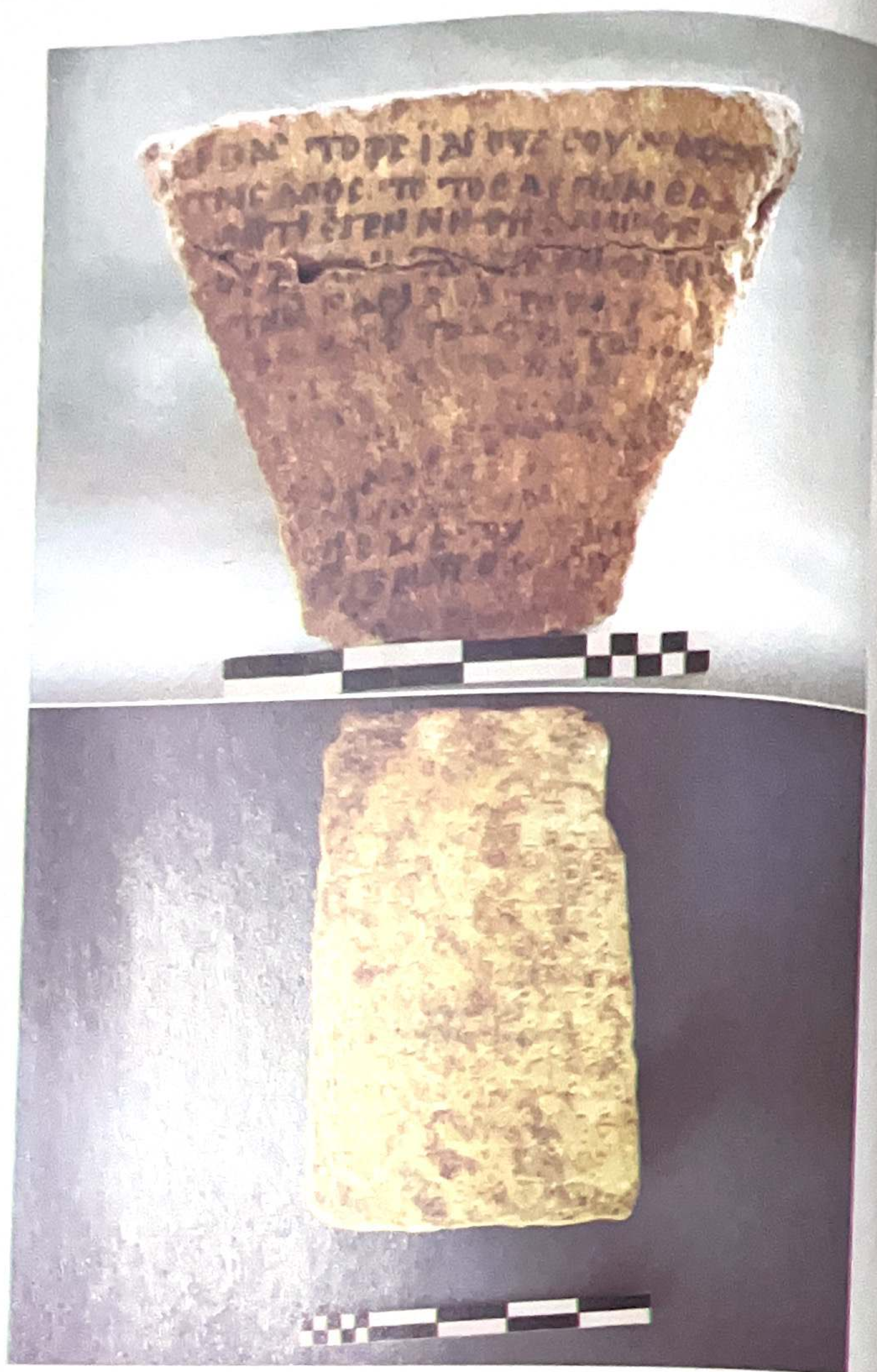
ت وعلى الصحفة السابقة:

بعض النقوش التي كتبها حجاج كنيسة بانقانارتي.



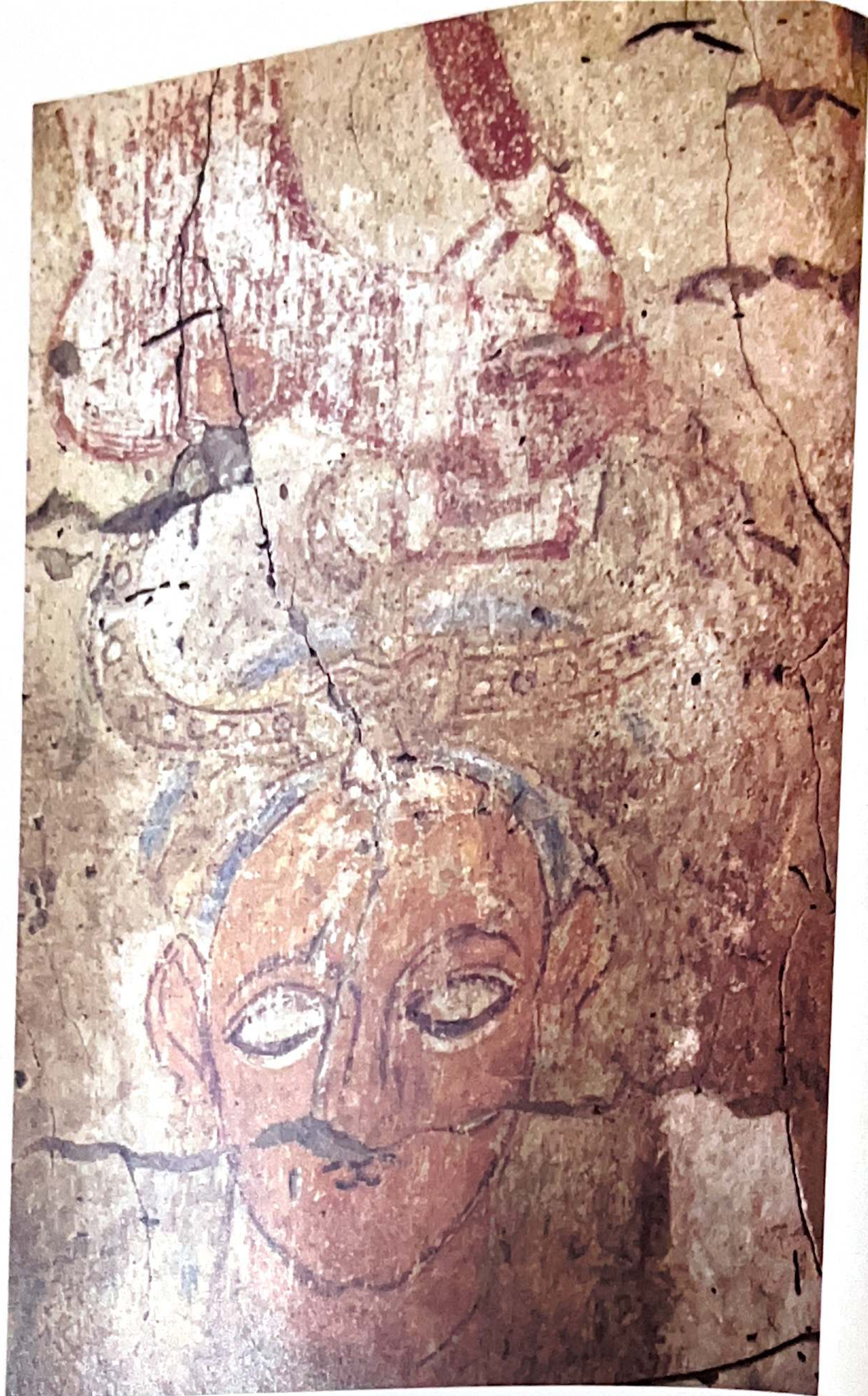


عالمةُ الآثار أثناء عملها بكنيسة بانقانارتي. تمثل اللوحة الجدارية القديس دميانوس.



أعلاه: نقش يوناني على مذبح. وتحت: نصب تذكاري تم وجوده ببانقانارتي.

ميلاد السيد المسيح بدنقلا
(يرجع للفترة المسيحية الأخيرة - القرن الثالث عشر)



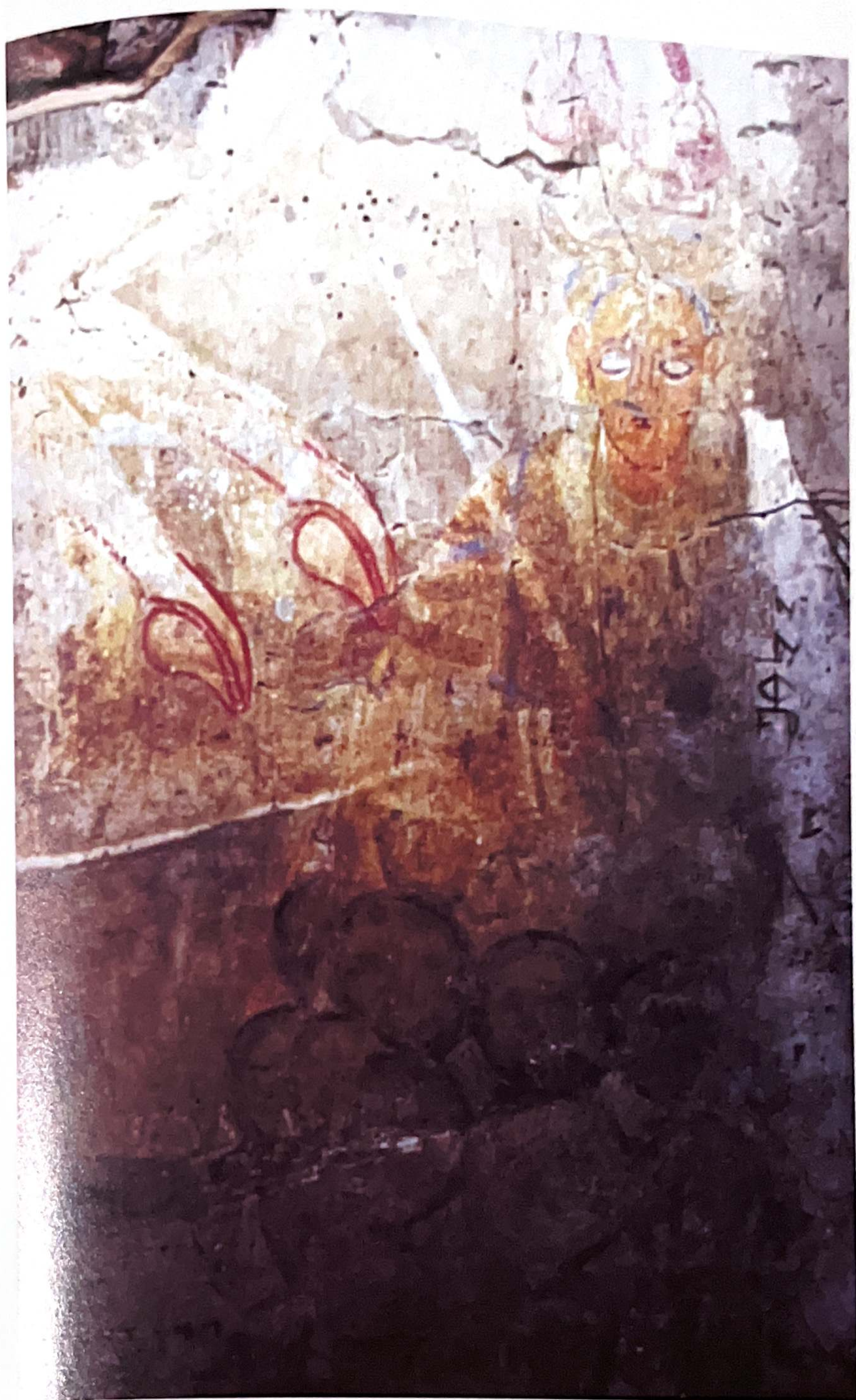
شظايا اللوحات الجدارية.



القديس دَميانوس.



تفصيل واحد من الرسل.



جزء لوحة جدارية في كنيسة بانقانارتي.



بانقانارتي. شظايا اللوحات الجدارية للرسل.







أعلاه: إعادة بناء اللوحة الجدارية التي تمثل ملك دنقلا تحت حماية رئيس الملائكة رافائيل وحول الملك الرسل الاثني عشر.



على اليسار: محارب قديس يقتل جوليان المرتد.



على اليمين: أيقونة مريم.

رسومات من قبل: W. Chmiel.

تفصيل للوحة جدارية تبين تتويج ملك نوبي

تحت حماية رئيس الملائكة رافائيل.




بانقاناريتي. لوحات السرداب.

وفي الصفحة التالية: بانقاناريتي. سرداب الكنيسة.



مقابر الضريح بعد العمل
(مصور: B. Zurawski)





علماء الآثار أثناء عملهم ببانقانارتي. (المصور: J. Poremba).



منبر الكنيسة. وفي الصحفة السابقة: تفاصيل سلم المنبر.





بانقانارتي.
صورة جوية لضريح
ملوك النوبة قبل الحفريات
وأثنائها (٢٠٠١).
(المصور: B.Zurawski).

اكتشافها في قصر إبريم.

ومن بين المخطوطات الأخرى جملة من الرسائل الأخرى المرسلة إلى الملوك وإلى الأساقفة في عصر متأخر مما يثبت وجود مملكة استمرت قائمة في دوتاو. ووثائق أخرى باليونانية والقبطية والنوبية القديمة وهذا يبين أن الحكام الذين يقيمون في قصر إبريم في جميع الأوقات، كانت لهم مراسلات مع آخرين على دراية بتلك اللغات.

وقد اكتشفت في إبريم قبر ولوحة لماريانوس أسقف فرص، واسمه لا يظهر في قائمة الأساقفة من فرص، على الرغم من وجود لوحته في الكاتدرائية، وكذلك قبر المطران تيموثاوس (١٣٧٢ م). هذا الأخير، على ما يبدو، توفي هناك بعد فترة وجيزة من توليه الحكم. وتشهد لفَّة من الرق مكتوبة بالقبطية والعربية على وجود المطران هناك، حتى بعد مرور خمسين عاما من حكم دنقلا بواسطة المسلمين.

وتذكر لفة من الجلد مكتوبة بالنوبية القديمة جميعَ ملوك النوبة المسيحيين والمسؤولين في المملكة من ١٥٥٥م حتى آخر ملك، جويل، الذي يُذكر اسمه مع المطران ميركي في كتابة بجبل أدا، المؤرخة في ١٢٠٠ (عصر الشهداء الموافق١٤٨٤ م). وقد لوحظ أن بعض تلك الوظائف ظلت في النوبة حتى العصور الحديثة.

وتم العثور على ٢٦ قطعة من بقايا الكتب الطقسية، التي أحرقت عمدا؛ وأيضا جزء من المواعظ من الأساقفة الشرقيين مترجمة إلى النوبية القديمة.

وتقدم الوثائق الآتية الأخرى أدلة على الدين المسيحي والشؤون السياسية في العصر المتأخر:

- رسالة من المطران يسو (Yesu)(١١٨٧م)؛
- أجزاء من نصوص وثيقية من زكارياس الملك يعود تاريخه إلى ٩٢٥م؛
- رسالة من ملك اسمه موسى جورج إلى المطران يسو؛
- وستة وعشرين مخطوطًا فيها ترجمة الخطب التي ألقاها بعض الأساقفة الشرقيين في بلادهم – سوريا – فانتقلت سمعتها وفائدة نشر تعاليمهم إلى النوبة.

ولا يفوتنا أن نذكر النسخة الأصلية للرسالة القيمة التي أرسلها الأمير العباسي موسى بن كعب إلى "مركيريكوس" – أي كيرياكوس ملك النوبة – في سنة ١٨٤ هـ / ٧٥٨ م، ليذكره أن يدفع بقايا دين البقط التي يدفعها الملك النوبي لبيت المال وهي عبارة عن البقط. وهذا هو الدليل القاطع على وجود تلك الاتفاقية التي أبرمت سابقًا بين العرب والنوبة في سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م).

في عام ١٩٦٤ ومرة أخرى في عام ١٩٧٤، تم اكتشاف علبتين مختومتين تحتويان على مخطوطات جلدية وقُصاصات أخرى، كلها تم العثور عليها تحت حضيض منزل لأحد المدنيين، وهي تعود لفترة المسيحية في وقت متأخر. والمخطوط كان رسالة من الملك النوبي تطلب من البطريرك القبطي بأن يرسم مطرانا. والقُصاصات بصفة

عامة، تحتوي على مواثيق الأرض التي يعود تاريخها من القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر. وكلها مكتوبة من قبل المسيحيين باللغة النوبية. وعلق البروفيسور بلوملي:

"أن تمتلك ولو قطعة صغيرة من الأرض هذا دليل على كون هذا المدني من النوبة. وكان نقل أو بيع الأراضي مسألة ذات أهمية قصوى، ويتم تسجيلها للأجيال القادمة على مادة تدوم فترة طويلة مثل الجلود، ويجب أن يشهد على ذلك عدد كبير من الأشخاص، الذين يقومون بتسجيل أسمائهم وأسماء آبائهم، ووظيفتهم"[٥١٠].

ومن الغرائب بين المخطوطات من إبريم سَبْعُ رسائل قادمة من قصر الخلفاء الفاطميين بمصر إلى رجل أعمال كان يقوم بالتجارة لصالح الأبرحص وله علاقات تجارية مع عميل كان يعمل في ميناء عيذاب بالبحر الأحمر. والأبرحص محتكر التجارة بين ملك النوبة والخارج.

وتحت أنقاض الفترة البوسنوية، وجدت مخطوطات مسيحية أخرى يعود تاريخها لفترة الاحتلال المسيحي الأخير للقلعة، وبالإضافة للمزيد من المقابر مع الصلبان وخمس لوحات أخرى، واحدة منها تحمل اسم المطران ماريانوس وتم نهبها جميعها.

عبد الله نرقي

إنه مكان تاريخي واقع على ضفة النيل الغربية جنوب أبي سمبل وصار معلومًا من اسم صاحب الأرض وهو عبد زنجي. أما الكلمة "نرقي" فهي كلمة محلية تشير إلى أرض ملكية. فبدأت هذه التسمية تُستعمَل عندما وصل هناك بعض علماء الآثار، ليقيموا الحفريات أو الزيارات الإعدادية للحفر سنة ١٩٣٠م.

وفي مدة ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٠ خلال حملة إنقاذ آثار النوبة قامت بعثة هولندية بحفريات شاملة اكتشفت أن القرية سبق أن كانت مسكونة من أهل نوبادي مسيحي كما أثبتت الأدوات الفخارية المسيحية العائدة إلى ذلك العصر. وكانت الأراضي مزدهرة حسب التقاليد الزراعية والنشاطات العادية في القرن السابع. وكانت لهم كنيسة ممتازة من ناحية الأسوار الكبيرة. ثم أعيد التكليس والتصوير بالداخل في حوالي سنة ١٠٠٠م وفقًا للأساليب الجديدة آنذاك. ونذكر من بين الصور المقدسة الممتازة من ناحية الفن والاحتفاظ بصورة القديسة حنا والدة العذراء مريم وصور كثير من الملائكة والفُرسان والقدِّيسين. ليس هناك موضوعات غريبة في النوبة ولكنها فريدة بسبب دقة جمالها وكمالها: هي صورة المسيح في مركزها يحيط بها أربعة أحياء أي الأسد والبقر والنسر وإنسان وهذه الأحياء الأربعة[٥١١] ترمز إلى الأناجيل الأربعة حسب التقليد المسيحي القديم، المستمد من الصور الممثلة من كتب العهد القديم. والصورة الفريدة النوع، الموجودة في كنيسة عبد الله نرقي والتي أثارت الكثير من التعليقات الغريبة هي صورة

---

[510] Jack Martin Plumley(ed.), Nubian studies (proceedings of the Symposium for Nubian Studies), Selwyn College, Cambridge, 1978, p. 5.

[٥١١] ملاحظة المحقق: راجع رؤيا يوحنا ٤: ٦-٨ في الكتاب المقدس.

رجل قديس راقد في القدر بالنصف الأسفل من جسده والجزء الأعلى من جسده والرأس ظاهر. فلاحظ بعض علماء الكتابة باليونانية "كيريا إليسون" – يعني "يا رب ارحمني" هذه تحت الصورة، فربما تدل الصورة على أنه روح إنسان موجود في المطهر حتى تتطهر نفسه تمام التطهير.

وتم العثور على مقابر مسيحية واسعة من القرن الحادي عشر بالقرب من الكنيسة الجنوبية، التي أعيد بناؤها في القرن الثالث عشر، بعد انهيار بعض أجزائها. ثم هاجر عموم السكان من القرية فلم يرجع إليها أحَدٌ منهم فانهارت المباني انهيارًا طبيعيًّا وصار كل ما تركوه من مساكنهم خرابًا.

سنكي غرب

لقد أجرت مصلحة الآثار السودانية (١٩٦٦) مَسْحًا من الجو على مجرى النيل وعلى ضفَّتيهِ في منطقة بطن الحجر لتكشف وتحدد بعض الأماكن المجهولة التي تقع فيها آثار تاريخية حيث تصعُب الملاحة والمشي عبر رمال الصحراء. فلاحظ الطيارون في الصحراء على بعد ١٣٠ كم جنوب مدينة وادي حلفا مكانا شاهقًا مُنْفَرِدًا مربع الشكل ولونه غامض بين الرمل الأصفر على الضفة الغربية. فاتَّخذوا صورًا فوتوغرافية وهم مرتابون في أن هناك شيئًا غريبًا مدفونًا تحت الرمل. ثم ذهب بعض رجال مصلحة الآثار ليزوروا ذلك المكان المعَيَّن فتحققوا أن هناك مبنى مجهولاً تحت الرمل فاسْتَعْلَم بعض سكان الضفَّة الشرقية عن اسم ذلك المكان، فقيل لهم: اسمُه "سُنكي طينو" – أي سُنكي غرب، فقررت المصلحة من جراء اهتمامها لإنقاذ كل الآثار المفترض اختفاؤها في مياه النيل إثر بناء السد العالي – حفر ذلك الشاهق وضواحيه. فدعت بعثة علمية من جامعة "لا سابينزا" (La Sapienza) بروما (إيطاليا) لتقوم بالحفريات العلمية في المنطقة المعينة.

فوصل علماء البعثة إلى الخرطوم في يوم ٧ فبراير سنة ١٩٦٧ وَدَعوا كاتب هذه الصفحات لينضم إلى بعثتهم. فسافروا إلى وادي حلفا بالقطار، ثم من حلفا إلى سُنكي شرق إذ كان الطريق صالحًا لمرور العربات وكان معهم عدد من العمال المجَنَّدين في القرى المجاورة فسكنوا على الضفَّة الشرقية.

وفي اليوم التالي عبروا النيل بالمراكب إلى الضفة الغربية إلى المكان المعيَّن لإجراء الحفر. وبعد أخذ الصور للمنطقة بدأ النكَّاشون عملهم فنَزَعُوا الرَمل السطحي فظَهَر سَقْف مثقوب هنا وهناك. ورأوا أن الرَمل قد ملأ داخل المبنى إلى السقف. فابتدأ الحفر في الجانب الشمالي الشرقي وبعد أن عَمَّقوا الحَفْر نصف متر لاحظوا في الجدار الجزء الأعلى لرأسٍ بشري والكلمات – باللغة اليونانية – "يوحنا المعمدان" فكف للحال كل ريب: إن هناك كنيسة وفيها صُور على جدرانها: فيجبُ إنقاذُها تمامًا.

فأرسلني البروفيسور دونادوني بسرعة إلى حلفا لأرسل برقية إلى رجلٍ فنانٍ في إيطاليا وهو متخصص في فصل الصور عن الجدران دون الإضرار بها وكان متفقًا مع البعثة بِشأن هذا الغرض. فكلما تقدَّم العمل لتفريغ الرمل من

داخل الكنيسة كلما ظهرت صور جديدة في جدرانها، بعضها في حالة جيّدة وبعضها في حالة سيئة ومجموعها ٢١
صورة في كنيسة صغيرة المساحة (٩×٩ م). وأصبحت تلك الكنيسة من أجمل الآثار في النوبة بعد كاتدرائية فرس
وقبل اكتشاف الكنائس الكبرى وصورها في دُنقلة (١٩٨٩) وفي بنقانرتي (٢٠٠٢م) من حيث تخطيطها وكثرة
الصور الجميلة والمهمة بها[512].

تخطيط الكنيسة بسُنكي طينو

تشبه كنيسة سُنكي غرب كاتدرائية فرص والكنائس النوبية في الأسلوب الكلاسيكي العام في العصر ما بين ٩٥٠ و١١٥٠م.

فلا شك أنه قد أُجْرِيَت في الكنيسة الأصلية في سُنكي إصلاحات وتغييرات مُتَعَدِّدَة على مدى الزمان لأن الصورة التي وجدناها فيها و فصلها الفنّان المتخصِّص كانت على الطبقة الثالثة من الكَلْسَة كما يثبت من صورة الملك جرجة الثاني الذي مَلَكَ في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

وكان للكنيسة هيكلٌ٥ نصف مستدير وفي وسطه مذبح مبني من طوب مُكَعَّب الشكل ومُكلَّس بطين ومكتوب فيه الاسم "ميخائيل" وهذا يقودنا إلى الظن أن الكنيسة كانت مُكَرَّسة لهذا الملاك. وعلى جانبي الهيكل غرفتان: واحدة على جانبها الجنوبي الشرقي وكانت في الكنائس النوبية مخصصة للعِماد ولكنه لم توجد حُفرة ولا ... لهذا الغرض. والميزة الوحيدة لهذه الغرفة مصطبة رُبَّما خُصِّصَت لينام عليها أحد الرُّهبان أو الحُرّاس. وفي الجدار الشرقي صورة يوحنا المعمدان وفي جدارٍ آخر صورة القديس الشمّاس اسطفانوس مما يحتمل أن تكون الغرفة للعماد بواسطة جُرن لم يبق أثر منه. أما الغُرفة على شمال الهيكل فكانت لإعداد الخُبز[513] وغيره من الأدوات اللازمة للتقد... بالقداس والعبادات. وكان هناك ممر يُحيط بالهيكل من ورائه حَسَب الأُسلوب الكلاسيكي، والهيكل مكان مفصو... من الممرات الثلاث بحجاب قد انهار في زمان لم يعرف وفي طرق أحد الممرّات كان المنبر مرتفعًا إلى ٧٠ سم فوق الأرضية وفي وَسَط الكنيسة أربعة أركان مبنية من طوب كانت في زمن أقدَم قد تدعم قُبَّة ثم انهارت القبة ... مكانها سقفًا جديدًا٥ مُسطَّحًا من خَشَبٍ وطين. وفي الطرف الغربي للممرّ كانت هناك غرفة لحفظ شتى الأدوا... وربَّما بعض الكُتُب. وفي الغُرفة المقابِلَة سلالِم تقود إلى سقف الكنيسة لضرب الناقوس. أما الحائط الغربي للممـ... المركزي ففيه صورة الملك جرجة تحت حماية السيد المسيح.

[512] Cf. S. DONADONI, "Les fouilles de l'église de Sonqi Tino", in: Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher ..., p. 209-218 (Christophe 1977, no. 201); W. Y. ADAMS, Qasr Ibrim: the Earlier Medieval Period, Egypt ...ploration Society (Excavation Memoir 89), London 2010.

[513] ملاحظة المحقق: في الكنيسة القبطية يتم خَبز خُبز القربان يومَ القداس في الكنيسة وتسمى حجرة القربان "بيت لحم".

الصور والكتابات

وهنا يجدر تقديم التفاصيل لصورة الملك جرجة وهي الكبرى والأجْمل من كل الصور في سنكي. يظهر الملك واقفًا أمام صورة السيد المسيح الذي وراءه يضع يده اليُمنَى على كتفه إشارة إلى حمايته، والملك هو جورج الثاني – المعروف باسم "جرجة" لدى الكُتّاب الأقباط – والكتابة باليونانية على يمين وعلى يسار وجه الملك تقول: "الملك جورج بن الملك زكريا تعيش!". مما نستنتج منه أن هذا الملك كان على قيد الحياة – أي ما بين سنة ٩٤٠ و١٠٠٠ ومن المحتمل أن تلك الإصلاحات قدْ أُجريت في الكنيسة بإذنه أو بأمره. وهو الملك الذي تحدَّث معه سليم الأسواني (حوالي ٩٧٠ م) كسفير الملك المعِز لدين الله وجدد الاتفاقية مع الأسرة الفاطمية في مصر وملك في عصر قمة الازدهار السياسي والاقتصادي والثقافي في النوبة – حسب ما ورد في كُتُب المؤرخين المعاصرين. وفي صورته يظهر جرجة مُرتَدِيًا كل علامات السُلْطة: التاج الذهبي على رأسه تتدَلَّى منه سِلْسِلَتان مع جرس في طَرَفَيْهَا وفي يده صليب ذهبي.

وإضافةً إلى الصور المذكورة أعلاه يجب علينا أن نذكر صورة الفتيان الثلاثة في آتون النار في جانب مدخل الرجال، وهي تشابه تشابهًا ظاهرًا الصورة المماثلة التي في كاتدرائية فرس والفنان الذي صوَّرها وضع التوقيع (أناطوليوس). أما في جانب مدخل النساء من الجانب الشمالي فهناك صورة كبيرة للسيدة العذراء وميلاد المسيح لكنها في حالة سيئة جدًا إلا الكلمات اليونانية للسلام على مريم: "السلام لكِ يا مريم!" والصور الأخرى تمثل صور الملاك ميخائيل وصورة أخرى تمثل أحد المطارنة ولونه أبيض وربَّما يكون أجنبي الأصل وصورة أخرى يظهر فيها وجه السيد المسيح يحيط به أربعة ملائكة لكلٍ منهم ستة أجنحة تغطي السيد المسيح.

وتوجد في كنيسة سُنكي غرب حوالي مائة كتابة تركها الزُّوار مكتوبة بالحبر الأسود ومنقوشة في كَلْس الجدران ونميز من بينها كتابة تذكارية لزيارة الأبرخص "سيمون" إلى الملك في منطقة الماريس ورئيس الدير (Archimandrite) وشخصيات أخرى من حاشية الأبرخص. هذه باللغة اليونانية والأهم من الكتابتين النوبيتين تذكر أسماء المتَبَرِّعين للكنيسة.

للنُسّاك أو للحُجاج؟

يمكننا أن نتساءل عن غرض بناء تلك الكنيسة في منطقة صحراوية في سنكي غرب. لا توجد بجوارها أراضٍ زراعيةٍ ولا أشجار. والرد الأكثر احتمالاً هو أنها كنيسة مبنية من نساك ثم أجريت لها إصلاحات متعددة أساسية. وما يُقَوّي من هذا الاحتمال هو عدد مِنْ مقابر على شكل مصاطب مُكَعَّبة أو مُستطيلة تعلوها قُبَّة أو سقف مرتفع إلى ١,٨٠م، وفي الجانب الغربي للمصطبة حُفر بشكل قبة صغيرة وفيها لمبة وكلمات يونانية تذكارية: إن كل هذا يدل على مقابر رجالات كبار أو رُهبان مشهورين لقداستهم وحياتهم. فاعتاد الزوار أو الحجاج أن يزوروا هذه

الكنيسة إكرامًا للموتى المدفونين في تلك المقابر وربما كان منهم بعض الحجاج المرضى طالبين الشفاء بشفاعة الملائكة أو القديسين. لسوء الحظ، لا تزال هذه المقبرة غير مستكشفة بسبب ارتفاع مستوى نهر النيل (١٩٧١). أما المباخر المطروحة في الرمل المتكتل حول الكنيسة فجعلتنا نتذكر قول أبي صالح الأرمني – اسمه الصحيح أبو المكارم – عن بعض المسيحيين في إثيوبيا الذين يذهبون إلى الكنيسة حاملين مبخرًا فيه جمرة وأوراق الزهور يحرقونها في المبخر عندما يعترفون بخطاياهم[514].

ودليل آخر يُقَوِّي الاحتمال بوجود ملجأ للزوار أو الرهبان مبني من طين بشكل نفقين متوازيين خارج الكنيسة على جانبها الشمالي وكان من المفترض أن الناس كانوا يلتجئون وربما ينامون هناك والدليل القاطع على ذلك هو وجود بيت الخلاء – أي بيت الأدب – لاحتياجاتهم الجسدية.

وحفرت نفس البعثة في منحدر على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب الكنيسة، وتسمى محليا "ديف"، ووجدوا فيه أنقاضا قديمة. وكان المنحدر حوالي عشرين مترا فوق مستوى النيل، وتحيط به المياه من ثلاث جهات ويربطه بضفاف النيل طريق صخري غير مستو، ويودي إلى قرية صغيرة. وتبدو وكأنها قلعة طبيعية منيعة. على قمة الجرف هناك جدران من الطين لا تزال قائمة، وهي تشكل محمية طبيعية، حيث تأخذ القطعان والأغنام والماعز وقت الغارات. الطبقات السميكة جدا (٠,٥ متر) من روث الحيوانات دليل على أن هذا المأوى تم استخدامه لفترة طويلة، ربما تصل إلى القرن الثامن عشر. ولوحظت أيضا بقايا الذرة على الأرض. وقد ضمنت إمدادات المياه عن طريق إنزال المراكب في النيل بحبل.

كنيسة "عبد القادر"

تجدر الإشارة إلى كنيسة "عبد القادر" قُرب بوهين – وهي الآن غائبة عن النظر في مياه بحيرة النوبة – إلا أنها كانت صغيرة جدًا (٩ × ٩ م) مُنقَسِمة إلى ثلاثة ممرات وأسوارها كُلها مُصَوَّرة بصُور القديسين الفرسان (جورجيوس وغيره) وصور الملائكة والسيدة العذراء وميلاد المسيح. إلا أن الكثير من هذه الصور في حالة سيئة، لأن الكنيسة استمرت مفتوحة للأهوية الصحراوية مدة مئات السنين، فعملت بعثة أثرية من يوغُسلافيا لِفَصْلِ كُل كَلِمَة مُصَوَّرة ولإنقاذ الصُور قبل اختفائها إلى الأبد في البحيرة – وبعضُها الآن معروضٌ في المتحف القومي بالخرطوم.

ويَبْدُو أن جَمِيع الصُور على جُدْران كنيسة "عبد القادر" الصغيرة هي من عَمَل نَفْسِ الفَنَّان الواحد من ناحية الأُسْلُوب وقد عَمِلَ فيها في زَمَنِ التَّصْوير الكلاسيكي (٩٥٠ – ١١٥٠م)[515].

[514] انظر تاريخ أبي صالح الأرمني، مخطوطة باريس، ص١٠٦أ (cf. OS, p. 336).

[515] Cf. F.Ll.Griffith, Oxford Excavations in Nubia: The Church of Abd el-Qadir, Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology (LAAA) 15, Liverpool 1928, 3-4 and 63-88.

سرّة شرق

كان هذا المكان من وادي النيل في حدود السودان – كثير الأهمية إذ بني فيه كل من الفراعنة والبطالمة والمرويين حصونًا وذلك منذ حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. وفي العصر المسيحي بُنِيَت بعض الكنائس في عصور متتالية – لكن ثلاثًا منها مبنيٌّ داخل الحصن، مما يمكننا القول إنها قد بُنِيَت في زمان خطر الغزوات أو في سبيل تأمين السكان.

والجدير بالذكر أن تلك الكنائس مهما كانت صغيرة الحجم والمساحة (٦×٩م) فقد بُنِيَت وفقًا للأساليب الكلاسيكية ومفروشة بكل ما تحتاج إليه الخدمة لأداء دورها على أحسن وجه. ومما أثار العجب اكتشاف جرّة فخارية مختومة وفيها بعض المخطوطات القديمة وأهمها قصيدة ووعظة إكرامًا للصليب المقدس بقلم القديس يوحنا الذهبي الفم وكل هذا باللغة النوبية القديمة، بالإضافة إلى مخطوطات أخرى باليونانية التي تدل على عصر قديم. أما اسم ميخائيل المرسوم أو المكتوب بالحبر في محلات كثيرة فربما يشير إلى أن هذا الملاك كان في اعتبار السكان الشفيع السماوي للجماعة، وهذا الرق في تمام حالة الحفظ مما مَكَّن العلماء من قراءة مخطوط مماثل تم اكتشافه في دير قصر الوز – على الحدود المصرية – إلا أن ذلك النص ليس بحالة جيدة فلم يقرر العلماء قراءته كاملا. وتضم المقابر المسيحية ١٢٣ قبرا، مع وضع علامة طوبة، وتوجد مصطبة بها صليب ومحراب للمصباح في الجانب الغربي[516].

سرّة غرب

وبَنِي الفرعون رَمْسيس الثاني مَعْبَدًا عظيمًا جنوب "أبو سمبل". فانهار الجزء الأكبر مِن مَعْبَد آخر على مَدَى القُرون فَبَقي جُزء آخر في حالة جَيِّدَةٍ فأصلَحَهُ المسيحيون الأقدمون وحَوَّلوه إلى كنيسة.

وفي سنة ١٩٦٤ حَضَرَت إلى ذلك المكان بِعْثَةُ مِنْ عُلَماء الآثار من فَرَنْسا ومن الأرجنتين لإجراء أعمال الحَفْر. فَوَجَدُوا في الكنيسة حَوْضًا فُخاريًّا للمعمودية ولم يجدوا أي شيء آخر من المفروشات الكنسية.

أمّا وَجْهُ المعْبَد فَبَقي في حالةٍ جيدةٍ لأنَّه مبنيٌّ مِن الحجارة. وكان في مكان فوق المدْخَل صَخْرةٌ كبيرةٌ منقوش على يسارها الفِرعون رَمْسيس وهو لابسٌ كإنسان يُقَدِّم تَقْدِمَة لِنَفْسِهِ مرتديًا ملابسه الملكية ورموزًا كإلهٍ. ثُمَّ على يمينه صَفٌّ من صُوَرٍ مَنقوشة تُمَثِّل القبائل الإفريقية الخاضعة تحت حُكْمِه وعلى اليسار صُوَرٌ مُماثِلةٌ لشعوب آسيوية تحت حُكم رمسيس.

[516] Cf. Kush, XIV, 1966, p. 171.

TANGASI (تنقاسي)

لقد أثارت منطقة تنقاسي الواقعة جنوب دُنقلة العجوز الانتباه والاهتمام لَدَى العلماء الباحثين حيث تمّ العثور على كمية غير عادية من آثار الآنية الفخارية المختلفة في أساليب الصنع فرجّحوا أنه يعود تاريخ أو عصر صنعها إلى عُصور متتالية. وبعد بحث دقيق ظنوا الأقدم منها هو عمل النوبة الأوَّلين القادمين من كُردُفان واستقروا في ضواحي تنقاسي فكانوا منتظمين في قبائل. ثم هزمهم الملك "عيزانا" عند غزوته ضد مروي وبعد ذلك أعادوا تنظيمهم في ممالك صغيرة إقطاعية فصارت أول مملكة المقرة[٥١٧].

ولكن بعد انهيار العرش المسيحي في المقرة وهجرة السكان على مر العصور في القرن الخامس عشر تدهورت حالة المدينة فذكر ابن فضل الله العمري (حوالي سنة ١٣٤٢م) أن مستوى معيشة السكان منخفض ويدفعون خراجًا للسلطان لا بالذهب ولا بالفضة وإنما بعدد "من العبيد والإماء والحراب والوحش النوبية". غير أنه يضيف قائلاً إن أهل دنقلة "أصلح من كثير ممن سواهم من السودان".[٥١٨]

هذا، وقد ورد في كتاب السلوك للمقريزي أنه في سنة ١٣٦٦م كانت مدينة دنقلة كثيرة الخرائب وكان ملكها قد اتفق مع السلطان ليذهب إلى قلعة الدو (أي جبل أدة اليوم) ويسكن.

جزيرة أبكانرتي

هي جزيرة في وسط بطن الحجر كثيرة المنازل ومحصنة وأجرت فيها بعثة إسبانية[٥١٩] حفريات وأبحاث دقيقة (١٩٦٢) فوجدتها خالية من السكان فاستنتجت أن كثيرًا من الناس التجأوا إليها في أوقات حملات النهابين، ثم طرحوها، وأجمل الآثار التي وجدتها البعثة هو رق مكتوب باللغة النوبية القديمة، جاء فيه اسم "يواكيم" مزارع الأراضي الخاصة بكنيسة صغيرة في نفس الجزيرة. ففي مكان آخر قرب نفس الجزيرة واسمه "قصر إيكو" (Qasr Iko) أجرت البعثة الإسبانية كشفًا فاكتشفت كنيستين وفيهما صور السيدة مريم العذراء في حالة سيئة. أما في مكان اسمه ارقين تجاه مدينة وادي حلفا، فحفرت البعثة ٩٥ مقبرةً مرويَّةً وبقربها – في ناغ الغرب – أكثر من ألف مقبرة، ومنها ٣٥٠ مقبرة مسيحية و٤٩٠ أخرى عائدة إلى مجموعة مقابر كما يسمونها و٩٠ مروية، مما يدل على تسلل المسيحيين إلى منطقة بطن الحجر في مملكة نوباديا قبل وصول وفود من المبشرين من القسطنطينية سنة ٥٤٣م.

فلا ننسى أن بعثات أخرى عملت وتعاملت في اكتشاف الآثار التاريخية الكاملة التي تحت رمال النوبة،

---

517 A.M. Ali Hakem, "Napatan" – "Meroitic" Continuity. Reflections on Basic Conceptions on Meroitic Culture, in: S. Donadoni, S.Wenig, Studia Meroitica 1984, Berlin : Akademie-Verlag 1989, p. 885-894.

٥١٨ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ١٤٩٢ في مسعد، ص ٢٤٣. (cf. OS, p. 511)

519 Cf. Presedo Velo, F., El poblado cristiano de la Isla de Abkanarti en la Segunda Catarata del Nilo (Sudán), Memorias de la Misión Arqueológica Española en Nubia, VII, Comité Español de la Unesco para Nubia, 1965.

فأنقذت الأكثرية منها، كما أنه لم يزل العمل لاكتشاف كل ما يُبَيِّن نوع الحياة عند سكان وادي النيل الأقدمين.

سُنّرتي

هي جزيرة صغيرة في بَطْن الحجر على بعد ٢٠ كيلومترًا شمال سُنْقي طينو. رادتها بعثة أثرية ألمانية سنة ١٩٦٩ تحت إدارة الدكتور "دِنكلر"[٥٢٠] فوجدت على قمة الجزيرة كنيسة صغيرة الحجم فيها خِرب كثيرة. وبحث العلماء في كل الخرب فاكتشفوا بعض المفروشات في حالة مميزة، وبينها أجزاء الصور وتُعْتَبَرُ أبْرَزَ تُحْفة ورقة البردي المكتوب فيه آيةٌ مشهورة من إنجيل متى (١٦:١٨) "أجاب سمعان بطرس قائلاً: أنت المسيح ابن الله الحي فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يُونا... وأنا أقول لك أنت الصَّخْرة وعلى هذه الصَّخْرة سأبني كنيستي".

ومن المقَدَّر أن الكنيسة تَقَعُ في مكانٍ صعب الصعود إليه، وقَدْ بقيت صالحة لأداء العبادة حتى القرن السابع عشر على الأقل.

جزيرة مينارتي

ظن بعض العلماء أن اسم هذه الجزيرة هو "مي نرتي" وغيرهم يظنون أن الأصل هو "ميخائيل نرتي" كما ورد أحيانًا في كتب المؤرخين. وهي على الأرجح تتوافق مع "تقوى" (بكوا؟)، اسم مكان ذكره سليم الأسواني[٥٢١]. وهذه الجزيرة الواقعة على الطرف الشمالي للشلال الثاني كانت المكان الذي يبتدئ منه أو ينتهي إليه كل المراكب النيلية العاملة في التجارة بين مصر والنوبة. وكان الأبرخص – أي نائب ملك دنقلة المقيم في قصر إبريم – يراقب كل أشكال ومواد التجارة بواسطة مندوب له يمثله في الجزيرة، لأن كل حقوق التجارة بين مصر ودنقلة والعكس كانت من احتكار ملك دنقلة. هكذا، على الأقل في هذا الزمان ما دام ملك دنقلة يمارس تمام السلطة على ربوع مملكته.

والجزء الشمالي للجزيرة كثير الصخور، أما الجزء الجنوبي فسهل مسكون ومكان فيه منازل ومزارع لسكان الجزيرة وفيه أيضًا كنيسة ودير تم اكتشافهما قريبًا والصور التي كانت تزين جدران الكنيسة توجد الآن في المتحف السوداني القومي.

واتَّضح من الحفريات أن الجزيرة كانت مأهولة مِنذ القرن الرابع حتى السادس عشر الميلادي، لكنها تأثرت تأثرًا

---

520 Cf. E.Dinkler, West-German Excavations on the Islands Sunnarti, Turmuki and Tangur in 1967-1968', Nubian Letters 4(1985): p. 2-14.

٥٢١ ملاحظة المحقق: راجع أيضا: المقريزي، المواعظ (G. Wiet)، ٢، ٣، باريس ١٩١١-١٩٢٧، ص ٢٥٢-٢٥٣. (cf. OS, p. 603)؛ ومؤلفات آدمس:

W. Y. Adams, Meinarti I: The late Meroitic, Ballana and transitional occupation (SARS Publication 5), London, British Museum Press, 2000; Meinarti II: the early and classic Christian phases, 2001; Meinarti III: the late and terminal Christian phases, 2002; Meinarti IV and V: the church and the cemetery : the history of Meinarti, 2003.

شديدًا من بعض الفيضانات النيلية في القرن الحادي عشر مما ألزم السكان ببناء أسوار ضخمة. ثم تأثر سكان الجزيرة تأثرًا عدائيًا كلما مرت عليهم جيوش المماليك ضد دنقلة سنة ١٢٧٦ و١٣٦٦م، فهاجر جميع السكان من الجزيرة. وبعض اللوحات الجيدة التي تم اكتشافها في كنيسة القرية تحفظ بمتحف السودان القومي.

دبيرة غرب (DEBEIRA WEST)

لقد صار من المدهش أن الكنيسة في هذه القرية مقابل وادي حلفا قد استمرت في حالة جيدة حتى أوائل القرن العشرين الميلادي، إذ أن أحد العلماء الأمريكيين (Mileham) قد رآها في سنة ١٩٠٠م واتَّخذ منها صورًا فوتوغرافية يظهر فيها مبنى الكنيسة كما كانت في أيام بنائها. توجد فيها لوحة حجرية تذكر أن الشماس "بطرس" سنة ١٠٢٩م كان يقوم بالخدمات في نفس الكنيسة. أما القُبَّة النصفية التي تعلو مكان الهيكل فكانت قائمة والصُّوَر فيها غير مصابة بضرر وهناك صور أخرى على جدران الكنيسة قد تم البحث فيها أثناء حملة إنقاذ آثار النوبة وقد تم ذلك بنشاط بعثة من جامعة "أكرا" في غانا سنة ١٩٦٢ تحت إدارة البروفسور "شنّي" (Shinnie) البريطاني[٥٢٢]. ووجدت بها لوحة تظهر سفينة نوح وعائلته.

بوهين

إذْ سَبَق أن شيَّد الفراعِنة في بُوهين حِصنًا عَظِيمًا يَبْدو أنه كان قائمًا منذ عام ٢٠٠٠ ق.م.

إن المكان كان استراتيجيًّا والحِصنُ كان يَضْمَنُ الأنشِطة التجارية المِصرية في الربوع الإفريقية ولا سِيَّما الحِماية للعامِلين في مَعادِن الذَّهب في أرْضِ النُّوبة.

وفي عصر المسيحية كانت هُناك جماعة مسيحية بَنَتْ كنيسة صغيرة – أو حَوَّلت المعْبَد الوثني السابق إلى كنيسة – فَرَفَعت الأرضية بمتر فتمَّ اكتشافها قبل أن يختفي الحِصْنُ والمنطقة كلها تحت مياه بحيرة النوبة. ووجد المكتشفون (١٩٥٨) لَوْحَة خَشَبِيَّة فيها صورة مع بعض كلمات من الإنجيل.

صاي

صاي أكبر جزيرة في النوبة السفلى (١٠ كم × ٥) وتقع على الطرف الجنوبي للشلال الثاني أي المنطقة المعروفة ببطن الحجر.

---

522 Cf. P.L. Shinnie-M.Shinnie, Debeira West: A Medieval Nubian Town. University of Ghana Expedition to Nubia, London, Warminster, Aris & Phillips, 1978; Geoffrey S. Mileham, Churches in Lower Nubia, (Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia 2), Philadelphia, University of Pennsylvania, Egyptian Department of the University Museum, 1910.

وكان موقعها كبير الأهمية الإستراتيجية منذ عصور الفراعنة حتى العصر الحديث في أيام السلطنة العثمانية (سنة ١٦٠٠م) فتركوا فيها حصونًا ومبانٍ مختلفة على سبيل المراقبة على المجْرى الأعلى للنيل.

وفي العصر المسيحي أيضًا لعبت الجماعة المسيحية المحلية دورًا مهمًا فنجد هذه الجزيرة من بين قائمة الكراسي الأسقفية النوبية التي أقاموها منذ البداية العائدة إلى سنة ٧٠٠م. ويبدو من الآثار القليلة الموجودة حتى الآن في الجزيرة أنه كانت هناك كنيسة مُزيَّنة بالكتابات وغيرها من المنقوشات الحجرية إلا أنه لم يجد المكتشفون شيئًا من الصور لأن جدران الكنائس قد تم تدميرها حتى الأساس فلم يَبْق من الكنيسة إلا الأعمدة الحجرية وبعض التفاصيل من أحجار كانت تزين الشبابيك.

الفصل الرابع والعشرون

أماكن اشتهرت إثْرَ اكتشافات في النوبة المسيحية

مملكة "الأبواب"

الموقع الدقيق لهذا المكان كان موضع خلاف بين المؤرخين، ولكن كما يوحي الاسم نفسه، أنها كانت بوابة لمنطقة هامة، ما بين أبو حمد وعطبرة (أي بين مملكتي المقرة وعلوة). فعلا في زمن رجوع حملة المماليك من الشاك (١٣١٦-١٣١٧)، المؤرخ النويري يقول إن الحملة تبعت نهر عطبرة، ثم دخلت مملكة الأبواب، وبعد ١٧ يوما وصلوا إلى دنقلا"[٥٢٣].

تُحسَبُ مَملكة "الأبواب" إحدى الممالك المسيحية الأخيرة التي ظَهَرَت في وادي النيل في القرن الرابع عشر الميلادي بعد انهيار مملكة المقرة الكبيرة. واسم مملكة الأبواب يَرِدُ في التاريخ لأوَّل مرة لَدَى الكاتب اليَعْقوبي[٥٢٤] (سنة ٨٦٠م)، ثم لا يُذْكر هذا الاسم إلا في عصر السلطان المملوكي بيبرس حوالي سنة ١٢٧٦م، لأن الملك داود ملك دُنقلة هرب إلى الأبواب لكيلا يَقْبِض عليه جيش المماليك الذي كان قد فتح دنقلة وصار يطارد الملك دون أن يعتقله، لكن الملك "أَدُور ملك الأبواب" كانت له علاقات طيبة مع سُلْطان المماليك فقَبَضَ على داود وأرسله إلى القاهرة سجينًا"[٥٢٥].

أمَّا الملك شِمامُون فوَرَدَ في تواريخ ذلك الزمان أنه هو أيضًا هرب من عاصمته إلى مملكة الأبواب فقبله الملك "أدُور" سنة ١٢٨٦م مما نستنتج منه تغيير العلاقات بين أدُور والسلطان المصري. هذا ما وَرَدَ في الكُتُب. ثمّ التجأ إلى مملكة الأبواب عددٌ كبيرٌ من المسيحيين الهاربين من دُنْقُلة فلاحظ الخُبَراء أن المملكة قد شهدت فترة ازدهار تدُل عليه الكنائس التي بُنِيَت في مملكة الأبواب وخُصوصًا كثرة وجمال الفُخار العائدة إلى تلك الفَتْرة من القرن الرابع عشر. ورُبَّما كان السبب في ازدهار هذه المملكة هو الحصون العديدة على طول الطريق من مصر إلى دخول

---

[٥٢٣] ملاحظة المحقق: راجع: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مسعد، ص ٢٣٤-٢٣٥. الخليفة عبد الله (١٨٨٥-١٨٩٨)، في رسالة لأتباعه في منطقة أبو حمد، ويدعو المكان" بوقاز"، وهي كلمة تركية تعنى "البوابة". وهذا يبدو لتأكيد أن اسم "الأبواب" كان تقليديا مستخدما هناك حتى الاحتلال التركي (١٨٢١-١٨٨٥).

[٥٢٤] ملاحظة المحقق: راجع: اليعقوبي، كتاب البلدان، في مسعد، ص١٧.

[٥٢٥] ملاحظة المحقق: راجع: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوطة باريس ١٥٧٨، ص٨٨ v؛ في مسعد، ص ٢٢٢. (cf. OS, p. 475)

أراضي مملكة الأبواب. ففي زمان الازدهار قد امتدَّت أراضي المملكة حتى كابوشية قُرب مدينة مروي القديمة وفي مكان اسمه "قَلكُول" توجد آثار الفُخار وغيرها من العَهْد المسيحي ممزوجة مع فخار عصر الفونج.

أمر الملك "فاسيلادس" ملك غندر الملك الفُونجيّ في سنار ألاَّ يَسمح للمسيحيين الهاربين من إثيوبيا (١٦٣٦) أن يسكنوا ويستقروا في أراضي ملك سنار – ويُوجدُ هذا الخبَر في رسالةٍ أرسَلَها أَحَدُ المبَشّرين الكاثوليك من سواكن إلى أحد الكرادلة في روما بتاريخ ٣ يناير ١٦٤٥.

هَمْبُكول

هناك في وادي النيل أكثر من بلدة واحدة تُدْعَى بهذا الاسم "هَمْبُكول" وهذا معناه "مكان النخل" والبلدة التي نتحدَّث عنها هُنا بسبب الآثار التي تم اكتشافها فإنها تقع شمال مدينة دُنْقلة بقليل. كَتَبَ المؤرِّخ "سليم الأسواني" عن هذا المكان فذكر أنَّه كثيرُ الزِراعَة والمنازِل والأَدْيِرة فَيَذْهَبُ إليها مَلِك دُنقلة أحيانًا.

وفي الثمانينات والتسعينات أَجْرَت بِعْثَةٌ أثرية مِن كَنَدَا (متحف أونتاريو الملكي)[٥٢٦] الحَفْرِيَّات وأَتَت بِبَعْضِ الملحوظات المهِمَّة لا سِيَّما فيما يختَص بالمنازل الشعبية القديمة والمقابر. والجدير بالإشارة أن المنازل القديمة – قبل البقط (٦٥٢ م) – كان كل منزلٍ صغيرًا ومُتَّصِلاً بآخر بدون فناء (حوش)، ولكن بها جدران دفاعية. أمَّا البيوت المبنية بَعد ٦٥٢ فقد كانت أوسَع حَجْمًا ولها فناء (حُوش). ثُمَّ البُيوت المبْنِيَّة في الفَتْرَة الأَخِيرة – بعد سنة ١٢٥٠ – فعادت كما كانت صغيرة ولها جُدْران ضَخْمَة وغُرفة أو غُرْفتان لا نافذة لها ولا باب فيدخل المرء من طبقة الأرضية مما يدل أنها مَخَازن البيت أو البَلْدَة مُحَصَّنَة ضد اللُصوص.

هذا وفي أساس البيوت وَجَدَ المكتَشِفُون ثلاث لوحات بشكل طَبَقات مَكْتُوب عليها أسماء أربعة عشر [ك!] تلميذًا من تلاميذ السيد المسيح[٥٢٧]. وعلى الرغم من أن الطين كان المادَّة العَادِيَّة للبِنَاء لكِنَّ الطُوب الأَحْمَر كان مستعملا في أي فترة من الزمن.

وفي هَمبُكُول أيضًا مقابر مَروِيَّة وقد اكتشفوا مقبرة واحدة أو اثنَتَين شكلها مسيحي مما نستنتج منه أن المسيحية بدأت تنتشر هناك في أواخر عصر مروي.

ومن الجدير بالذكر أن واحدًا من جُدران الكنيسة مكتوب عليه ثلاث كلمات – غير معروفة – باللغة النوبية

---

[526] K. Grzymski, J. Anderson, Hambukol Excavations 1986-1990 (Canadian Expedition to Nubia I; SSEA Publication 16), Toronto, Benben Publications, 2001; K. Grzymski, J. Anderson, Three Excavation Seasons at Hamboukol (Dongola Reach): 1989, 1990 and 1991-92, ANM 6 (1994), p. 93-105; K. Grzymski, "Canadian Expedition to Nubia: the 1994 Season at Hambukol and in the Letti Basin", Kush 17 (1997), p. 236-243.

[٥٢٧] ملاحظة المحقق: في (Rediscovering Christian Nubia, p. 224) يذكر الأب فانتيني "٨٤ تلميذا". واختار يسوع اثني عشر منهم في لو ٦: ١٣، وهم الرسل، وارسل ٧٢ في لوقا ١٠: ٣٧ لكي "تَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ". ولكن حسب (Grzymski)، [illegible] المكتوبة في كل وعاء هو ٧٢. راجع: Excavations at Hambukol (Upper Nubia): 1987 and 1988 Seasons, JARCE: 139-163.

القديمة وهي (لي...ساي...هـ).

وفي مدينة كريمة اكتشفت بعثة علمية تابعة للجامعة المحليَّة (٢٠٠٣-٢٠٠٤م) عددًا من المقابر المسيحية قرب الحزيب العائدة إلى عصر مروي والنبتة.

وفي قرية الزومة الواقعة إِدْبارَةَ النهر وَجَدَ المكتشفون بعض المقابر التي يعود تاريخها إلى زمان انهيار المملكة المروية وأخرى تعود إلى أيام ظهور مملكة المقرّة – أي القرن الخامس الميلادي.

دنجيل

في عام ٢٠٠٥ قامت بعثة من جامعة الخرطوم بكُشوفات وبُحُوث حول تلك المدينة القديمة والغريب أن مبانيها في حالة جيدة ولكنها ليست مأهولة بالناس. فلاحظ المكتشفون أكوامًا من قِطَع وآوانٍ فخارية فجمعوها وعددها مليون وسبعمائة ألف قطعة متراكمة على طبقات متتالية وكلها من نوع واحد أي لصياغة الخُبز ممَّا استنتجوا منه أن الخبز كان الطعام التقليدي عبر آلاف السنين في وادي النيل – وربما في ربوع أخرى من القارة الإفريقية.

ويُؤكِّد المؤرِّخ والعلاَّمة (رايزنر) (G.A.Reisner) أن التبادل التجاري بين مصر وسُكَّان النُوبة حتَّى الشَّلاَّل الرابع قد كان ساريًا مُنْذُ سنة ١٥٠٠ق.م.

بطن الحجر

قد أُطلِق مثل هذا الاسم على جُزْء من وادي النيل[٥٢٨] (طوله ١٨٠ كم) حيث تسيل مياه النيل على مجرى من حرانيت تظهر فيها جُزُر وصخور متتالية وبين سلاسل من جبال ولا يرى الإنسان هناك شيئًا غير جبال من حرانيت كأنها كانت المنطقة التي وُلِدَت فيها كل الجبال والحجر في السودان.

وهي منطقة كثيرة الآثار لأن الأهالي الذين سكنوها التجأوا إلى تلك الجزر في أوقات الخطر من غزوات العدو – أيًّا كان – في كل العصور. وفي عصر المسيحية بالنوبة أيضًا واجَهَ السكان غزوات وسكنوا الأماكن التي يصعب الاقتراب أو الوصول إليها ومعهم مواشيهم وسكنوا هناك سنين طويلة وتركوا أشياء – من منازل وكنائس وأوان وأدوات متنوِّعة وحتى المزابل فيمكن للباحث أن يحسب مدة إقامتهم في تلك الجزر.

والجدير بالذكر أن الكنائس والمنازل تدلُّ على أن السكان المسيحيين استمروا ملتجئين في جزر النيل – أي في بطن الحجر – في القرى الصغيرة الواقعة على الشاطئ قُرب النهر حتى القرن السابع عشر وربَّما حتى القرن الثامن عشر.

[٥٢٨] ملاحظة المحقق: جنوبي الشلال الثاني.

أدندان (جزيرة دندان)

عديندان هو الحد السياسي الحالي بين مصر والسودان وهناك كانت تُوجد كنيسة اختفت الآن تحت مياه النيل والمكان مذكور لدى المؤرِّخين، لأن هُناك غَرِق رجل كُردي اسمه "إبراهيم الكُردي" الذي عيَّنه (توران شاه) الإسماعيلي ليملك. كان يغزو ضواحي فرص فغرق عندما كان سائحًا في النيل مع زملائه[٥٢٩]. وبعد ذلك ترك الكُردي النُوبة السُفلى فرجعت إلى مُلك دنقلة (١١٧٣ م).

دوتاو (أي جبل أدة)

هذا هو الاسم النوبي القديم لحِصْن مَنيع قائم على ضِفَّة النيل الشرقية المقابلة لمعبد أبي سِمبل.

وكان اسم جبل أدَّة الأصلي "أطوى" وهو ليس اسْمًا عربيًا وإنما من اللُغة المحلية القديمة جدًا، لأنَّ هناك كثيرًا من المقابر المرْوِيَّة وخمسة أهرامات صغيرة تدلُّ على أواخر العصرِ المرْوي في السودان.

أمَّا المسيحية فيبدو أنها دَخَلت تلك المنطِقة أولاً مُنْذ القرن الثاني الميلادي أو الثالث، وثَبُت هذا الظَّن المزْعُوم من بعض المقابر المسيحية وقد حَفَر العُلَماء ٤١٠ مقابر منها ووجدوها منهوبة فيعُودُ أغْلب التواريخ إلى ما بين ٥٥٠ و ٦٠٠ م.

فذكر الأسواني – سنة ٩٧٠م – أنه من أهم مراكز مملكة نوباديا وفيه كنائس إلا أنه لم يكن هناك إثبات لوجود مقر كرسي أسقفي. وقد أصبح الحصن واحدًا من أهم الحصون بعدما التجأ إليه أمير سليل من أسرة دُنقلة المالكة سنة ١١٣٠م من جراء خلافات سياسية، فسكن هناك الأمير وخلفاؤه وأسَّسوا مملكة جديدة مُستقلة عن دُنقلة استمرت في الوجود أكثر من ٤٠٠ سنة أخرى – حتى بعد سقوط عرش دنقلة في يد المسلمين. تذكر مخطوطة من إبريم الملك جورج سيمون، ملك دوتاو في عام ١٢٨٧م. وتم العثور على وثيقة أخرى مع اسم الملك سيتي من دوتاو (١٣٣١م) في إدفو بصعيد مصر. ومن الجدير بالذكر أن اسم الملك "يُويل" ملك دوتاو منقوش على صخر مع التاريخ ١٤٨٤م مع المطران "مركي". بالتالي عاشت جماعة مسيحية في دوتاو على الأقل حتى نهاية القرن الخامس عشر. في وقت لاحق تم نشر حامية عثمانية صغيرة هناك.

شمكية/شنقير

شمكية هو الاسم الحالي لشنقير القديمة، وكانت في الماضي مقرا للأسقفية في المقرة، فهي مذكورة في قائمة الكراسي الأسقفية للمقرة في وثيقة قبطية عائدة إلى القرن الثامن. وإذ ذاك فقد صار مشهورًا بالنسبة للحروب التي

[٥٢٩] ملاحظة المحقق: راجع: أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (تحقيق محمد حلمي أحمد)، ١، ٢، القاهرة ١٩٦٢، ص ٥٣٢؛ في مسعد ١٨٠.

حرت بين زكريا بن الملك جورج الأول والإمام عبد الرحمن عبد الله العمري الذي حاول أن يمتلك تلك المنطقة التي رأى أنها تكثر فيها معادن الذهب (٨٦٠ – ٨٦٨م).

وتعرّف شمكية/شنفير كان نتيجة لعمليات المسح والتنقيب من قبل مجموعة من المعاهد الأثرية البولندية (٢٠٠٤-٢٠٠٥)[530]. وقالت إنه كان "واحدا من المناطق الأثرية الأخصب" في وسط النيل وقبالة أبو حمد. فوجدوا مجموعة من المقابر المسيحية الواسعة وثلاثة مرفقات محصنة، على مسافة ٥ كيلومترات بين الواحدة والتي تليها، وبعض الكنائس ضمن الحصون.

على نفس الضفة، في موقع "الأر" المعترف بأنه أكثر المناطق كثافة سكانية خلال فترة المملكة المسيحية. وهناك أيضا مناجم الذهب الغنية. ومع ذلك بعض علماء الآثار يفترض أن تواجد العديد من القلاع على طول نهر النيل كان من أجل توفير المأوى للسكان، بالإضافة إلى حماية مناجم الذهب.

دار العرب (سويقي غرب)

هو عبارة عن حصنٍ له ملحق يُسَمَّى "بُرج الكنيسة". والسبب لمثل هذا الاسم هو أن هناك حوشًا يحيط به سور وفي الحوش بعض المقابر المسيحية ممتازة الشكل مما يدل على أن السكان القدامى بنوا مقابر في ذلك المكان المتحصّن احترامًا لأجساد الموتى.

وعَمل أحدُ علماء الآثار (J. Phillips) كشفًا دقيقًا وجمع خمسة آلاف قطعة فخارية جميعها تعود إلى عصر المسيحية إلا قطعة واحدة يظهر فيها أسلوب الفونج. فاستنتج المكتشف أن المسيحيين من النوبة استولوا وسكنوا في تلك المنطقة حتى بداية القرن السادس عشر – أي إلى وصول حكم الفونج.

جزيرة صَفي

في جزيرة صفي (على بعد ٥ كم من دار العرب، في نفس الضفة) البعثة البولندية المشتركة أجرت أبحاثا على الاقتصاد الزراعي، تكملة للحفريات التي نفذت من قبل معاهد أخرى سابقا.

وبما أن الأمطار نادرة للغاية وشحيحة فإن البعثة البولندية للآثار لاحظت أن الموتى دفنوا بالقرب من الوادي، حيث تتدفق مياه الأمطار أو تتراكم. علماء الآثار يعتقدون أن جذور هذه العادة في المعتقد في مرحلة ما بعد المروية ن الماء يروي العطش من القتلى ورمزيا، ينعشهم!

أما بالنسبة للكنائس في الجزيرة، فالمبنى الوحيد الذي يمكن أن يوصف بأنه "كنيسة" في موقع تم ترميزه "صفي

[530] Cf. B. Żurawski, Fourth Cataract: Survey and Excavations in Shemkiya, Dar el-Arab and Saffi Island, PA XVII(2005), p. 323-335.

٥٦". وهو صرح طوله ٨ أمتار، وتمت المحافظة عليه فقط في وقت تأسيسه (مثل الذي اكتشف في جبيس غرب). لأنها تمثل نوع من "الكنائس بدون جدران" في آخر عهود المسيحية، عند اضمحلال الوجود المسيحي واختفاؤه من المنطقة.

جبل موسى/سلامات (حمداب)

بعد أن قرّرت الحكومة السودانية بناء خزّان في منطقة حَمَدَاب – وهذا سوف يُسبب غرق جزء واسع من وادي النيل فتختفي إلى الأبد الآثار الموجودة في مكان قلب مملكة المقرة – أسرعت إلى تلك المنطقة بعثات علميّة من بلاد مُختلِفة ومن المؤسَّسات السودانية لإنقاذ الآثار المجهولة الموجودة هناك.

فحضرت – مثلاً – بعثة ألمانيَّة تابعة لجامعة "هومبولدت" (Humboldt University Nile Expedition, HUNE) وأجرت كشفًا في منطقة الشلاّل الرابع (٢٠٠٤ – ٢٠٠٦) ووجدت خمسمائة وخمسة وثمانين مكانًا فيه آثار من قبور ولوحات، فخارية فأشارت إلى أهمية الحفر والبحث وأعلنت أن أغلب الآثار تَعُود إلى العصر المسيحي كما وجدت كنيسة صغيرة في جزيرة "أوس". وكل الآثار الليتورجية اللازمة لأداء العبادة فيها وكلها في حالة جيدة. والكتابات باللُّغة اليونانية تدلُّ على زمن بنائها في نهاية القرن الثاني عشر.

الهليلة

وهي مثال جيد للقرية المحصنة بجدار سميك جدا على شكل حدوة حصان مع ١٢ برجا على طول الجدران. وكانت منطقة استقرار مسيحية بعد اندماج نوباديا والمقرة (٥٨٠- ٦٥١م) وهذا يوضح تقارب أنواع الهندسة المعمارية من الكنيسة النوبية المتأخرة، التي تم بناؤها بطوب كبير نسبيا.

سوبا

ليس هناك دليل على زمان وجود سوبا كعاصمة مملكة – حسب ما أورد العَلاّمة "ولسبي" (Welsby)[531]، ولكن في القرن الرابع الميلادي كانت عاصمة مملكة علوة فجاء اسم المملكة لأول مرة في كتاب "تاريخ الكنيسة" ليوحنا الأفسسي[532]، ووَرَدَ اسم العاصمة للمرة الأولى لَدَى اليعقوبي (٨٦٠ م). لكنه يوجد ما يدل على أن المكان كان مأهولاً قبل القرن الرابع في عصر المملكة المروية، وكان أحد المراكز للمملكة المروية إلى أن تأثر بالمسيحية لنشاط بعض الإثيوبيين، ثم تم الاهتداء للمسيحية في القرن السادس الميلادي.

[531] Cf. D.A. Welsby, "Excavations at Soba East, 1991-92", Kush 16 (1993), p. 54-73.

[٥٣٢] ملاحظة المحقق: كتب يوحنا الإفسسي "تاريخ الكنيسة" حوالي عام ٥٨٠م باللغة السريانية.

ما من شك أن مدينة سوبا من أهم المدن والأماكن التاريخية في النوبة لكونها عاصمة مملكة. لكنه – وللأسف – لم يكتب المورخون العرب والمسيحيون أشياء كثيرة عن تاريخها الممتد من سقوط مروي (٣٥٠م) إلى تخريبها النهائي في بداية القرن السادس عشر.

وكل ما نعرفه من المصادر المكتوبة أن ملكها وشعبها اهتدوا بالمسيحية في أيام لونجينوس وصارت تحت رئاسة البطريرك القبطي الأرثوذكسي. ثم ذكر اليعقوبي أن التجار المسلمين يذهبون من مصر إلى سوبا. وابن حوقل يقول إن المملكة شاسعة جدًا والأسواني يذكر أن فيها كنائس وذهب كثير وأديرة للرهبان. وابن ضيف الله يذكر أن سوبا تم تخريبها في حوالي سنة ١٥٠٠م. والحفريات التي أجريت في موقع سوبا أثبتت وجود بعض الكنائس والقصر الملكي ولم تتحصل على تحف ثمينة وإنما وجدت بعض قطع العواميد وتماثيل "الخروف" وهو رمز الإله آمون، وكميات من الطوب الأحمر وهي بقايا أسوار الكنائس. أما المنازل الشعبية قد اتضح أن الأقدم فيها مستدير ثم مبنيّ على أشكال متوازية وغالبًا من الخشب. ومن البحث الدقيق في الكتابات والمنقوشات اتضح أن الكثير منها يذكر الملاك ميخائيل وفيها صورة الصليب منقوشة بمختلف الأساليب. أما بقايا مباني المدينة فقد اختطفها جملة من الناس الذين بنوا الخرطوم في القرن التاسع عشر، ولم يزل اسم سوبا محترمًا لدى الشعب.

لغات النوبة

في الفترة المروية في وقت متأخر، كانت اللغة اليونانية معروفة إلى حد كبير فقط في ما يسمى إقليم "Dodekaschoinos". لم يكتب البليميون وأهل النبتة لغاتهم وكانت كل مراسلات وخطابات الملوك والزعماء مكتوبة باليونانية. في الفترة المسيحية انتشرت في جميع الممالك النوبية الثلاث، مع استخدام واسع للقبطية في نوباضيا. أواسط النيل حتى الشلال الرابع تم دمجه لعالم النوبة المسيحية من خلال اللغة اليونانية وأدبها.

وقد لعب رهبان دير الغزالي الدور الرئيسي لهذا التطور في الضفة اليسرى (الجنوبية) لنهر النيل، في قبالة كريمة. من أصل ١٧١ أنصابا تذكارية من طين وجدت من قبل الدكتور أليكسندروس تساكوس (Alexandros Tsakos)[٥٣٣]، ١٣٩ منها أتت من المنطقة ما بين الشلال الثالث والخامس. على وجه الخصوص الصلاة المنقوشة على كل لوحة تقريبا هي "Euchologion Mega". وهذا يعطي فكرة عن تأثير ديري دنقلا ووادي الغزالي في نشر استخدام اللغة اليونانية بين السكان، مع انتشار أكثر من اللغة النوبية القديمة المحلية أو اللغات المحلية الأخرى.

وفي فرص، ومن بين الكتابات الجدرانية المائتين، ٢٣ منها كانت منقوشة باليونانية، و ٢٦ بالقبطية و٦٢ بالنوبية القديمة. في وقت لاحق، أصبحت القبطية لغة الوثائق الرسمية، ولكن اليونانية لا تزال تستخدم في الكنسية.

[533] Cf. ALEXANDROS TSAKOS, Terracotta funerary stelae from Christian Nubia, in: Between the Cataracts: Proceedings of the 11th International Conference for Nubian Studies, Warsaw University, 27 August-2 September 2006, Part Two: Session Papers, p. 683-694.

وآخر نقش يوناني يعود تاريخه إلى ١٣٧٢.

لَقد رَأى مَجْمُوعة من الخُبَراء أَنَّ الرِباط العُمُومي بين أهالي المَمالك النُوبية كان من الناحية اللُغوية واللُغة النُوبية قد تَطوّرَ فيها ثلاثُ لَهَجات وهي: "الكَنزي" لَدَى السُكّان بين أسوان والمحرّقَة، ثم المحَسي من المحرّقة حتى ضَواحي الشَلال الثالث وهي اللغة (الكلاسيكية) التي كان الأهالي يكتبونها في كُتُبهم رَغْمَ بَعْض الفَرق في النطْق بين مَنطقَة وأُخرى، وأخيرًا الدُنقُليّة وهي السائدة بين السُكان مِن الشَلاّل الثالث إلى الرابع. فلا تختلفُ اختلافًا كبيرًا ملحوظًا وذلك للاتّصالات الجارية بين أهل الكنوز وأهل دُنقُلة.

وإذا رأيْنا التَّطوُّر العام الذي جرى لأهالي النوبة فقد اتَّضَح أنّه كان كَنُقْطَة التقاء بين الحضارات المصرية في عصورها المتتالية والحضَارات الإفريقية. فَتَدَخَّل في هَذَا التَّطوُّر الأحْدَاث التاريخية التي لَمْ نَعْرِف كَثيرًا عنها وأيضًا التأثيرات اللغوية. ففي الجزء الشمالي يُمكننا أن نرى التأثير من مصر. أمّا في الطرفِ الجنوبي جنوبًا مِن مروي يَظْهَرُ تأثير الثقافة الإفريقية أكثر فأكثر.

الأديرة

وفقا للعالم جوتي[٥٣٤] معلوماتنا عن الأديرة النوبية من المصادر الأدبية هي غير تامّة وغير مُصَدَّق عليها غالبا. وبالإضافة إلى "دير الثالوث الأقدس" بدنقلا، كانت هناك أربعة أديرة والدليل على وجودها تم توضيحه بالآثار (على سبيل المثال الدير بقصر الوزّ بالقرب من فرص، حيث عُثِر على النص الكامل "لمدح الصليب المقدس" المكتوب بالنوبية القديمة)؛ وآخر في دنقلا وهو قديم جدا ودمر في وقت لاحق، ودير الغزالي الشهير، وواحد في كل من المواقع التالية: تنقاسي، ودير البولور، وتافا، والعلاقي، وتاميت والرمال.

ومواقع أخرى ذكرها الكتاب هي سَقَنُوف (أبو صالح[٥٣٥])، وسيالة، ومديق، ودبيرة غرب، وقَصر أنتاو، وسمنة وسفد بقل (سليم الأسواني[٥٣٦])، وعين فرح، وسليمة[٥٣٧]. وقال كوسما (Cosma Indicopleustes) إن في حينه (٥٥٠-٥٦٠م) "بين أهل النبتة، والغرامنتيين، وفي مصر...في إفريقيا وموريتانيا حتى قدير جنوبا، هنالك كنائس المسيحيين،ومطارنة، وشهداء، ورهبان، ونسّاك يبشرون بإنجيل المسيح"[٥٣٨].

[534] Cf. P. JEUTÉ, Monasteries in Nubia - An Open Issue, Nubica 3/1 (1994), p. 59-97.
[٥٣٥] تاريخ أبي صالح الأرمني (ed. Evetts)، ص١١٩؛ في مسعد، ص١٣٧.
[٥٣٦] سليم الأسواني في: المقريزي، المواعظ W ٢، ص ٢٥٧.
[537] Cf. THEODOR KRUMP, Hoher und Fruchtbahrer Palm-Baum, Augsburg 1710.
[538] COSMAS INDICOPLEUSTES, Christian Topography, in Patrologia Graeca 88, col. 170. cf. OS, p. 2-3.

فخاريات دنقلا

درس الدكتور بلوسكوتا (Pluskota) [٥٣٩] بصفة متانية الفخّار الذي عُثِر عليه في دنقلا العجوز والمنطقة المحيطة بها. وتوفر هذه الدراسة الأدلة الأثرية على إنتاج الفخار عالي الجودة. على الرغم من أن مواد أخرى تشير إلى وجود الفخار الغني والمتنوع خارج منطقة العاصمة.

بني كنز

"بني كنز" هم مجموعة من أصل عربي مختلطة بالبجة الذين كانوا يعيشون في صحراء الضفة الشرقية لنهر النيل في صعيد مصر. في ظل الفاطميين (٩٦٩ - ١١٦٩) تمت مكافأة واحد من مشايخهم ردا لبعض المفاخر وتم إعطائه اللقب الفخري "كنز الدولة " أو "كنز الإسلام"، وأصبح هذا اللقب وراثي في الأسرة و ينطبق أيضا على سكان المنطقة.

وقام الأيوبيون بمطاردتهم (حوالي ١١٧٠) حتى نوباضيا العليا، حيث أصبحوا إمارة إقطاعية تحت إمرة الملك النوبي. ولاحقا، تزاوجوا مع أعضاء العائلة المالكة من دنقلا. في حوالي ١٣١٠-١٣٢٠ م وأحدهم الذي كان ابن عم ملوك النوبة إبراهيم وكودانبيس، ادَّعَى الخلافة على عرش دنقلا ونجح في نهاية المطاف في أن يصبح الملك لفترة من الوقت (حوالي ١٣٢٥م).

وبحلول العام ١٣٦٥، فقدت أسرة "كنز" العرش وأصبحوا عشيرة من اللصوص، وحتى احتل العثمانيون (١٥١٧) الجزء الشمالي من المملكة المنهارة. ويدعى أحفادهم الكنوز ولهجتهم النوبية تعرف بالكنوزي.

البليميون والبجة

في وثيقة ثنائية اللغة من إبريم يطلق عليهم باللغة القبطية "بَلْميون" وبالعربية البجة، وبالتالي هذا التوضيح يزيل أي شك حول هويتهم.

وبما أنَّ البليميين كانوا من البدو المائلين إلى الحرب، فقد قاموا بتهديد مصر في كثير من الأحيان خلال عهد الفراعنة. وفي وقت لاحق، في الفترة الرومانية والبيزنطية، وحاولوا احتلال أجزاء من وادي النيل. وقام "سلكو"، ملك النبتة، بمطاردتهم ولكنهم سَبَّبوا دمارا في الممالك النوبية حتى فترة المسيحية في وقت متأخر.

قصة نابيس – الأسقف الذي يقوم بإرسال الكهنة من كوبتوس (Koptos) [٥٤٠] إلى عيذاب– وبعض القصص

---

[539] Cf. Krzysztof Pluskota, "Early Christian Pottery from Old Dongola", in: Coptic Studies(1990), p. 315-333.

[٥٤٠] ملاحظة المحقق: أي من الأقباط.

الأخرى تشير إلى بعض المحاولات لتبشير بالإنجيل بين البليميين قبل القرنين السادس والسابع. ولكن فشلت المحاولات كلها في تحقيق نجاح دائم. وفي وقت لاحق اعتنق البليميون الإسلام.

في العصور الوسطى انقسم البجة إلى خمس مجموعات رئيسية: هي البشاريون والأمرأر والهدندوة (جميعهم يتحدثون لغة البجة)؛ والبني عامر (الآن في إريتريا، والذين تبنوا لغة تيغري) والعبابدة (في المنطقة عبر الحدود بين مصر والسودان الذين تبنوا اللغة العربية). والمجموعات الثلاث الأخيرة شاركت في بعض الأحيان في تاريخ النوبة المسيحية.

المراجع

المراجع العربية المخطوطة والمطبوعة

ابن الأثير (علي بن احمد بن أبي الكرم)، كتاب الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.

أحمد الأعظم الكوفي، الفتوحات. لا يوجد النص الأصلي. يوجد النص بالفرنسية:
Ed. E.M. Quatremère, Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte, 1-2, Paris 1811.

الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن ١٨٦٦.

الأسواني (ابن سليم الأسواني)، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، ص ٩١-١١٤.

أغابيوس (أغابيوس بن قسطنطين المنبجي)، كتاب العنوان،PO 1 .

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري)، بدائع الزهور في وقائع في الدهور، مطابع الشعب ١٩٦٠.

الباكوي (عبد الرشيد بن صالح بن نور الباكوي)، تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار في:
Paris, Bibl. Nat., MS 2246, fol. 5r.

البغدادي، كتاب الخراج، مخطوطة باريس رقم ٥٩٠٧.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبيد الله)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، بيروت ١٩٦٤.

البلاذري (أحمد بن يحيي بن جابر البغدادي أبو العباس)، فتوح البلدان، في:
Ed. M. De Goeje, El Beladsori, Liber de Expugnatione Regionum, Leiden 1886.

البلوي (أبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي)، سيرة أحمد بن طولون، مكتبة الثقافية الدينية ١٩٩٨.

تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.

الحراني (نجم الدين بن شبيب الحراني)، جميع العلوم وسلوان المحزون، في:
(Gotha, Herzogliche Bibl., MS ar 1513, fol. 31v).

ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل)، كتاب صورة الأرض في:
Ed.: J. H. Kramers, Opus geographicum auctore Ibn Hawqal...Liber imagnis terrae, Leiden 1938-1939.

ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل)،المسالك والممالك (ed. M. De Goeje)، ليدن ١٨٧٣.

ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد)، تاريخ ابن خلدون، م٢، بيروت ١٩٦٠-١٩٦٧.

الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله)، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطرسبرج ١٨٧٧.

سيد حسن محمد خليل، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية، جامعة الخرطوم ١٩٦٩.

أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (تحقيق محمد حلمي أحمد)، ١، ٢، القاهرة ١٩٦٢.

أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صلح الأرمني تذكر فيه أخبار من نواحي مصر وأقطاعها (ed. B.T. Evetts)، أوكسفرد ١٨٩٣.

ضيف الله (محمد النور بن ضيف الله)، كتاب الطبقات، دار التأليف والترجمة والنشر (حققه يوسف فضل الله)، جامعة الخرطوم ١٩٧٤.

الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك (تحقيق فضل إبراهيم)، دار العارف، القاهرة ١٩٧٥.

ابن عبد الحكم (أبو القاسم الرحمن القرشي المصري)، كتاب فتوح مصر والمغرب، القاهرة ٢٠٠١.

ابن عبد الظاهر (عبد الله الكاتب)، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون، مخطوطة باريس ١٧٠٤ (=مخطوطة القاهرة رقم ٢٢٢٦).

العمري (ابن فضل الله العمري)، التعريف للمصطلح الشريف، القاهرة ١٨٨٤.

العمري (ابن فضل الله العمري)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دار الكتاب المصرية، القاهرة ١٩٢٤.

فانتيني جيوفاني، المسيحية في السودان، جامعة أمدرمان الأهلية، أمدرمان ١٩٩٨.

الفحل الفكي الطاهر، تاريخ وأصول العرب بالسودان، الخرطوم ١٩٧٦.

أبو الفداء (إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب) ، المختصر في أخبار البشر، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٨.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)، تاريخ الدول والملوك (تحرير قسطنطين رزيق)، بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢.

ابن أبي الفضائل (المفضل بن أبي الفضائل المصري)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (ed. E. BLOCHET). PO 14

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني)، مختصر كتاب البلدان (ed. M. DE GOEJE)، ليدن ١٨٨٥.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري)، تاريخ بن قتيبة في:

H. F. WÜSTENFELD, Ibn Coteibas Handbuch der Geschichte, Göttingen 1850.

القلقشندي (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٠٦.

كاتب الشونة، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطة السنارية والإدارة المصرية، دار السودانية للكتب، الخرطوم ٢٠٠٩.

الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لبنان ١٩٩٣.

مجهول المؤلف (تحقيق يوسف الهادي)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٩٩٩.

المسعودي (علي بن الحسين بن علي أبو الحسن)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيروت ١٩٧٣.

مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الخرطوم ٢٠١١.

المقدسي (المطهر بن طاهر المقدسي)، كتاب البدء والتاريخ، م٤، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠.

المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفى زيادة) م ١، ج ٢، القاهرة ١٩٣٩.

المقريزي، كتاب المقفى، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، تاريخ رقم ٥٣٧٢.

المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ٣م، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ٢٠٠٢.

ابن المقفع (ساويرس بن المقفع الأشموني)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، بيروت ١٩١٤.

أبو المكارم (أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود)، مخطوط تاريخ "أبو المكارم"، تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن "١٢" بالوجه القبلى، Fol .92a

المكين (جرجس بن العميد المكين)، تاريخ المسلمين في:

Ed. and Latin transl.: THOMAE ERPENII, Historia Saracenica, Leiden 1625, book 3, ch. 5, p.247.

ناصر خسرو (أبو معين ناصر بن خسرو بن حارث القبادياني البلخى)، سفر نامة (ترجمة: يحيى الخشاب)، القاهرة ١٩٤٥.

النويري (شهاب الدين أحمد)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوطة رقم ٥٤٩، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٣.

الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي)، كتاب فتوح مصر والإسكندرية، مصر ١٣٦٨.

يحيي الأنطاكي (يحيي سعيد بن يحيي الأنطاكي)، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، جروس برس، طرابلس ١٩٩٠.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب)، تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٩٦٠.

اليعقوبي، كتاب البلدان (ed. M. DE GOEJE)، ليدن ١٨٩١.

المراجع بلغات غير العربية

ADAMS, W. Y., Meinarti I: The late Meroitic, Ballana and transitional occupation (*SARS Publication* 5), London, British Museum Press, 2000.

ADAMS, W.Y., Meinarti II: the early and classic Christian phases, 2001.

ADAMS, W.Y., Meinarti III: the late and terminal Christian phases, 2002.

ADAMS, W.Y., Meinarti IV and V: the church and the cemetery: the history of Meinarti, 2003.

ADAMS, W. Y., Qasr Ibrim: the Earlier Medieval Period, Egypt Exploration Society (Excavation Memoir 89), London 2010.

ALBERTI AQUENSIS, Historia Hierosolymitana, in: Récueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux., t. IV, Paris 1879.

AMELINEAU, E., Vie d'Isaac Patriarch d'Alexandrie, Paris 1890.

BECKINGHAM, C.F. – HUNTINGFORD, G.W., The prester John of the Indies, 2 vol., The Hakluyt Society, London 1958.

BÖLL, V. - MARTÍNEZ D'ALÒS-MONER, A. – SOKOLINSKAIA, E. (EDS.), Ethiopia and the missions: historical and anthropological insights, Lit Verlag Münster 2005.

CERULLI, E., Etiopi in Palestine, 2 vols, Rome 1943.

CLARKE, S., The Christian Churches and Remains in the Valley of Nile, (ms. 1899).

CLARKE, S., Christian Antiquities in the Nile Valley, Oxford 1912.

CONTI ROSSINI, C., "Sulle missioni dominicane in Etiopie nel secolo XIV", Reale Accedemia d'Italia. Rendiconti della classe di scienze morali e storiche, ser.7, I(1940).

COSMAS INDICOPLEUSTES, Christian Topography, Patrologia Graeca 88 (ed. Migne), Paris 1864.

Eide, T. - Hägg,T. -Pierce, R.H.- Török, L. (edd.), FONTES HISTORIAE NUBIORUM, TEXTUAL SOURCES FOR THE HISTORY OF THE MIDDLE NILE REGION BETWEEN THE EIGHTH CENTURY BC AND THE SIXTH CENTURY AD, VOL. III, FROM THE FIRST TO THE SIXTH CENTURY AD, University of Bergen, Bergen 1998.

EUSEBIUS, Ecceasiastical History (Trad. Cruse)*, III,* Philadelphia 1833.

FADL, Y., The Arabs in the Sudan, Edimburgh 1967.

GIAMBERARDINI, G., Lettere dei Prefetti Apostolici dell'Alto Egitto nel sec. XVIII, Cairo 1960.

GODLEWSKI, W., The Rise of Makuria, Boston 1998.

GRIFFITH, F.LL., The Nubian texts of the Christian period, Akademie der Wissenschaften, Berlin 1913, n.8.

GRZYMSKI, K.- ANDERSON,J., Hambukol Excavations 1986-1990 (Canadian Expedition to Nubia I; SSEA Publication 16), Toronto, Benben Publications, 2001.

JACQUES DE VITRY (ed. Moschus), Historia Orientalis, Douai 1597.

JAKOBIELSKI, S., Faras III. A History of the Bishopric of Pachoras, Editions Scientifiques de Pologne, Warsaw 1972.

مقالات في المجلات والكتب

ADAMS, W.Y., Architectural Evolution of the Nubian Church, 500-1400 AD, JARCE 4(1965), p. 87-139.

ALI HAKEM, A.M.,"Napatan" – "Meroitic" Continuity. Reflections on Basic Conceptions on Meroitic Culture, in: S. DONADONI-S.WENIG, Studia Meroitica 1984, Akademie-Verlag, Berlin 1989, p. 885-894.

ARKELL, A.J., A Christian Church and Monastery at Ain Farah, Darfur, Kush 7(1979), p. 115-119.

BELL, H., An extinct Nubian language in Kordofan, SNR 54(1973), p. 73-80.

BURCHARDUS DE MONTE SION, Descriptio Terrae Sanctae, in J.C.M. Laurent (ed.), Peregrinatores Medii Aevi Quatour, Leipzig 1864.

CHITTICK, N. B., The last Christian stronghold in the Sudan, Kush 11(1963), p. 264-272.

DINKLER, E., West-German Excavations on the Islands Sunnarti, Turmuki and Tangur in 1967-1968, Nubian Letters 4(1985), p. 2-14.

DONADONI, S., Les fouilles de l'église de Sonqi Tino, in: Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit, 201(1977), p. 209-218.

GRIFFITH, J. G., The use of plates and saucers to decorate houses in Lower Nubia, SNR, 21(1938), p. 217-220.

GRIFFITH, F.L., Oxford Excavations, LAAA 13(1926), p. 50-93; 14(1927), p. 57-116; and 15(1928), p. 63-82.

GRZYMSKI, K., Excavations at Hambukol (Upper Nubia): 1987 and 1988 Seasons, JARCE:139-163.

GRZYMSKI, K.-ANDERSON, J., Three Excavation Seasons at Hamboukol (Dongola Reach): 1989, 1990 and 1991-92, ANM 6(1994), p. 93-105.

GRZYMSKI, K., Canadian Expedition to Nubia: the 1994 Season at Hambukol and in the Letti Basin, Kush 17(1997), p. 236-243.

HAGG, T., Magic Bowls Inscribed with an Apostles-and- Disciples Catalogue from the Christian Settlement of Hambukol (Upper Nubia), Orientalia 62(1993), p. 376–399.

HILLELSON, S., Nubian Origins, SNR 13(1930), p. 137-138.

HILLELSON, S., David Reubeni. An early visitor to Sennar, SNR 16(1933), p. 56-66.

HINTZE, FRITZ, Gedenkvortrag, in FHN, vol. III, University of Bergen, 1998.

JAKOBIELSKI, S., Old Dongola 1991-1992, PAM IV,Warsaw 1993, p. 98-110.

JAKOBIELSKI,S.-MEDEKSZA, S., The North-West Church at Old Dongola, in: W.Godlewski (ed.), Coptic Studies. Acts of the Third International Congress of Coptic Studies, Warsaw 1990, p. 165-174.

JAMES OF VERONA (ed. Röhricht), Liber peregrinationis fratris Jacobi da Verona, Revue de l'Orient Latin 3(1895), p. 155-303.

JEUTÉ, P., Monasteries in Nubia - An Open Issue, Nubica 3/1(1994), p. 59-97.

JOANNES OF HILDESHEIM, Three Kings of Cologne: an early English translation of the "Historia Trium Regum" (ed. C. Horstmann), New York 1988.

JOHN OF EFESUS (ed. R. Payne-Smith), Ecclesiastical History, Book IV, Oxford 1860.

KAMAL, Y., Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, Cairo and Leiden 1926-1938.

KRAUS, J., Die Anfänge des Christentums in Nubien, Wien 1931.

KRUMP, T., Hoher und Fruchtbahrer Palm-Baum, Augsburg 1710.

LANE-POOLE, S., A History of Egypt, London 1914.

MICHALOWSKI, K., Faras, Centre Artistique de la Nubie Chrétienne, Leiden 1966.

MICHEL LE SYRIEN (Jean-Baptiste Chabot, ed.), Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite d'Antiche (1166-1199), Paris 1899-1905.

MILEHAM, G. S., Churches in Lower Nubia, Philadelphia 1910

MOMMSEN, TH. (ed), Monumenta Germaniae Historica Auctores Antiquissimi, t.XI, Johannes Abbas Biclarensis Chronicon, Berlin 1898.

MONNERET DE VILLARD, La Nubia Mediavale, vol. I, Cairo 1935.

MONNERET DE VILLARD, Le Leggende Oriental sui Magi Evangilici, Città del Vaticano 1952.

MUNRO-HAY, S.C., Kings and Kingdoms of Ancient Nubia, Univerisity of Khartoum, Dept. of History (mimeograph).

NICCOLO DA POGGIBONSI (ed. Bagatti), Libro d'Oltramare, Tipografia dei Francescani, Jerusalem 1945.

PHILIPPE DE MEZIERES, Le songe du vieil pelerin, Cambridge University Press 1969.

PLUMLEY, J.M. (ed.), Nubian studies (proceedings of the Symposium for Nubian Studies), Selwyn College, Cambridge 1978.

PRESEDO VELO, F., El poblado cristiano de la Isla de Abkanarti en la Segunda Catarata del Nilo (Sudán), Memorias de la Misión Arqueológica Española en Nubia, VII, Comité Español de la Unesco para Nubia, 1965.

SELDEN, J. (ed.), Contextio Gemmarum, vol. 2, Oxford 1859.

SETTON, K. M. (ED.), A history of the Crusades: The Impact of the Crusades on the Near East, The University of Wisconsin 1985.

SEVERUS OF ANTIOCH, Letters, in: Patrologia Orientalis vol. 14, Paris 1920.

SHINNIE, M-SHINNIE, P.L., Debeira West: A Medieval Nubian Town. University of Ghana Expedition to Nubia, Warminster, Aris & Phillips, London 1978.

SYMON SEMEONIS (ed. M. Esposito), Itinerarium Symonis Semeonis ab Hybernia ad Terran Sanctam, Dublin Institute for Advanced Studies, Dublin 1960.

VANTINI, G., The excavations at Faras, Bologna 1970.

WELSBY, D. A., The Medieval Kingdoms of Nubia. Pagans, Christians and Muslims along th Middle Nile, The British Museum Press, London 2002.

JOTISCHKY, A., The Mendicants as Missionaries and Travellers in the Near East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries, in: Rosamund Allen(ed.), Eastward bound: travels and travellers, 1050-1550, Manchester University Press 2004, p. 88-106.

JUNKER, H., Die christilichen Grabsteine Nubiens, ZAS 60(1925), p. 111-118.

KIRWAN, L.P., Comments on the Origins and History of the Nobatae of Procopius, Kush 6(1956), p. 69-73.

KIRWAN, L.P., Contemporary Account of the conversion of the Sudan to Christianity, SNR 20(1937), 2, p. 289-295.

KIRWAN, L.P., The Oxford Excavations in Nubia1934-1935, JEA 21(1935), p. 191-198.

KRAUSE, M., Bischof Johannes III von Faras und seine beide Nachfolger, Etudes Nubiennes, Cairo 1978, p. 153-164.

ŁAJTAR, A., Banganarti 2004 Inscriptions, in: Polish Archaeology in the Mediterranean, 16(2004), p. 309-313.

ŁAJTAR, A., Inscriptions from Banganarti, season 2003, in: Polish Archaeology in the Mediterranean 15(2003), p. 253–60.

ŁAJTAR, A., Late Christian Nubia through visitors' inscriptions from the Upper Church at Banganarti, in: W. GODLEWSKI – A. ŁAJTAR (eds.), Between the Cataracts. Proceedings of the 11th Conference for Nubian Studies, Warsaw University, 27 August–2 September 2006, I [= Polish Archaeology in the Mediterranean Supplement Series 2.1], Warsaw, p. 321–331.

ŁAJTAR, ADAM, The Greek of late Christian inscriptions from Nubia – the evidence from Banganarti and other sites, in: W. GODLEWSKI – A. ŁAJTAR (eds.), Between the Cataracts. Proceedings of the 11th Conference of Nubian Studies, Warsaw University, 27 August – 2 September 2006, II.2: Session Papers [= Polish Archaeology in the Mediterranean Supplement Series 2.2/2], Warsaw, p. 759–763.

LUDOLF VON SACHSEN, Ludolphus de Sudheim, De Itinere Terre Sancte, in : Archives de l'Orient latin, vol. 2, Paris 1884, p. 305-377.

MACMICHAEL, H.A., A season Festival at Jebel Meidob, SNR 2(1919), p. 91-f.

MARTENS-CZARNECKA, M., "Mural Paintings from Old Dongola", GAMAR 1(1998), p. 108-111.

MARTENS-CZARNESKA, M. , Wall Paintings discovered in Old Dongola, in: S. JAKOBIELSKI-P.O. SCHOLZ (eds), 35 Jahre der polnischen Forschungen in Zentrum des makuritischen Reiches, Bibliotheca nubica et athiopica (=Dongola-Studien) 7(2001), Warsaw, p. 253-319.

MUNRO-HAY, S.C., Kings and Kingdoms of Ancient Nubia, Rassegna di Studi Etiopici, 29(1982-83), p. 87-137.

PENN, A.E.D., Traditional Stories of the Abdullab tribe, SNR 17(1934), 1, p. 59-92.

PLUMLEY, J.M., New light on the kingdom of Dotawo, in: Etudes Nubiennes (Colloque Chantilly), Cairo 1978, p. 231-234.

PLUMLEY, J.M., Qasr Ibrim 1974, JEA 61(1975), p. 5-27.

PLUSKOTA, K., Early Christian Pottery from Old Dongola, in: Coptic Studies. Acts of the Third International Congress (Warsaw 1984), Warsaw 1990, p. 315-333.

RACHEWILTZ, B., Missione archeologico-etnologica tra i Bega (31 marzo-19 giugno 1967), Africa 23(1968), 1, p. 3-18.

SANDERS, G. E. R.-OWEN, T. R. H., Note on Ancient Villages in Khor Nubt and Khor Omek, SNR 32(1951), p. 326-331.

TROUPEAU, G., La déscription de la Nubie d'Al-Uswani, Arabica 1(1954), p. 276-288.

TSAKOS, A., Terracotta funerary stelae from Christian Nubia, in: Between the Cataracts: Proceedings of the 11th International Conference for Nubian Studies, Warsaw University, 27 August-2 September 2006, Part Two: Session Papers, p. 683-694.

VANTINI, G., Sur l'eventualité de rapports entre le Concile de Lyon (1274) et la Nubie, Etudes Nubiennes, Colloque de Chantilly 1978, p. 337-345.

VON DEN BRINKEN, A.D., Die Nationes Christianorum Orientalium in Verständnis der Lateinischen Historiographie, Köln 1973, p. 243-262.

WELSBY, D.A., Excavations at Soba East 1991-92, Kush 16 (1993), p. 54-73.

ZURAWSKI, B., Banganarti. Sudan Dongola Reach Survey 2003, Polish Archaeology in the Mediterranean 15(2003), Polish Centre of Mediterranean Archaelogy, Warsaw 2004, p. 231-243.

B. ŻURAWSKI, Fourth Cataract: Survey and Excavations in Shemkiya, Dar el-Arab and Saffi Island, PAM 17(2005), p. 323-335.

بعض المقالات للأب فانتيني
وكُتُبه بالترتيب الزمني

1. "Il nuovo museo archeologico del Sudan", Levante 16(1969), p. 24-30.
2. The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Museum Conbonianum 24), Editrice Nigrizia, Bologna 1970.
3. "Le roi Kirki de Nubie à Baghdad: un ou deux voyages?", in: Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit, p. 41-48.
4. "Il nuovo Museo Nazionale del Sudan. La più grande galleria di pittura paleocristiana", Levante 19 (1972), p. 11-25.
5. Oriental Sources Concerning Nubia, Heidelberg-Warsaw 1975.

٦. تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة، الخرطوم ١٩٧٨.

7. "Les Nouba d'après les géographes arabes des trois premiers siècles de l'Hégire", CRIPEL 5(1979), p. 191-210.
8. Christianity in the Sudan, Bologna, 1981.
9. "Greek and Arab Geographers on Nubia ca. 500 B.C. -1500 A.D.", Graeco Arabica 3(1984), p. 21-50.
10. Cristianesimo nella Nubia antica (Museo Cambonianum 39), Collegio delle Missioni Africane, Verona 1985.
11. "Remarks on the Shepherds of the Faras Nativity", in M. Krause (ed.), Nubische Studien. Tagungsakten der 5. Internationalen Konferenz derInternational Society for Nubian Studies. Heidelberg, 22-25. September 1982, Mainz am Rhein, Verlag Philipp von Zabern, 1986, p. 399-402.
12. "The Fars "Golgotha" and the Apocrypha", Nubica 1/2(1990), p. 653-659.
13. "The Faras Mural of the Three Youths in the Fiery Furnace - Some Observations", in: Ch. BONNET (ed.), Études nubiennes. Conférence de Genève. Actes du VIIe Congrès international d'études nubiennes, 3-8 septembre 1990.Vol. II, Chêne-Bourg, Médecine & Hygiène, 1992-1994, p. 255-257.

١٤. المسيحية في السودان، أم درمان ١٩٩٨.

15. "The Remotest Places Reached by Nubian Christianity in the Sudan", in: Nubica 4/5 (1999), p. 347-350.
16. "Rileggendo il passo di Plinio sulla spedizione di Nerone nel Sudan", in: Nubica 4/5 (1999), p. 351-354.
17. "La conoscenza del Nilo nei classici greci e romani", in: Nubica 4/5 (1999), p. 337-346.
18. "Gli Scavi nel diff di Sonqi Tino (Nubia Sudanese)", RAR 40 (1967), p. 247-273.
19. "On the last days of Soba (or Osservazioni sui magi del dipinto di Faras)", Presented to the Tenth International Conference on Nubian Studies, Roma 2002.
20. Rediscovering Christian Nubia, Nigrizia, Verona 2009.

سلسلة كمبوني التربوية

تصدرها كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا.
E-mail: combonieducationseries@hotmail.com

كتب صدرت:

١. Concise Dictionary: Sudanese Arabic-English & English-Sudanese Arabic

٢. إعادة اكتشاف تاريخ النوبة\ جيوفاني فانتيني

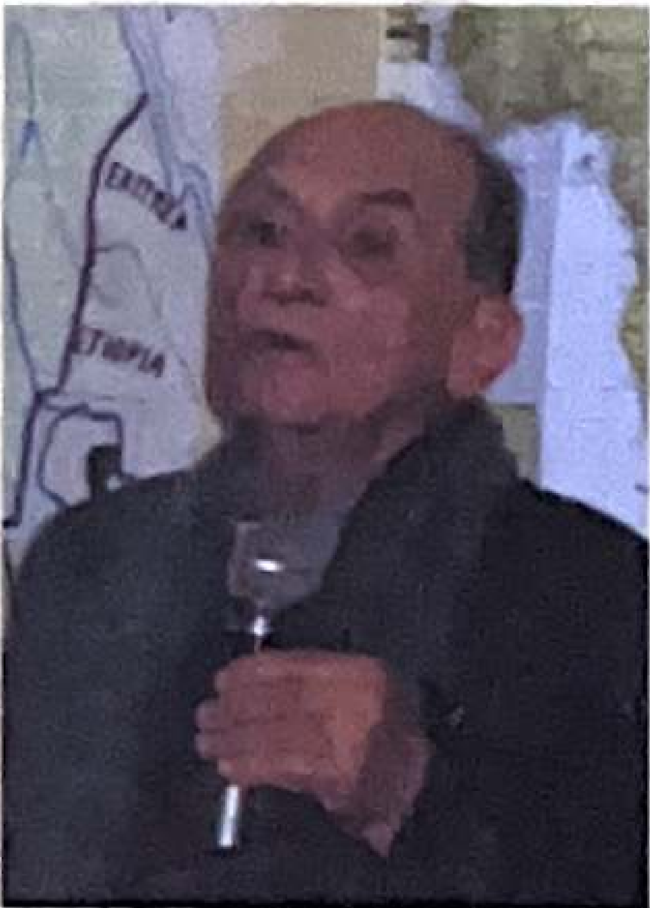
New Life Printing Press
مطبعة الحياة الجديدة
م : Mob : +249 912133224
ت: Tel : +249 185 332443
www.newlifesudan.com

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٣٠

المؤلف

ولد الأب جيوفاني فانتيني في مدينة فيرونا (إيطاليا) سنة ١٩٢٣م. بعد إكماله لدراسات الفلسفة واللاهوت، رسم كاهنا لجمعية كمبوني سنة ١٩٤٧م وتم ابتعاثه إلى لبنان لدراسة اللغة العربية.

وصل إلى السودان في عام ١٩٤٩م وبدأ بحوثه في تاريخ النوبة عام ١٩٥٩ بوادي حلفا قبل أن تغمر مياه سد ناصر الكثير من آثار الحضارة النوبية بالمنطقة. ونال درجة الدكتوراة في اللغات والحضارات الشرقية سنة ١٩٦٧م من معهد الدراسات الشرقية بمدينة نابولي وانضم بعدها إلى بعثة جامعة روما (الحكمة) للتنقيبات الأثرية بمنطقة فرص في الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠م. في عام ١٩٧٦ قام بإصدار مؤلفه المعروف حول الوثائق الشرقية الخاصة بتاريخ النوبة: (Oriental Sources concerning Nubia) الذي أصبح مرجعا أساسيا للبحث في تاريخ النوبة القديمة وذلك لاشتماله على النصوص القديمة التي كتبها أشهر المؤرخين الشرقيين عن النوبة في العصور الوسطى.



وقام أيضا بإصدار كتابه "المسيحية في النوبة القديمة" الذي يلخص نتائج اكتشافاته، والذي اعتبره بروفسور أوفاهي (O'Fahey): "أفضل وأحدث كتاب عن النوبة المسيحية." أما الأستاذ عبد المحمود أبو شامة فيعتبر الأب فانتيني "أكبر سلطة علمية في تاريخ المسيحية النوبية لكل المناهج الكنسية بالسودان."

ردمك : 978-99942-955-1-7